

العدد التالي من المجلة

العدد الثاني - المجلد التاسع

يوليو - أغسطس - سبتمبر

قسم خاص عن

الاتجاهات الحديثة في النقد الأدبي

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

الخليج العربي	٥	سوريا	٣
البحرين	٥	المتاهرة	٢٥٠
اليمن الجنوبية	٤٠٠	السودان	٢٥٠
اليمن الشمالية	٤٠٠	ليبيا	٣٥
العراق	٤٥	مسقط	٤٠٠
لبنان	٣٠٠	الجزائر	٥
الأردن	٢٠٥	تونس	٥٠٠
	٢٥٠	المغرب	٥

الاشتراكات :

للإشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت

عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري المدواي
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت * يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٧٨
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الإعلام - الكويت : ص.ب ١٩٣

المحتويات

النقد الأدبي

٢ بقلم التحرير	التمهيد
١١ الدكتور محمد زكي العشماوي	الشكل والمضمون في النقد الأدبي الحديث
٢٧ الدكتور عبد العزيز الدسوقي	نحو علم جمال عربي « تصور تطبيقي »
٤٩ الأستاذ عبد العزيز محمد الزكي	يحيى حتى . . . بين المصرية والتركية
١٠٧ الدكتورة نور شريف	النقد الروائي الانجليزي في دور التكوين

آفاق المعرفة

١٣٥ الدكتور مصطفى كمال محمد	تكنولوجيا العصر والمجال الطبي للعالم العربي سنة ٢٠٠٠
١٦٢	الدفاعية بين التنظير والنمذجة دراسة تحليلية مقارنة الدكتور طلعت منصور

أدباء وفنانون

٢٠٧ الدكتور محمد سلامة موسى	ابن شرف القيرواني
		وآرائه النقدية في رسالته « اعلام الكلام »

عرض الكتب

٢٥٥ عرض وتعليق الدكتور مصطفى ناجي	مقدمة للسكان
٢٦٩ عرض وتعليق الأستاذ عبد الله عبد الفني غانم	مهاجرون سود ومواطنون بيض

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

الاتجاهات الحديثة في النقد الادبي

تمهيد

ربما كان سقراط هو اول من فرق بين تأليف الادب ونقد الادب وميز بينهما ، وذلك حين ذهب الى انه قلما كان يجد من بين الشعراء من يستطيع ان يشرح ما كان يعنيه بشعره . وكأنما كان سقراط يود ان يقول في هذه العبارة انه لم يكن ثمة من بين الشعراء من يستطيع ان ينقد شعره . وقد ادى ذلك بالاستاذ لاسيل ابركرومبي ، وهو يستعرض رأى سقراط في مقاله الرائع عن قواعد النقد الادبي الذي نقله الى العربية منذ سنوات طويلة المرحوم الدكتور محمد عوض محمد الى ان يميز بين ثلاثة انواع من المقدرات هي : **المقدرة على تفوق الادب ، والمقدرة على تحليل الادب تحليلًا منطقيًا ، ثم المقدرة على نقد الادب** ، وحاول ابركرومبي ان يرد هذا التمييز بين المقدرات الثلاثة الى وجود ثلاث ملكات مختلفة هي ملكة الانشاء او الانتاج الادبي ، وملكة التدقيق ثم ملكة النقد . وهذه الملكة الثالثة يمكن ان تكتسب وان تنمي بالدرس والممارسة والمران ، وان كان هذا لا يمنع من ان النقد قد يكون غريزيًا في كثير من الاحيان ، وان يصدر على ما سنرى من القارئ بطريقة تلقائية دون ان يعد لممارسة هذا العمل اعدادًا متعمداً مقصوداً .

ومهما يكن من امر ، فالمهم هو ان « الناقد مادة يكون مدركا » للخطبة التي يتبعها في نقده ، وان هذه الخطبة تعتمد على قواعد منطقية خاصة قابلة لان ترتب بحيث يتألف منها نظام خاص . ومن الممكن دراستها وتطبيقها في دقة وعناية « ، بينما ليس هناك في رايه « قواعد ترشدنا الى كيفية ابتكار الادب ولا الى كيفية الاستمتاع به » . بل الاكثر من ذلك ان النقد الادبي يعجز تماما عن « ايجاد هاتين الملكتين عند الناس اذا لم يكن لهما وجود من قبل . فهو يفترض اذن وجودهما افتراضا » (انظر كتاب **قواعد النقد الادبي** - دار التأليف والنشر والترجمة - القاهرة - صفحات ٤ ، ٥)

ولكن على الرغم من اختلاف القدرة على النقد الادبي اختلافا تاما عن المقدرة على ابتكاره والمقدرة على تدوقه فليس ثمة ما يمنع بطبيعة الحال من امكان اجتماع القدرات الثلاث في شخص واحد ، بحيث يكون الاديب قارئا للادب وناقدا في الوقت ذاته . وعلى اى حال فان النقد يبدأ بمجرد ان يأخذ قارئ الادب نفسه بالتزام « قواعد عقلية » يطبقها اثناء قراءته ويستعين بها في تدقيق الادب مع تقدير ما يقرأ بحيث يصبح الاستمتاع بالقراءة « مبنيا على اساس من الفهم وحسن التخيير » وبذلك يكون النقد عبارة عن « اسئلة معقولة يسألها المرء عن كل شيء يتعلق بالادب ثم الاجابه عنها كذلك اجابه عقلية » (ص ٧) سواء كانت هذه الاسئلة والاجوبة متعلقة بنظرية الادب ذاتها ، او بما يسمونه « بالنقد الاساسي » والنقد الخاص لاعمال اديبة معينة ومحددة بالذات ومع التسليم بهذا كله فليس ثمة ما يمنع من ان يكون النقد الادبي على ما ذكرنا من قبل « عملا شخصيا كالتأليف الادبي سواء بسواء ، ويكون كالادب وليد النبوغ العبقري » بحيث يصدر عن مواهب معينة قد لا تستند الى اى قواعد واسخة طلبية او مدروسة ، بل وقد تنفر من مثل هذه القواعد الجامدة فلا تلتزم بها ، وبذلك لا يتمسك الناقد بنظرية محددة او بمبدأ معين بالذات يلتزم به طول الوقت ويحاول تطبيقه على كل ما يقرأ . وهذا هو ما يسميه ابركورمبى **بنقد الالهام** الذي يصدر عن الخصائص والمميزات والقدرات الذاتية للناقد ، وان كان هذا النوع من النقد لا يعتبر في راي الكثيرين ، وبخاصة من المهتمين بنظرية النقد الادبي ومدارسه اهم انواع النقد ، لان الذي يهم في ذلك هو مدى ما يضيفه النقد والناقد الى قواعد النقد وطرائقه واسهامها في شرح تلك القواعد والطرائق وتفسيرها والعمل على اثرائها وتقديمها . فمثل هذه الجهود هي التي ادت وتؤدي الى ظهور الاتجاهات المختلفة ، وتنوع المدارس والمذاهب في النقد الادبي . وسوف يجد القارئ عرضا لبعض هذه الاتجاهات والمذاهب في هذا العدد .

والواقع أنه ليس هناك أسلوب أو منهج واحد « صحيح » لمعالجة مشكلات الأدب ، كما أنه لا يوجد مدخل واحد يمكن اعتباره محكاً ومقياساً لتقييم كل أنواع الأدب وكل الكتابات الأدبية على اختلافها . ذلك لأن الأعمال الأدبية كثيرة ومتنوعة إلى أبعد حدود الكثرة والتنوع ، وتغطي حقبة طويلة جداً من تاريخ الإنسان والحضارة . ومع الاعتراف بالدور الذي تقوم به الدراسات النقدية ، وكذلك نظرية الأدب في توضيح ماهية الأدب ومساعدة القارئ على فهم طبيعته وعلى الوصول إلى درجة أكبر من الاستمتاع والتذوق من قراءته للأعمال الأدبية ، فإن من الخطأ الزعم بأن التذوق والاستمتاع وتقدير هذه الأعمال لن تنجح للقارئ إلا عن طريق الإلمام بنظرية الأدب أو الدراسات النقدية فيه . وكما يقول ديفيد ديشيس David Daiches أنه من السخف أن نزع أن اليونانيين القدماء لم يستطيعوا الاستمتاع بأعمال سوفوكليس وتذوقها وتقديرها حق قدرها قبل أن يجيء أرسطو ويكتب كتابه الشهير عن الشعر Poetica ، أو أن نزع أنه كان يتعين على رواد المسرح في بريطانيا أن ينتظروا مجيء برادلي A. C. Bradley أو الأستاذ هيلمان Heilman حتى يمكنهم الاستمتاع بمسرحية « الملك لير » . ذلك أن التذوق والتقدير يمكن أن يكونا مستقلين تمام الاستقلال عن نظرية النقد ، ولو أن الاستعانة بهذه النظرية قد تساعد على توضيح معنى العمل الأدبي وبالتالي تساعد على الاستمتاع به ، والغوص إلى أعماقه . وهذا معناه أن النقد الأدبي لا يمكن أن يكون غاية في ذاته ، أو أنه حسب تعبير T. S. Eliot ليس غاية ذاتية autotelic وإنما هو بالأحرى وسيلة للوصول إلى فهم أعمق للعمل الأدبي وإلى تحقيق درجة أكبر من التذوق والاستمتاع . ويحقق النقد وظيفته بتحقيق ذلك الهدف .

والذي لا شك فيه هو أن الفن أكبر بكثير من شراحه على ما يقول Daiches أيضاً ، وأنه ليس هناك من بين النقاد من يمكنه أن يزعم أنه استطاع أن يحدد قيمة الفن الأدبي ومعناه بكل ما تحتوي عليه من معنى . فنظريات النقد نظريات جزئية ومتحيزة وذاتية وقابلة للمناقشة والاختبار ، وإن كان هذا لا يعني أنه لا توجد مقاييس أو معايير للقيمة ، أو أنها تعتمد فقط على الذوق الخاص أو الانطباعات العامة الباهتة . وكل ما يعنيه ذلك هو أنه لا يوجد حكم نقدي لأي عمل أدبي يمكن أن يكون حكماً كاملاً مطلقاً وصحيحاً أو مقبولاً من الجميع . ومع أنه يمكن من الناحية النظرية البحث - وضع بعض المبادئ العامة القوية فالواقع أن الأحكام التي تصدر من الناقد عن أي عمل أدبي هي بالضرورة أحكام تقريبية ، وأنه على الرغم من كل ما يبذله الناقد من جهود للكشف عن طبيعة العمل الأدبي وما هيته فلن يستطيع في الأغلب أن يحيط بكل جوانبه وأعماقه . فالعمل الأدبي مجموعة متشابكة ومعقدة من الأفكار والآراء والأحاسيس والمواقف والتجارب التي خضع لها الكاتب أو الشاعر ، ومن الصعب ، أن لم يكن من المستحيل ، أن يصل إلى كل جزئيات

تلك التجربة، وأن يتعرف في دقة وعمق على كل جوانبها. ودقائقها . ومن هنا كان النقد الأدبي أقرب في طبيعته إلى الفن منه إلى العلم ، ومن هنا أيضا كان الناقد الذي يحرص على إخضاع الأعمال الأدبية لعدد من المبادئ الجامدة المطلقة ويعمل على تطبيق هذه المبادئ بطريقة منهجية دقيقة وصارمة عرضة لكثير من المخاطر ، كما يشوب عمله كثير من أوجه العيب والنقص .

ومع أن بعض النقاد المحترفين قد يميلون إلى وضع قواعد ومناهج ومبادئ محددة لكي يسترشد بها المبتدئون في فهمهم لاصول فن النقد الأدبي وللإستعانة بها في خطواتهم الأولى فكثيرا ما تنقلب الأوضاع وتخرج هذه القواعد والمناهج عن الأهداف التي وضعت من أجلها ، بحيث تصبح دراسة النقد الأدبي في آخر الأمر مجرد دراسة للأسلوب الذي يتبعه الكاتب والمباراة التي يستخدمها وما إلى ذلك وبدلا من أن يكون دراسة لطريقة الكاتب في عرض تجربته بوضوح وعمق ، وأداة لمساعدة القارئ على فهم تلك التجربة وإدراك أعماقها وجوانبها المختلفة

ومن هنا كان لا بد من أن نفهم وظيفة الأدب أو على الأقل الغرض منه ، ولقد اختلفت الآراء في ذلك اختلافا كبيرا . ولكن الظاهر أن من أهم هذه النظريات التي يعتنقها لفيف كبير من المشتغلين بالنقد الأدبي والتي نجد لها صدى عند كثير من علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع المهتمين بدراسة الأدب وتحليله وعلاقته بالمجتمع ، الاتجاه الذي يذهب إلى أن الغرض الحقيقي من الأدب هو « التعبير » « والتوصيل » فالأدب نوع من التعبير من تجارب المؤلف وحياته وأحاسيسه وانفعالاته وما يدور في نفسه وعقله من مشاعر وأفكار ، كما أنه في الوقت ذاته وسيلة لتأدية هذه التجارب والانفعالات والأفكار إلى الآخرين بنفس القوة التي يشعر بها الكاتب الذي يمر بتلك التجربة . والاختفاق أو الفشل في ذلك يعني الاختفاق والفشل في إنتاج أدب يستحق أن يطلق عليه هذا الاسم .

هذه الوظيفة المزدوجة للأدب ؛ أعني التعبير والتوصيل ، تكشف لنا عن الجانبين الأساسيين اللذين يجب توفرهما في أي عمل أدبي ، وهما الجانب الذاتي . للأدب . والجانب الموضوعي وتوكيد أحد هذين الجانبين أو الآخر ، والاهتمام به وإبرازه هو الذي أدى إلى ظهور مذهب الرومانتوزم من ناحية ، والمذهب الواقعي من الناحية الأخرى ، والجمع بين هاتين الناحيتين (اللبالية والموضوعية) هو الذي يتمثل في لميتيار الأدب . نوعا من توصيل أو نقل التجربة الحية العميقة التي يمر بها المؤلف التي يعبر عنها في كتاباته ، وليست العبارة اللفظية في آخر الأمر سوى « أداة » ووسيلة لتحقيق هذه العملية .

وعلى هذا الاساس فانه يمكن القول مع أبركرومبي - مرة اخرى - ان الادب يفترض وجود اطراف ثلاثة هم المؤلف والقارئ ثم العبارة اللفظية - او الكلام - الذي يكون بمثابة الوسيط بين هذين الطرفين . وليس المقصود بالتوصيل هو توصيل (المعلومات) كما هو الشأن في الكتب العلمية، فنحن لا نحكم على الكتابة الفنية او العمل الادبي بمدى صحة ما قد يكون به من (معلومات) ، وانما الذي نأخذه في الاعتبار والذي تصدر عنه احكامنا هو مدى صدق ذلك العمل الادبي في التعبير عن التجربة التي يمر بها الكاتب بكل اعماقها وقوتها ، وقدرة ذلك العمل الادبي على نقل هذه التجربة الذاتية بكل جوانبها وتنوعها واصالتها .

فالناقد اذن ينظر الى التعبير على ان له قيمة ذاتية خاصة به بصرف النظر عن الاحكام التي قد يتضمنها ، وذلك على الرغم من كسل ما يقال عن الادب التطبيقي الذي قد يهدف الى الاقناع ، والى قبول قضية او رأى او حكم .

فالفرض اذن من الادب الصرف « هو ان يؤدي عمق الاحساس دون ان يكون له غرض اخر غير مجرد وجوده ، كما ان الحكم عليه بالقوة او الضعف اما يكون بالنظر الى قدرة الكاتب على توصيل تلك التجربة والتعبير عنها » .

وما دام العمل الادبي تعبيراً عن تجربة معينة مر بها الكاتب فان النظرة الى ذلك العمل وتقديره وتقييمه يجب الا تكون مجرد نظرة جمالية خالصة وانما لا بد من ان تأخذ في الاعتبار المناخ العقلي والثقافي والحضاري الذي تم انتاجه فيه ، ومحاولة التعرف على العوامل السيكولوجية والظروف الاجتماعية التي خضع لها الكاتب . فهذه كلها امور من شأنها ان تزيد قدرة القارئ على فهم ما يقرأ والاستمتاع به وتقديره ، وعلى الفوس الى اعماق التجربة الانسانية التي يعكسها الكاتب على ما يقول ديشيس .

فكان الادب على ما يذهب اليه انصار هذا المذهب ، ومعهم المهتمون بالدراسات الادبية من علماء الاجتماع والانثربولوجيا - هو عمل اجتماعي ثقافي الى جانب كونه انتاجاً فنياً او جمالياً . ومن الطريف ان نذكر هنا ان الكثيرين من علماء الاجتماع والانثربولوجيا الذين تعرضوا لهذه المسألة ينظرون الى الكاتب او الاديب على انه انسان يمارس حرفة او مهنة معينة . والى العمل الادبي على انه وسيلة للاتصال ، اي سلعة ثقافية ، والى القارئ على انه مستهلك لتلك السلعة الثقافية بشكل او بآخر .

والمعروف انه منذ عام حاول شوكنج L. L. Schü King على ما يقول سكاربيت Robert Scarpit في مقاله عن « الادب » في الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية - ان يضع نظرية من علم الاجتماع الادبي او سوسيو لوجيا التدوق الادبي . ومع ان هذه المحاولة صادفت كثيرا من الصعوبات ، على الاقل في بداية الامر ، فانها اثارت الاهتمام بالموضوع لدى عدد من المفكرين الاجتماعيين الذين اهتموا بالتعرف على العوامل الاجتماعية التي تؤثر في العمل الادبي ومدى تعبير الادب عن الواقع الاجتماعى وانعكاس البيئة الاجتماعية للكاتب في كتاباته ، واثار البناء الاجتماعى عموما في الانتاج الادبي . ثم بدأت بعض المدارس التي تائرت بكتابات الفيلسوف المجري **جورجي لوكاش** Gyorgy Lukás تنظر الى المجتمع على انه هو الحقيقة الواقعية التي تختفي وراء مظاهر الادب ، وان كان ذلك لا يتنافى في الوقت ذاته مع اعتباره الادب غاية في ذاتها . وقد بلغ الامر ببعضهم الى حد اغفال دور القارئ في عملية الاتصال الادبي ، بل ان منهم من انكر ان يكون الادب عملية اتصال بالمرّة ، وبذلك انكروا وجود ما يمكن تسميته بالاتصال الادبي .

وهذا موقف متطرف يتعارض تماما مع موقف كاتب مفكر مثل **جان بول سارتر** Jean-Paul Sartre الذي يرى في كتابه « ما هو الادب » الذي صدر عام ١٩٤٨ ان العمل الادبي السلي هو نتاج مكتوب للفكر لن يكون له وجود واقعي الا حين يقرأ بالفعل ، لان الكتابة تغير القراءة هي مجرد لغو ، كما ان الكتاب الذي لا يجد من يقرؤه لن يكون اكثر من مجموعة من الاوراق الملوثة بالحبر . وعلى هذا الاساس فانه لا يمكن اعتبار الظاهرة الادبية مجرد حصيلة للفن نفسه ، وانما هي لقاء او تقابل ، بل واحيانا صدام بين 'فعلين صادقين من الحرية ، الاول فعل انتاج والاخر فعل استهلاك ، بكل ما يقتضيه هذان الفعلان من نتائج وآثار على العلاقات الاجتماعية والاخلاقية . وعلى اية حال فلا بد من ان يكون هناك دائما « رجل اخر » في الادب : كاتب بالنسبة لقارئ وقارئ بالنسبة لكاتب .



وهذا كله معناه ان من الخطورة الى حد كبير اخضاع النتاج العقلي المكتوب للمحركات الجمالية وحدها او اغفال غيرها من المحركات الثقافية والاجتماعية والاخلاقية ، خاصة وان اداة الادب هي اللغة والكتابة ، وهما اداتان اجتماعيتان .

وليس من شك في ان الكاتب يأخذ في اعتباره في معظم الاحوال الافكار والاحكام والقيم التي تسود في مجتمعه ، فضلا عن الاحكام التي يصدرها القراء انفسهم على ما يكتب . فالتفاعل بين الكاتب

والقارئ قائم وقوى ويعمل في اتجاهين متكاملين، بحيث يلعب الكاتب دورا إيجابيا يتمثل فيما يحاول توصيله من « رسائل » أو تجارب إنسانية إلى جمهوره قرائه الذين تصدر عنهم « استجابات » لهذه « الرسائل » تتمثل في الأحكام التي يصدرونها على ما يكتب والتي تنعكس بدورها على كتاباته الأخرى وهكذا .

ولقد كان من الطبيعي إزاء ذلك أن يشغل دارسو الأدب أنفسهم بوضع الحدود واقامة التمييزات بين « التاريخ الأدبي » و « النقد الأدبي » .

فالتاريخ الأدبي على ما يقول الأستاذ بيتشون Bateson يهتم بتبيين أن استمد من ب ، بينما النقد الأدبي يحاول البرهنة على أن أفضل من ب . . . التاريخ الأدبي يعالج حقائق مؤكدة ، أو يمكن البرهنة عليها ، أما النقد الأدبي فيتناول أمورا تتصل بالاعتقاد أو الرأي ، وقد تتعلق بإصدار الأحكام التقويمية . وهذه تمييزات معقولة ومقبولة إلى حد كبير ، وإن كانت المناهج والأساليب المتبعة كثيرا ما تخطئ بينها ، كما أنه كثيرا ما يصعب تصور تاريخ الأدب بغير الرجوع إلى نظرية الأدب أو النقد الأدبي ، أو ممارسة النقد بغير الرجوع إلى نظرية الأدب وتاريخه . وليس من شك في أن النقد الأدبي يأخذ في الاعتبار الأحكام التي كانت تسود في عصور إنتاج العمل الأدبي الذي يتعرض له بالدراسة والنقد ، ويحاول أن يتعمق في فهم اتجاهاتها ومواقفها وفلسفاتها ويتعرف على المعايير الأدبية والفنية الموجودة حينذاك . وتعرف هذه النزعة بوجه عام - كما يقول ويليك Wellek ووارين Warren في كتابيهما عن **نظرية الأدب** Theory of Literature بالنزعة التاريخية historicism . وكانت هذه النزعة شائعة في ألمانيا بوجه خاص في القرن التاسع عشر رغم اعتراض الكثيرين عليها ، ثم انتقلت من ألمانيا إلى إنجلترا فالولايات المتحدة ولا يزال الكثيرون من « مؤرخي الأدب » يتمسكون بها ، وأدى ذلك إلى ظهور ما يعرف باسم « النسبية النقدية » Critical Relativism - على ما يسميها فردريك بوتل F. Pottle وهذه تسمية تتضمن الاعتراف بوجود نوع من عدم الاستمرار في تاريخ الأدب ، ما دام إنتاج كل عصر سوف يقاس بمعايير عصره فحسب .

ومع التسليم بما في هذا الموقف من وجهة ، فقد تعرض الكثير من الهجوم والنقد ، على اعتبار أنه يغفل أذواق القراء المعاصرين ، ويحصر العمل الأدبي داخل إطار ضيق من الوحدة الزمانية والمكانية ، وبذلك يسلبه خاصية العمومية أو الكلية التي يجب أن يتصف بها أي عمل أدبي جيد . فالعمل الأدبي يجب للحكم الصحيح عليه أن يخضع لمعيارين ، وإن يدرس من بعديين متكاملين هما الذوق الفني الذي كان يسود عصر إنتاجه ، ثم الذوق الفني أو الأدبي العام ، ما دام

الادب يعبر عن تجربة انسانية ، حتى وان كانت هذه التجربة تتمثل في شخص المؤلف الذي يجب ان يبرز النواحي الانسانية العامة العميقة في تلك التجربة .

ونحن حين نقرأ أى عمل ادبى انما نقرؤه في ضوء عصره ومجتمعه وثقافته على ما ذكرنا ، ولكن ايضا في ضوء التجربة الانسانية العامة وفي ضوء المواقف والاتجاهات الحديثة . وهذا الموقف المزدوج له ما يماثله في الدراسات الانثربولوجية مثلا ، حيث ينظر الباحث الانثربولوجى الى اية ثقافة في ضوء الظروف التى انتجتها وكذلك في ضوء ثقافته هو نفسه ، على اعتبار ان تلك الثقافة الجزئية التى يدرسها ما هى الا مظهر من مظاهر الثقافة الانسانية ككل . وكذلك العمل الادبى ما هو الا تعبير عن جزء معين من التجربة الانسانية العامة ، بقدر ما تعرض لها الكاتب .

فكان من الصعب الفصل فصلا قاطعا وحاسما بين وجهة النظر التاريخية والمعاصرة في دراسة الادب دراسة نقدية ومحاولة تقييمه . ومع ذلك فإنه يتعين على الناقد ان يعمل على ان يتجنب بقدر الإمكان الوقوع فريسة في « النسبية النقدية » او في « التزمه المطلقة » Abolutism « ، بحيث يتخلص من قصور النسبية دون ان ينزلق الى الاحكام المطلقة الجامدة التى تعتقد ان الطبيعة الانسانية ثابتة لا تتغير . فالعمل الفنى او الادبى (ابدى) (تاريخى) معا . وليس من السهل الجمع بين هذين (البعدين) ، ولكنه امر لا يدمنه اذا اريد فهم العمل الادبى فهما صحيحا يريد من معرفة الانسان بطبيعة النفس البشرية وعمق التجربة الانسانية وتعقدها .



الشكل والمضمون في النقد الأدبي الحديث

شغلت قضية الشكل والمضمون في الأدب المشتغلين بالدراسات الأدبية والنقدية على مر العصور ، لا في الآداب الأوروبية وحدها ، ولكن في أدبنا العربي كذلك ، وخطورة هذه القضية إنما تنشأ من ارتباطها الوثيق بتقدير قيمة العمل الأدبي وتبين تأثيره . فإن أي خلط في فهم طبيعة العلاقة بين الشكل والمضمون سيؤدي بالضرورة إلى الخلط في الحكم على الآثار الفنية ، وإلى اختلاف النقاد والأدباء في حقائق ؛ أن جاز الاختلاف فيها في العصور الماضية فلا يجوز أن يختلف عليها أحد اليوم . وعلى الأخص بعد أن تطورت دراسات علم الجمال الحديث وبعد أن وضحت من خلال هذه الدراسات الأسس التي يبنى عليها الفن أي كان نوعه .

وقبل أن نبدأ في دراسة هذه القضية وتبعضها في مراحلها المختلفة يحسن بنا أن نحدد ما يعنيه النقد الحديث بأصطلاحه الشكل والمضمون أو الشكل والمحتوى ، وقد يستخدم أحيانا اصطلاح الصورة بدلا من الشكل فيقال: الصورة والمضمون .

والشكل عندهم هو الصورة الخارجية ، أو هو الفن الخالص المجرد عن المضمون والذي تتمثل فيه وتحقق من خلاله شروط الفن الأدبي ، سواء أكان قصيدة غنائية أم قصة أم مسرحية . فإذا حكمنا على قصيدة غنائية من حيث الشكل مثلاً قصرنا أحكامنا على كل ما يتعلق بتحقيق الصورة

الخارجية لهذا الفن من وزن وموسيقى وصور شعرية ، وصياغة فنية ، وبما قد يتحقق من خلال ذلك من جمال أو انسجام في الوحدة أو تناظر في الأجزاء . وبالجمل كل ما يتصل بالعنصر الشعري الفني في القصيدة وصياغته واسلوب تصويره . وكذلك الحال في المسرحية ، فالشكل فيها هو كل ما يتصل ببنائها الدرامي وتماسك هذا البناء وتدرجه من بداية ، الى وسط ، الى نهاية ، ثم التحام أجزائه وروعة تصويره بفض النظر عما يشمل من مضامين او يشير من قضايا انسانية او اجتماعية او نفسية او اخلاقية .

اما المضمون أو المحتوى فهو كل ما يشتمل عليه العمل الفني من فكر أو فلسفة أو اخلاق أو اجتماع أو سياسة أو دين ، أو غير ذلك من موضوعات ذات شأن تاريخي أو وطني . ومن هنا يكون المضمون أو المحتوى هو في غالب الامر المادة الخام التي يستخدمها الاديب أو الشاعر ، والتي يشكلها الفنان في الصورة التي يريدها .

وانقسم النقاد وفقا لهذا التمييز بين الشكل والمضمون الى مدرستين: 'حداهما مدرسة الشكل والاخرى مدرسة المضمون . واخذت كل مدرسة تقيس الفن بمقاييسها الخاصة . فاصحاب الشكل لا يرون في المضمون اية قيمة فنية ، ويحصرون احكامهم في دائرة الصياغة الفنية وما يتحقق عنها من جمال . واصحاب المضمون يرون ان الفن كله مضمون . وحددوا المضمون كما يقول كروتشه تارة بما يلذ ، وتارة بما يتفق مع الاخلاق ، وتارة بما يسمو بالانسان الى سماوات الفلسفة والدين ، وتارة بما هو صادق من الناحية الواقعية ، وتارة بما هو جميل من الناحية الطبيعية المادية » (١) .

والمسألة مرتبطة في جذورها بفلسفة ادراك الاشياء : هل ماهية الشيء متحققة فيه ، او ان الماهية فكرة منفصلة عن الشيء ؟ او بمعنى آخر : هل المدرك الحي الذي امامنا يحمل في ذاته حقيقة كامنة فيه ام انه يمثل ظلا زائلا لحقيقة منفصلة عنه وبعبارة عن كيانه ؟

اما ارسطو فيرى ان الماهية ليست فكر منفصلا عن الاشياء ، والحقيقة عنده كامنة في المدرك الحسي ، ومن ثم فان جوهر الشيء عنده لا ينفصل عن تحققه المادي ، ومن هنا كان عالم الشعر عند ارسطو كامنا في المظاهر الحسية ، ويستطيع الباحث ان يستنتج من نقد ارسطو انه مؤمن بالتلازم بين الصورة والهيولى .

والذين يفصلون الشكل والمضمون انما يعززون الى حد كبير بين الافكار او الماهيا وبين المدركات الحسية .

والكلمات لا تعني الدلالة على اشياء ، وانما تعني افكارا او اشياء في الوقت نفسه . فاذا ذكرنا كلمة اسد يتداعى الى الذهن شيان :

أولا جملة الصفات التي تحدد شكل الاسد وتكتسب عن طريق الملاحظة والتفرقة بين الصفات الجزئية والعرضية والصفات المشتركة :

وثانيا جملة الارتباطات والانطباعات القائمة حول الكلمة ، او بمعنى آخر ما يمكن او تضيفه الكلمة من احساس. من اجل ذلك كان من الصعب ان تفصل بين ماهية الاسد وبين الاحساس المرتبط بما تثيره الكلمة في النفس من احياءات خاصة الا في نطاق التقسيم النظري بين ما يدرك بالعقل وما يدرك بالحواس . وقد يمكن القول بأن ماهية البدر مستقلة عن جمال البدر الذي يستمد عادة من جملة الاحياءات والارتباطات ، وفي وسع اي انسان ان يقول ان استدارة البدر واستنارتها شيء وجماله شيء آخر ، كما في وسع الدراسة النظرية البحتة ان تقول ان وصفنا للبدر بالجمال شيء نابع عن الدوق . اما ماهية البدر التي تتمثل في فكرته كنجم مستدير مستنير في السماء ليلا فشيء آخر اكتسبناه من طول النظر والتأمل، لا عن طريق الدوق .

ومن الممكن ان نقول ذلك ، وان نفصل بين ماهية الشيء وبين الانطباعات او الارتباطات القائمة حوله ، ذلك اذا اردنا ان نفرق بين الادراك العقلي المحض وبين الادراك الحسي . (٢)

ولكننا في مجال اللغة والادب نخضع لبداهام لا ينبغي الاختلاف عليه وهو مبدأ رمزية اللغة، فليست الكلمات في اللغة والشعر مجرد علامات او اشارات نتخذها لتشير بها على وجود شيء او سواه ، وانما هي رموز تتضمن شحنا من المشاعر والاحساسات .

« فالرموز بالمعنى الدقيق هي تلك التي لا يكتفي فيها على مجرد الدلالة بحيث يكون هناك طرفان فقط : طرف العلامة الدالة من جهة ، وطرف الشيء المدلول عليه من جهة أخرى ، بل يضاف الى مجرد الدلالة شحنة عاطفية من نوع معين مقصود يراد لها ان تنزوي في نفس الراي او السامع كلما وقع على رمز معين ، فعلم جمهورية مصر العربية - مثلا - له ما لهذا الاسم من دلالة على البلد المراد الدلالة عليه ، لكنه يضيف الى مجرد دلالة الاسم على مسماه ضربا من الشعور يراد له ان ينشأ في النفوس كلما وقعت العين على ذلك العلم . . . والهلل رمز للاسلام ، والصليب رمز للمسيحية ، فكانهما كلمتان ، لكنهما يزيدان على كونهما مجرد كلمتين لكل منهما مدلوله المعين ، اذ هما تضيفان الى عملية الدلالة موقفا شعوريا خاصا » (٣)

فالكلمات اذن ليست قطعاً من الخشب او الفيسفساء يوضع بعضها الى جانب البعض ، وانما الكلمات ارواح تختزن في داخلها مشاعر واحساسات . وهي وبتفاعلها مع غيرها في داخل سياق لغوي قادرة على منح بعضها البعض دلالات وفاعليات خاصة . وبذلك تكون اللغة في يد الكاتب او الاديب في حركة خلق مستمرة ، والفن الادبي استثمار لامكانات اللغة التي لا تنتهي عند حد .

واذا فهمنا رمزية اللغة على هذا النحو يصبح الفصل بين الفكر الخالص المجرد ، وبين الشعور او الاحساس او ما تتضمنه كلمات اللغات من ارتباطات او احياءات امراً بعيداً كل البعد عن المفهوم الحقيقي لآثر اللغة فنيا .

(٢) نظرية المعنى في النقد العربي ص ٧٠ وما بعدها - دكتور مصطفى ناصف .

(٣) فلسفتون ص ٤٣ ، ٤٤ دكتور زكي نجيب محمود.

من أجل هذا حق لارسطو الا يفصل بين الصورة والهيولى ، ولكن فهم ارسطو للفة لم يصادف هوى عند مدرسة اللغويين الاسكندرانيين ، وعند هوراس وشيشرون فقد رأى هؤلاء ان الشعر عالم من الالفاظ ، واختلط عندهم مفهوم الشعر بمفهوم الخطابة ففصلوا بين الشكل والمضمون تحت اصطلاحى الالفاظ والاشياء (RES) ، واستمر هوراس فمن جاء بعده وحتى فى عصر النهضة فاصبح النظر الى الشعر يتساوى مع النظر الى الخطابة والمنطق وفلسفة الاخلاق (٤) .

ومن الغريب ان يمتد هذا التأثير الى القرن التاسع عشر فينقسم فلاسفة الفن فى هذا القرن الى مدرستين : مدرسة الشكل ومدرسة المضمون ، والاعجب من هذا كله ان ترى بيننا اليوم من المعاصرين من يفهم الشعر والادب على انه شكل ومضمون او لفظ ومعنى . ويرجع الفضيلة فيه الى الشكل دون المضمون او الى المضمون دون الشكل . فما اكثر ما نسمع من النقاد ان قصيدة ما جيدة فيما تشتمل عليه من احساسات ومشاعر ، ولكنها فقيرة من ناحية اسلوبها او صياغتها . وكثيرا ما نسمع بعض النقاد يتحدثون عن مسرحية ما فيقولون انها سليمة من حيث البناء الدرامى ، ولكن يعوزها الموضوع الهام ذو الشأن التاريخى او الوطنى او الاجتماعى .

وهذه جميعها اخطاء ياباها الذوق بل وينفر منها العلم والفهم الصحيح لعمليتي الخلق الادبى والت نقد الادبى على السواء .

وليس من شك فى ان هذا الخلط فى مفهوم العمل الفنى خلقا ونقدا انما يرجع الى ظهور النظريات الكثيرة مثل نظريات اللذة ، والنظريات الاخلاقية والمادية فى الفن وغير ذلك كما يرجع اساسا الى اهمال العنصر الفنى اما افلاسا او عجزا . الامر الذى جعل اصحاب لنظريات يعتبرون الفن عنصرا لاحقا او عرضيا .

وليس هناك ما هو اشد حسما الخلاف القائم بين انصار الشكل والمضمون من نظرية الخيال عند كولردج فقد حددت النظرية الخطوط الاساسية التى ينبني عليها الخلق الادبى بدرجة لم يعد هناك مجال بعدها للتشيع او الانقسام . فقد عرفنا ان الخيال هو الذى يبدع الشكل العضوي ، وهذا الشكل العضوي ينبع من داخل العمل الفنى ، كما انه خاضع لتجربة الشاعر لا لشيء آخر يفرض عليه من الخارج . ومن هنا أصبح الشكل الخارجى فى الشعر ليس بلدي قيمة فى ذاته ، ان قيمته فى اتحاده اتحادا عضويا مع سائر العناصر المكونة للعمل الفنى . واعتماد كل جزء من اجزاء العمل الفنى اعتمادا كلياً على الاجزاء الاخرى هو معيار جودة الشكل عنده . وقد نتج عن هذا كله نتائج غاية فى الاهمية نجملها فى النقاط الاتية :

اولا : اصبح نقد العمل الفنى عند كولردج يقوم على اساس هام هو ان الشكل والمضمون يتحدان اتحادا تاما ، وان الشكل العضوي امر غير مكتسب ، وليس مصنوعا صناعة آلية ولكنه فى باطن العمل الفنى ويتحدد فى تطوره من الداخل ومعنى شكله هو بالضبط اكتمال نموه (٥) .

(٤) فن الشعر ص ١٩١ ، ١٩٢ دكتور احسان عباس

(٥) كولردج ص ٩٣ الدكتور مصطفى بنوى

ثانياً : إن قيمة العمل الفني تأتيه من اتحاد أجزائه ، وإذا كان ثمة قوانين للعمل الفني في قانون المعبرية ، لا القانون المفروض على الفنان من الخارج . أنه قانونه الخاص الذي يستطيع أن يطرق به أفضل السبل لتحقيق أهدافه ، وبهذا يقضي كولردج على ما كان يلجأ إليه الكلاسيكيون في تقديمهم عندما كانوا يحددون للقراء أصولاً معيناً لا يحيدون عنها ، ويلتزم بها النقاد فلا يحكمون بالجودة أو الرداءة على عمل فني إلا إذا توافرت لهذا العمل شروط محددة . وبذلك يحطم كولردج فكرة القانون الصارم في النقد ، ويرى أنها مسألة نسبية يحددها العمل الفني نفسه الذي يختلف من شاعر إلى آخر ومن عصر إلى عصر .

ثالثاً : القضاء على ثنائية اللفظ والمعنى التي كانت سائدة في النقد الأدبي قبل كولردج . وله في هذا المجال فهمه الدقيق للغة ووظيفتها في العمل الفني .

فهو يميز بين الكلمات كأصوات وبينها كأمعان . أو بينها كأدوات اصطلاحية الغرض منها الإشارة ، وبينها كوسيلة من وسائل الدلالة على حقيقة الشيء . غير أن اللغة في الشعر تجمع بين لغة الإشارة الباردة وبين اللغة الحية الناقلة للمشاعر . وهو يصف لغة الشعر فيقول عنها : « أنها اللغة الأولى مترجمة باللغة الثانية ، اللغة الاصطلاحية المستخدمة بحيث لا تكتفي بمجرد الإشارة إلى الصورة الباردة ، وإنما بحيث تعبر عن حقيقة شيء (٦) » . ويقول في موضع آخر :

إن الفرق الشاسع بين الالفاظ التي تستعمل كمجرد علامات اصطلاحية للفكر ، والتي هي بمثابة عملة للتخاطب ، عملة ناعمة اللمس أمحى ما كان عليها من رسم وكتابة لكثرة الاستعمال . وبين تلك الالفاظ التي توصل لنا صوراً . سواء أكانت هذه الصورة مستعارة من موضوع خارجي معين لكي تحيي وتخصص موضوعاً آخر ، أم كانت مستخدمة بطريقة رمزية لكي تجسد حالة التكلم الباطنة ، أو مستخدمة بحيث تعبر على الأقل عن نزعاته الخاصة « (٧) » .

ويعرف الشعر بقوله :

« أنه أفضل الالفاظ في أفضل الاوضاع » (٨) .

ومعنى هذا أن أي كلمة في العمل الفني لا يمكن تغييرها أو استبدالها بأخرى دون أن يفقد السياق معناه . فكل لفظة مستقلة بوجودها متميزة بشخصيتها . فليس هناك لفظة يمكن أن تتساوى مع لفظة أخرى في محصولها من الشعور . خذ أي كلمتين متشابهتين في المعنى وحاول أن تستجلي ما وراءهما من إحساس فستجد أن لكل منهما مزاجاً مختلفاً وروحاً متباينة . من أجل ذلك قال كولردج : « أن الشعر الرائع هو الذي لا يمكن ترجمته إلى الفاظ أخرى دون أن يفقد جماله شيئاً » (٩) .

(٦) المرجع السابق ص ٩٦

(٧) المرجع السابق ص ٩٦

(٨) المرجع السابق ص ٩٦

(٩) المرجع السابق ص ٩٦

ولو كانت الكلمة مجرد رمز يشير الى معنى أو فكرة فحسب لكان يمكن للكلمتين المترادفتين ان يتساويا أو ان تحل الواحدة منهما مكان الاخرى. ولكننا عرفنا ان الكلمة ليست مجرد اشارة باردة لمعنى أو فكرة ، وانما هي نسيج متشعب من احساسات . بل ان لكل كلمة تاريخا طويلا مرت به ، وظروفا نشأت فيها ، وارتباطات احاطت بها، وهذا كله كفيل ان يزيد الكلمة خصبا وحياة ، وان يجعلها شخصية متميزة تماما وهذا هو ما عناه كولردج بقوله :

« ولا يتضمن معنى اللفظة في رأيي مجرد الموضوع الذي يقابلها ، بل يشمل ايضا جميع الارتباطات التي تبعثها اللفظة في اذهاننا . فطبيعة اللغة لا تمكنها من نقل الموضوع فحسب ، وانما تجعلها ايضا قادرة على نقل شخصية المتكلم الذي يعرض الموضوع ونواياه » (١٠) .

يتضح لنا من كل ما سبق ان علاقة اللفظ بالمعنى عند كولردج علاقة حية ، وان ارتباطهما وثيق بحيث لا يمكنك ان تغير اللفظة او تنقلها من مكانها او تستبدلها الا اذا تغير المعنى .

رابعاً : من النتائج الاخرى الهامة التي تولدت من مفهوم كولردج للشكل والمضمون اعتباره الوزن الموسيقي في الشعر جزءا لا يتجزأ من التجربة الشعرية ، وعنصرنا ملتحما التحاما كلياً بسائر العناصر الاخرى المكونة للقصيدة . بل ان الوزن عنده ثمرة من ثمار الخيال ، يقول :

« انني اعتقد انه من البشائر المرضية جدافى تأليف الشاب الولع بالصوت الفنى العذب حتى وان كان في ذلك افراط معيب . ذلك بالطبع اذا كان من الواضح ان الموسيقى في شعره أصيلة ، وليست نتيجة تقليد آلي سهل ... فالصور الشعرية (حتى ولو كانت مستقاة من الطبيعة ولا سيما حين يكون مصدرها الكتب مثل كتب الاسفار والرحلات وعلم الاحياء) شأنها شأن الاحداث المثيرة ، والافكار الصادقة والمشاعر الشخصية او العائلية الشيقة . كل هذه الاشياء بالاضافة الى فن جمعها او صياغتها في صورة قصيدة ، قد يستطيع أي فرد موهوب ، وعلى قدر من الاطلاع ان يكتسبها بالجهد المتصل مثلما يكتسب المرء حرفة من الحرف . اما الاحساس بالمتعة الموسيقية بالاضافة الى القدرة على توليد هذا الاحساس لدى الغير فانما هي هبة الخيال وحده . ومن الممكن تنمية هذا الاحساس وثقيفه، ولكنه يستحيل تعلمه ، مثله في ذلك مثل القدرة على خلق اثر موحد من الكثرة ، وعلى تعديل سلسلة من الافكار بواسطة فكرة واحدة سائدة او انفعال واحد مهيمن . ان هذه هي الاشياء التي يصدق عليها المثل القائل بان المرء يولد شاعرا . ولا يمكنه ان يصبح شاعرا عن طريق الصنعة » (١١) .

ومصدر الوزن عند كولردج هو العاطفة او الانفعال بمعنى ان الذي يختار الوزن الشعري انفعال الشاعر نفسه فعندما تثور في نفس الشاعر عاطفة جياشة يلجأ الى الوزن او الى الموسيقى لانهما اقرب الوسائل للتعبير عن العواطف المشبوبة ولانها هي الاخرى بدورها

(١٠) المرجع السابق ص ٩٧

(١١) كولردج ص ٩٩

أكثر الوسائل قدرة على تبليغ العاطفة وإثارتها عند القارئ أو السامع . على أن الوزن الذي هو وليد الانفعال والعاطفة المشبوبة بحاجة إلى أن يفرض عليه الشاعر درجة من التوازن ، وهنا تتدخل الإرادة التي تستطيع أن تحول العاطفة الشائنة المشبوبة عند الشاعر إلى ارتفاع محدد خاضع لنظام ، وليس مجرد تفجر عاطفي غير خاضع لسيطرة الإرادة . ومن ثم لا يتحقق الوزن في الشعر إلا نتيجة لدرجة من التوازن بين العاطفة والإرادة . وفي هذا يقول كولردج :

« وبما أن الوزن نتيجة فعل إرادي لأجل مزج اللذة بالانفعال فإنه يجب أن تكون آثار هذه الإرادة واضحة في سائر اللغة المنظومة حسب تدخل هذه الإرادة » (١٣) .

ويربط كولردج بين الكلام المنظوم ولغته . وهو يرى أن أي كلام موزون بحاجة إلى لغة خاصة تناسبه ، فلما كان الوزن وليد الانفعال وصادرا عن عاطفة الشاعر فكذلك لغته . هذا بالإضافة إلى أن جزءا هاما من موسيقى الشعر نابع من علاقات اللغة وأصواتها ونبراتها ، وما تحمله تلك النبرات والأصوات من مشاعر . ومن هنا نشأت العلاقات العضوية الحية بين الوزن وغيره من مقومات العمل الفني وعلى الأخص اللغة التي هي مستودع الانفعال والموسيقى والصورة .

أما تأثير الوزن عند كولردج فيرجع إلى ناحيتين : الناحية الأولى ناشئة من تكرار وحدة موسيقية معينة تنتشر في العمل الفني كله ، وتعمل على تشويق القارئ ودفعه للقراءة والمارة حب الاستطلاع في نفسه . أما الناحية الثانية فهي النغمة غير المتوقعة ، والتي لا تنشأ عن التشابه بين وحدات موسيقية متكررة وإنما تلك التي تنشأ من عنصر المفاجأة أو خيبة الظن كما يحلو لريتشاردز أن يسميها . فالإيقاع عنده لا يتحقق من قانون التوقع وحده وإنما يتوقف على قانون المفاجأة أو خيبة الظن . يقول ريتشاردز :

« والنسيج الذي يتألف من التوقعات والأشباع أو خيبة الظن أو المفاجآت التي يولدها سياق المقاطع هو الإيقاع . وربما كانت معظم ضروب الإيقاع تتألف من عدد من المفاجآت ، ومشاعر التسويق وخبية الظن لا تقل عن عدد الأشباع البسيطة المباشرة . وهذا يفسر لنا لماذا سرعان ما يصبح الإيقاع المسرف في البساطة شيئا تمجه النفس » (١٣) .

وهذه النغمة الناشئة عن عدم التوقع أو المفاجأة هي التي تولد الدهشة وتثيرها لدى القارئ في الكلام المنظوم .

ومجمل القول في الوزن عند كولردج انه جزء لا يتجزأ من التجربة ، يصدر عن درجة عالية من التوازن بين العاطفة المشبوبة والإرادة الواعية ، ويثير في النفس حب الاستطلاع والتشويق والدهشة . ويتألف الوزن مع مادة القصيدة يمكن للشاعر أن يحقق عملا فنيا رائعا

أما الوزن وحده فلا يمكنه أن يحقق قيمة غنية في ذاته . من أجل ذلك يشبهه كولردج بالخميرة فيقول :

« ان الوزن اذا ما قصد استعماله لأغراض شعرية أشبه ما يكون بالخميرة ، فالخميرة في ذاتها عديمة القيمة ، بل إنها كريهة المذاق ، ومع ذلك فهي تضاف على الشراب الذي يمتزج به بنسب معقولة روحا وحيوية » .

ومن هذه العبارة الأخيرة يتضح لنا أن قيمة الوزن في الشعر لا تتحقق إلا اذا استطاع ان يتحد ببقية العناصر في القصيدة اتحادا تاما .

الشكل والمضمون عند كروتشه :

ومن أهم من تعرض لقضية الشكل والمضمون في العمل الفني الفيلسوف الايطالي المعروف بندتو كروتشه واضع كتاب « علم الجمال » وصاحب مدرسة كبيرة في الدراسات الجمالية والفنية .

ولقد لاحظ كروتشه أن هناك ثلاثة تمييزات خداعة تملأ ساحة فلسفة الفن وتغري المرء بسهولة وبدايتها الظاهرة وكلها تتعلق بالشكل والمضمون وأشهر هذه التمييزات هو التمييز بين **المضمون والصورة (١٤)** .

وخطورة هذا التمييز في رأي كروتشه يرجع الى الناقد سوف يجد نفسه أمام قيمتين اثنتين للعمل الفني لا قيمة واحدة . احدهما ترجع للشكل والاخرى للمضمون . فيرى أشياع المضمون أن الفن هو العنصر الصوري المجرد ، ويرى أشياع الصورة أن الفن هو العنصر المجرد من المضمون .

ويسخر كروتشه من هؤلاء وهؤلاء ، حين يتتبع دراستهم وفلسفاتهم ويجد في نهاية الامر أن كل ما دار من جدل حول المدرستين لم ينته الا الى حقيقة واحدة هي أن أصبح أشياع المضمون ، على غير ارادة منهم ، أشياعا للصورة ، أصبح أشياع الصورة على غير ادارة منهم أشياعا للمضمون . وهكذا وقفت كل من الطائفتين موقف الاخرى ، ولكن على غير استقرار ولا اطمئنان ، ثم تعود الى موقفها على غير اطمئنان ولا استقرار كذلك .

ولكن قضية الشكل والمضمون عند كروتشه قد وجدت الحل تلقائيا في تفسيره للفن وتحديد مفهومه . وقد عرفنا ان الفن حدس عند كروتشه . وعرفنا ما يعنيه بكلمة الحدس ، وأدركنا أن تعريفه للفن بأنه حدس قد ميز الفن عن المفاهيم المنطقية والفلسفية والاجتماعية ، كما ميزه عن اللذة والاخلاق ، ولكنه مع تمييزه للفن عن كل المفاهيم فهو لم يقلل من شأن المضمون بل لقد جعله نقطة البدء التي تتفرع منها التجربة والحقيقة التعبيرية أو الفنية . ولكنه مع ذلك لم يجعل للمضمون خصائص فنية سابقة على العمل الفني . فاذا كان للمضمون قيمة فهو لا يكتسبها الا من خلال العمل ذاته .

(١٤) يستخدم كروتشه (الصورة) بدلا من (الشكل)

وينتهي كروتشه في مناقشته لموضوع التمييز بين المضمون والصورة إلى الحقيقة الآتية ، فيقول :
« والحقيقة هي أن المضمون والصورة يجب أن يميزا في الفن ، لكن لا يمكن أن يوصف كل منهما على انفراد بأنه فني ، لأن النسبة القائمة بينهما هي وحدها الفنية ، أعني الوحدة ، لا الوحدة المجردة الميتة . بل الوحدة العيانية الحية » (١٥) .

ويقول في موضع آخر :

« فسيان إذن (أو قل انهما) سلبتان من وسائل التعبير الموافق) أن نعد الفن مضمونا أو صورة ، شريطة أن يكون المفهوم دائما أن المضمون قد برز في صورته ، وأن الصورة متمثلة بالمضمون ، أي أن الشعور هو الشعور المصور . وأن الصورة هي الصورة المشعور بها » (١٦) .

ويقول كذلك :

« والعاطفة أو الحالة النفسية ليست مضمونا خاصا ، وإنما هي الكون كله منظورا إليه من ناحية الحدس . وليس في وسعنا أن نتصور في خارجها أي مضمون آخر ليس في الوقت نفسه صورة مختلفة عن الصور الحدسية :

لا الأفكار التي هي الكون بأسره منظورا إليه من ناحية العقل ، ولا الموضوعات الفيزيائية والعناصر الرياضية التي هي الكون بأسره منظورا إليه من ناحية الإرادة » (١٧) .

وبهذه العبارات الأخيرة المحددة يحسم كروتشه في القضية كلها عندما يربط بين المضمون والصورة هذا الربط المحكم ، فلا يمكن تصور مضمون مهما يكن شأنه خارجا عن الصورة الحدسية . وما الفكر والعقل ، والتخيل والتجربة ، والإرادة إلا وسائل خادمة للفن ولكنها ليست بذاتها فنا .

أما التمييز الثاني الذي لا يقل عن التمييز الأول خداعا والذي تمتلئ به أيضا ساحة فلسفة الفن فهو التمييز بين **الحدس والتعبير** أو بمعنى آخر التمييز بين الصورة وترجمتها المادية .

فمن الناس من يميز بين التجربة باعتبارها موضوع الانفعال والتصوير وبين ما يستخدمه الفنان من كلمات أو أصوات ألوان للتعبير عنها . ويرى هؤلاء أن الأولى هي باطن الفن والثانية هي ظاهرة . ويعتبرون الأولى هي باطن الفن والثانية هي مادته .

ويرد كروتشه على هؤلاء فيرى أن التفريق بين الباطن والظاهر قد يكون سهلا أمره ولو في القول على الأقل ، ولكننا إذا انتقلنا من عملية التفريق إلى تقرير النسبة أو التركيب فسوف نصطدم بعوائق تخيب الظن وتحطم الآمال ، وإذا بنا ندرك أن تمييزنا كان خاطئا . يقول :

(١٥) الجمل في فلسفة الفن ص ٥٥

(١٦) الجمل في فلسفة الفن ص ٦٦

(١٧) الجمل في فلسفة الفن ص ٥٦ ، ٥٧

« فأنى لشيء خارج عن الداخل وغريب عنه أن يجتمع الى هذا الداخل ويعبر عنه ؟ كيف يمكن لصوت أو لون أن يعبر عن صورة مجردة من الصوت واللون ؟ كيف يمكن للجسم أن يعبر عما ليس بجسم ؟ بآية طريقة يمكن أن يساهم في فعل واحد الخيال التلقائي والتفكير والنشاط المادي ؟ متى فرقنا الحدس عن التعبير ، وجعلنا طبيعة الأول مختلفة عن طبيعة الثاني ، لم نجد هناك حداً وسطاً يستطيع أن يجمع بينهما ويلحس أحدهما بالآخر . ولا تستطيع جميع نظريات التداعي والعادة والآلية والنسيان التي ارتآها علماء النفس أن تحل مسألة الاتصال هذه بين التعبير والصورة . وهذا ما اضطر بعضهم الى افتراض أن في المسألة سرا ... فمنهم من رأى أن هذا السر تراوج عجيب ، وهؤلاء من اصحاب الدوق الشعري ، ومنهم من رأى أنه نوع من الموازنة النفسية الجميلة .

وكان ينبغي قبل أن نلجأ الى السر أن نبحث هل كان تفريق العنصرين صحيحاً ، بل هل يمكن أن نتصور حدساً من غير تعبير . وفي رأيي أن ذلك لا يقل امتناعاً على التصور عن تصور نفس بلا جسد ... والواقع أننا لا نعرف الا حدوساً معبراً عنها . فالفكرة لا تكون بالنسبة إلينا فكرة الا اذا أمكن أن تصاغ بالفاظ ، ولا اللحن الموسيقي يمكن أن يكون لحناً موسيقياً ما لم يتحقق بانغام ، ولا الصورة التجسيمية يمكن أن تكون صمورة تجسيمية ما لم تظهر بخطوط واللوان . ولست أحتم أن تنطق الالفاظ جهاراً ، ولا أن تعرف الموسيقى على آلة ، ولا أن تثبت الصورة على خيش . ولكن من المحقق أنه متى بلغت الفكرة حد التضج وأصبحت فكرة حقاً دارت الالفاظ في كيائنا كله ، فحركت عضلات الفم ، ورنّت في داخل الأذن . ومتى كانت القطعة الموسيقية قطعة موسيقية حقاً رأيتها تترنح على الشفاه ، وتحرك الاصابع حتى لكان الاصابع تلعب على أوتار خيالية » (١٨) .

ويقول كذلك :

« انك لو جردت الشاعر من أبحره والفاظه وقوائيه . لما بقى هنالك فكرة شعرية كما يخيّل الى بعضهم . بل لما بقى شيء البتة . فإنا نشأ الشعر مع هذه الالفاظ وهذه القوافي وهذه الأبحر . وليس في وسعنا كذلك أن نقول أن التعبير أشبه بالبشرة بالنسبة الى الجسم . اللهم الا أن نقول : أن الجسم كله ، في كل خلية من خلاياه ، وفي كل عنصر من هذه الخلايا . هو في الوقت نفسه بشرة » (١٩) .

وهكذا ينتهي كروشه في مناقشاته بفكرة الفصل أو التمييز بين الحدس والتعبير الى حقيقة هامة مؤداها : أنه لا يمكن تصور الفصل بين الفن ومادته طالما كانت العبقورية الاصلية لدى الفنان هي في الحقيقة كامنة في قدرته الفائقة على استغلال مادة فنه واستثمارها على النحو الذي يبلغ به درجة عالية من الكمال . اذ كيف يمكن لإنسان أن يكون شاعراً عظيماً وهو يسئ نظم الشعر أو مصوراً كبيراً وهو لا يجيد الملاءمة بين الالوان . أو موسيقياً موهوباً وهو لا يحسن تحقيق

(١٨) المرجع السابق ص ٦٠ ، ٦١

(١٩) المرجع السابق ص ٦١

التناغم بين الاصوات . أو يكون فنانا كبيرا وهولا يحسن التعبير ؟ من أجل ذلك قالوا عن روفائيل لولم يكن له يدان لظل مصورا عظيما ، غير أنهم لم يقولوا لو لم يكن له احساس بالرسم لظل مصورا عظيما . (٢٠)

اما التمييز او التفريق الثالث الذى ملاساحة فلسفة الفن والجمال والذى خدع الناس طويلا وما زال يخدعهم ، والذى يحرص كروتشه على أن ينبه الأذهان اليه لخطورته على نظرية الفن ، وعلى المذاهب النقدية هو موضوع التفريق بين **التعبير والجمال** .

وهؤلاء ، في نظر كروتشه ، يقسمون مفهوم التعبير الفنى الى لحظتين « لحظة التعبير بالمعنى الخاص للكلمة : يعنى الوصول الى التعبير ، ثم لحظة جمال التعبير : يعنى زخرفة التعبير . وعلى هذا الاساس صنفوا التعبيرات في زمرة تسمى : **التعبيرات العارية** ، والتعبيرات المزخرفة » (٢١) .

ويرى كروتشه أن هذا الاتجاه في التفريق بين التعبير وزخرفة التعبير منتشر في ميادين الفن المختلفة ، ولكنه قد نما واتسع في ميدان اللغة بوجه خاص ، بل انه يحمل اسما مشهورا هو اسم **البلاغة** . ذلك لان البلاغة في اعتقاده هي الميدان الذى تنفصل فيه الصورة البيانية عن التعبير . فكثيرا ما نرى الدارسين في الميادين البلاغية يعنون عناية خاصة بزخارف التعبير من تشبيه واستعارة ومجاز ، ويفردونها بالبحث والدراسة ، وكثيرا ما يقفون عند هذه الصور وقفات خاصة يتناولونها منفصلة عن التعبير مما جعل بعض الناس يظنون أن للصور البيانية قيمة مستقلة عن التعبير الذى وردت فيه .

ويعلق كروتشه على هذا الاتجاه بقوله :

« وقد كان للبلاغة تاريخ طويل منذ بلغاء اليونان الى أيامنا هذه ولا تزال تدرس في المدارس ، ويعني بها في الكتب ، بل في المباحث اللغوية التى تزعم لنفسها انها عملية ، فضلا عن الانكار العامية بطبيعية الحال ، ولو انه فقد في أيامنا هذه كثير من قوته الاولى ، وقد قبله اناس من أهل الدكاء والحصافة لا ادرى اعم كسل ام لقوة التقاليد ، وتركوه يعيش قرونا طويلة . ولم تكس تحاول الثورات النادرة التى قامت في وجهه أن تشيد ثورتها مذهبا ، وأن تنتزع الخطأ من جذوره . ولم يقتصر شر البلاغة التى تقول بوجود لفظة « مزخرفة » مختلفة عن اللغة العارية وسامية عليها ، لم يقتصر شرها على ميدان فلسفة الفن ، بل تعداه الى ميدان النقد » (٢٢) .

وليس من شك في أن المنهج البلاغى الذى يرجع مقياس الجمال والجودة في الشعر او في النثر الى ما فيه من صور بيانية منهج لا ينهض على أساس من فهم صحيح للأدب . ولقد نبه

(٢٠) المرجع السابق ص ٦٣

(٢١) المرجع السابق ص ٦٤

(٢٢) دلائل الإعجاز - عيد القاهر الجرجاني - ص ٧٩

عبد القاهر الجرجاني الى خطورة هذا المنهج في القرن الخامس الهجري ، وذلك عندما قضى على فكرة التفريق بين التعبيرات العارية والتعبيرات المزخرفة بقوله :

« ان من الاستعارة مالا يمكن بيانه الا من بعد العلم بالنظام والوقوف على حقيقته » . (٢٣)

وقد كان لنا قدنا العربي الكبير منهجه الخاص في دراسة البلاغة وهو منهج يختلف كثيرا عن منهج من استمسكوا بالتقسيمات البلاغية الشكلية من أمثال السكاكي والقزويني .

وما نظن ان هنالك اليوم من النقاد المحدثين من يجادل في أن الجمال ليس محصورا في الزخرف أو الاستعارة . ومن البديهي أن يخلو بيت من الشعر من الصور البيانية ويحقق قمة الجمال في الجمال في التعبير الفني ، بل أن من الشعر مالا يعدو مجرد التعبير عن حالة نفسية تعبيرا بالغ التأثير قوى الإيحاء ، وهو بهذا وحده قادر على أن يبلغ الجودة لسذاجته وصدق ، ويقول كروتشه في هذا :

« ان التعبير المناسب اذا كان مناسباً ، كان جميلاً كذلك ، لان الجمال ليس الا القيمة المحددة للتعبير وبالتالي للصورة . ولذا كنا نعتى بنعته بالعري أنه يعوزه شيء يجب أن يتوافر فيه . فمعنى ذلك في هذه الحالة أنه ليس مناسباً ، أو أنه ليس تعبيرا ، أو لم يصبح بعد تعبيرا . وكذلك التعبير المزخرف ، فانه اذا كان تعبيرا في كل اجزائه لم نستطع ان نعتيه بأنه مزخرف ، بل بأنه عار كالاول وبأنه سليم كالاول كذلك » (٢٤)

ويقول :

« ليس التعبير والجمال مفهومان اثنين ، فما هما الا مفهوم واحد يمكن ان ندموه بأحد اللفظين على السواء . ان الخيال الفني لا يكون بدون جسد ، ولكنه ليس بدنيا ، ولباسه من ذاته ، لا يلبس شيئا غيره ، وليس أذن بمزخرف (٢٥) .

ويرى كروتشه أن موضوع التفريق بين التعبيرات العارية والتعبيرات المزخرفة يرجع في الحقيقة الى تأثير المنطق والفكر على دراسي اللغة وعلمائها الذين كثيرا ما دارت بينهم المناقشات حول علاقة الفكر بالخيال والفلسفة بالشعر ، والمنطق بالفن ، والجدل بالبلاغة . ووجد هؤلاء أن التفريق بين الفكر والخيال يقتضيهم أن يصنفوا اللغة الى لفتين : الاولى لغة الفكر والثانية لغة الشعر . وذهبوا الى أن التعبير العادي أو العاري هو المطابق للفكر والفلسفة ، وأن التعبير المزخرف هو المطابق للخيال والشعر . واستمسكوا بهذه القسمة النظرية التي ان جار لها ان تصح في مجال التفريق بين لفتين ، احدهما لغة عملية صارمة تستخدم خارج ميدان الشعر ، والثانية لغة الانفعال التي تستخدم في ميدان الادب والشعر . ان مثل هذه القسمة لا يجوز لها ان تصح ، هذا ، اذا قصرنا كلامنا على ميدان التعبير الادبي سواء منه المزخرف أو غير المزخرف . وذلك أننا في مجال

(٢٢) المرجع ص ٦٤

(٢٤) الجمال في فلسفة الفن ص ٦٥

(٢٥) الجمال في فلسفة الفن ص ٦٥

الأدب لن نجد إلا خيالا وشعرا وفنا ، وأن ادخال المنطق أو الفكر الفلسفي المجرد هاهنا ، ظلما ، خليق كما يقول كروتشه أن يلقي ظللا خادعا ، حقيقيا بأن يلبس الأمر على العقل ، ويوقعه في الاضطراب ، ويحول بينه وبين رؤية الفن في كامل رحابته ونقاوته بدون أن يريه منطقا ولا فكرا . (٢٦)

ثم يزيد كروتشه الأمر توضيحا حين يهاجم النظرة المنطقية إلى اللغة تلك النظرة التي فصلت بين النحو والبلاغة . فقد ظن أصحاب هذه النظرة أنه ما دامت اللغة نحوا فينبغي أن تكون نظرنا إليها نظرة منطقية . والذي زاد الأمر فظاعة أن هذه النظرة المنطقية للغة قد فرضت هي الأخرى سلطانها على منهج البلاغة ودراساتها . وحين يهاجم كروتشه هذه النظرة المنطقية إلى اللغة إنما ينبه إلى خطورتها على مناهجنا في دراسة الأدب والبلاغة يقول :

« على أن أسوأ الشرور التي سببها مذهب التعبير «المزخرف» لتصنيف صور الفكر الإنساني تصنيفا نظريا هو ما تعلق بنظرة أصحابه إلى اللغة . فإنا إذا سلمنا بوجود تعبيرات عارية نحوية فحسب ، وبوجود تعبيرات أخرى مزخرفة أو بلاغية لزم عن ذلك أن ترجع اللغة إلى تعبيرات عارية وأن ترد إلى النحو . وبالتالي ، (اذلا مكان للنحو في البلاغة ولا في الفن) إلى المنطق حيث يسند إليها دور ثانوي . والواقع أن فساد اللغة المنطقية مرتبط ارتباطا وثيقا بالمذهب البلاغي في التعبير ، وهو يتقدم معه جنباً إلى جنب ، فقد نشأ معا في العصر اليوناني القديم ، ومعا يعيشان في أيامنا هذه ، رغم تعارض الأول مع الآخر . وقد كانت الثورات على النظرية المنطقية في اللغة نادرة جدا ، ولم يكن لها نتائج ذات بال ، شأنها شأن الثورات التي قامت في وجه البلاغة .

وظل الأمر على هذا المنوال حتى المهد الرومانطيقى ، فأصبحنا نرى لدى بعض المفكرين أو في بعض المراكز المصطفاة ، شعورا قويا بماتماز به طبيعة اللغة من قوة خيالية أو مجازية ، وبما هنالك من روابط تجعل اللغة أوثق بالشعر منها بالمنطق .

على أن كثيرا من خيرة هؤلاء المفكرين ممن ظلوا يرون في الفن رأيا خارجا عن الفن « كالمذهب المفهومي أو المذهب الأخلاقي أو مذهب اللذة » ظلوا كذلك ينفرون نفورا واضحا من التوحيد بين اللغة والشعر . وفي رأينا أن هذا التوحيد محترم وسهل معا ، ما دمنا فهمنا الفن على أنه حدس ، وفهمنا الحدس على أنه تعبير ، ووجدنا بذلك ، ضمنا ، بين التعبير واللغة ، إذا فهمنا اللغة بمعناها الواسع . فما قصرنا تحكما على ما يدعى باللغة الملفوظة ، ولا حذفنا منها ، تحكما عنصر النبرة والاشارة ، وإذا فهمناها بكامل قوتها ، أي إذا فهمناها في واقعها ، من حيث هي فعل الكلام نفسه ، فما خلطنا بينها وبين مجردات النحو والمفردات . ولا ظننا - يا للحماقة - أن الإنسان يتحدث وفقا للنحو ووفقا للمفردات . إن الإنسان يتحدث في كل لحظة كما يتحدث الشاعر لأنه كالشاعر ، يعبر عن تأثيراته وعواطفه في هذه الصورة التي يسمونها كلامية أو مألوفة ، والتي لا تفصلها أية

قوة عن سائر العصور التي يسمونها نثرية ، أو نثرية شعرية ، أو قصصية ، أو ملحمية أو حوارية درامية ، أو غنائية أو موسيقية وما الى ذلك . ولئن كان لا يسىء الانسان أن يعد كالشاعر (وهو في الحق كذلك ، لكونه انسانا) فما ينبغي ان يسىء الشاعر أن يجمع الى عامة الناس ، فان هذا الجمع يفسر لنا لم كان للشعر الراقي سلطان عظيم على كافة النفوس الانسانية ، فلو كان للشعر لغة خاصة ، لو كان « لغة الآلهة » لما استطاع البشر أن يفهموه لئن كان الشعر يسمو بالبشر ، فانه لا يسمو بهم فوق ذواتهم ، بل داخل ذواتهم : وهكذا نرى الديمقراطية الحقبة والاستقرابية الحقبة ، في هذه الحالة ايضا تلتقيان : فيلتقى الفن باللغة ، وتلتقى فلسفة الفن بفلسفة اللغة حتى ليتمكن ان تعرف كل منهما بالآخرى ، أى أن تعدا شيئا واحدا وان هذا التوحيد بين الشيئين يعود على الدراسات الفنية والشعرية بفائدة عظيمة ، فيخلصها من رواسب النظريات المفهومية والاخلاقية ، ونظريات اللذة التي لا تزال تلاحظ بوفرة عظيمة في النقد الادبي والنقد الفني . كما انه يعود بفائدة عظيمة على الدراسات اللغوية التي يحسن ان نخلصها من المناهج الفسيولوجية والنفسية الفسيولوجية التي تجرى الآن مجرى المودة ، وان نحررها من نظرية الاصل الاصطلاحي هذه النظرية التي ما تفك تتجدد ، والتي تستتبع وراءها المزاوجات الغيبية بين الصورة والاشارة ، لان اللغة لا تفهم على انها اشارة ، بل على انها صورة اشارة . أى على انها اشارة للصورة ذاتها ، وبالتالي صورة ذات لون موسيقى وضاء . ان الصورة هي نتاج عفوى للخيال ، لان الاشارة التي يتفاهم بها الانسان مع الانسان ، تفترض مقدما وجود الصورة وبالتالي وجود اللغة (٢٧) .

هذا العرض الممتع الذي عرضه علينا كروتشه للنظرة المنطقية للغة ، وما ترتب عليها من آثار في المذاهب البلاغية والنقدية جدير بأن يلقى الضوء على كثير مما التبس على أذهان الدارسين حين يفرقون بين لغة الخيال ولغة المنطق ، وحين يفصلون بين اللغة والشعر ، وحين يميزون بين اللغة العارية واللغة المزخرفة وحين يزاوجون بين الصورة والاشارة ، وكلها تقسيمات خطيرة تعود على النقد الادبي والبلاغة بالضرر البالغ ، وتباعد بين الدارسين وبين الفهم الصحيح لطبيعة اللغة الادب .

ولما كانت هذه الافكار وثيقة الصلة بدراساتنا البلاغية ومنهج العرب القدماء في درس البلاغة ، وفي تصورهم للغة ، فقد حرصنا كل الحرص على ان نثبت هنا ما قاله كروتشه كاملا حتى ينتبه مؤرخو البلاغة الى ما ينهض من مناهج البلاغة على مبدأ سليم ، وما لا ينهض منها الا على ضيق في النظرة وفساد في الحكم .

الشكل والمضمون ووظيفة الادب

تؤمن المدارس المثالية في الادب بأن الاثر الادبي - ايا كان نوعه - انما يصدر عن تجربة خيالية أو حدسية تلتبس لذاتها ولا تهدف لغاية من وراءها ، اللهم الا ما في التجربة ذاتها من جمال

أو للذة أو جودة . وبمعنى آخر وعلى حد قول وولتر باتر ، ليست الغاية في الاثر الفني هي ممارسة التجربة بل التجربة ذاتها . وواضح ان اصحاب هذه النظرة لا يعنون في التجربة الشعرية أو الأدبية الا بقيمتها الجمالية والفنية وحدهما ، والفن عند هؤلاء ليس وسيلة للتعبير عن المشاعر الخاصة ، بقدر ما هو وسيلة لخلق صور واخيلة واحساسات تبعت على اللذة ، وتنشر الجمال للجمال وحده . اما ما في العمل الفني من نشاط آخر عقلي أو اجتماعي ، أو فلسفي أو أخلاقي فليس له قيمة في ذاته ، وفي هذه الحالة لا تتوقف قيمة العمل الفني على ما فيه من خير خلقى أو اجتماعي أو فلسفي ، ولا يتوقف معيار صدقه على أى شىء يقع خارج العمل الفني نفسه .

وواضح ان اصحاب هذه النظرة لمفهوم الاثر الأدبي وطبيعته ووظيفته قد تورطوا في خطأ جوهري ، فهم بهذا الاتجاه انما يعزلون مادة الفن عن صورته ، ولا يلقون بالا لكل ما يتضمنه الأدب من أمور تتعلق بالمجتمع والأخلاق وسائر مقومات الحياة الفكرية العميقة ، وما يتصل بالحياة الإنسانية من مشاكل هي في الحقيقة من صميم تفكير الفنان . فاذا كانت مشكلة الفنان الحقيقية هي في محاولته الربط بين شعوره بفردية الحياة ، وبين حقيقة العالم حواله ، فان الشاعر الذى يبدو في وصفه للعالم مغرقا في الرومانسية والمثالية انما هو شاعر لم يصب الا قسما ضئيلا من النجاح ، بل لعله ان يكون في بعض الاحيان مازفا عن محاولة الخوض في موضوعات تحتاج الى تقمص مشاعر الآخرين ، والى قدر من قوة الخيال التى بدونها لا تتوافر للأدب أصالته وقدراته . أضف الى هذا اننا اذا زعمنا ان ليس في دولة الفن العبادة الجمال ، وأن الجمال وحده هو غاية الغايات في دولة مستقلة ذات سيادة ، فقد حجبنا الأدب عن ممارسة الحياة ، بل قل جعلنا الحياة شيئا ساذجا لا يستحق ان يعاش .

وفي هذا يرد عليهم الناقد الماركسي جوزيف هريمان بقوله :

« ان الناقد الليبرالى يطلب منا ان نعتقد اننا حين نكتب عن رياح الخريف وكيف عبثت بشعر فتاة ، أو نكتب عن النهود العطشى ، انما نكتب عن تجربة . فان كتبنا عن ثورة أكتوبر أو مشروع السنوات الخمس أو عن شئق الزوج في جنوب الولايات المتحدة أو عن أضراب سان فرانسيسكو ، فهذه الموضوعات لا تسمى تجربة » (٢٨) .

وفي هذا ايضا يقول ستيفن سبندر : « الشعر ليس مجرد تصوير لحظة احمرار وجنات الحببين أو رؤية جمال الزهرة أو روعة لون الغروب ، بل الشعر هو الذى يمتد سلطانه فيشمل الحياة بأسرها ، بل وما بعد الحياة ، هو ذلك النهر الهائل الذى يروى الحياة كلها ، لا يحتقر الضئيل الغض ، وان كان يتجاهل التافه » (٢٩) .

(٢٨) الاشتراكية والأدب ص ٥٢ د . لويس عوض

(٢٩) الحياة والشاعر تأليف ريتشاردز ترجمة ترجمة د . مصطفى بدوى ص ١٨

هذاما وقع فيه المثاليون من خطأ أماليساريون المتطرفون فخطأهم لا يقل فظاعة عن خطأ المتطرفين من اليمينيين. فاذا كان اليمينيون قدامبداوا الجمال والفرد وحدهما، فان اليساريين قد أحلوا عبادة الجماعة محل الفرد ، وعبادة المادة محل الجمال ، وجعلوا ظواهر المجتمع بشتى صورته السياسية والاقتصادية غاية يسخر لخدمتها الانسان ، وليست وسيلة تسخر لخدمة الانسان .

وما نظن ان القضية بحاجة بعد هذا التحليل الى ان ينقسم فيها النقاد الى فئتين ، احدهما تقول بوجود ان يكون الادب هادفا ، والاخرى تنادى بضرورة ان يترك الادب حرا من قيود الاهداف ، ذلك ان جذور الخلاف كائنة كما يقول الشاعر الالماني الحديث « اريك نوساك » في خطأ الناس بين مفهومين متميزين : مفهوم « الانساني » ومفهوم الاجتماعى ولو أدركنا فى وضوح ان « الاجتماعى » وسيلة تحقيق لنا « الانساني » لزالنا عن المشكلة عقدها ، لو أدركنا ان كل ظواهر المجتمع بشتى صورها السياسية والاقتصادية انما جاءت ، او جىء بها لتخدم الانسان - والانسان لا يكون الا فردا - لادركنا تبعا لذلك ان الادب لابد ان يكون هو الانسان المتعين المتجسد . فاذا شغل الاديب نفسه باحداث عصره ، فانما يشغلها بها من الجانب الذى يصور لنا وقفة الانسان ازاء هذه الاحداث ، بحيث اذا زالت الاحداث ، واختفت امارتها ، بقيت صورة الانسان حية فى كل عصر وفى شتى الظروف (٣٠) .

وما دام التوجه الى الانسان هو غاية الادب الحقيقية فى كل عصر وكل زمان ، بغض النظر من اتجاهات الادب ومدارسه ، فان الادب العظيم هو الادب الذى يتامل العالم والانسان وقوانينه، ويتساءل لماذا تجرى الامور على هذا النحو ، والادب الباقي هو الذى يستمد قوته من الحياة والجمال معا ، وهو الذى ينظر بعين يقظة الى المجتمع الانساني ، فيناصر من هذه المجتمعات ما يتمشى مع القيم الانسانية ، وما يساير الحق والعدل والجمال . فالاديب الحق يحرص على ان يكون لنظم المجتمعات غاية تعكس ما فى نفوس البشر ، وافراد المجتمع الواحد من هموم وآمال وشعور بالحب والحاجة الى التطور والتقدم .

على ان التوجه الى الانسان - ايا كان محتواه الفكرى او الفلسفى او الاجتماعى - لا يرتقى الى مستوى الفن الا اذا توافرت فيه شروط العمل الفنى ، ذلك اننا نعلم ان الذى يحدد القيمة النهائية لاي عمل فنى هو ما يحتوى عليه من قيم فنية وجمالية . ومهما تكن قيمة المضمون واهميته فلا بد له فى النهاية ان يتحول الى فن ، والعمل الذى لا يقنعنا فنيا يظل قاصرا من بلوغ كماله .

نحو علم جمال عربي

((تصور وتطبيق))

● تمهيد ***

شغلتنى - عبر أعوام طويلة من حياتى - فكرة ظلت تلح على الحاحاً متواصلاً . وكانت تنجس بين الحين والحين فى بعض كتاباتى ، بطريقة نظرية أو تطبيقية . ولقد فجر فى نفسى هذه الفكرة ، سؤال القيتة على نفسى بالمصادفة : لماذا لا يكون لنا « علم جمال عربى » ؟

ووجدتنى أبحث عن تحديد دقيق لهذا المصطلح . وفضلت فى البداية أن أكتفى بالتعريفات العامة المبسطة . فعرفت هذا المصطلح بأنه « النسق الفكرى المترابط الذى نبحث من خلاله عملية الإبداع الفنى » ونختبر على ضوءه طبيعة الأعمال الفنية فى اللغة العربية ، وسيكولوجية مبدعها ، والعناصر التى شكلت ذوقه بطريقة فلسفية .

ويمكن أن نحدد بهذا التعريف بعض التحديد ونعتبر علم الجمال العربى : هو « مجموعة الأسس النظرية والقواعد والقوانين التى ندرس على ضوءها التجربة الجمالية .

ونمتحن من خلالها الخبرة الجمالية ، ونتذوق عناصرها الفنية ، وقيمها التصويرية والتعبيرية والتشكيلية » . فعلم الجمال العربى - اذن - يؤدى الى ادراك ماهية الجمال الفنى ، فى الاجناس الادبية والفنية المختلفة .

ورحت أفتش عن سبب لاختفاء هذا اللون من ثقافتنا العربية المعاصرة . على الرغم من أنها حفلت بكل الاجناس والانواع الادبية ، حتى تلك الاجناس الادبية - التى قيل أن تراثنا العربى قد خلا منها خلوا تاما ، او على الاقل ، لم يعرفها بصورتها المتطورة الناضجة - كالرواية والاقصوصة والمسرحية ، عرفت ثقافتنا العربية الحديثة ، وطورتها ، واصلتها وانضجتها ، وتحولت الى اجناس ادبية عربية ، لها اصولها الجمالية وتقاليدها الفنية .

فلماذا خلت ثقافتنا العربية الحديثة من هذا العلم ، مع انه ضارب بجذوره فى حضارتنا العربية ، وتراثنا العربى ؟

من الممكن أن تؤجل الاجابة على هذا السؤال ، حتى نتعرف على بدور هذا العلم وجذوره المتأصلة فى تراثنا العربى القديم .

● تاريخ وموازنة ...

ولكى تتضح فى اذهاننا الصورة كاملة ، نشير الى نشأة علم الجمال وكيف انتقل الى الحضارة الاوربية وكيف تطور فى الثقافة الغربية ... وبدون الدخول فى تفاصيل ، نحب أن تقدم عرضا سريعا بين يدى القارئ لنحدد له طبيعة هذا العلم ونشأته ومساره فى الحضارات القديمة والحديثة .

نشأ هذا العلم نشأة طبيعية فى حضن الثقافة اليونانية القديمة ، وكان طبيعيا أن يكون فرعا من فروع الفلسفة . وقد اهتم به سقراط وافلاطون وأرسطو ، وبحثوا فى ماهيته ووضعوا له الحدود والتقسيمات . وتشير الكتب التى اهتمت بفلسفة الفن وعلم الجمال الى بدور هذا العلم فى المحاورة التى جرت بين سقراط وتلميذه « هيباس » عندما سأل سقراط تلميذه .

- ماذا عسى أن يكون الجمال ؟

- وأجاب (هيباس) أستاذة ، بأن راح يعدد له بعض الاشياء الجميلة .

فلم يجد سقراط بدا من أن يلفت نظره تلميذه الى انه لم يكن يسأل عن « الجزئيات » التى تنطبق عليها صفة الجمال . وانما قصد من وراء سؤاله : معرفة ماهية ذلك (المدرك) الكلى الذى نسميه باسم (الجمال) . فليس من شأن فلسفة الجمال أن تبحث فى احصاء انواع الجمال ، وانما تنحصر مهمتها فى تعريف ماهية الجمال « (١) » .

(١) الدكتور ذكريا ابراهيم : فلسفة الفن فى الفكر المعاصر ٦ (مكتبة مصر سنة ١٩٦٦) .

ويحدثنا الدكتور زكريا إبراهيم في كتابه « فلسفة الفن في الفكر المعاصر » أن هذا المفهوم الأفلاطونى الذى اشرنا اليه في المحاور السابقة ، ظل كما هو في الفكر الاوربى الحديث ، وبخاصة عند هؤلاء الفلاسفة المثاليين فهو « بعينه فهم هيجل في القرن التاسع عشر لمهمة (علم الجمال) . ففى كتابه (دروس في علم الجمال) ، أكد : أنه لابد من أن نتخذ نقطة انطلاقنا من (الجمال) بوصفه (فكرة) أو حقيقة كلية لأننا بذلك ، وبذلك فقط نستطيع ان نتجنب الوقوع في الكثير من المأزق التى تسببها لنا كثرة المواضيع الجميلة . او تعدد مظاهر الجمال في الطبيعة والفن على السواء » (٢) .

ثم تطور هذا العلم بعد ذلك في الثقافة الاوربية تطورا كبيرا ، وبخاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين ، على أيدي الفلاسفة والمفكرين ، وتنوعت اتجاهاته ومدارسه وتصوراته حسب فلسفة كل فيلسوف من فلاسفة هذين القرنين . ويبدو أن ازدهار هذا العلم في أوروبا في هذين القرنين يعود الى ازدهار فلسفاتهم وتطورها الكبير ، وكان من الطبيعى ان يهتم الفلاسفة بفلسفة الفن وعلم الجمال ، لأنهما من العناصر التى تدخل في مجالات بحوثهم واهتماماتهم . وكان اهتمامهم بدراسة الظاهرة الجمالية والنفاذ الى باطن العمل الفنى لا يعنى وضع معايير للجمال يطيعها منتجو الأعمال الفنية ، بل كان مجرد دراسة نظرية معرفية .

فعالم الجمال « ليس بمأمل تنحصر كل مهمته في الإدراك الحسى ، كما انه ليس بفنان يصدر في عمله عن الهام فنى ، وإنما هو باحث تتمثل وظيفته في فهم الظاهرة الجمالية ، والعمل على توضيحها في اذهاننا ... فليس (علم الجمال) علما معياريا يبين لنا ما ينبغى ان يكون عليه العمل الفنى ، وإنما هو علم وصفى يدرس العمل الفنى باعتباره ظاهرة بشرية تدخل في صميم النشاط الروحى للموجود البشرى ... وعالم الجمال لا ينصح الفنان بشيء ولا يلزمه بشيء . بل يقتصر على دراسة النشاط الفنى ، والنفاذ الى المعنى الباطنى العميق للعمل الفنى . (٣)

ثم اخذت نظره الفلاسفة المحدثين لدراسة علم الجمال تتطور وتأخذ مسارات جديدة . فبعضهم اعتبرها مجرد دراسة تجريبية للذوق الانسانى . والبعض الآخر يحولها الى دراسة لسيكولوجية الابداع الفنى والتذوق الجمالى . والبعض ، من الذين يهتمون بالتفسيرات الاجتماعية ، ربطوها بالنشاط الحضارى ، وغدت دراسة تعنى بالبحث في العلاقة بين منتج الفن وجمهوره . وقد كانت هذه التحولات ثمرة من ثمار اهتمام الأدباء وغير الفلاسفة ببحوث علم الجمال . وان كان من الحق ان تقرر ان الفلاسفة والمهتمين بالدراسات الفلسفية ظلوا على اهتمامهم بدراسة علم الجمال ، والاهتمام بالخبرة الجمالية في حد ذاتها ، باعتبارها نشاطا انسانيا يؤكد حرية الفرد وقدرته الابداعية .

(٢) المصدر السابق والصفحة

(٣) المصدر السابق ٧ - ٨ (بتصرف)

على ان أهم تحول طرأ على دراسة علم الجمال ، هو ما حدث في مطلع القرن العشرين ، أو في ربعه الأول على وجه التحديد ، وعلى أيدي مجموعة من الباحثين الألمان من أمثال « دسوار » و « أوتيتس » . وغيرهما ، فقد حولوا « علم الجمال » وفلسفة الفن وبحث الظاهرة الجمالية ، الى (علم عام للفن) وهجروا بصورة نهائية هذه التسميات السابقة : « علم الجمال » أو « الاستطيقا » لتصورهم ان التسميات الأولى ، غير محدده وغير علمية ، وترتبط في اذهان الناس بالتأمل الفلسفى المجرد . في حين انهم كما يقول الدكتور (زكريا ابراهيم) « قد ارادوا ان يجعلوا من (علم الفن العام) دراسة وصفية تستوعب شتى مظاهر الخبرة الجمالية دون ان تصطبغ بأية صيغة معيارية » (٤) .

وقد كان هدف هذه الدراسة الوقوف على نشأة الظاهرة الفنية وتقويمها « ومعرفة وظائفها البدائية وبيان علاقتها بما عداها من الظواهر الحضارية الأخرى . وقد كتب (أوتيتس) مجلدين ضخمين بعنوان « أسس علم الفن العام » حاول ان يبين - فيهما - ان الفن لا يمثل ظاهرة نوعية مستقلة ... بل هو واقعة من وقائع الحضارة أو الثقافة بم معناها العام ... وليس علم الفن العام مجرد دراسة علمية وصفية ، أو موضوعية للظاهرة الجمالية ، تختفى فيها شتى التأملات الفلسفية حول طبيعة الجمال ، وتنعدم فيها كل الاحكام التقويمية ، بل هو أيضا دراسة بشرية عامة ، تظهرنا على الوظائف الدينية والقومية والنفسية والوجدانية » (٥) .

واذا كان هذا الاتجاه في دراسة الظاهرة الجمالية قد حاول ان يحولها الى علم تجريبى وضعى فان الفلاسفة ظلوا يعرضون للخبرة الجمالية على ضوء تأملاتهم الميتافيزيقية ، وتأثيراتهم العميقة التى انتقلت اليهم من التراث اليونانى . وواجهوا « المشكلة الجمالية في ضوء فهمهم العام لطبيعة الوجود البشرى ، ولصلة الخبرة الجمالية بما عداها من خبرات بشرية أخرى . ومن هنا فقد ظلت فلسفات الفن في القرن العشرين متأثرة بالتيارات الفكرية التى ظهرت في هذا العصر ، مطبوعة بطابع الاتجاه المذهبى لكل فيلسوف من الفلاسفة على حدة . والا فهل يمكننا ان نفهم نظرية برجسون في الفن ، ان لم تكن على علم بمذهبه العام في (الحدس) ؟ ... وهل يكون في وسعنا ان نقف على جوهر « (الخبرة الفنية) عند جون ديوى ان لم تكن على دراية واسعة بنزعه التجريبية المتطرفه واتجاهه البرجماتى الواضح ؟ ... وهل يتسنى لنا ان ندرك معنى العمل عند (هيدجر) اذا لم تكن على وعى تام ، بنوع اتجاهه الفكرى ، وطريقته (الفنونولوجية) في تحليل الظواهر البشرية » (٦)

ومن خلال هذه التيارات والاتجاهات المتعددة في دراسة الظاهرة الجمالية تفرقت المفاهيم التى كانت سائدة قبل القرن العشرين ، على يد مجموعة متنوعة من الفلاسفة ودارسى فلسفة الفن من أمثال « بندقروتشه » و « جوج سفتيانا » و « ديوى » و « آلان » و « مالرو » و « البير كامى » و « مبرلوبونتي » و « سارتر » و « مارتين هيدجر » و « أرنست

(٥٤ - ٥) المصدر السابق (١٠)

(٦) المصدر السابق (١٠ - ١١) « بتعرف »

كاسبر» و «سوزان لانجر» و «هربرت ريد» و «سوربو» و «باير» وغيرهم من الفلاسفة والباحثين الذين تناولهم الدكتور زكريا ابراهيم في كتابه القيم «فلسفة الفن في الفكر المعاصر» .

ولم يكتف هؤلاء الباحثون في فلسفة الفن في القرن العشرين باعادة النظر الى المفاهيم التي درج علماء الجمال على استخدامها مثل مفهوم (التعبير) ومفهوم « الصورة » ومفهوم (الحدس) ومفهوم (الرمزية) ... بل ربطوا علم الجمال بمباحث أخرى مثل (علم اللغة) و « علم النفس » وغيرهما من العلوم التي تهتم ببحوث الذكاء ، والعبقرية ، والابداع الفني . تلك هي الصورة العامة لنشأة علم الجمال وتطوره وتأثيره على الفكر الأوربي الحديث ، اعترف انها اثرت تأثيرا كبيرا في دراساتها الأدبية والنقد الأدبي ، ولكنهم تبلور تيارا محددا واضحا من تيارات علوم الجمال كما حدث في البلاد الأوروبية .

وان كانت هناك بعض الجهود الفردية التي قامت بترجمة بعض بحوث علم الجمال من اللغات الأوروبية الى اللغة العربية . وجهود أخرى قام بها اساتذة في تأليف بعض البحوث القريبة من مباحث علم الجمال ، وان كانت اقرب الى النقد الأدبي ومناهج التحليل النفسي منها الى علم الجمال ومن هؤلاء وهؤلاء على سبيل المثال : يوسف مراد وأمين الخولي والعقاد وزكي نجيب محمود ومحمد خلف الله احمد . ومحمد النويهي ومصطفى ناصف وعز الدين اسماعيل وزكريا ابراهيم وأميرة مطر ومصطفى سويف وفؤاد البهي السيد وغيرهم من بعض اساتذة الجامعة الذين قدموا دراسات جامعية في الابداع الفني .

ولكن كل هذه الجهود العلمية الصادقة المخلصة ، لا تشكل ما يمكن ان نطلق عليه (علم الجمال العربي) وهي في معظمها دراسات متأثرة تأثرا شديدا بعلم الجمال الأوربي وتياراته واتجاهاته ، ويمكن ان ندرجها في مجال النقد الأدبي والدراسة الأدبية .

وببقى السؤال قائما : لماذا لا يكون لنا علم جمال عربي ؟ وهل اختفى هذا العلم من ساحتنا الثقافية الحديثة ، لان رواد الحضارة العربية القديمة لم يلتفتوا اليه ؟ وهذا التساؤل الأخير لا يمثل الحقيقة ولو رجعنا الى تراثنا العربي ، فسنجد كثيرا من فلاسفة الاسلام والمتكلمين والعلماء والأدباء من اجدادنا ، قد عرفوا هذا العلم معرفة دقيقة ، وهم الذين نقلوا هذا العلم الى العالم الأوربي القديم ، قبل النهضة الأوروبية الحديثة ، فقد ترجموا كثيرا من تراث اليونان الفلسفي والأدبي . وقد تأثروا بهذا التراث . وهم الذين ترجموا اهم كتابين من كتب «ارسطو» يعتبران اساسا هاما من أسس علم الجمال ، هما كتاب « الخطابة » و « فن الشعر » ، وهذا الكتاب الأخير ترجمه ولخصه من فلاسفة الاسلام « أبو بشرمى » ويحيى بن عدي و « الكندي » و « الفارابي » و « ابن سينا » و « ابن رشد » ، ولا شك ان هؤلاء المفكرين والفلاسفة ، قد عرفوا أفكار الفلاسفة والشعراء والخطباء اليونان ، ووقفوا على كثير من اتجاهاتهم الأدبية والعلمية . وكان يمكن ان يفيدوا فوائد كبرى في مجال علم الجمال والنقد الأدبي . ولكن اهتمامهم كانت تنجبه في المقام الأول الى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام . وجاءت اهتمامهم الأدبية والجمالية تغطي هامش رسالتهم الأساسية وتبعها لها .

ولكن هذا لا يمنع من أن نجد عند هؤلاء ومن تأثر بهم من الكتاب والادباء العرب القدامى بدورا تعتبر اساسا نظريا لعلم الجمال ، ازدهرت على أيدي بعض الفلاسفة المسلمين ، وبعض رجال المعتزلة والأشاعرة . وبعض فلاسفة المتصوفين .

وكان هم هؤلاء جميعا الوصول الى الدروة في التأثير في الناس وإقناعهم بأفكارهم . وكان سبيلهم الى ذلك التأثير والإقناع ، هو الكلمة الواضحة ، او الكلمة الملهمة المؤثرة . ومن هنا جاء اهتمامهم بدراسة عناصر الإبداع الفني في الكلام ، ووجوه تأثيره والهامة وإيحائه . وتحولت نظراتهم في هذا المجال الى تأصيل فكري لعلم الجمال .

ويمكن أن نشير على سبيل المثال الى كاتب موسوعي كبير **كأبي عثمان الجاحظ** ، وهو من فرقة من فرق المعتزلة ، كيف شغل هذا الكاتب الكبير ببعض الموضوعات التي تعتبر على نحو ما ، من بحوث علم الجمال ، ومن أمعان النظر في كلامه عن هذه الموضوعات نشعر أنه كان يمتلك تصورا فكريا لعملية الإبداع الفني ، فهو يرى مثلا أن الموهبة الفنية هي الأساس في كل إبداع فني . وان الكاتب الموهوب يندفع بفطرته الفنية الى إبداع أعمال أدبية مكتملة الاداة قادرة على التأثير في الناس . ومعيار جودة العمل الفني عند الجاحظ هو هذا التأثير في نفوس الناس أولا . ثم يأتي بعد ذلك ما في الكلام من صواب ومنفعة . ونستطيع ان نجد دليلا على هذا الكلام في تلك النصيحة التي يسديها الى الناشئين من الادباء ، يقول « فاذا اردت ان تتكلف هذه الصناعة ، وتنسب الى هذا الادب ، فقرضت قصيدة أوحبرت خطبة . او الفت رسالة ، فياك ان تدعوك ثقتك بنفسك أو يدعوك عجبك بثمرة عقلك الى ان تنتحلّه وتدميه ، ولكن اعرضه على العلماء في عرض رسائل أو أشعار ، أو خطب ، فان رأيت الاسماع تصفى له ، والعيون تحدج اليه ، ورأيت من يطلبه ويستحسنه ، فانتحلّه . فاذا عاودت أمثال ذلك مرارا ، فوجدت الاسماع عنه منصرفة ، والقلوب لاهية ، فخذ في غير هذه الصناعة . واجعل رائدك الذي لا يكذبك ، حرصهم عليه او زهدهم فيه » . (٧)

وحول استقبح الجفاف العلمي في الشعر وعدم بناء القصيدة على الافكار وحدها ، يقول الجاحظ : « لو أن شعر صالح بن عبد القدوس كان مفرقا في أشعار كثيرة ، لصارت تلك الأشعار ارفع مما في عليه بطبقات ... ولكن القصيدة اذا كانت كلها أمثالا لم تسر ، ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شيء الى شيء ، لم يكن لذلك عنده موقع » . (٨)

ويمكن ان نجد في كتابات الجاحظ افكارا كثيرة حول « الوحدة العضوية » وحول « اللفظ والمعنى » وحول « فكرة التأثير » او « الخيال » وغيرها من الافكار التي تعتبر من مباحث علم الجمال .

(٧) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ، ٢٠٣ (تحقيق عبد السلام هارون)

(٨) المصدر السابق ٢٠٦

فحول اللفظ والمعنى يقول « والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها المعجمى والعربى والبدوى والقروى والمدنى. وانما الشأن فى اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع ، وجودة السبك ، فانما الشعر صياغة ، وضرب من النسيج . وجنس من التصوير » ، (٩) ، فالجاحظ فى هذه العبارات يتحدث كعالم من علماء الجمال الفاهين الذين يرون ان العمل الادبى لا يكتمل الا من خلال البناء الفنى والموهبة التى تلتقط المعانى المطروحة فى الطريق فتصوغها وتنسجها فى كلمات وتعبيرات شفافة ، تبرز جمالها وتزيد فى تأثيرها. ولا اعتقد ان الجاحظ كان يهدف من وراء هذه الافكار وامثالها الى تفضيل اللفظ على المعنى ، كما ذهب الى ذلك كثير من دارسينا ، ولكنه كان يؤكد تلك الفكرة الجمالية التى ترى أننا لا نستطيع فى مجال الابداع الفنى ، ان نفصل اللفظ عن المعنى ، او نفصل المعنى عن اللفظ ، فهما مقترنان متمترجان. ولعل هذه الفكرة هى التى الهمت - فيما بعد - عبد القاهر الجرجاني فى نظريته عن « النظم » التى تعتبر بكل المعايير من مباحث علم الجمال ، وهى تلامس كثيرا من افكار علماء الجمال المحدثين ، والذين يعاودون النظر فى كتابى « اسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر يتأكدون من صحة كلامى هذا .

ويمكن ان نشير الى حكيم آخر من حكماء المعتزلة هو بشر بن المعتز ، وقد كانت له نظرات فى علم الجمال والنقد الادبى . وصحيفته التى سميت باسمه تحمل تلك الافكار والنظرات . ويقول فى هذه الصحيفة حول قضية اللفظ والمعنى « التوعر يسلمك الى التعقيد . والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ، ويشين الفاظك ، ومن اراد معنى كريما فليلتص له لفظا كريما فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف » (١٠).

ويحدثنا عن مناسبة المعانى للالفاظ بقوله لا بد « ان يكون لفظك رشيقا عذبا فخما سهلا ، ويكون معنالك ظاهرا مكشوفيا وقريبا معروفا ، اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، واما عند العامة ان كنت للعامة اردت ، والمعنى ليس يشرف بان يكون من معانى الخاصة ، وكلملك ليس يتضع بان يكون من معانى العامة ، انما مدار الامر على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال » (١١) .

وهناك كثيرون من الفلاسفة والادباء والباحثين العرب القدامى يمكن ان نستشهد بأقوالهم فى هذا المجال من امثال (الامدى) و (قدامة بن جعفر) و (ابن طباطبا العلوى) و (ابن رشد) و (ابن سينا) و (الكندى) و (الفارابى) . ولكن المجال لا يتسع لهذا .

(٩) (الجاحظ : الحيوان ج ٢) ١٢١ - ١٢٢)

(١٠) نقلا عن البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٨ - ١٢٩

(١١) المصدر السابق

وكذلك الامر بالنسبة للمتصوفة . . ولكن لابد من ان نقف عند قضيتين هامتين في هذا المجال هما :

قضية اعجاز القرآن

وقضية الرموز الفنية عند فلاسفة المتصوفين

فقد ثارت حول القضية الاولى قضايا كثيرة ، والفت مباحث متعددة . وكان من الطبيعي ان يهتم أصحاب هذه القضايا والمؤلفات بدراسة الظاهرة الجمالية في التراكيب الادبية حتى يتمكنوا من فهم المغزى الادبي والفنى لامعجاز القرآن الكريم .

وقد ألف كثير من علماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة وأهل السنة . كتباً تدور حول اعجاز القرآن ، ويعتينا هنا بصفة خاصة كتابان بعنوان « اعجاز القرآن » الاول « **لأبى سليمان الخطابى** » والثانى « **لأبى بكر الباقلانى** » .

ولست أقف عند هذين الكتابين لأعرف رأى الخطابى والباقلانى في قضية الاعجاز ، ولكن لأبين موقفهما من فهم الظاهرة الجمالية في نتاج الادباء . ففيهما أفكار وتصورات في الإبداع الفنى والتشكيل البيانى وروعة التجارب الادبية تحتاج الى تأمل ودراسة ، فالخطابى (مثلاً) له مفهوم عام لأجناس الكلام ودرجات جودتها يحدثنا عنها بقوله « ان أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية ، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل . ومنها الجائز المطلق الرسل . وهذه اقسام الفاضل من الكلام ، فالقسم الاول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثانى أوسطه وأقصده . والقسم الثالث أدناه وأقربه . فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الاقسام حصة . وأخذت من كل نوع من انواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الاوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتى الفخامة والعدوية ، وهما على الانفراد في نوعتهما كالمتضادين ، لأن العدوية نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة ، فكان اجتماع الامرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما عن الآخر - فضيلة خص بها القرآن » (١٢) .

ويمكن ان نقف عند معنيين هامين في هذا الكلام للخطابى هما « الجمال » و « الجلال » واثروهما في النفس الانسانية ، وهو يعبر عن الجلال في الاثر الفنى بالرصانه والجزالة والفخامة والمتانة وعن الجمال بالعدوية والسهولة والسلاسة .

ومما يلفت النظر في كلام الخطابى حول الإبداع الفنى : ادراكه العميق للمعاناة التى يتحملها مبدع العمل الادبى وما يجب ان يتوافر له من ثقافة وبراعة وقدرة على تحمل المعاناة وبصر بمواضع التراكيب ونظمها . وهو يحدثنا عن كل ذلك بقوله « وأمر معاناة المعانى التى

تحملها الألفاظ شديد ، بالغ الشدة ، لأنها نتائج العقول ، وولائد الأفهام وبنات الأفكار
وأما رسوم النظم فالحاجة الى الثقافة والحدق فيها أكثر ، لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني .
وبه يتصل أخذ الكلام ، ولتئم بعضه ببعض ، فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها
البيان « (١٣) » .

وهذا كلام لا يختلف كثيرا عن نظرات بعض علماء الجمال في الحضارة الاوربية الحديثة ، عن
علاقة المعاني بالألفاظ التي تحملها ودور الثقافة . والتقاليد الفنية الخاصة بنظم الكلام .

أما « (الباقلائي) » فهو عالم من أهم علماء الأشاعرة ، وكتابه (اعجاز القرآن) من ادق
الكتب العلمية المبكرة التي تناولت بالتفصيل هذه القضية ، ولكنه تناول الى جانب ذلك ، كثيرا من
قضايا النقد وعلم الجمال . وتعرض في معظم صفحات كتابه لدراسة الخبرة الجمالية عند
الشعراء والادباء ، والموازنة بينهما وبين أساليب القرآن الكريم في التصوير والتعبير ، وطريقته في
عملية النظم ، وقد تحول الكتاب الى معرض انيق للتذوق الشعري العميق .

ويمتاز الباقلائي عن غيره من المتكلمين ومن كثير من اللغويين والكتاب ، بأنه كان يختار نصا
كاملا يجرى عليه تجاربه في التذوق الفني ، فوقف عند « معلقة امرئ القيس » . واستشهد بأشعار
كثيرة تناولها في دراسته ووازن بينها وبين البلاغة القرآنية .

وفكرته عن اسلوب النظم في الكلام جيدة ، وآراؤه حول اللفظ والمعنى ، وعملية الإبداع
الشعري ، سليمة مستقيمة تدل على ذوق مرهف وحس فني عميق . وهو يميز تمييزا كبيرا بين
ذوق العلماء ، وذوق الأدباء والشعراء في عملية التقويم الشعري والتذوق الفني . وله تصور
فني متكامل لطبيعة التعبير الأدبي والفني .

فالكلام عنده موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس . وإذا كان كذلك وجب ان يتخير من
اللفظ ما كان اقرب الى الدلالة على المراد ، وواضح في الإبانة عن المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلع
على الأذن ، ولا مستنكر المورّد على النفس ، حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الأفهام ، أو يمنع
لعويص معناه عن الإبانة . ويجب ان يتنبه ما كان عامي اللفظ مبتدل العبارة ، ركيك المعنى ،
سفسافي الوضع ، مجتلب التأسيس ، على غير أصل مههد ولا طريق موطد « (١٤) » .

يبقى أن أشير في نهاية هذا العرض السريع ليدور علم الجمال وجذوره في تراثنا العربي ، الى
قضية الرموز الفنية عند فلاسفة المتصوفين . وهي قضية هامة ومتشعبة تحتاج وحدها الى
دراسة متخصصة وتكاد تكون نظرية مستقلة في علم الجمال ورائد هذه النظرية بلا مراء ، هو
الشيخ الأكبر « محيي الدين بن عربي » . فقد اهتمدى هذا الفيلسوف المتصوف ، الى نظام
رمزي كامل ، طبقه على اللغة والفكر ووصل من خلاله الى كشوف فكرية وفنية كبيرة .

(١٣) المصدر السابق ١٧

(١٤) المصدر السابق ١٧٨ .

وقد درس (ابن عربى) هذا النظام الرمزى فى موسوعته الكبرى « الفتوحات المكية » . درسه فى السفر الاول تحت عنوان « علم الحروف » وعاد اليه فى السفر الثانى بالبحث والدرس . ولست بصدد تقويم هذا النظام الرمزى الذى اهتدى اليه ابن عربى ، فهذا الامر محتاج الى فترة طويلة للتفرغ الكامل لهذا النسق المعقد الذى استغرق مئات الصفحات فى الفتوحات المكية ، ولكن الذى لاشك فيه ان قدرة ابن عربى على التذوق الفنى والادراك الجمالى ، تسلكه فى زمرة علماء الجمال ، وان كان الرجل لم يكن يقصد الى هذا ولا يسره ان ينال هذا اللقب ، فقد كان همه الاكبر الوصول من خلال هذا كله الى علم الباطن ، ليكون طريقه الى الروح الأعظم . وسر الاسرار ، الذى كان الهدف من كل مكابذاته الصوفية ، واشواقه الروحية .



اذن لماذا اهتمنا كل هذا التراث الرائع . ؟ ولماذا لم تتطور هذه النظرات العميقة فى دراسة الخبرة الجمالية ، كما تطورت فى الحضارات المختلفة ؟

ولماذا بقينا بلا علم جمال عربى حتى الآن ؟

ولا اريد ان اغامر بالرد على هذا السؤال . فليس يكفى ان نقول ان انقطاع تيار الريادة فى مجال الفلسفة الاسلامية والعربية كان وراء هذا الامر . فلاشك ان عندنا مجموعة من المفكرين والدارسين للفلسفة الاسلامية والمهتمين بالادب والتذوق الجمالى والفنى ، كان من الممكن ان يقوموا بتأصيل نظرى حديث لعلم الجمال العربى فى ساحتنا الثقافية .

وعلى كل حال فليس المهم ان نجيب على التساؤلات التى تثيرها ، ولكن الاهم ان نفجر المزيد من هذه التساؤلات ، ثم نترك الاجابة عليها للتطورات الفكرية والروحية واحداث الحياة وتقلباتها ، ومرور الايام وكر الليالى . فهى كفيلة بان تحل اعقد المشكلات ، وتجييب على أصعب الاسئلة .

وقد نجيب على السؤال بطريقة اخرى ، وذلك بأن نقوم بمحاولات فى سبيل الوصول الى علم جمال عربى . وقد قمت - على امتداد عشرين عاما - بمحاولتين ، او بمعنى أدق بمغامرتين فى هذا السبيل لا مفر من ان اعرض لهما مادمت اتحدث عن خلو ساحتنا الثقافية من « علم جمال عربى » .

واتمنى ان تثير حول هاتين المحاولتين مزيدا من الجدل والحوار والنقد والتفنيد حتى نبلور هذه الافكار ونحدد المصطلحات ، مادامنا نسعى الى « علم جمال عربى » .

محاولتان :

المحاولة الاولى :

اما المحاولة الاولى فقد عرضت لى وأنا أقوم بدراسة تفصيلية فى شعرنا المعاصر سنة ١٩٥٨ وكنت أقف عند شعر الرائد الكبير **محمود حسن اسماعيل** طويلا ، اعيش بين صوره واتذوق

تجاربه الفنية ، واحلل طرائفه التعبيرية وقيمه الجمالية . ولكن كنت احس في شعر محمود حسن اسماعيل بشيء آخر غير كل هذا ، شيء يغمر نفسى ، ويهز وجدانى ، ويحرك عقلى . واحيانا كنت اسمع همسه واضحا فى اذنى . . ما طبيعة هذا الشيء ؟ هل هى القدرة اللغوية الفائقة عند الشاعر ؟ هل هى الطاقة الشعرية ؟ هل هو قاموس محمود حسن اسماعيل المنفرد ؟ هل هى طريقته فى تشكيل صورته الفنية ، وتراكيبه وتعبيراته ؟ هل هو مزيج من كل هذا . .)

ووجدتني ابحت عن تصور جديد لاكتشاف هذا الشيء . وبعد معايشة طويلة لمعظم شعر محمود حسن اسماعيل ، ووجدتني اهتمت : حقاً لقد وصل هذا الفنان الكبير الى درجة « الوجد الشعرى » وسحرني رنين هاتين الكلمتين ، وفرحت بهما فرحاً كبيراً فقد مهدا الى الطريق الى المحاولة الاولى . واكتشفت ان الفنان الموهوب لابد ان يصل في مرحلة من مراحل حياته الى ذروة النضج الفنى ، وكما يصل المتصوفة والسالكين الى الوجد الصوفي يصل الفنان الى شيء قريب من هذا ، لابد من الكشف عنه وتحديد بطريقته موضوعية .

الوجد الفنى

وقررت ان اطلق على هذا الشيء اسم « الوجد الفنى » .

واعترف ان فكرة (الوجد الفنى) هذه ، تراءت لى فى الاصل خاطرة صوفية عابرة ، فى لحظة من تلك اللحظات المبهمة النافذة العميقة التى تشبه الاشراق الصوفى ، وقد اقتنصت تلك الومضة الحائلة ومزجتها بفلسفة الجمال ، ومصطلحات النقد الادبى ، واستيقظ طموحى العارم وتذكرت خلو ساحتنا الثقافية من علم جمال عربى ، فحاولت ان اجعل من تلك الومضة العابرة لبنة من لبنات هذا العلم . فاستعرت مصطلح « الوجد » من قاموس المتصوفة والسالكين واستندته الى تجربته الفنية فصار « وجدافنيا » . ورحت ادرس على ضوء هذا الاكتشاف « جهاز الابداع الفنى » وطبيعته وطريقته فى ابداع التجربة الفنية وادوات الابداع التى يعمل من خلالها هذا الجهاز . وجعلت اتساءل هل اللغة وما يحيط بها من اشعاعات وظلال ، وما تفجره من شحنات وصور ورموز ، هى ادوات هذا الجهاز ؟ وكيف يعمل هذا الجهاز من خلال هذه الادوات والرموز ؟

وما علاقة كل هذا بالعالم الخارجى ، او عالم الفنان الباطنى ؟

ثم عكفت - بعد ذلك - على وضع بعض الاسس الموضوعية لهذا (الوجد الفنى) من خلال دراسة التجربة الفنية فى مراحلها المختلفة حتى تصل الى ذروة التوهج والاشراق وتقلت معنى كلمة « الوجد » من قاموس الفلاسفة الاليين والمتصوفة وحولته الى مصطلح جمالى يصور ارتباط مبدع الفن بتجربته الفنية ارتباطاً عضوياً حياً متوهجاً ، فيه جدة الفن وعمق الشعور ونضج الاداة الفنية . وحددت السمات والخصائص التى تميز الوجد الفنى . ومنها :

التنبه الحاد المصحوب بيقظة الحس ورهافة الشعور وعمق الاحساس بالحياة .

جيشان النفس واحتدام العاطفة ، والروح الانساني العميق الذي يحتضن الوجود بما فيه من كائنات .

غزارة الموهبة ، وثراؤها ، واكمال الاداة الفنية ، مع الاحساس بالدهشة الدائمة من مظاهر الوجود ومرآتي الطبيعة .

ووضحت ايضا الروايات المتعددة التي يمكن ان نطل منها على الوجد الفني والتي يمكن ان يتحول اليها :

فقد يكون معيارا فنيا نختبر من خلاله التجربة الفنية ، وندرس ظروف مبدعها وطبيعته

وقد يتحول الى فلسفة جمالية اذا درسنا على ضوءه ، تصور الفنان للجمال ، وادراكه للعلاقات والنسب التي تشكل معمار العمل الفني .

وقد يصبح حالة تلم بالفنان ، فتغير نظره الفنية ، وتصيغ ادراكه للاشياء ونظيره للعلاقات الانسانية .

وقد يتحول الى سمة من سمات العمل الفني ، وخصيصة من خصائصه ، ويكون ادراك تلك السمات والخصائص الجمالية ، منهجاً نقدياً يمكن ان نقيده منه ونفسر على ضوءه الاعمال الادبية والفنية . على ان هذه التحديدات الصارمة لم تمنعني من القيام بعمليات متعددة من التدقيق الجمالي من خلال منهج « الوجد الفني » فقامت بدراسة لشعر محمود حسن اسماعيل بعنوان « الوجد الشعري عند محمود حسن اسماعيل » . . . ودرست على ضوءه بعض التجارب الصوفية كاحياء علوم الدين ومشكاة الانوار للغزالي . والرعاية لحقوق الله للمحاسبي والرسالة القشيرية للقسري . والفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي .

وقامت بدراسة فكرة الموت على ضوء منهج الوجد الفني . ومن خلال هذا المنهج تدوقت القصيدة العينية لابن سينا « هبطت اليك من المحل الارفع » . وهي تجربة عميقة تمتزج فيها الرؤية الفكرية بالرؤية الفنية امتزاجاً تاماً ، حتى يصعب علينا ان نفصل فيها بين التفكير والتصوير والتعبير . ولعل ذلك يعود الى ان الشاعر كان قد وصل الى تلك الحالة المتوهجة المشرقة ، التي تلم بمن يصلون الى درجة الوجد الفني ، فتحولت الفكرة في وجدانه الى تجربة مشبوبة في اعماقه ، فخرجت القصيدة الى الوجود على هذا النحو المركب الذي تسوده وحدة عضوية ووحدة فنية ووحدة شعورية . وقد تراءت لي اشياء جديدة في اثناء الدراسات التطبيقية التي كنت اقوم بها على ضوء نظرية « الوجد الفني » .

مثلاً . وانا ادرس الفتوحات المكية لابن عربي تبين لي انه اصل مجموعة من النظرات الجمالية . ووضع نسفا متكاملما للمعرفة يتلاءم مع افكاره وتصورات . وتوصل الى مجموعة من الرموز الفنية في الباب الذي سماه « علم الحروف او « علم الاسرار » . وأشاع مجموعة من المصطلحات الفنية واللغوية من الممكن ان تكون نواة صلبة لعلم جمال عربي . الى جانب ما توصل

اليه من رموز واشارات ، واستخدامات للغة :مكنته من ابداع مجموعة من النصوص الادبية والفنية ، اعتقد انها تثرى نقدنا العربي الحديث ،لو صبرنا على فهمها وسير اغوارها ، واخضعناها للدوق العصري .

واكتشفت وانا ادرس (مشكاة الأنوار) للامام ابي حامد الغزالي ، انه توصل الى النور الباطني والظاهري وربط بين الدين يدركون هذه الانوار وبين من يتذوقون الموسيقى ويدركون طبيعة الالحن ويتذوقون الاغاني ويميزون بين الاوتار وقال « فانظر الى ذوق الشعر كيف يختص به قوم من الناس ، وهو نوع احساس وادراك . ويحرم منه بعضهم ، حتى لا تتميز عندهم الالحن الموزونة المتزحفة . وانظر كيف عظمت قوة الدوق في طائفة حتى استخرجوا بها الموسيقى والاغاني والاوتار » .

وقد نشرت بعض هذه الدراسات التطبيقية التي قمت بها . ولفت نظري بصفة خاصة ما اثاره البعض حول دراسة التراث العربي واستلهامه واستيحائه على ضوء هذا المنهج ، فقد ظن البعض ان هذه حيلة العجا إليها لاجاء التراث العربي ، ولا أدري لماذا نحتال لاجياء تراثنا ، وهو واجبنا جميعا . ولكن الحقيقة المجردة ان « الوجد الفني » معيار نقدي يصلح لدراسة الادب المعاصر والادب القديم على السواء .

فليس طريقا لتلخيص آراء العرب القدامى في علم الجمال وتصورهم لفلسفته .

وليس منهاجا لاعادة النظر في مدلول كلمة الوجد عند الصوفية على اختلاف مدارسهم وتصوراتهم .

وليس دعوة تلفيقية لمزج افكار مختلفة من مدارس علم الجمال في الحضارة الاوربية ، وخلقها بافكار مشابهة في تراثنا العربي .

فالوجد الفني معيار نقدي معاصر استلهم في البداية التراث العربي ، ثم تحول بعد ذلك الى مصطلح جديد له اسسه وخصائصه وسماته التي حددتها في هذه الدراسة .

وهذا في نظري ، هو المعنى الحقيقي لاستلهام التراث ، فنحن نعمل عقولنا وذوقنا المعاصر في خامات مشبعة عميقة من تراثنا ، لنحولها بعد ذلك الى شيء جديد ، له غزارة الايحاء وعبق التراث في اطار المنهج العلمي الحديث .

ليس معنى ذلك انني لم استفد من نظرات العرب القدامى في علم الجمال وتصورهم للعملية النقدية ، او لم استفد من معاني الوجد عند الصوفية ، او من افكارهم في الدوق والجمال والخير والحب والوهم والخيال ، والابداع الفني بل الصحيح ان هذه الاشياء كلها ، كانت الخمرة الاساسية لهذه الفكرة ، اختلطت بهذه العناصر كلها وتغلغل فيها فانتجت هذا الذي نسميه « الوجد الفني » .

واعتقد انني افدت كثيرا من تطبيق (معيار الوجد الفني) على الاعمال الفنية والادبية للمتصوفة والسالكين ، لان اصحاب تلك التجارب وصلوا في معظم الاحيان الى حالة من الوجد

الصوفي ، وهى وقدة روحية مشحونة بالالوان والظلال تهز النفس الانسانية وتفجر كل طاقات الابداع ، ومن ثم تكون الاعمال التي يبدعونها ، على هذا المستوى المشحون المتوتر المتوقد ، وانتهت من هذا الى ان كل اديب لا يصل الى تلك الوقدة الروحية والشعورية وهو يبدع عمله الفني ، لا يكون اديبا بالمعنى الحقيقي . قد ينتج في غير هذه الحالة أعمالا كثيرة ، ولكنها تظل أعمالا فائرة ، لا تهز الوجدان ، ولا تلد العقل ، ولا تثر القلب ، ولا تثير الشعور . ولا تلهب الخيال ، ولا توصلنا الى هذه القبضة الفكرية والجدل الروحي ، الذي نشعر به عادة بعد ان نقرأ الاعمال الادبية الشامخة .

وتبين لى - بعد ان وصلت الى هذا الحد - ان « الوجد الفني » معيار خاص لا يصلح لسير أغوار كل التجارب الادبية . فهو يعمل التجارب المتوسطة والجيدة ، وبناء عن التجارب العادية . ويسقط من حسابه كثيرا من الادباء والفنانين الذين لم يصلوا الى تلك الحالة من التوهج والاشراق التي يصاحب عادة من يصلون الى درجة الوجد الفني . وبذلك يكون معيارا خاصا بالقسم والشوامخ والاعمال الادبية والفنية الكبرى .

على أية حال ليس عيبا ان يكون الوجد الفني معيارا خاصا . وليس عيبا ان يصل الفنان ومبدع الأدب الى تلك الحالة ، من التوهج والاشراق التي نسميها وجدا فنيا ، لانهما عندما يصلان الى تلك المرحلة ، يبدعان أعمالا فنية رفيعة ، تمتزج فيها التجربة الشعورية بأدوات الفنان والاديب التعبيرية والتصويرية والتشكيلية وتنصهر في باطنهما التجربة اللغوية بالتجربة الشعورية ، ويخرج العمل الفني موجدا ، تتلأأ في داخله رؤية الفنان متمزجة بأدواته اللغوية ، وصوره التعبيرية وندفقه الشعوري .

ولكن هذه الخصوصية في المعيار تستلزم خصوصية فيمن يستخدمه واذا كان مبدع الفن قد وصل الى حالة الوجد الفني ، فلا بد ان يكون الناقد الذي يتناول عمله ، قد وصل هو الآخر الى تلك الحالة من التوهج والاشراق ، اى قد تربع على قمة الوجد الفني .

ولا شك ان تذوق الجمال في الحروف والاصوات والانغام والاضواء والاشكال ، يعطى الناقد رصيذا من التجارب المتعددة والدربة والخبرة في استكناه اسرار الجمال في العلاقات بين الاشكال وبعضى الزمن والنضج واكتمال الاداة ، والامعان في دراسة الخبرة الجمالية ، تتحول هذه الخبرة عند الناقد الى « حدس فنى » وبذلك يصل الى درجة التوهج والاشراق والوجد الفني ، التي يصل اليها مبدع العمل الادبي والفنى . وبذلك يتساوى - حيال معيار الوجد الفني - الفنان المبدع مع عالم الجمال والناقد الذي يتناول الاعمال الفنية ، ويصح الناقد والدارس للخبرة الجمالية فنانا مبدعا . لا فرق بينه وبين الفنان المبدع الا ان الاول يأخذ تجاربه من الحياة مباشرة . بينما يأخذ الفنان الناقد تجاربه الابداعية من الاعمال الفنية . على اننى اعترف ان معيار (الوجد الفني) لم يستكمل حظه من الدراسة ، ولم يتحدد بصورة نهائية . ولعل ذلك يرجع الى اننى عانيت في المقام الاول بالدراسات التطبيقية على ضوء الاصول النظرية القليلة التي اهتمت اليها . ولم اشأ أن اتفرغ للتأصيل النظرى في بداية الامر ، وتركت

الباب مفتوحا امام الجديد الذي اكتشفه على ضوء الخبرة الجمالية ومن خلال تذوق الاعمال الادبية . وظل الامر على هذا النحو حتى استفرقتني المشاغل ، وانصرفت نهائيا عن « معيار الوجد الفني » ولم أعد اتناوله في مجال التنظير ، او في مجال الدراسات التطبيقية .

ولكن يبدو أن فكرة « علم الجمال العربي » ظلت تقبع في اللا شعور ، ولم تفارقني ابدا . حتى اتيج لها ان تخرج في شكل جديد يختلف عن « معيار الوجد الفني » وكان ذلك نواة المحاولة الثانية .

المحاولة الثانية :

منهج الرؤية الفنية

ولهذه المحاولة قصة ، فقد اكتشفت اننا في مجال الدراسة الادبية لاعلام شعرنا العربي لا نزال نجتر الافكار التي اهتدى اليها الرواد في مطلع هذا القرن والعقود الثلاثة التي تلت ذلك ، وقد نستثنى بعض الدراسات القليلة التي حاولت ان تضيف جديدا ، او تقدم شيئا مبتكرا ، مع ان الدراسة الادبية تطورت في العالم تطورا كبيرا ، واحتدمت الساحة الثقافية في اوربا وامريكا بالنظريات النقدية الكثيرة والحديثة .

ثم رأيت ما طغى على معظم دراساتنا الادبية من وقوع في برائن المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فوقعت في خلل كبير اصاب التذوق الجمالي بنكسة كبرى . ومحوت معظم دراساتنا الادبية وخاصة في الثلث الثاني من القرن العشرين الى وثائق سياسية ونظريات في الاجتماع والاقتصاد .

وعن لى ان اقف مع القلة القليلة من الاساتذة الجامعيين الذين لا يزالون يولون القيم الجمالية عناية كبرى . ويحاولون اعادة الدراسة الادبية الى طبيعتها الاصلية .

وفكرت في القيام بعمل ايجابي يجمع بين امرين . الامر الاول : اعادة دراسة اعلام شعرنا العربي من جديد ، حتى هؤلاء الذين درسوا على ايدى الرواد واعلام النقد العربي الحديث . في محاولة لتقديمهم للأجيال الجديدة من خلال تصور جديد يستلهم ما جد من تطورات على مناهج النقد والدراسة الادبية في العالم .

والامر الثاني : ان اصطنع منهجا جديدا يتيح لى ان انفذ من خلاله الى جوهر التجربة الفنية لهؤلاء الشعراء ، وان اقدم شيئا جديدا ، يحمل بعض النظرات المبتكرة .

واخترت ان ابدا دراساتي هذه ، بتقديم شاعر من اكبر شعراء العربية على امتداد عصورها هو « أبو الطيب المتنبي » وكان السبب في اختيار هذا الشاعر ، وتقديمه في طليعة هذه الدراسات لونا من المعازلة ، ونوعا من التحدى ، فهذه الشاعر بالذات حظى بدراسات كثيرة والفت حوله مئات الكتب في القديم والحديث . والاقبال على دراسته من جديد ، يؤكد للأجيال الجديدة ، ان طبيعة الدراسات الانسانية تختلف عن طبيعة العلوم ومناهجها ، وان احدا لا يستطيع ان يقول فيها الراى الاخير ، وان التجارب الفنية والادبية مهما قيل حولها ، في حاجة دائمة الى من يقول

فيها رأيا جديدا . واهتديت - بعد معاناته - الى منهج متميز ، تناولت على ضوءه المتنبي . وسميته « منهج الرؤية الفنية » . وقيمت بتحديد هذا المنهج تحديدا نظريا ، وفصلت قواعده وأساسه العلمية . وان كنت في دراستي لعالم المتنبي الشعري لم أشأ أن أثقله بتلك التفصيلات النظرية ، وهذه الاسس الفكرية (١٥)

واكتفيت بتقديم بعض الاصول النظرية العامة في مقدمة المقالة الاولى من هذه المقالات التي نشرتها عن المتنبي ودخلت فيها عالمه من خلال رؤية فنية .

وكنت انشر بين الحين والحين - وفي اثناء الدراسة ، بغض ملامح نظرية لهذا المنهج .

معالم منهج الرؤية الفنية

ويمكن في هذا المجال أن أتناول بصورة عامة معالم منهج الرؤية الفنية ، وأحدد سماته المميزة ، وأشير الى بعض أدواته وبعض مصطلحاته الجمالية .

ولا أريد أن أضع له تعريفا جامعا مانعا من الدوالة الاولى ، ولتقتصر على وصفه حتى نتيج له النمو بعد ذلك . وهو على أية حال « منهج ينظر الى العمل الادبي من الناحية الفنية والادبية . وليس مقيدا بصورة سابقة ولا بنمط فكري معين ، أو مذهب سياسي أو اقتصادي أو عقيدة من العقائد ، ولكنه يلج مباشرة الى داخل العمل الادبي مجردا من كل الافكار السابقة . ثم يحاكم العمل من خلال مقاييسه الجمالية والفنية ، ويصل الى أهدافه ومرامييه من خلال معايير فنية بحث .

ولكن ليس معنى ذلك أن هذا المنهج يتنكر للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية لمبدع العمل الادبي والفني ، فلا شك أن هذه الظروف تؤثر تأثيرا عميقا بصورة أو بأخرى على الاعمال الادبية والفنية ، وتشكل طابعها العام ، ولامحها الاساسية ، وتميز تقاليدها الجمالية في عصر من عصر آخر . ولكن هذا التأثير لا يكون بصورة مباشرة فقد يكون بلرة صغيرة تنمو داخل التجربة الادبية والفنية وتحول مسارها وجهات متعددة ، وقد يكون هذا التحول ملائما لطبيعة هذه الظروف ، وقد يكون على النقيض منها ، وقد يكون مزيجا مركبا من هذين النقيضين ، المهم أن الفنان عندما يجبل تجربته الفنية ، لا يصوغها من جزئيات العالم الخارجي بطريقة مباشرة ، ولكنها تتحول بجزئياتها وعناصرها داخل جهاز ابداعه الفني هذه التحولات المركبة المعقدة . ثم يزداد تعقيدها بما يحيط بها من عناصر الابداع الاخرى غير المنظورة والتي ترجع الى طاقة الفنان وموهبته .

ومن أجل هذا كان على الناقد الذي يتناول عملا ادبيا أو فنيا ، أن يطرح كل افكاره السابقة ، ويدخل مباشرة الى داخل العمل الادبي والفني يتذوقه ويتعرف على عناصره الجمالية والفكرية ، ويعرف طبيعته الفنية وتقاليد الجمالية . ولا شك أن كل عمل فني له عالم خاص مستقل

(١٥) الثقافة - مايو سنة ١٩٧٧ وراجع الاعداد ٤٤ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ من مجلة الثقافة .

كل الاستقلال عن كل الظروف الخارجية ؛ وله معايير ومقاييسه الخاصة به ، وقد يكشف الناقد أن جزئيات العمل الأدبي والفنى الذى يعيش فى داخله ، قد تشكلت من بعض عناصر العالم الخارجى ، ومن كل عناصره ، وقد يجد فى داخل العمل اصداء واضحة للظروف السياسية والاقتصادية والعقائدية التى احاطت به . هنالا يمكن لمنهج الرؤية الفنية ان يتنكر لهذه العناصر التى اكتشفها الناقد من باطن العمل الفنى والأدبى .

ولكن منهج الرؤية الفنية ينكر كل الافكار، ما شاع فى بعض الدراسات الادبية التى تصطنع المناهج الاجتماعية والعقائدية مما يسمى (بالحتمية والجدلية) بين ظروف مبدع العمل الأدبى والفنى وبين ظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية وطبيعة حياته ونزعاته . لأن الذين يقولون بهذه الحتمية ، مقيدون بمعايير أخرى ، تختلف عن معايير العمل الأدبى والفنى ، ثم هم يبدأون دراستهم من خارج النص الأدبى والفنى ، فاذا دخلوا الى باطن العمل الفنى ، فلكى يبحثوا فيه عن السياسة والاقتصاد والاجتماع واصداء المذاهب والافكار ، وقيسوا على ضوءها شعر الشاعر وعمل الأديب وفن الفنان ، ويبحثوا عن مطابقة هذه الاعمال لتلك الظروف الخارجية ، فاذا طابقتها فهى أعمال ادبية صادقة وممتازة ، واذا لم تطابقها فهى فى نظرهم أعمال غير صادقة او ضعيفة او زائفة . وبذلك تتحول الاعمال الادبية والفنية . عند هؤلاء الى وثائق سياسية وتاريخية واجتماعية وفى بعض الاحيان الى وثائق نفسية .

ولكن منهج الرؤية الفنية ينكر كل الافكار ، جذريا عن تصور هؤلاء ، يختلف فى طبيعة عمله ، وفى تصوره وفى ادواته الفنية . فهو - كما قلت يبدأ من داخل العمل الأدبى والفنى نفسه فهذا العمل الأدبى والفنى فى نظره ، كونه مستقل عن عناصره الأولى وجزئياته التى اسهمت فى تشكيله ، كونه خاص له قوانينه الموضوعية وتقاليد الجمالية الخاصة به . فشعر المتنبى مثلا صام لغوى جمالى ، مستقل كل الاستقلال عن عناصره الأولى التى شكلته ، وهى ظروف الشاعر السياسية والاجتماعية وتأثره بافكار عصره وعقائد مجتمعه ، هو خلق لغوى مستقل ، ولكن يعمور فى داخله كل ما يعمور فى الحياة من تيارات ، ولكنه ليس الحياة ذاتها ، وقد نصل من خلال هذا العالم الفنى الى احداث وظروف تطابق احداث حياة الشاعر وظروف نفسه ، وقد نصل الى احداث تناقض الاحداث التى نعرفها عن الشاعر لان الشاعر عندما يشكل تجربته الشعرية تتفاعل وتحول الى خلق لغوى وعالم فنى مستقل عن جزئياته التى شكلته ، فظروف الشاعر واحداث حياته ، قد تكون مجرد مثير للتجربة ، وقد تلهم تلك الظروف والاحداث صورا عكسية . وقد يحور الشاعر فى تلك الاحداث وقد يضيف اليها احداثا من عنده يخترعها اختراعا . وقد يطمس كل الاحداث الخارجية طمسا تاما . ولهذا فالربط الحتمى الساذج بين الظروف الخارجية وبين العمل الفنى ، عمل تأباه طبيعة (منهج الرؤية الفنية) . وهذا هو الفرق الاساسى الذى يميز هذا المنهج عن بقية مناهج الدراسة الادبية التى تهتم بالرؤية الاجتماعية .

(الرؤية الفنية) منهج فنى يهتم بالعمل الفنى وحده ومن داخله يصل الى كل القسم الفكرية والجمالية . وقد تكون هذه القيم من عالم السياسة او من عالم الاجتماع او من طبيعة النفس البشرية ، المهم ان نتوصل اليها من داخل العمل الفنى وفي اطاره ، وبهذا يختلف منهج الرؤية الفنية أيضا عن مناهج الدراسة الادبية ، التي لا تهتم الا بالنواحي الجمالية او تصطنع مناهج التحليل النفسى ، او التحليل اللغوى .

انه منهج يجمع فى اطار واحد بين جوهر كل تلك المناهج ، ولكنها تتفاعل وتتوحد وتتحول الى معيار واحد هو ما اطلقت عليه « منهج الرؤية الفنية » .

لقد افاد هذا المنهج من كل مناهج النقد الموضوعية والتاريخية والجمالية والاجتماعية والنفسية . ولكنه فى النهاية حدد لنفسه نسقاً معيناً يميزه عن كل هذه المناهج ، وجعل له طبيعة مختلفة ووظائف متغايرة .

على أن هذا المنهج لم يقتصر فى تناوله للأعمال الادبية والفنية على الادوات المتعارف عليها فى مجال الدراسات الادبية ، ولم يكتف بمصطلحات البلاغة القديمة ولا مصطلحات النقد السائدة . وانما اصطنع لنفسه مصطلحات جديدة وصك تعبيرات جمالية جديدة ، ونوع فى استخدام الادوات النقدية وافاد فى كل ذلك بعلم اللغسة الحديث والدراسات الصوتية . كما افاد من مجالات فنون اخرى كالنقش والتشكيل والموسيقى والتصوير .

ولقد كانت الدراسات التطبيقية مجالاً لاختبار هذا المعيار الجديد وامتحان المصطلحات الجديدة التى حاولت ان احكمها . لان الاصول النظرية لاي منهج من المناهج ، تظل قيماً جامدة ساكنة ، لا تنبض فيها الحياة الا اذا نزلت الى ساحة الاستعمال التطبيقى . وقد اتاحت لى دراسة شعر المتنبي من خلال منهج « الرؤية الفنية » ان اختبر بصورة تطبيقية معظم هذه المصطلحات الجديدة . فاسهمت بشكل جيد فى حل كثير من المشكلات التى كانت تواجهنى ، وانا اقوم بعملية التدقيق الفنى ، قبل ان اهتدى الى هذه المصطلحات . وارجو ان استشهد فى غير هذا المجال بنماذج تطبيقية تبين كيف كنت اقلب على هذه المشكلات . لاني خصصت هذه الدراسة للجانب النظرى .

ولست ارجو فى استقصاء كل المصطلحات التى حددتها خلال « منهج الرؤية الفنية » وكفى ان اذكر اهم هذه المصطلحات مع التعريف به .

ولعل من اوائل المصطلحات التى اهتديت اليها مصطلح « التشكيل اللغوى » والفنان العظيم يملك الى جانب موهبته الفنية وطاقته الابداعية موهبة التشكيل اللغوى ، وهى التى تعينه على تشكيل العمل الادبى والفنى من خلال الصور ، او من خلال براعته فى استخدام الكلمات وتتابع المقاطع ، والقدرة على استخراج ظلال الالفاظ وايحاءاتها وجرسها ، واكتشاف المعانى المستكنة فى باطن الكلمات .

وهناك مصطلح آخر يتصل بفكرة التشكيل اللغوى فى الشعر اطلقت عليه « بناء القصيدة على طريقة اللوحة » فالشاعر الذى يملك القدرة على هذا التشكيل الفنى . يبنى قصيدته بالطريقة

التي يشكل بها الفنان لوحته . فكما يهتم الفنان - وهو يبدع لوحته - بالاضواء والظلال ، والفراغ والنسب في المساحات والالوان ومعالم الاطوار الذي يضم كل هذه العناصر ، يهتم الشاعر بكل هذه الاشياء . ولكن في حدود وسائله التعبيرية والتصويرية ؛ فادواته التي يبنى منها قصيدته على طريقه اللوحة : هي الحروف والالفاظ والمقاطع . والشاعر الذي يملك هذه القدرة الفنية ، يستطيع أن يشكل عمله من خلال تنابع الحروف وانتقاء الالفاظ والمقاطع . يستطيع أن يحدث ظلالا وفراغات ومساحات ويفجر فيها الضوء ، وقد يستخدم موهبته السمعية والبصرية في مراعاة النسب في القصيدة وادراك التوازن والتباين والتدرج والابقاع والتماثل في الاطار العام الذي يشكل فيه القصيدة وبذلك تحول القصيدة الى لوحة نبحت فيها عن كل هذه العناصر التشكيلية . وقد اتاح لى هذا المصطلح أن اسمى قصائد المتنبي لوحات . وحلت بصورة تفصيليه على ضوء هذا المصطلح الجديد ثلاث لوحات من شعر المتنبي . هي اللوحة الاولى وهي قصيدته التي مطلعها

« ضيف الم براسى غير محتشم والسيف أحسن فعلا منه باللم »

واللوحة الثانية : قصيدته التي مطلعها

« وأحر قلباه ممن قلبه شبح ومن بجسمى وحالى عنده سقم »

واللوحة الثالثة : قصيدته التي مطلعها :

« ليالى بعد المظاعنين شكوك طوال وليل العاشقين طويل »

وقد تبين لى بعد تدقيق هذه اللوحات الثلاث ان المتنبي يملك حسا فنيا متفوقا وقدرة باهرة على الاحساس بالالوان والظلال في الكلمات ، ولقد كان يشكل منها لوحاته الفنية تشكيلا اخاذا جذابا لا يتأتى الا لفنان موهوب يملك ناصية اللفظة . ويعرف كل مفرداتها ، ويفهم دلالاتها المختلفة .

هناك مصطلح آخر اطلقت عليه « الاشعاع الفنى » وهو مترتب على سجية شخصية تكون في الفنان الموهوب . وهي « جاذبية الشخصية » الفنية . والفنان الذي يملك جاذبية الشخصية يتمكن بسهولة من ادراك الالفاظ والتعبيرات والحروف والمقاطع التي تسهم في عملية البناء الفنى وتزيد في حيوية العمل الفنى ، ولكن هذه الجاذبية تتحول الى شيء آخر عند الفنان المبدع هو الذى سميت « الاشعاع الفنى » . وهو شيء لا يمكن أن نقف عنده في تعبير أو تصوير أو تركيب أو صورة ، ولكننا نحسه عندما نقرأ العمل الفنى ، ساريا كالنور يضيء بين اجزائه وفصوله ، ونذكر آثاره بالتدقيق ، متمثلا في تلك الغبطة والنشوة والجلد الروحي ، الذى نحس به بعد فراغنا من قراءة عمل فنى ممتاز .

اننا نحس آثار هذا « الاشعاع الفنى » ونطرب لها ، لا مجرد طرب حسى عابر ، ولكن على صورة جيشان فكرى وروحى وفنى ، يلازمنا وقتنا طويلا وبغيرنا . وبذلك نصير شيئا آخر غير الذى كنا عليه ، قبل القراءة . . شيئا جديدا يضيء داخلنا ذلك (الاشعاع الفنى) الذى سرى الينا من العمل الفنى العظيم .



هذه أهم المصطلحات الجديدة التي أضافها (منهج الرؤية الفنية) ، الى مصطلحات النقد الأدبي وعلم الجمال .

وهناك مصطلحات أخرى ثانوية وغير دائمة تجيء من داخل العناصر التي تشكل العمل الفني او من الأفكار التي يحتوى عليها العمل .

مثلا « فكرة الزمن » قد تتحول عند فنان موهوب من مجرد فكرة تدل على معنى محدد ، الى مصطلح جمالي يسهم في تشكيل العمل الفني كله ، فتصهر كل الادوات التعبيرية والتصويرية وتدوي فكرة الزمن في كل جزئية من جزئيات العمل الفني .

ولا اريد ان اتابع الحديث عن هذه المصطلحات الثانوية ويكفي هذا المثال دليلا عليها .

ونعود مرة أخرى الى منهج (الرؤية الفنية) بعد ان عرنا طبيعته ووظيفته وادواته التي يستخدمها صاحب هذا النهج في تذوق الاعمال الفنية ، لتساءل . :

هل هذا منهج جديد حقا ؟ ! وهل من حق الباحثين والدارسين ان يحاولوا اصطناع مناهج جديدة في النقد الأدبي وعلم الجمال ؟

وسأترك الرد على الشق الاول من السؤال للقارئ ، الذي عرف هذا المنهج من هذا العرض النظري ، وتابع تطبيقاته التي نشرتها في مجلة الثقافة القاهرية . واتخذت شعر المتنبي مجالا لتطبيقه ، وتمحيص قيمة الفنية . واختبار معايير الجمالية .

اما الرد على الشق الثاني من السؤال . فيتلخص في ان من حق كل باحث او دارس في كل عصر من العصور ان يتذوق العمل الفني بالطريقة التي تروق له ، وان يعيد قراءة الاعمال الفنية القديمة ، قراءة جديدة ، وان يستخرج من تجربة الاديب والفنان ، ملامح جديدة في الابداع والفن ، وان يعيد تحليلها وتركيبها على ضوء قراءته الجديدة من خلال ما يصطلح من مناهج .

وهذا هو العمل الذي يعمل منهج « الرؤية الفنية » والذي حاولت استخدامه .

قراءة جديدة للتجارب الأدبية والفنية ، وتحليل لمكوناتها الجمالية ، وتفسير لخصائصها الفكرية والروحية ، وتركيب جديد - على ضوء هذا التحليل والتفسير - حول التجربة الفنية والحديث عنها ، الى شيء جديد . وبهذا يتحول العمل النقدي الى عمل فني ابداعي ، يثير من الامتناع واللذة العقلية والفنية ، ما تثيره التجربة الأصيلة من متعة جمالية وروحية . وتحول - بذلك - التجارب النقدية الى تجارب فنية . ويقدر ما تتعدد الاعمال الفنية ، يجب ان تتعدد الاعمال النقدية التي من هذا الطراز الفني ، بل يمكن ان تتعدد الاعمال النقدية تعددا كبيرا حول عمل فني واحد . فالعمل الفني لا يسبح بكل أسواره لناقد واحد مهما كانت مواهبه وقدراته واكتمال ادواته . وسيظل لكل ناقد جديد - سر جديد يبوح له به دون غيره ، ومن الممكن ان يظل العمل الفني محتفظا بأعظم خصائصه واجمل سماته واكبر أسواره لناقد معين قد لا يجيء الا بعد ألف عام او أكثر .

ولعل هذا ما يفسر لنا ما نراه الآن من جدّة وطزاجة وإبتكار في دراسات نقدية جديدة . تعرض لأعمال جاهلية وعباسية وأموية . كما نجد في دراسات الدكتور مصطفى ناصف عن الشعر العربي ودراسات الدكتور عبد القادر القط عن الأدب الإسلامي والأموي ودراسات الدكتور محمد النويهي عن الشعر الجاهلي ، ودراسات الدكتور إبراهيم عبد الرحمن . وغيرها من الدراسات التي تتناول جوانب الأدب القديم .

لكن يبقى أن أطرح على نفسي سؤالاً ، هل هاتان المحاولتان اللتان قدمت لهما تأصيلًا نظريًا في هذه الدراسة يمكن أن تكونا نواة لعلم جمال عربي ؟

✽ وهل تصلحان أساسًا نظريًا لمزيد من الدراسات التطبيقية ؟

✽ وهل تصلحان للنقد والتمحيص ؟

✽ وهل حقًا هما محاولتان جديدتان ؟

وإدع الإجابة على كل هذه الأسئلة للمتخصصين في الفلسفة والنقد الأدبي وعلم الجمال وعلوم اللغة ، ولا شك أنني سأفيد من توجيهاتهم فائدة كبرى .

ولكن ردي على السؤال بصفة مبدئية أنني لم أنظر إلى هذين المنهجين إلا على أنهما محاولتان . وهذا وحده يؤكد أنني لا أزال في مجال المحاولة والتجريب . وقد أصل في يوم ما إلى أساس نظري متكامل يصلح أن نقول عليه : هذا هو « علم الجمال العربي » ولكن هاتين المحاولتين - وحدهما - لا تصلحان أساسًا لهذا العلم الذي نهفوا إليه ، ونسعى إلى تأصيله في ساحتنا الثقافية ، ولكنهما بالتأكيد خطوة نحو علم جمال عربي .

تقويم المحاولتين

وإذا كان لي في نهاية هذه الدراسة ، أن أقوم بنقد هاتين المحاولتين ، فأنني اعترف أولاً بالعيب الأساسي ، الذي تسلل إليهما ، على الرغم من محاولتي الشديدة تجنب الوقوع فيه ، وهو الاختلاط وعدم التحديد الدقيق للمصطلحات ، وأن كان هذا الأمر في النهاية سيتيح لي أن أمعن النظر طويلاً حتى انتهى إلى التحديد الدقيق للمصطلحات ، والتعريف الجامع المانع لها .

وهناك مشكلة تثور حول هذين المنهجين ، ومن الممكن أن تكون عيباً ، ما لم نحاول العمل على تحديد حجمها وتوضيح ما تثيره من اختلاط .

وهذه المشكلة تلخص في أن هذين المنهجين يتشابكان مع مدلول « النقد الأدبي » بشقيه النظري والتطبيقي .

وفي رأيي أن النقد الأدبي يقف على أرض مشتركة مع « علم الجمال » وهناك مساحات كبيرة يتجولان عليها معا .

على ان علم الجمال ظل لفترة طويلة فرعاً من فروع الفلسفة ، وعندما انفصل عنها احتضنه النقد الادبي ، وظل رافداً من روافده حتى الان ، والنقد الادبي نفسه ظل ممتزجاً لفترات طويلة بالدراسات الادبية والادب المقارن وتاريخ الادب والنظريات الادبية . ولم يستقل كل علم منهما استقلالاً تاماً الا بعد تقدم الدراسات العلمية وقيام المتخصصين بتحديد دقيق صارم لكل نوع من هذه الانواع .

ولهذا لن افزع كثيراً اذا وجدت هاتين المحاولتين تدخلاً على نحوهما في مجال النقد الادبي .

وان كنت اعتقد انهما اقرب الى علم الجمال منهما الى النقد الادبي . لانهما تحاولان اساساً البحث في ماهية الجمال . والخبرة الجمالية في الادب والفن .

و (معيار الوجد الفني) موغل في القرب من علم الجمال ، لانه يقوم في البداية على اساس فكرة فلسفية ، اقتبستها من قاموس فلاسفة المتصوفة . ولان الاسس التي يقوم عليها اقرب الى التنظير الفلسفي ، وهو من هذه الناحية يكاد يكون علماً « معيارياً » وان كانت له جوانب اخرى تتمثل في الادوات الفنية التي يستخدمها لدراسة الخبرة الجمالية ، وتلدق النصوص الادبية والفنية . وهذا الجانب يقرب من النقد الادبي ويجعل « الوجد الفني » يلامس مناهج العلوم الوصفية .

اما منهج « الرؤية الفنية » فعلى العكس من (منهج الوجد الفني) جانبه الاهم ، موغل في القرب من النقد الادبي وهو الجانب الذي يهتم بتدقيق العمل الفني من خلال ادوات النقد الادبي، ولكن يقلب عليه من ناحية اخرى الاهتمام بدراسة الظاهرة الجمالية وتحديدها تحديداً علمياً كلون من الوان المعرفة الفلسفية . وهو صميم علم الجمال .

وهناك عيب اعترف به في نهاية هذا التقديم وهو الحماس الشديد الذي غلب على بعض اجزاء الدراسة في هاتين المحاولتين . وقد كان هذا الحماس ناشئاً عن احساسني بانني لا بد ان آتي بشيء جديد . ولعل هذا الاحساس هو السبب الرئيسي في كل العيوب التي لحقت بالمنهجين .

ولكن حسبي - في هاتين المحاولتين ، انني بذلت جهدي ، واستنفدت ، في البحث والتدقيق طاقتي ، فان اخطأت فلي اجر المحاولة ، وان اصبحت فلي اجران ، كما يقول العلماء . والله من وراء القصد . وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انبت . ، ، .

★ ★ ★

عبدالعزيز محمد الزكي

يحيى حقي بين المصرية والتركية

لا جدال في أن دراسة فن يحيى حقي الأدبي يستلزم التعرف على نشأته وأسايب تربيته ، خاصة وأنه نشأ وتربى في أسرة ذات أصلا بتركية تعرضت في أحضان المجتمع المصري ، وتعرض بذلك لكثير من الصراع بين المصرية والتركية ، كما تراوحت حياته بين الانتماءات الصوفية الإسلامية والبوذية الرومانسية . . وأسايب التفكير الشرقي والحياة الغربية الحديثة . ثم محاولاته للنجاة من تلك المتناقضات في رحاب حرية الفنان . . ومع ذلك فإذا كان هذا البحث يركز على مشكلة صراع يحيى حقي بين تركيبتها الموروثة ومصريته التي يحياها فإن الهدف الأخير منه هو أن يبين كيف انتصر يحيى حقي على ذاته ووصل إلى نوع من السلامة النفسية التي شق على الكثيرين من أقرانه الوصول إليها . وقد حقق له ذلك الكثير من وضوح الرؤية ونفاذ البصيرة مما جنبه التخبط والضياع . وعاونته على ممارسة الفن وهو متحرر من مختلف العقد الموروثة والمكتسبة . . .

- ١ -

أن جلور يحيى حقي ليست مصرية صميمية، فقد نشأ جده « إبراهيم حقي » في بلاد المورة بجنوب اليونان ، في حين كانت تنتشر أصول العائلة في ربوع تركيا وفروع منها في مصر .

وشاهد ابراهيم حقى من قرب بعض نواحي النهضة الأوروبية الحديثة الى أن بدأت أوروبا تضيق الخناق على العناصر التركية في حركة مناهضة الحكم العثماني بقصد تحرير بلاد اليونان ، وصاحب ذلك هجرة الكثيرين من الأتراك من أوروبا الى تركيا وغيرها من أقطار الدولة العثمانية ، وبذلك رحل ابراهيم الى مصر بعد أن توسطت له خالته السيدة « حفيظة هانم » خازندارة قصور الخديو اسماعيل ، ونجحت في تعيينه في خدمة الحكومة المصرية التي كانت تعاني نقصا في مختلف الوظائف الحكومية ، التي لا يشغل كوادرها العليا في غالب الأحيان الا من له صلة قرابة بالعناصر المصرية التركية الاصل ...

وهكذا حضر ابراهيم حقى التركي المقيم في بلاد اليونان .. والجامع بين الحضارة الاسلامية وحضارة الغرب الحديثة - الى مصر في عهد الخديو اسماعيل طلبا للدخل المستقر ورغبة في الامن ... واستلم مهام وظيفته ببلده دمياط ، واخذ يتدرج في وظائف الحكومة حتى اصبح مدير مصلحة في بندر المحمودية بالبحيرة (١) في ظروف سياسية معقدة تتشابك فيها الصراعات بين العناصر التركية والمواطنين المصريين ...

وعاصر ابراهيم أحداث الثورة العربية ، وعاش كل ما تعرضت له العناصر التركية من انفعالات ومشاعر ، وانساق في من أعمال وتصرفات نتيجة للتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تمر بها مصر في ذلك الحين .. ومع ذلك استقر فكر ابراهيم حقى على البقاء في مصر ، وتزوج من سيدة تركية تعيش في مصر ، انجب منها ثلاثة من الإبناء اكبرهم محمد والد يحيى حقى ، والثاني محمود طاهر الذي الهبت مشاعره الفنية وهو في فورة الشباب « مذبحه دنشواي » فانفعل باحداثها وخرج علينا برواية « عذراء دنشواي » ، وهي أول رواية فيها مشاركة وجدانية وطنية من العناصر التركية للمواطنين المصريين . اما الابن الثالث فهو « كامل » ولا يكاد يذكر عنه يحيى حقى شيئا ..

والذي يهمنا هنا هو الابن الأكبر محمد حقى ... ولقد ولد محمد حقى في مصر ، وحاول والده ان ينشئه في أول الامر تنشئة اسلامية صرفة ، فالحقه بأحد المعاهد الازهرية حيث حصل على نصيب من الثقافة الاسلامية العربية قبل ان يلتحق بأحدى المدارس الفرنسية ، ولكنه لم يلبث ان قطع تعليمه عندما أدرك أن ظروف أسرته المتوسطة الدخل لا تقوى على تكاليف المدارس الفرنسية ، ورضى بوظيفته في وزارة الأوقاف .. ولكن صلته بالثقافة والعلم لم تتوقف ، وحده طموحه الثقافي الى قراءة عيون الكتب العربية كديوان المتنبي وكتب الغزالي ومقامات الحريري ، استجابة لنزعات ادبية وميول فنية ساعدته على حفظ روائع الشعر العربي ، فاكسب فصاحة في اللسان وقدرة على البيان . وتزوج محمد حقى أيضا من سيدة البانية الأم تركية الأب تعيش مع أسرتها في بندر المحمودية حيث كان والدها يعمل دليل مكتب البريد .. وكانت السيدة/ سيدة السيد حسين تجيد القراءة والكتابة ، كما كانت شديدة التدين تقبل على قراءة

(١) يحيى حقى : اشجان علو منتسب : سيرة ذاتية .. مجلة « عالم الفكر » المجلد الخامس - العدد الثالث : أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٤ - الكويت .

القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف والسيرة النبوية العطرة ، كما الملت كذلك بكتب الادب العربى القديم ... وهكذا شب يحيى حتى بين والدين يعشقان الادب ويميلان للقراءات الاسلامية ..

ولقد انجب محمد سبعة من البنين والنتين من البنات ، وكون أسرة كبيرة العدد تحملت الأم شتى المسؤوليات وكثيراً ما أشاد يحيى حتى بتضحيات والدته ودورها الفعال في حسن تربيته هو وأخوته وأخوانه فقال : « ربنا بيدها تطبخ وتطعمنا متكلفة في ذلك أشد العناء متمايلة للوصول بنا مستورين لآخر الشهر ... ربنا بلسانها تحت بغير الحاج على الاستقامة والجد والمذاكرة كسوط صاحب الجواد الاصيل له دفع وليس له لسع ... وبتنا بنظراتها اذا كنا في تجمع من الناس تحوط علينا وتعلمنا كيف ينبغي ان نجلس وكيف ينبغي ان يكون الكلام المهذب ، تقيد علينا كل زلة لسان وان كانت بريئة ، وتنهينا اليها اذا انفض الجمع ... بل من عادة أمى ان لاتنام الا ان اطمانت اننا عدنا جميعاً » (٢)

ولد يحيى - وهو الثالث في تسلسل قائمة الابناء - في السابع من يناير - الموافق - يوم عيد ميلاد السيد المسيح عند اقباط مصر - عام ١٩٠٥ - وقت ان كانت حركة مصطفى كامل الوطنية على أشدها ، في بيت ضئيل من بيوت الاوقاف بحارة الميضاة وراء مقام السيدة زينب المتفرع من شارع الصليبية بحى قيسون المعروف حالياً بقسم الخليفة ، وهو حى من الاحياء الشعبية الصميعة .. نشب يحيى حتى في الأجواء الشعبية القاهرية ، وشاهد منذ الصغر « ابن البلد » عن قرب شتى احواله : في جده ودمايته ، في حرمانه وسخريته ، في ذكائه وقناعاته ، في ايمانه وانحرافاته ، فنما في قلبه وهو مازال صبياح ابن البلد وميل التردد على الاحياء الشعبية ، خاصة بعد ان ترك حى قيسون وسكن بعيداً ... بل ان أول ما عرف قلبه الحب تعلق بحب بنت من بنات البلد رغم انه كان يعيش في اسرة تنتمى الى مجتمع مهاجرين من العزلة الانطاكية ، يرقب المجتمعات عن بعد دون اندماج ويشعر بأن مستواه الحضارى ارقى من المستويات المصرية ، وان جمعة بين الثقافة الاسلامية والحضارة الغربية اعطاه ميزات لا تتوفر في كثير من جماعات عامة الشعب .. ولكنه مع ذلك حرص على الا يظهر باى مظهر من مظاهر الاستعلاء ، مما يدعو الى تصنع ضروب من التواضع لا تخلو من تكلف يكشف عن معالم التعالى الكامن .. ومع انه كان لا يتكلم الا باللغة العربية فان الكلمات التركية كانت تظهر عادة في حالات انفعالات الغضب والضيق التى تتحرر من التصنع والتكلف ... وحتى حين كانت تقوم علاقات مع بعض الافراد من عامة الشعب فانها كانت مجرد علاقات سطحية تهتم بتوثيق الروابط مع من يتعاملون معه ، ويقدم لهم خدمات يومية لا يستغنى عنها احد .. ويؤكد يحيى حتى ذلك حين يذكر ان « اسرتى كان يشملها منذ وعيت روح من الديمقراطية الشعبية .. لا أدري من اين جاءت .. ؟ هى طبع وخلق

(٢) يحيى حتى - خليها على الله : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر - القاهرة - بدون تاريخ .

لا ثمة علم واقتناع ... فما دخل بيتنا خادماً والأخلاقنا مخالطة الأهل ... ولم ننظر بأنفة الى القصاب والبقال وبائعة الجبن والصابون ... ولكننى اظننا ديمقراطية معاملة فحسب، (٣) .

هكذا كانت تعيش الاسر المصرية ذات الجذور التركية سواء من الناحية النفسية أو الاجتماعية اصة منذ قيام الثورة العربية ... ونشأ يحيى حقى وتربى وتعلم وهو يعيش شتى محاولات المعاناة التى كانت تقاسى منها المجتمعات المصرية ذات الاصلاب التركية فى جهودها للموامة بين بواث الاتجاهات التركية واغراض الاستقرار فى مصر ... ويبدو أن يحيى حقى لم يستطع ان يخطى الحواجز الاسرية وأن يندمج فى الحياة المصرية التى لم يشهد غيرها الا خلال واقعية روحية بعواطفه وعقله جميعا بعد ان عايشها بكل كيانه وارضاها طواعية حتى استمد منها رغباته وآماله وأحلامه وأوهامه ويعكس عليها كل ما ينفعل داخله من مشاعر وافكار وخيالات وهو اجس ... لم يحس اطلاقاً فى قرارة نفسه بأن هذا التباين الذى يوجد بين حياته المنزلية بتقاليدها التركية وحياته العامة فى مختلف مجالات المجتمع المصرى تدعو الى أى نوع من الانفعال ترغمه على ان يستقل بحياة اسرية بعيدة عن مجتمع القاهرة ... ولذلك لا تكاد نلمح أى احساس يجعلنا ندرك أنه يشعر بأى نوع من التباين أو الاختلاف بينه وبين أى مواطن آخر يزامله الحياة فى المدرسة أو فى العمل أو فى اللهو رغم معرفته الاكيدة بأصله التركى ... بل يلحظ عليه احيانا علامات من الضيق والتأفف اذا ما نبهه أحد عَرَضَ بطريقة أو أخرى من قريب أو بعيد الى أصل عائلته الابانى خاصة اذا ما كان يحاول ان يشكك فى أصالة انفعالاته المصرية وعمق تجاوبها مع الحياة المصرية ...

واذا كانت أحداث الحرب الابانية اثارت وجدانه عام ١٩١٢ والهبث مشاعره التركية وهو ما زال صبياً فى السابعة من عمره ، وحثته على قول الشعر ليعلن السخط على الاستعمار الأوروبى الذى يهدد كيان الدولة العثمانية ويعرض مسقط رأس اجداده للخطر ، فان فظائع دنشواى - التى اطلع على أحداثها عام ١٩١٤ فى قصة « عذراء دنشواى » التى كتبها عمه محمود طاهر حقى - زادت من سخطه على طغيان الاستعمار البريطانى فتعلق قلبه بجهد الزعيم مصطفى كامل الذى يدعو باصرار الى ضرورة جلاء الانجليز عن مصر دون شروط مسبقة .

ولقد سحر مصطفى كامل العناصر التركية ببلافته الكلامية فى الخطب والمقالات التى اخذت تنصاع لهجتها وتشتد وتقوى حتى بلغت الذروة حين أعلن حرباً لا هوادة فيها ضد احكام الاعدام الظالمة فى حادثة دنشواى . واذا بالعناصر التركية يجرفها تيارات المشاعر الوطنية وتجذب نفسها تعيش هذه المشاعر بكل وجدانها ، واذا بها تحس بأنها أكثر التصاقاً بأرض مصر مما تظن . ويكاد محمود طاهر ينفرد بعرض هذه المشاعر فى رواية « عذراء دنشواى » . ويرجع يحيى حقى حماس هذه الانفعالات الفنية الى أنه قد تم « التحام كامل بين محمود طاهر

(٣) يحيى حقى : دعة .. لابنتامة . روز اليوسف - القاهرة . ديسمبر - ١٩٦٥ .

حقي وشعب مصر .. وأصبح ابن بلد مصفى جلوره الحديثة نزلت الى الطمي السفلى المتخلف من أيام الفراغة هيهات ليد أن تقتلعها ، او لما بلد آخر ان يهبها الحياة .. وقد ظهر هذا الالتحام في رواية عذراء دنشواي (٤) .. ولاشك ان رواية عذراء دنشواي نجحت في تقريب المصريين الاتراك من المصريين الفلاحين اكثر فاكتر .. حتى انه لم يظهر من بين الاسر التركية من قبل ان يتراجع ضد الفلاحين المتهمين في حادثة دنشواي بخلاف ابراهيم الهلباوي المصرى الصميم الذى ارتضى ان يجرب بلاغته ضدهم ، ويجنى على مواطنين ابرياء من بني جنسه ويسوقهم الى ساحة الاعداء متملصا من وطنيته .. ولكن بلاغة الهلباوي حفرت له قبره اذ ظلت مرافقته في دنشواي سحابة سوداء تطل على كل عمل يصدر عنه وتشوه اخلاصه وتعرض مستقبل حياته العامة ، حتى فشل في الحصول على الغفران عندما حاول الدفاع عن ابراهيم ناصف الوردانى بعد ان اغتال بطرس غالى الذى كان رئيسا لمحكمة دنشواي .

ولقد تصدى الكتاب الاتراك الى هذه النزعات فكتب « ولى الدين يكن » في مقال الشقاق (٥) « أنا تركى .. وأبغض عباد الله الى تركى يعتدى .. احب العناصر العثمانية كلها وأخذ بناصر المستضعف منها .. ثم احب العرب حبا خالط الروح وجرى مجرى الدم فى العروق .. وأنا عربى الادب والقلم ، عربى النزعة ، ومن ابغض العرب فأنا مبغضه .. » ولكن اذا به يعود ويقول بعد اغتيال بطرس غالى في مقال رومانسي الافكار والعواطف عنوانه «بطرس غالى في موكبه الاخير» (٦) قال القضاة : قتل أحد الباغين بطرس باشا غالى قتل لقد قتل مصر .. كل قطرة من ذلك الدم البريء عند الله أجراها وعلى الانسانية والعصر العشرين عارها .. ماذا جنى هذا الفقيد المظلوم .. ؟ صاح اكثركم مذكرا بحادث دنشواي ، وتشدد آخرون باتفاق اتكسروا ومصر على السودان ، وشكا غيرهم من قانون المطبوعات ..

ولقد تصدى كذلك عبد الخالق ثروت باعتباره النائب العام لمهمة التحقيق في الاعتداء بنفسه ، ثم قام بالرافعة في الدعوى ضد ابراهيم ناصف الوردانى .. واتسمت كلمته بالاعتدال وان استنكرت اغتيال الاكفاء المخلصين « نحن اول من يحل الاشتغال بالمسائل العامة ، ونرى أن السعى بالطريق المشروعة فيما ترقى به البلاد واهلها من فروض العين على المصرى ، وأن كل مصرى مطالب بتضحية شيء من وقته وماله وجهته في خدمة بلاده .. نحن اول من يرحب بتنمية الوطنية ورياضة النفوس على احتمال اشق المشتقات في اعلاء كلمة مصر وزيادة شرفها ورفعها ، وكذلك نرى من مرقبات الامم الدارجة في رقيها النظر في اعناق القابضين على ازمة الامور فيها ونقدتها ... ولكننا لا نسلم بحال من الاحوال ان يتطلع الى مقام ناقد الحكام الى رجل

(٤) يحيى حقي : عطر الاحباب : دار الكتاب الجديد . القاهرة ١٩٧١ .

(٥) الكتاب الثلاثة : ولى الدين .. النفلوطي .. العقاد . جمعه محمد محمد زكى الدين . الناشر حسين حسين .. القاهرة بدون تاريخ .

(٦) الكتاب الثلاثة : ولى الدين .. النفلوطي .. العقاد . جمعه محمد محمد زكى الدين الناشر حسين حسين .. القاهرة بدون تاريخ .

جمع الى العلم الغزير والحكمة البالغة الاتزان في القول والفعل حتى يقدر الاعمال حق قدرها وينظر الى الامور بفكر صحيح فلا يتعدى حد المشروعية والا انقلبَت الخدمة العامة وبالا ، و ارادة الخير شرا .. » (٧)

لاشك في أن استنكار الكتاب ، خاصة الاتراك منهم حادث اغتيال بطرس غالى وتولى العناصر التركية مهمة توجيه الاتهام الى الوردانى اثار الريب في نفوس الشباب المثقف في مصر بينما كسب الوردانى عطف الكثيرين منهم .. فاذا نال ثروت بكلمته الحكمة المعتولة اعجاب المسؤولين وتقديرهم ، الا انها بعثت الضيق والسخط بين الشباب رغم اعجابه بكفاءاته وحسن بيانه كالمسؤولين سواء .. ولكن الحكم باعدام الوردانى حرك ماخبا في النفوس من مشاعر التدمير والاحساس بالقهر ، والاستبداد جدت اللوعة من قوة احكام الاعدام الظالمة في حادثة ونشوى .. وسرعان ما اجتاحت البلاد حركة اغتياالات أخرى تولى تنفيذها أجهزة سرية اشترك فيها الوطنيون من المصريين والعناصر ذات الجدور التركية على حد سواء .. واذا بها تخطط من أجل التخلص من الخونة على اختلاف اجناسهم ودياناتهم مناصبهم ، ومن الانجليز الذين يقيدون الحريات في مصر ..

الا ان المحتل البريطانى لم يدع الوحدة الوطنية تسير في طريقها الطبيعى وتحقيق ما تصبو اليه النفوس من قوة وترايط. وثيق بين كافة المصريين ، واخذ يضرب على وتر فرق تسد .. ولذلك كثيرا ما حاول ان يستغل اى خلاف ظاهرى ويشير ضروريا من التنافس ، خاصة بين اعيان المصريين وقادة العناصر التركية حول السلطة خلفت صراعات انحرفت عن طريق الوحدة الوطنية واثارت الشكوك بين الجميع ، حتى اذتبت كل فئة في نوايا الفئات الاخرى ... ولقد نجح الانجليز بالمحاولة المالة في تفجير حدة الخلافات بين سعد زغلول الممثل الشعبى لكافة المصريين وبين عدلى يكن صهر أسرة محمد على الذى زوج ابنته لشريف صبرى شقيق نازلى زوجة السلطان احمد فؤاد باثارة الاشاعات حول عرض الانجليز العرش على سعد زغلول شريطة قبول الحماية البريطانية وفضل السودان عن مصر مما اشعل مخاوف السلطان فؤاد من اطماع سعد زغلول .. الا أن عدلى يكن ، والحق يقال كان في موقف صعب ، فهو لا يستطيع ان يقف في جانب السلطان والانجليز ويعادى الشعب الذى يمثل سعد زغلول ، وفي الوقت نفسه لا يستطيع ان يجارى الشعب في اندفاعاته الوطنية التى لا يقبل الانجليز الخضوع لها ، فلم يجد امامه الا ان يقف موقفا وسطا ، وحاول ان يوفق بين مبادئ سعد زغلول في الوطنية التى تتمسك بالاستقلال التام وجلاء القوات البريطانية وسيادة الشعب المصرى على اقدارة وبين حرص الانجليز على البقاء في مصر بصورة او أخرى يرضى عنها جميع الاطراف المعنية ... واستطاع عدلى بموقفه الوسط المرن ان يكسب ثقة السلطان فؤاد وتعاون الانجليز وان يتوصل بمجهوداته

(٧) الدكتور محمد حسين هيكال : شخصيات مصرية وغربية .. كتاب رؤى اليوسف رقم ٢ القاهرة يناير - ١٩٥٤ .

يعني حتى .. بين المعركة والتركة

الخاصة الى ان يقنع بعض الاعيان الاقطاعيين من المصريين داخل حزب الوفد نفسه ويكسب تأييدهم لسياسته التي تقبل ان تقابل الانجليز في منتصف الطريق (٨) .

واحسب ان اسرة حتى ، رغم انها اسرة موظفين يغلب عليها الحياء والانطوائية ، لم تكن في منأى عن الاحداث سواء التي تقع في تركيا او في مصر . . . فكانت تتعاطف مع كل ما يدور حول الدولة العثمانية . فما ان نشرت قصيدة احمد شوقي في البكاء على خلع السلطان عبد الحميد في الصفحة الاولى من جريدة الاهرام حتى « كان البيت كله يقف على رجل . . كنا نقرأها بصوت عال . ونحفظها ونظل نردها في مختلف المناسبات (٩) وتعاطف ايضا مع اتجاهات مصطفى كامل التي تتمسك بجلاء القوات البريطانية ولا تعادي الخديو عباس الثاني ، وتستعدي الدولة الفرنسية على الانجليز . . ولذلك كانت جريدة اللواء لسان حال الحزب الوطني هي جريدة الاسرة المفضلة . . ومع ذلك « لم يمنعنا ذلك من التعلق بسعد زغلول ومتابعة احداث ثورة ١٩١٩ بحماسة شديدة . . في اكثر ما كنت اصحب ابي وشقيقي ابراهيم واسماعيل الى الازهر او بيت الامة او شادر مقام في ساحة فسيحة لاستمع الى خطباء الثورة . . . واحيانا كان الانجليز يسدون الطرق المؤدية للازهر ليمنعوا الجماهير من حضور اجتماعات الثورة . . كننت اسير مع ابي واخوي في طرق ملتوية وازقة ضيقة حتى نصل الى الازهر ونستمع الى خطباء الثورة ونردد مع الجموع اناشيدها . . . وكان افراد الاسرة يتخاطفون بلهفة شديدة ما يصل الى ايدينا من منشورات الثورة . . . وقد سرت في بعض المظاهرات الصاخبة التي كانت تكتسح شوارع القاهرة . . وحين كان الانجليز يطلقون علينا النار كنت اجري مع الجارين . . . وفي تلك الايام قرأت كل ما وقع في يدي من كتابات عبد الله النديم ومصطفى كامل . . وكل ما نشر عن حادثة دنشواي . . . وهكذا التحقت بمدرسة الحقوق وقد تشبع وجداني حتى الثمالة بحب مصر « (١٠) ولكن لما دب النزاع بين سعد زغلول ابن الفلاح المصري وبين عدلي يكن ذي الاصل التركي « اجتاحت بيتنا موجة عارمة من الكآبة وخيبة الامل لفرقة الصف الوطني « (١١)



لأشك في ان ثورة ١٩١٩ ضد المحتل البريطاني الذي يماطل في خروج قواته من ارض مصر صهرت كثيرا مما تبقى من مشاعر الغربة التي كانت تعاني منها العناصر التركية المصرية في بوتقة الوحدة الوطنية ، واقتربت من التخلص النهائي من نزعات تعدد الولاء لاكثر من وطن ، خاصة بعد انحصار الدولة العثمانية في نطاق الاراضي التركية فقط .

(٨) محمد كامل سليم : ازمة الوفد الكبرى : سعد وعدلي : كتاب اليوم برقم ١٠٧ ، مؤسسة اخبار اليوم - القاهرة - مارس ١٩٧٦ .

(٩) يحيى حتى : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(١٠) يحيى حتى : اشجان عضو منتسب . . سيرة ذاتية . . مجلة عالم الفكر ١٩٧٤ .

(١١) نفس المرجع .

وإذا ما انتقلنا من المجالات السياسية والمواطف الوطنية الى المجالات والمواطف الانسانية نجد انه ، لكل تستقيم الحياة للعناصر التركية في مصر ، ينبغي ان يبلغ حبه للمصريين نفس قوة حبه لارض مصر ووطن مصر .. ولا يتأتى ذلك الا اذا اتسع حب الوطن بشفاية الحب الانساني وودعة الحب الاجتماعى الذى لا يهدف الى أى نوع من السيطرة العسكرية او التفوق الاقتصادى او السيادة السياسية ، ويتجنب بقدر الامكان اثارة التنافس على مراكز القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية ويعتمد أكثر ما يعتمد على أصول الحضارة المصرية من فكر وفن وأدب ، ومن علم وثقافة ، ليحتفظ بدرجة عالية من الرقى الاجتماعى والتفوق الحضارى .. فأقبل أبناء الاسر التركية المصرية على دراسة القانون والهندسة ، لان معرفة القانون تسمح بتولى مناصب القضاء ، والنيابة أخطر المناصب وأكثرها رهبة بين عامة الناس .. بينما تسمح دراسة العلوم الهندسية بالتفلفل فى شتى شئون المرافق العامة المصرية فى المدن وفى القرى ، نظرا لشدة حاجة الجميع للخدمات الهندسية ... وكثير من أبناء الاسر التركية لم يقفوا عند حد التعليم العالى فى مصر بل اهتموا بطلب المزيد من العلم والثقافة والحضارة فى أوروبا .. ولذلك كان هناك تنافس مثير على التفوق الدراسى للفوز بالبعثات المجانية الى الخارج خاصة بين النابهين غير القادرين على تحمل تكاليف العلم فى أوروبا . وبذلك فقد اتاحت للكثيرين منهم فرص الاتصال الوثيق بالتطور الفكرى والثقافى والاقتصادى والاجتماعى فى العالم الحديث .

ولا نعجب اذا ما شعرت العناصر التركية بانها أكثر قدرة على خدمة مصر حضاريا من المصريين الاصليين ، لانها تشعر بان لها خبرات أوسع فى المجالات الحضارية الحديثة .. ولقد كان لها بالفعل الاسبقية والفاعلية فى تنشيط كثير من مجالات الحياة الثقافية والاجتماعية فى مصر .. فلم تقف هذه العناصر عند حد التمنى بأن تصل مصر الى ما وصلت اليه أوروبا من نهضة وازدهار ، أو تكتفى بأن تشيد بذكر حضاراتها السابقة .. بل اخذت تسهم اسهاما جديا فى مختلف مجالات الاصلاح تحت احساس بأنهم على مستوى حضارى متقدم يسمح لهم بسرعة استيعاب الحضارات الغربية مما يعطيهم امكانيات ثقافية تضعهم على رأس قادة الفكر والادب والاصلاح الاجتماعى فى مصر .. واذا بهم يكونون شتى الجمعيات التقدمية الثقافية والاجتماعية ، ويظهرون كثيرا من النشاط الجاد الصادق لبعث نهضة فكرية مصرية تطور المجتمع المصرى وترفع من مستواه الحضارى . ولقد تنافس كل من احمد شوقي - وهو من أصل تركى - وحافظ ابراهيم - وهو من أم تركية - ورياه خاله المهندس زميل والده - على الترنم بأشعار تسبح بحمد مصر ، وتشيد بمجدها الخالد وتظهر الحب العظيم الخالص لمصر ، وتشدو بالوطنية المصرية وتغلبها على كل وطنية وقومية .. بينما أعطى محمد تيمور ومحمود طاهر لاشين ومحمود طاهر حقى - وكلهم من أصل تركى - اهتمامات زائدة لواقع الحياة المصرية فى المدن والقرى . وكتب كل منهم قصصا تناول احوال الفلاحين فى الريف ، وتعرض ميل

ابن البلد في المدن للفكاهة والدعابة ، وتعلقه الزائد بالنكتة الساخرة ، وتمسكة بروح الشهامة التي تظهر في كثير من تصرفاته الانسانية ... كما برز من بين العناصر التركية قاسم أمين على رأس الداعين لقضية تحرير المرأة المصرية ورفع الحجاب حتى تستطيع ان تكون أكثر حركة وقدرة على الاسهام في تحرير الوطن وتقدم المجتمع المصرى .

ولكن كيف يمكن لهذه العناصر التركية التي تكاد تعيش في الواقع في شبه عزلة اجتماعية وتعودت على ان تتفوق داخل نطاق الاسر التركية وتبتعد بقدر ما تستطيع عن كل ما يحيطها من مشاكل يومية ان تفهم واقع الحياة المصرية في الصميم في الريف وفي المدينة ، وتعى ما يدور في خلجاتها الداخلية وهي لا تنتظر السأهل الريف وسكان المدن الا من علو الفكر ؟ ان الحنين للوطن الاصلى لا ينمى من الوعى مهما طال الزمن .. وان اختفى من الوعى الظاهر فلا بد ان يكون كامنا في الوعى الباطن يؤثر في الفكر وفي الوجدان وفي التصرفات .

وليحيى حتى رأى خاص يفسر به نجاح العناصر التركية في تناول الحياة المصرية في قصص ومسرحيات .. فزعم ان محمد تيمور وجد « ان المجتمع المصرى في المدن والريف قادر على أن يمد الكاتب بقصص فنى مما يشهد على ان نزعة الادبية مبعثها حب صادق لمصر واهلها وليس من الغريب كما يظن لأول وهلة ان الذى يغمر هذا الحب كله ويحمل لواء المناذلة بالادب المصرى الصميم فتى لا تجرى في عروقه دماء مصرية بل دماؤه خليط من التركية والكردية والاغريقية . هذه ظاهرة طبيعية مألوفة عند الآخرين ، كما عندنا في ان العرق الحديث اشد العروق اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتباهه للنضاله وجماله .. ولذلك نرى محمد تيمور ، ومن بعده محمود حريصين اشد الحرص على تأكيد خبرتها بعامة الشعب من الفلاحين وفقراء المدن . وليست العبرة ان يولد الكاتب في احضان هذه الطبقات بل في قدرته على الاحساس بها وفهمها بفضل حب وتجاوب روحى . » (١٢) ولكن يحيى حتى يعود ويتساءل « لا أدري لماذا استشف في كتابات محمد تيمور - رغم خفة دمها وميلها للدعابة نغمة حزن دفين » (١٣) كأنه يريد ان يقول ان اثار مشاعر الغربة الاليمة رغم كل ذلك الحب لمصر وللمصريين قد اظهرها الوعى الباطن في تلك النغمة التي تئن بحزن دفين .. !!

الا ان تردد كثير من الافراد من بين العناصر التركية على اوروبا واحتكاكهم المستمر باوربيين اتاح لهم فرص الاطلاع على الدراسات العلمية الغربية في الشؤون الاجتماعية والاتجاهات الاقتصادية والمذاهب السياسية التي تتصارع في مختلف مجالات الحياة الاوروبية .. وتكاد هذه الدراسات تتفق جميعا في ضرورة تحقيق نوع من العدالة الاجتماعية ومن المستوى الاقتصادى اللائق بكرامة الانسان ، ومن الحرية التي تساوى الكل في الحقوق والواجبات ..

(١٢) يعبى حتى : فجر القصة المصرية .. الكتبة الثقافية رقم ٦ - القاهرة .

(١٣) نفس المرجع السابق .

مما حدا ببعض الافراد من هذه العناصر الى الاهتمام بأحوال الفلاح المصرى وفقراء المدن ..
ومما يثير الدهشة حقا هو الحاح قوم من الارستقراط فى الدعوة لرفع مستوى حياة
الفلاحين وعامة الفقراء . !! هل قامت هذه الدعوة تحت تأثير مشاعر من القلق لم ترتج
لاوضاع اجتماعية تقسو على اناس وتحرمهم من كثير من ضروريات الحياة وتهدر كرامة
أديمتهم ؟ أم ترجع لمجرد بواهب انسانية صرفة بعثت فى النفوس الاحتكاك بالحياة الغريبة
ويسند لها فكر متعال لا يقبل ان يكون أتباعه على هذا الوضع المهين المخجل .. ! ؟ ولكن
كيف تحولت نظرة التعاطى الى مشاعر من العطف والرحمة والحنان . ؟ هل
الاحساس بسوء معاملة الفلاح واستغلاله من قبل الحكام الاتراك وحاشيتهم حرك عقد الذنب
وحملهم الشعور بالاثم مسئولية عما انتهى اليه الفلاح من حالات بؤس وشقاء وتخلف .. ؟ هل
استيقظ فيهم الضمير الحضارى وحثهم الاحساس بالواجب على بدل اقصى ما يستطيعون
بدلك من فكر من صيانة انسانية هذا الفلاح وتعويضه عما ضاع عليه من فرص الحياة الكريمة
وتخليصه من الهوان الاجتماعى الذى يعانى به حتى يستطيع ان يرفع رأسه ويشعر بتمام
المساواة مع جميع الناس .. ؟ ..

لا ريب فى ان الدعوة الى الإصلاح الاجتماعى لا تعدو وان تكون مجرد عملية تطهير ذاتية ،
قصد بها ممارسة عمل فكرى نبيل يعطى نوعا من الامان الذاتى والاطمئنان الروحى ، تمنح
من السيادة الفكرية والقيادة الانسانية والنفوذ المعنوى ما يعوض العناصر التركية عما فقدته
من جاه سياسى وسلطان اقتصادى وزعامة عسكرية ، قد تحقق نوعا من الشعبية تميزت من
صدق المشاعر الوطنية ، وتدعو الى مزيد من الالتصاق بعصر وشعب مصر ، يساعد على
تحطيم دوائى العزلة الاجتماعية التى تحاصر الاسر التركية المصرية ، وتيسر اندماج افرادها
فى شتى ثنائى المجتمع المصرى دون عقد ، وتقاوم كل ما يعترض الاندماج الكامل فى الحياة المصرية.

ولذا فان جيل الشباب من العناصر التركية فى أوائل القرن العشرين اثناء حركة مصطفى
كامل الوطنية وثورة سنة ١٩١٩ الشعبية تعرض لهزات نفسية اوقعته فى ازيمات فكرية ،
فاذا به يعانى مرارة حيرة الآباء بين الولاء للدولة العثمانية من جهة وتعلقهم بالقطر الذى ولدوا
على أرضه ثم هاجروا منه من جهة ثانية ... بينما يعانون هم انفسهم من تضارب العواطف
وتناقض التصرفات ، ولا يدرون كيف يوفقون بين التعالى العائلى على عامة المصريين وبين
التواضع الاجتماعى فى المعاملات اليومية مع عامة الناس ، والتعاطف الفكرى والمشاركة
الوجدانية التى تجارى المصريين فى تطاعاتهم وآلامهم . !! ولا يعرفون كيف يجمعون بين
التمسك بالتقاليد التركية داخل البيت وبين مجازاة العادات المصرية خارج البيت ...
ويتأملون كيف داخ الجميع من محاولات المرحبين الدعوة للوحدة الاسلامية التى تحت على
تكتل الدول الاسلامية فى جانب تركيا ضد الاستعمار الاوروبى ، وبين ضرورة الارتباط
بالوطنية المصرية التى تلزم جميع العناصر والطبقات بالتكتل من أجل مصر ضد أى تدخل
أجنبي .

ولعل المحاولات التي بذلتها هذه العناصر من أجل التوفيق بين الحياة الخاصة للعائلات التركبية داخل البيوت والحياة العامة في خضم المجتمع المصري خارج البيوت .. وكذلك

الجهود التي صرفت للمواءمة بين اتجاهات الشخصية المصرية ونزعات الشخصية التركية اكتسبت افراد الاسر المصرية التركية نوعا من المرونة النفسية ، رسبت خبرات وقدرات ومهارات تساعد على وضع الحلول الوسط ، وتحقيق نمط من التوازن بين كثير من الاختلافات المتضاربة يرضى عنها الجميع رغم الصراعات التي بينهم .. واذا بالظروف تكاد تلزمهم بان يلتزموا على الدوام بالمواقف الوسط في المنازعات السياسية التي غالبا ما تنشأ بين المصريين والانجليز حول الجلاء والحرية والاستقلال .. ولذلك ارتاح لهم الانجليز ، واستغلوا وساطتهم في اخضاع المصريين لمطالبهم ، واطمان اليهم القصر السلطاني واعتمد عليهم في المفاوضات مع الانجليز ، بل قدر عامة الشعب وخاصته كذلك مجهوداتهم في تخفيف حدة التوترات السياسية .. ولا نعجب اذا مالجا اليهم الجميع على اختلاف مواقفهم عندما تستبد بالبلاد الازمات السياسية .. وأحيانا كانوا ينجحون في تخفيف حدة الشقاق وتجنب البلاد مخاطر التطرف في أي نزاع ، مما مكنهم من أن يلعبوا على الدوام دورا إيجابيا في تحقيق ضرب من الوحدة الوطنية تمتص خلافات كل العناصر المتنافرة ، فترضى مواقفهم الوسط جميع الاطراف المتنازعة ، على اساس الاعتقاد بأن الوحدة الوطنية كفيلا بأن تعدى شتى العقبات ، وقادرة على ان توصل الى الاماني المنشودة ، وتخص بالذكر موقف عدلى يكن الذى حاول ان يوفق بين خداع الانجليز وتمسكهم بالبقاء ، وبين صراحة سعد زغلول ومواجهته للانجليز وتشبثه بتحقيق المطالب الوطنية في الجلاء والحرية والاستقلال ... ورغم حسن نوايا عدلى يكن الوطنية ، ورغبته الاكيدة في تحقيق استقلال مصر فان محاولاته في لقاء الانجليز في منتصف الطريق ، واتباع سياسة الخطوة خطوة ، وتحقيق الاستقلال على مراحل افسد عليه كل شيء وتعرض لمقاومة سعد زغلول الذى رفض في النهاية التعامل معه ، واثار ضده غضب الشعب الذى اسقطه في الانتخابات وهو رئيس الوزراء فانسحب من الحياة العامة ويرجع كل ذلك الى ان جيل العناصر التركية في هذه الايام رغم قوة نزعاته الوطنية ما زال يعاني من ميول ارسنقراطية لم تعائش المشكلات الشعبية معاشة واقعية ، ولم تسمح له بالاندماج فيها اندماجا متكاملًا ، وانما سمحت له باندماج محدود يتأملها من علو الفكر دون ممارسة شاملة .. ولذلك خلا هذا الفكر من يقين المعاشة ووضوح التجربة .. بل عاش في استرخاء يحتل بعض المناصب القيادية والرئيسية لتعدد قدراته وكفاءاته وخبراته ، واستعداداته لتحمل شتى المسؤوليات ، وتفوقه في الثقافة من علم وفن وأدب يحدوه حماس متدفق يرعى النزعات الانسانية الاصلاحية ، دفعته للإشراف على الجمعيات الخيرية التي توزع المساعدة والعون لكل من يستطيع ان يصل اليها بطريق او آخر او لكل من نريد ان نصل اليه لسبب او لآخر .. وحثته كذلك على تنفيذ بعض المشروعات الاقتصادية التي لا تعود مكاسبها الا على فئات معينة دون بقية الفئات الاخرى .. وتعتمد اكثر ما تعتمد في السيطرة على جوانب متعددة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على نقص الخبرات المصرية وضعف وعيها الحضاري من ناحية ، وانتهاز فرصة

انحسار النفوذ الاجنبى تدريجيا بسبب المقاومة الوطنية لتتسرب بسرعة ، وتستولى على المواقع التى تركها الاجانب قبل ان ينتبه الى خطورتها المواطنون المصريون من ناحية اخرى .. وكل ذلك ينم عن ان هناك نوعا من الانانية كانت تتحكم في تصرفات العناصر التركية ، افقدتها القدرة على الرؤية عن بعد ، والتصور السليم ، لتطور المواقف المصرية الصعبة ، وقدرتها على مواجهة مختلف الصعاب واسترجاع شتى حقوقها المقتضية .

ولذلك كانت مفاجأة ثورة ٢٣ يولييه التى لم تصدم القوى العالمية والنفوذ الاجنبى وسلطان الاقطاع فقط ، وانما صدمت كذلك العناصر ذات الاصول التركية صدمة مباغتة ، جددت في نفوسهم كل ما كانت تثيره الثورة العربية من مخاوف ومواجه و تهديدات .. واذا بهم يرون احمد عرابى جديدا يعود في ثوب جمال عبد الناصر ، وما لم يستطع احمد عرابى تحقيقه في المجالات الداخلية استطاع جمال عبد الناصر ان يحققه فلقد اطاح بالنظام الملكى من اساسه ، وازال القصر ومن كان يدور في فلكه من امراء وحاشية واتباع دون تمييز بين مختلف العناصر ، سواء اكانت من اصلا ب تركية او مصرية صعيمة او اجنبية ، دون نظر لخبراتها وامكانياتها الحضارية وسرعان ما الفيت الانقلاب الفخرية واختفى ما تثيره من حساسيات التعالى التى تباعد بين طبقات الشعب ، وضاع كل ما تحاط به من هبة مفتعلة واصبحت مقامات الجميع على قدم المساواة .. ولعل قوانين تحديد ملكية الاراضي الزراعية وتأميم الشركات والمصانع والمصارف وتأسيس القطاع العام كانت من اشد الضربات التى انزلتها الثورة الناصرية باقتصاديات الاسر ذات الاصول التركية وافقدتها كل ما اكتسبته على مر الاجيال من معيزات اجتماعية وسياسية واقتصادية ... ولا غرابة اذا ما اخذت المخاوف القديمة على المستقبل الامن تعاود الاسرة المصرية التركية من جديد بعد ان عاشت امنة مستقرة فترة طويلة ...

ولكن ما ان اطمأنت ثورة ٢٣ يولييه الى امكانية السير في الخط الاشتراكي دون معوقات خطيرة حتى اهتمت بتعزيز الخط الديمقراطي الذى ضحت به بعض الوقت من اجل تدعيم الاصول الاشتراكية في العقول والنفوس .. وما ان اطلقت الحريات في حدود القانون ، واعيدت الحقوق التى تحفظ عليها التحول الاشتراكي ، واستعانت باهل الخبرة بعد ان شربوا من مناهل الاشتراكية ، حتى عم اقتناع عام باهميتها في حل مشاكل الجماهير وازال كثيرا من القلق الذى راود البعض خوفا على المستقبل الامن للابناء ، ويرد الشكوك التى حثت البعض على الهروب ، واخذ الفارون يرجعون تباعا الى ارض الوطن وهم اكثر اطمئنانا ، لا ييخونون باسهامهم في حل مشاكل الجماهير .. وهكذا قبلت اخيرا العناصر التركية نمطا من الدوبان في المجتمع المصرى لم يسبق لها ان قبلته في اى عهد من العهود ... !!

- ٢ -

هذه صورة سريعة لتطورات الاسرة المصرية التركية من النواحي الفنية والاجتماعية والاقتصادية منذ الثورة العربية حتى الثورة الناصرية ... وفي معمة هذه التطورات ولد يحيى حقي ونشأ وتربى وتعلم وتوظف ومارس الادب والفكر والفن وهو يعيش شتى محاولات

المواطنة بين الطبع التركي وتطلعاته في تحقيق المستقبل الآمن وبين اهتماماته بالاستقرار في مصر كأبنائها الأصليين ... وشاهد يحيى حقى كيف بدأت دعائم الوحدة الوطنية تتوطد بفضل جهاد مصطفى كامل وثورية سعد زغلول ... وثقف على أيدي أجيال اهتمت بتدعيم التقارب بين مختلف جماعات الشعب المصرى ، رغم اختلافاتها العنصرية والطبقية والاجتماعية والاقتصادية والدينية .. وتقلب بين جنبات الطبقة الوسطى الحديثة التكوين من جماع المثقفين والاعيان من شتى الفئات ، وسائرهما وهى تناضل من أجل تحقيق نوع من التناسق بين اتجاهات الحياة المصرية الحديثة وتأسيس وحدة وطنية مصرية تصرف جهودها نحو بناء مصر العصرية ..

فمنذ البداية شب يحيى حقى في حى شعبي ، وأحبابين البلد ولفته العامة المميزة .. ولكن على قدر ما أحب الحى الشعبى وابن البلد كره المدرسة المصرية والمدرسين المصريين .. إذ ما أن بلغ السن الذى يسمح له بتلقى العلم حتى بدأ تعليمه في كتاب السيدة زينب .. ثم التحق بمدرسة ابتدائية مجانية لا يدخلها عادة إلا أولاد الفقراء عانى فيها من قسوة ضرب عصا المدرسين ما جعل الدنيا تظلم في عينيه يجبر نفسه أجبارا ويعذبها عذابا شديدا حتى تقوى على حشر دماغه بمعلومات لا يكاد يفهم منها شيئا ولا يدري لماذا يتعلمها ، وذلك لكي لا يتكرر رسوبه كما حدث في السنة الاولى الابتدائية ، ويطلق سراحه من جحيم المدرسة الابتدائية ويرضى أمه التي تفضب وتتحسر على خيبة أملها في أولادها إذا ما رسب أحدهم (١٤) .. وظن أنه قد يجد تعليما أفضل في المدرسة الثانوية ، إلا أنه عانى فيها حرمانا في تربية الخلق ، وتأذالا في انماء الشخصية ، وتقصيرا في الكشف عن المواهب والاستعدادات والقدرات تكفى بحشو الرأس بالقشور وبالعلم النظري دون ان تعتنى بالدراسات العقلية والتجارب العملية .. تخلو الكتب الدراسية ومناهج التعليم من كل ما يتصل بالموسيقى من قريب أو بعيد رغم أنها غذاء الروح . وتخلو أيضا من الفنون وهى مهذبة للحس والدوق ومن التربية الدينية السليمة ، ويقتصر التعليم الديني على استظهار بعض الآيات القرآنية ... إلا أن يحيى حقى عوض كثيرا مما حرم منه في المدرسة المصرية بما تلقاه من مدرسة الأم التركية .. إذ كانت على قدر من الثقافة الادبية والدينية ، تعطي اهتماما بالاحتفالات الدينية والاعياد الاسلامية خاصة موالد النبي الشريف ... ولذلك فان أول هزة روحية خبرها يحيى حقى في حياته كانت إيام الطفولة اثناء حفلة المولد النبوى الشريف ، التي كانت تهتم الام باقامتها بالبيت في مياعدها من كل عام ، كما عودته منذ الصغر على زيارة المساجد ، خاصة تلك المساجد التي تقام بها الموالد . ولذلك عشق حضورا احتفالات مولد سيدنا الحسين ل يتمتع برؤية ما يستعرض فيها من مشاهد السيرك من ألعاب الحيوانات ومن تمثيليات بسيطة ومن الاغاني الدينية .. (١٥)

(١٤) يحيى حقى : خليها على الله .

(١٥) يحيى حقى : دعمة فابتسامه .

وما كاد يحصل يحيى حقى على شهادة الكفاءة حتى وقع في حيرة . اذ كان عليه ان يختار بين القسم العلمى والقسم الادبى . . لقد كان يتعمق في صباه ان يكون طبيباً لان الطب مهنة حرة تهتم بدراسة جسم الانسان ، وتكشف عن اسباب علله وامراضه ، فكان عليه ان يختار القسم العلمى ولكنه فضل القسم الادبى خشية ان يرسب سنة او اكثر من ناحية ، وان يحمل الاسرة مزيداً من الاعباء والمصروفات من ناحية اخرى . . فما كاد يحصل على شهادة البكالوريا عام ١٩٢١ حتى التحق بمدرسة الحقوق العليا التي كانت تمثل قمة التعليم العالى في ذلك الوقت ، ولا يدخلها الا المحظوظون من الاوائل ، ولذلك اعتبر التحاقه بمدرسة الحقوق شرفاً عظيماً لا يناله من يدخل مدرسة التجارة العليا او مدرسة المعلمين العليا . . الا انه لم يجد في اساليب الدراسة في مدرسة الحقوق ما يجعلها تفضل عن المدرسة الابتدائية او المدرسة الثانوية . . . لقد افتقد فيها علاقات التراحم والانصاف والمساواة بين الاساتذة والطلبة ، ورأى حدة الصراع بين الاساتذة القدامى والاستاذة الجدد . ومع ان منصب الاستاذ لا يعلوه منصب آخر فان اغلب الاساتذة اقرب الى التجار الجشعين وابعد ما يكونون عن حملة العلم . . وجد الطلبة في زحمة الامتحانات في سباق مروع من اجل الظفر بالاولوية دون مرشد يدلهم على احسن المراجع وادقها . في حين يجامل بعض الاساتذة أبناء الوزراء وكبار موظفي الحقانية التي تتبعها مدرسة الحقوق . . ويسرقون وقت الطلبة بالعبث والمماحكة حتى اصبح التعليم « كسلق البيض » ومجرد حشو الدماغ ، حتى يكاد ينفجر بالتفاصيل والقشور دون ان يتاح لطالب واحد فرصة ليقف ويتكلم امام جمع من الناس وهو حاضر الدهن مالكا لشخصيته واعصابه ، حتى لا يمارس المحاماة الا وهو مدرب على صنعة الكلام وحسن الخطابة بعد معرفة القانون واجراءاته . . (١٦)

وهكذا كان مجتمع مدرسة الحقوق صورة مصفرة من المجتمع المصرى ككل شاهديه يحيى حقى صراعات غير مفهومة بين الاساتذة المصريين على الربح والمنصب ، ومنازعات بين الاساتذة الانجليز والفرنسيين من اجل توجيه الدراسة في المجالات التي تراعى مصالح بلادهم ، وتنافساً بين الطلبة على الاولوية عن طريق التفوق في الامتحانات او الوساطة والمحاباة والمجاملة . . ولقد اکتوى يحيى حقى بنار هذه الصراعات والمنازعات والتنافس التي كانت تثير في داخله تيارات مريرة من القلق والشك وعدم الاطمئنان . . .

وانتهت مرحلة الدراسة بمدرسة الحقوق العليا بنجاحه في امتحان الليسانس عام ١٩٢٥ وجاء ترتيبه الرابع عشر . . . فبعد ان كان قبل ظهور النتيجة يتعمق فقط مجرد النجاح ولو جاء اسمه في ذيل قائمة الناجحين حتى لا يفضبامه او يجرعها مفبة خيبة الامل . وحتى لا تمنى ضياع جهادها من اجل اولادها او تندب سوء حظها معهم . فاذا به يتطلع ان يكون من بين الاربعة الاوائل الذين سترسلهم مدرسة الحقوق في بعثات الى جامعات اوروبا لامدادهم لشغل

مناصب الاساتذة تدعيا لحركة تمصير مدرسة الحقوق ، واحلال الاساتذة المصريين مكان الاساتذة الاجانب من انجليز وفرنسيين ... واخذت تراود يحيى حتى آمال تؤكد لها تجربته في المدارس المصرية ، واشعرته بأن لا مجال للتثقيف الحقيقي الا في الخارج ولا فرصة له في اقان لغة اجنبية الا بالسفر الى بلادها حيث تتوفر مناسبات لمشاهدة ضروب من الفن الرفيع على مسارح الباليه والأوبرا والكونسير...وكم آلمه ان يرسل في الكشف الطبى ويخرج من دائرة المرشحين الاصليين وينزل الى مرتبة المرشح الاحتياطي .. وتحصر على ضياع فرصة كان يأمل ان تموضه عن كل ما افتقده في المدارس المصرية ، وينعم بالجو العلمى الصحيح ، ويعيش في اجواء ثقافية تنمى عقله وترهف حسه وتندب ذوقه وتسمح له بالتمتع بمختلف ضروب الفن الرفيع ...

ولم يكن هناك بد من ان يقف يحيى حتى في طابور الطالبين للوظيفة . مثله في ذلك مثل جميع افراد أسرته الذين لا يوجد احد منهم من تجرا واشتغل بالمهن الحرة ... واصبح امله ان يعينه ترتيبه المتقدم للحصول على وظيفة في قلم قضايا الحكومة .. وحيث انه كان يعلم ان وظائف النيابة المختلطة كانت وقفا على اولاد الدوات وعلى من يجيد الحديث باللغة الفرنسية اضطر ان يقدم طلبا للنيابة الاهلية ، فوضع تحت التميرين في مكتب نيابة الخليفة لقربه من سكنه .. وبدا عملا اصدق وصف له هو « صبي وكيل نيابة » كل مهمته ان يجلس بجوار وكيل النيابة ويراقبه .. قد يسمح له بقراءة محضر التحقيق وابداء الراى فيه شفويا .. ولكن لا يحمل مسؤولية تولى التحقيق ذاته او ابداء الراى فيه كتابة . ولم يجد من يحاسبه على الحضور والانصراف فلم يربح لمثل هذا العمل ، وشغل نفسه في الفترة ببعض الدراسات القانونية عن الاحداث والقاء بعض المحاضرات عنها .. كان يطعم من طريقها ان يتولى وظيفة تسمح له بالاشراف على ملاجىء الاحداث ومواصلة ابحاثه في كل ما يتعلق بمشاكل الحدث . ولكنه وجد السبل مسدودة لمثل هذه الوظيفة . فحاول ان يجرب حظه في المحاماة وهى عمل حر غريب عن أسرته يتطلب اتصالات متشعبة بمختلف فئات المجتمع .. بينما أسرته قليلة العدد منطوية على نفسها في شبه عزلة اجتماعية .. كل رجالها موظفون ، ليس لهم معاملات مع الناس تدعو الى الدخول في خلافات مدنية او منازعات جنائية او حتى مشاحنات عائلية تستدعى خصومات شرعية . فلم يجد يحيى حتى من يسنده في القاهرة ، وهى بلد كبير يحتاج فيه المحامى الناشئ الى اتصالات ومعارف واصدقاء لكي يستطيع ان يجد لنفسه مكانا بين كبار المحامين الذين يسيطرون على مختلف القضايا .. (١٧) فاذا به يركب الصعب ويقبل الذهاب الى الاسكندرية وينزل ضيفا عند خال له يعمل بالجمارك ليمارس المحاماة في بلد تكاد تخلو من كبار المحامين الاهليين ، ويكثر بها المحامون الاجانب الذين يسيطرون على سوق محكمة الاستئناف المختلطة . فاشتغل اول الامر في مكتب محامى يهودى وجد فيه كثيرا من مظاهر التقدم الثقافى ومن علامات الرقى الحضارى .. ولكن سرعان ما تركه عندما لم يف المحامى

اليهودى بوعده ويدفع له المكافأة فى أول الشهر .. واشتغل فى مكتب محام مصرى وعده بمكافأة شهرية أكبر .. ويبدو أنه لم يجد الأمان كذلك عند المحامى المصرى وإذا به ينتقل الى دمنهور وينزل عند أحد انسبائه البعيدين ويعمل فى مكتب محاماة أتابه صاحب المكتب فى تولى أمر الدفاع فى بعض القضايا الصغيرة .. دعتة الى التنقل بين مراكز دمنهور لحضور جلسات محاكمها .. وفى دمنهور تعرف على طباع اهالى البحيرة من خلال خلافتهم التى تعرضها أمامه ملفات القضايا التى وكلت اليه دون ان يخالط الاهالى مخالطة تعرفه بهم عن معاناة وتجربة .. الا انه فزع من قضايا النصب وما تنطوى عليه من غفلة وبراءة متناهية ، ومن لؤم وخسة ودناءة وطمع وجشع من ناحية أخرى .. وتعجب من كثرة ضحايا الخلافات بين الرجل والمرأة ، وما تدمو اليه من خيانات تمس العفة والشرف حتى أحس بأن الأمانة فى هذه الدنيا أمر مستحيل .. وليته وجد أي نوع من الراحة وهو يبدل أقصى ما يستطيع من جهد لاثبات الحق ودفع الظلم عن موكله ، ولكنه تعرض لخداع سماسرة القضايا الذين يعملون كوسطاء بين المحامين والمتقاضين .. كما لم يرتح الى كفالة العدالة بسبب العجلة التى تدار بها جلسات المحكمة وسرعه اصدار الاحكام .. فساعد كل ذلك على ظهور عقدة التركى فى مصر التى أفقدته الاحساس بالامن والاستقرار ، واغرقته فى مشاعر الغربة والخوف من المستقبل . فلم يستطع مقاومة ضغط التخويف العائلى من مغبة الاستمرار فى عمل حر غير مضمون الجانب ، خاصة بعد وفاة والده فى ١٠/٢٦/١٩٢٦ . وقلق أهله بعد مرور ثمانية شهور على اشتغاله بالمحاماة .. دون فائدة تذكر فوجد نفسه فى النهاية يستسلم لاساليب الاتراك فى الوساطة والشفاعة لنيل وظيفة ، وان كانت أقل كرامة مما كان يتمنى .. وإذا به يقول : « تعرضت لضغط شديد .. خفت فيه أشد الخوف من المستقبل المجهول .. من أجل ان ارضى بوظيفة فى الحكومة ... لم يجدوا لى بعد الوساطات والشفاعات الا وظيفة معاون ادارة ... ان هذه الوظيفة أقل كرامة من وظيفة النيابة .. فلم اقبل لمنصب الا صاغرا مستسلما » (١٨) .

ولكن ما ان علم انه عين معاون ادارة بمنفلوط حتى أحس بان سفره الى مقر عمله هذه المرة لا يماثل سفرياته الى الاسكندرية ودمنهور حيث نزل عند الأقارب .. وإذا به يتهيب السفر الى الصعيد ، ويتوهم أنه مهاجر يقيم منفردا فى بلد غريب بعيدا عن الاهل ، ويتوجس خيفة من انقطاع صلاته بعائلته ، ويضطر ان يعيش وحيدا فى بلاد تنتشر فيها جرائم القتل والاخذ بالثأر ، محرومة من وسائل التقدم الحضارى من ماء نقي ونور كهربائي ومجاري .. تزحف فيها العقارب فى كل مكان .. كلها حياة خشنه صارمة لا تعرف الزينة ولا تجيز دلع القاهري فى طعامه وملبسه ونكاته ونزهاته .. ليلها سجان له يد سوداء تفلق الابواب عند غروب الشمس على الانسان والحيوان ... فأخذ يحبى حتى يردد اقوالا لا تخلو من رعشة « لا أستطيع ان اتبين شعوري حين علمت انني مهاجر لاقيم منفردا بالصعيد .. هل هو تهيب من المجهول .. أو هو خوف من

الانقطاع والوحدة .. ؟ لم يسبق لي قط ان سافرت للصعيد او خالطت اهله .. صورته المنطبعة في ذهني رسمتها لي اقاويل تقاربتهاويل الاشاعات عن جرائم القتل والاخذ بالثأر .. » (١٩) ومع ذلك سافر يحيى حقي الى منفلوط وتسلم عمله كمعاون ادارة في اول يناير سنة ١٩٢٧ . تحدوه مشاعر « بسعادة الانطلاق .. الى عالم غامض احس بسحره وعطره .. كنت اشتاق اليه من قديم .. وادرك ان مصريتي ومجيتي لبلدي لا تتمان الا اذا اغتسلت في حوضه » . (٢٠)

لا جدال في ان الشيء الجديد على حياة يحيى حقي في منفلوط هو معشيته وحيدا بعيدا عن الاسرة ، دون تدخل من والدته التي يبدو انها كانت ذات شخصية مهيمنة يعمل لها الجميع الف حساب ... ولقد سكن بمفرده لأول مرة ، اذ لم يكن هناك اقارب ينزل عندهم كما كان الحال في الاسكندرية ودمهور .. يدخل البيت ويخرج منه بلا رقيب ، لا يحاسبه احد وقت الخروج ولا يجد من يسأله متى عاد .. اذ كانت والداته تحرص على ان تتم على اولادها جميعا قبل ان تنام ، ولا يأتي لها نوم الا بعد ان يدخل كل منهم فراشه .. وكل هذه الحرية اتاحت له الفرصة الكاملة لكي يتخلص من تأثير كثير من تقاليد اسرته التركية ، ويقترب اكثر فاكثر من صميم الحياة المصرية بعيدا عن كل التدخلات الخارجية .. يعيش في معمعة المجتمع المصري صباح مساء ، تحيط به مختلف مظاهر الحياة المصرية من كل جانب .. يستعين باهل منفلوط ويعتمد عليهم كل الاعتماد في مواجهة شتى الحاجات اليومية الضرورية ... وان ظروف عمله كمعاون ادارة حصرته اتصالاته بالفلاحين الى حد كبير ودفعته لمعرفة طباعهم وعاداتهم في مواقعها الاصلية .. بينما التنقل بين المراكز والقرى لتلبية الواجب الوظيفي جعله يشاهد عن قرب الطبيعة المصرية ويتصل بها اتصالا مباشرا حين يخترق الحقول ويتأمل النباتات وبرايق الحيوان .

وبذلك تكون اقامة يحيى حقي منفردا في منفلوط مدة عامين لمباشرة مهام عمله قد ادت الى احتكاكه الفعال بالانسان المصري والمجتمع المصري والطبيعة المصرية ، مما ساعد على تنمية شخصيته المصرية في ظروف لا تسمح بتسرب نفوذ التقاليد التركية ونزعاتها ، وتدعو الى تغليب التقاليد المصرية وتعميق نزعاتها في مختلف تصرفاته .. واذا بالحياة الجديدة تستغرق كل وعيه واهتماماته ، ولا تكاد تفلت منه لحظة من لحاحات الريف في الصعيد .. فانتبه الى انماط من الانسان الساذج المتخلف .. روعه الدجال الذي يتظاهر بالتقوى ويلبس العمامة الخضراء ليستقل بساطة الفلاحين .. ويبعث الرهبة في قلوبهم ويسلبهم اموالهم ويستدرج نساءهم ... وشغله المحتال الذي يلجأ الى كشف الطالع وادعاء القدرة على شفاء الامراض المستعصية .. فهاله ان ينهزم العقل امام الدجل والاحتيال الذي يوهم بإمكانية الكشف عن كنوز مختفية واظهار القائب البعيد ... ويهزه نفوذ رجال الدين على الفلاحين .. ليس فقط في

(١٩) نفس المرجع السابق .

(٢٠) المرجع السابق .

حلقات الذكر وصلوات الجماعة بل على الخصوص في فض الحزازات وإبطال الأخذ بالثأر ، والتقريب بين القلوب وتطهيرها وتقديم النصائح الأخوية التي تمنع الجرائم وتحض على مصالحه المتخاصمين ورد المطلقين ، والسماح بتأجيل سداد الديون .. ولقد أدهشه كيف يعم السلام في اقربة طوال اقامة الشيخ بين ربوعها ينتقل من ضيافة الى ضيافة اسابيع وشهورا ، وكيف يتوجس الاهالي خيفة اذا ما عزم على ترك قريتهم لينوجه الى قرية اخرى .. !! الا انه يلحظ ان قوة هؤلاء الشيوخ لا تتناسب مع ثقافتهم وشخصياتهم بأنه لا يوجد عندهم علم يهر ولا قوة روحية خارقة ، وان ولايتهم ليست الامجرد مهنة متوارفة لكسب العيش بطريق شريف يفيد الاهالي ، ويقوم بدور فعال في تطهير المجتمع من كثير من الشوائب الخلقية والاجتماعية .. !! ولذلك كانت العلاقة بين هؤلاء الشيوخ والفلاحين علاقة مثالية تتسم بالنبل ، ليس فيها استغلال او خداع بل فيها تبادل المحبة والاحترام والثقة والرغبة في تعميم الخير ونشر السعادة والامان والاطمئنان بين الجميع . وذلك بخلاف العلاقة السائدة بين الفلاحين وموظفي الحكومة الذين استقروا في بلادهم ليقدّموا لهم مختلف الخدمات ...

لقد كانت علاقة الموظفين بالفلاحين تفتقر على الدوام الى الثقة المتبادلة ، معادى يحيى حتى لان يشعر بالاسى والاسف لوجود « هوة كبيرة بين الفلاح والحكومة » ولذلك فان « معظم اشغال الحكومة ، رغم حسن نيتها ، يساء فهمها .. وتعزل وتهدم .. » (٢١) وحاول يحيى حتى بكل قواه ان يستلين الفلاح حتى يثق به كموظف حكومي فلم يفلح .. !! اذ اصبح في ذهن الفلاح اعتقاد راسخ بان الحكومة لا تفهمه .. هو في واد وموظفو الحكومة في واد .. ينظر الى هؤلاء الموظفين على انهم اغراب اجراء ، لا يفهم الا قبض مرتباتهم ، وقلوبهم ليست معه .. حتى دب في قلب الفلاح ريبة متأصلة من الغريب ، وريبة أشد اذا كان الغريب من طبقة الافندية الموظفين ، الذين يعتقدون انه راقد على كنز ، وان خيرات ارضه موفرة ينبغي أن يكون لهم نصيب فيها .. فلا تعجب اذا ما اخذ الفلاح حذرته حتى لا يظهر عليه دلائل النعمة فلا يطمع فيه « الشباحون » من الموظفين الذين يتوهمون أن تقدير مهابة وظيفتهم تقاس بما يلقونه من اكرام ، ويقدم اليهم من مأكولات حين ينزلون على الفلاحين لظروف العمل ويضطر العمدة لاستضافتهم ... الا ان « فراغة عين الموظف » ليست السبب الوحيد لعدم ثقة الفلاح فيه .. انما لاهتزاز صورته كذلك امام عينيه ، ما ينشأ بين الموظفين من خلافات وخصومات تصل الى حد العداء السافر وكتابة المرائض الكيدية ، فكيف تؤمن جانبه .. ؟ فقد يلقي الفلاح الموظف الجديد بالترحاب عند قدومه لأول مرة ، ويقبل ان يدخل معه في علاقات طاملا انها تعود عليه بالفائدة .. لانه يعلم ان هذا الموظف لم يأت اليهم « حبا في سواد عيونهم » بل تأدية لواجب مفروض عليه ربما يراه كريها فاذا ما فرغ منه يسرع فيولي ظهره وينفض يديه منهم ... ومن خلال هذه المشاعر كانت تعرفات الفلاح تلذذها بين عواطف الوفاء وتكران الجميل

... وبين التودد والنفاق .. مما جعل الموظف بالتالي ، يشعر بان الفلاح رجل لا يوثق به ، عنيد لا يتحول عن طبعه، وان معاملته بالبلين والانسانية عبث ضائع .. ولكن عدم الثقة المتبادلة وريبة كل منهما في الاخر تفسد كثيرا من مشروعات الحكومة ، خصوصا تلك المشروعات التي لا تراعى احوال الفلاح المصري الاجتماعية والثقافية ولم يسبقها اعداد الموظف المناسب لحياة الريف المصرى ... !!

وفقد الثقة بين الفلاح والموظف ليست المظهر القبيح الوحيد في ريف الصعيد .. فان هناك مشاهد اخرى اشد قبحا تستلقت النظر وتدمو الى التأمل .. فان الفلاح المصرى الذى لا يثق في الموظف يتعرض يوميا لضروب مختلفة من الضغط في شتى مجالات حياته العادية : يستغله الموظفون من اكبرهم لاصغرهم .. فان المأمور يفرض نفسه على العمدة لكى يعد له وجبة فاخرة اذا ما نزل عليه لسبب من الاسباب يستدعى البقاء في بلدته مدة طويلة ... فيضطر العمدة ان يستولى على دجاجة فلاحه فقيرة لكى يقدم للمأمور الوجبة الشهية التى ينتظرها، ويرضيه على حساب « فلاحه غلبانة » في اشد الحاجة الى العون والمساعدة .. بينما يعامل الطبيب الفلاحين بأساليب تخلو من الانسانية ، وتتسم بالاستعلاء والغلظة والاستقلال .. . فطبيب القرية لا يتورع عن تشريح جثة قتيل في عقر داره امام أهله ، ولا يبالي بحرمة الميت ولا يحترم مشاعر الجاهل ويقطع في جثة الفريق على الجسر امام المارة ... ولا يستنكف من ان يسخر من شباب القرية وهو يكشف عليهم عرايا بوقاحة يوم فرز القرعة ... فلو كان يفحص كلبا جريا لكانت يده احن عليه من على هؤلاء الفلاحين ... يعيش في قصر جميل ، معتزلا القرية ، كانه اقامه وسط فابة واحاطه بالمتاريس، ولا يتسع الا له ولاسرته ويخرج منه يوميسا للادغال لصيد الوحوش ثم يعود ليتمتع دون بقية اهل القرية بكل مزايا المدنية المادية والمعنوية. ... يحيا في قصر بسوده السلام والدعة والركة والنظافة والابهة والرفاهية ولا يمكن ان يتصور ان هذا الطبيب المهلب النبيل داخل بيته هو نفسه الذى يعامل الفلاحين بغلظة وقحة لا اخلاقية ... فيشترط دفع الاجر قبل تقديم العلاج المطلوب او قبل اجراء عملية ، لا هم له الا الاتراء العاجل بأى ثمن بالطرق المشروعة او غير المشروعة على حد سواء دون تمييز بين الخير والشر او الحق والباطل « (٢٢) . هذا فضلا عن ان الفلاح كثيرا ما يتعرض لغلظة العمدة بل وظلمه واستغلاله احيانا لتحقيق مارب شخصية ، او ليظهر مدى سطوته على الفلاحين حتى يرضى عنه الحكام ... فيعيش الفلاح بين مطرقة العمدة وسندان شيخ البلد ، يحاول ان يكسب ود الطرفين المتنافسين دون جدوى .. فلا نعجب اذا ما سرت الغلظة والقسوة في مختلف نواحي الحياة في ريف الصعيد فلانكاد نموت زوجة الفلاح حتى يتزوج باخرى مهما كان عدد اولاده ومهما بلغ من الكبر . وسرعان ما يتآمر الاولاد على الاب ويقتلونه . واذا ما فرطت بنت في عرضها فلا يتردد اى فرد من افراد العائلة عن قتلها حفاظا على الشرف

.. ولا سبيل لحل الخلافات على حدود الأرض وورى الغيطان سوى تبادل إطلاق النار وسقوط الضحايا من هنا وهناك ، صونا للكرامة ودفاعا عن حرمة الأرض ... بل ان الفلاح منذ ولادته محروم من حياة الطفولة يقاسي منذ الصغرى ويلات العمل في الحقول ، وسرعان ما يصاب بأمراض البهارسيا والملاريا التي ترهق بدنه وتغتال حيويته وتسرع به الى شيخوخة عاجزة ، في حين لا تعرف الفلاحة الرافة ، فماتكاد تتزوج حتى تنجب ، ولا تمنعها كثرة الخلفة ومتاعب الواجبات المنزلية أمام الفرن وتقريص الجلة من مشاركة زوجها في القيط . . وهكذا تستمر في عمل يومي شاق دون توقف منذ الصبا الى الشيخوخة حتى يصعب التمييز بين الشابة والمعجوز من نساء القرية « فليس في قبضة الفقر والشقاء الا عمر واحد » . (٢٣) يجد الفلاح نفسه مضطرا لان يهتم بحيواناته الى درجة تفوق اهتماماته بأولاده وزوجه . . فاذا ماتت العجائز ذرف عليها الدموع ، ولطمت النساء الخدود ، واقيمت مناحة كبيرة يتقبل فيها العزاء من الاهل والجيران . . ولذلك فليس هناك أشد قسوة في الانتقام من دس السم للبقر والجاموس . . وان الترف الوحيد الذي يعرفه فلاح الصعيد الحافي القدمين المرتدى الجلباب الازرق البالي هو القتل عند الاخذ بالثأر . (٢٤) بينما تكاد تخلو حياة الفلاح الخاصة من اللهو والمرح ، ولا يسرى عنه الا نزول السيرك الى مولد السيد عبد الرحيم القناني . . فيتسابق الفلاحون الوافدون من جميع انحاء المركز على مشاهدة الالعاب البهلوانية وعروض التمثيل ومشاهد الغناء والرقص في نشوة ما بعدها نشوة لا تكرر الا نادرا . . الا ان الفلاح لا يعرف شيئا عن بهجة الانثى حتى ان الفواني - وهن فلائل - يرقصن في لباس يغطي اجسادهن الى الكمين في بيوت من القش والطين . . ومع ذلك فان الحياة الجنسية تلعب دورا هاما في تحريك الحياة في الصعيد وتثير متناقضاتها الاهتمام . . ! اذ كيف تصبح الست ظريفة - التي كانت في شبابها غانية من الفواني - ولية من وليات الله وبشيد لها مقام يزار وتبترك به . . بسبب ما اظهرته من كرم وتوبة وتبتل في اواخر حياتها . . ومع ان التقاليد لا تعطى للمرأة التي تفرط في عرضها فرصة للتوبة وتقتص بها فوراً بالاعدام . . كما انها سمحت بوجود نقطة للدعارة الرسمية . . فلم يعترض احد من الاهالي على احتراف الفحشاء أو يتحمس لاجبار المومسات على مغادرة البلاد . . بل لم يتأفف فرد منهم من سوق الشرطة لهن لاستقبال قطار الرحلة الملكية وإطلاق الزغاريد التي يتمتع احرار نساء الصعيد عن اطلاقها علنا . . وكذلك يعرف العمدة وشيخ البلد كل امرأة تمارس الجنس سرا ولا يحاول احدهما ان يمنع واحدة من باعها الهوى عن التردد على بيوت الافندية في الاماكن النائية في الخفاء تحت ستار الليل . . بل لا يتورع العمدة أو شيخ البلد عن أن يدفع بامرأة بحراوية بعد أن يأخذ مأربه منها ليلهى بها الموظفين الذين يتقززون من قدارة المومسات الرسميات اللاتي يكشف عليهن كسفاطيا شكليا وان كان دوبا . .

(٢٣) يحيى حقي : ام العواجز : قصة ازالة راحة . الكتاب الذهبي العدد ٢٩ أغسطس ١٩٥٥ . القاهرة .

(٢٤) نفس المرجع السابق .

بهدف إبعاد خطر استهواء الشبان من الموظفين لبنات القرية ونسائها .. حتى لا يتعرضن لمصرع اليم .. مع أن الرعب من القتل يكاد يحد من انحراف النساء الصعديات .. فإذا ما طاش سلوك واحدة منهن غالباً ما تكون من نوعية معينة: كان تكون ابنة تاجر ثرى مشغول بتجارته .. في حياته يسر ، يتمتع بقسط من التحرر يخفف من شدة الرقابة . (٢٥) أو تكون بنت مدارس دخلت في علاقات اجتماعية لم تنشأ عليها .. أو تكون من أسرة مسيحية يلتحق بناتها بمدارس التبشير التي تسمح بنوع من الاختلاط مع الجنس الآخر (٢٦) وفي جميع هذه الاحوال تنتهى حياة البنت التي لا تحرص على شرفها لسبب أو لآخر وان كل ما ينسب الى الصعيد من انحرافات جنسية ينصب في الغالب على نساء بحراويات اتين من خارج الصعيد (٢٧) أو الى الفوانى اللاتي ينشأن على حياة حرة طليقة لا تحافظ على حرمة الجنس وصيانة العرض ، ومستعدة لأن تبذل كل شيء في سبيل المصلحة والنفع والمادة (٢٨) .. وهكذا اهتم يحيى حتى بأن يعرض مناقضات القيم الجنسية في الصعيد ويبين كيف انه يحق للرجل الصعيدى أن يمارس الجنس في حرية مطلقة دون قيد اخلاقى أو شرط دينى ، ولا يلام اذا ما اشبع نزواته الجنسية بأساليب داعرة رغم تعدد زوجاته . ولا يشعر بالعار اذا ما رأى الدعارة تطوف من حوله ، ولا يجد داعياً لأن يحرك ساكناً طالما انها لا تمس أهله ، بخلاف اذا ما سلحت امرأة من الصعيد لنفسها بممارسة الجنس في غير النطاق الذى وضعه الشرع وتسير عليه التقاليد فانها تلقى مصرها من غير تردد أو تفاض .. !!



الا أن ريف الصعيد ليس كله قبحاً فان الطبيعة وهبته من الجمال الشيء الكثير ، ما اجبر يحيى حتى على ان يصف روعة تدفق مياه الفيضان مع احتفال الفلاحين بوفاء النيل ، ويعرض مناظر حقول القطن والبرسيم في لوحات خلابة ، ويتأمل حيوانات الفيط عن قرب ، خاصة الحمار الذى زامله مدة اقامته بمنفلوط ، ويحاول أن يستشف كنه كل حيوان من خلال عينيه « للبقرة عين غارقة في أحلام لذيذة .. للجمال عين ترقب الدنيا من عل بتوجس وغضب مكتوم ، كأنما يخشى أن تلحق بكبريائه اهانة على يد حقراء .. وللحصان عين تنم عن الخيلاء والنبيل والذكاء تعكس الضوء بالليل فتتقد كالياقوتة الحرة .. وللتيس عين فيها العناد كله ، وحتما الخبث والمؤامرات .. وللجاموسة عين متطفئة لا تنبعث منها حياة أو ارادة الا وهي ترضع طفلها فينعقد سباتها على الحنان .. اما الحمار فان عينيه ذليلة حزينة تكاد تترقرق فيها الدموع ، بل يخيّل

(٢٥) نفس المرجع السابق .

(٢٦) يحيى حقي : دماء وطن : قصة البوسطنجى .. مجموعة اقرا . دار المعارف . العدد ١٥٢ . عام ١٩٥٥ . القاهرة .

(٢٧) يحيى حقي : دماء وطن : قصة « ابو فودة » .

(٢٨) يحيى حقي : دماء وطن : قصة : قصة في سجن .

الى في بعض الاحيان أنها معصية كعيون الاطفال بعد بكاء .. اهلا هو سر نهيفه .. ليس في صوت حيوان آخر مثل هذه الحرقلة والتفجع والمرارة ، أنها صرخة عذاب واستغاثة واشهاد الناس في نوبة متفجرة من بكاء بلا دموع تمزق الهواء ثم تذوب كأنها لم تكن .. (٢٩)

لا شك في أن الفترة التي قضاها يحيى حتى في ريف الصعيد - رغم قصرها اذ لم تتجاوز العامين - قد عمقت مصريته الى ابعاد ما كان يستطيع أن يصل اليها لو بقي في القاهرة بصفة مستمرة ولم يتركها الى الصعيد .. فلقد يمرت عليه فهم كثير من اتجاهات الحياة المصرية ونجح في تصويرها تصويرا واقعيا صادقا في كتابه «**خليها على الله**» .. والهمته بأروع قصصه الاولى في «**دماء وطن**» و «**أم العواجز**» كانت صدى لتجارب حية ظلت تتفاعل في داخله وتوحي اليه بعواطف ومشاعر وأفكار وحكمة وموعظة وصور وخيالات ، شغلت وجدانه وحركت عقله لمدة طويلة حتى وهو بعيد عن أرض مصر متنقلين بلدان أوروبا .. وعلقت قلبه بالفلاح المصري رغم قدارة ملابسه وبيته وضالة طموحه وسرعة وقوعه في الجريمة والانحراف .. فسخر منه القصصى ليكشف عن اسرار طبيعة شخصيته ، ويدعو الى النهوض به نهضة انسانية وثقافية حتى يرتفع مستواه الحضارى ... الا ان يحيى حتى نظر للفلاح نظرة أهل الحضر وسكان المدن التي لا تستسيغ الاوضاع المتهاكلة التي عليها أهل القرى وسكان الريف ، فكان هدفه من وصف المجتمع الصعيدى الوصول الى نوع من النقد والتوعية بقصد ، اولا وقبل كل شيء ، اصلاح حال الفلاح المصرى في ضوء المفاهيم الحضارية الحديثة .. ولكن اوصاف يحيى حتى للفلاح والحيوان والحقول تقف عند حد القطاعات التي سمحت ظروف حياته بان يتصل بها اتصالات مباشرة أو يدخل معها في علاقات عمل أو لهو وانقلت فكره وجدانه .. ولا غرابة في ذلك فلقد نشأ يحيى حتى وترى في القاهرة ، وترجع معرفته بالريف ، قبل ان يذهب الى منفوط ، الى مجرد رؤية بعض القرويين الذين يدخلون بيته لتقديم حساب المحاصيل واجرة الارض ، او لقضاء عمل من الاعمال المنزلية .. واغلب تصورات عن الريف استقاها عن بعض التهاويل والاشاعات التي استمع اليها من هنا وهناك .. ولما ذهب الى اعماق الريف الصعيدى لم يخالط أهله او يعاشرهم ، انما كانت اغلب اتصالاته مع انداده من الموظفين وبذلك لم يختبر حياة الفلاحين في أحضان الريف ، لانه لم يقيم في بيوت من الطوب اللبن ويرقد على الارض بجوار الحيوان .. ولم يأكل أكلهم صباح مساء او يشرب من مجارى الانهار ويرتدى زيهم الفضفاض .. ولم يشاركهم في جد هم وعيهم ، يستهويه ما يستهويهم وينفر ما ينفرهم ، يخطط معهم للاخذ بالثار أو يجد نفسه بلا ارادة مندفعاً في معركة من معاركهم دفاعاً عن الكرامة او الارض .. ولذلك اذا اطلع يحيى حتى على بعض اسرار الريف في الصعيد ورآها عن كثب فلم تتح له الفرص الكاملة لأن يندمج في عائلة من العائلات الصعيدية اندماجا شاملا يسمح له بالامتزاج التام في خضم حياة

الفلاحين ليتعرف على أبسط دخائلهم اليومية التي لا يمكن أن يلحقها القريب مهما بلغ من الوعي والثقافة ودقة الملاحظة .. أو يستجيب لكل ما يشغل وجدانهم ويثير اهتماماتهم ، ويتجاوب مع كل ما يفتعل في قلوبهم من هموم ومخاوف وآمال وتمنيات .. ولذلك لا يكفي أن يحس الفنان بالمشكلة لكي ينفعل بها ويمارش إبعادها معايشة حيوية ليستطيع أن يعبر عنها تعبيرا صادقا ، وإنما يجب أن يمشي هذه المشكلة بكل جوانبها ويندمج فيها اندماجا شاملا في تجربة كاملة لا تقف عند مجرد الانفعال والمعايشة ، معتمدة على نفاذ البصيرة وشفافية الرؤية ..

اذ لا جدال في أن من يعيش التجربة أكثر صدقا وأبلغ دقة وأكثر قدرة على التعبير عنها عن الذي ينفعل بها أو يعايشها لفترة من الزمن مهما طالت .. اذ سرعان ما يستولى عليه الملل ويفقد الانفعال حيويته ، وتصبح المعايشة عبئا ثقيلا قد تنقلب الى ضيق وتدمر يتمنى الخلاص من حياة لم يعتدها ... وإذا حاول يحيى حتى أن يوهم نفسه قبل أن يوهما بأنه بلغ أغوار شخصية الفلاح المصرى ، وأنه كان في موقع يسمح له بأن يفسر احوال هذه الشخصية تفسيراً سليماً فإن نظرته الى هذه الشخصية لم تكن نظرة موضوعية خالصة ، انها كانت نظرة اتر فيها منطق اهل المدن ، حتى يمكن ان يقال ان نظرة يحيى حتى الى اهل الصعيد أقرب ما تكون الى نظرة هؤلاء المستشرقين اصحاب القلوب الكبيرة العامرة بحب الانسانية التي تقبل طواعية أن تعيش في المجتمعات البدائية أطول مدة ممكنة ، بهدف انقاذ الانسان المتخلف ورفع مستوى حياته وحمايته من الجهل والاستغلال .. الا ان يحيى حتى يمتاز على هؤلاء المستشرقين بأن بواعثه في الحذب على هؤلاء الفلاحين لا تقف عند حد الاشفاق والعطف خلال لفظة انسانية ، انما تستند كذلك الى نوع من الغيرة الوطنية يحزنها ان ترى المواطنين على ما هم عليه من تخلف وشقاء ..

وهكذا اكتفى يحيى حتى بأن ينفذ في أعماق الريف المصرى محاولاً أن يتسرب الى وجدان الفلاح المصرى من خلال تصرفاته الخارجية التي يراها امامه ولا يقبلها منطق اهل المدن ليفسرهما من خلال علاقاته المتضاربة بين الفلاحين أنفسهم من ناحية ، وبين الموظفين من ناحية أخرى ناشدا فهم خبايا الريف وأسرار شخصية الفلاح المصرى .. ولكن هذا الفهم كان مفيداً كما ذكرنا بحدود امكانيات نشأته القاهرية في نطاق أسرة ذات اصلا بتركبة ..

ولا نعجب اذا ما اخذ يحيى حتى يشكو من مرارات الحياة في ريف الصعيد ، ويشن من قسوة عمله صارخاً « طالما أرهقنى واذاقنى عذاب الجسد والروح اشكالا والوانا ، ثم يستدرك زاعماً انه لولا معاناة مثل هذا النوع من الحياة ، وممارسة مثل ذلك النمط من العمل ما عرف يلوى اهله ومشاكله وشدة حاجته ان يأخذ بيده من ابنائه ، يترنم بلهجه وطنية ناشدا ان هذا الشموخ قد انقذه من (الضياع) حتى وجد في اقامته بمنفلوط (السلامة وراحة القلب بتأدر ما في الدنيا من سلامة وراحة قلب) (٣٠) .. الا انه كثيراً ما كانت تستولى عليه مشاعر

(٣٠) يحيى حتى : اشجان غصو منتسب : سيرة ذاتية .

النفور والرهق ، تصور له تلك البلدة على انها راقدة بين الفيضان والنخيل .. حيوان مشوه .. جسم رابض على الارض لا فكر له .. عيناه واسعتان ولكنه اعمى .. يتنفس ويحيا ويجد سبيله في الحياة بفضل غريزة قوية .. نومه وجود .. استيقاظه تحفز .. سكوتة بين هذا وذاك .. مخاوفه . (٣١) وكم روعه ذلك الفلاح المعدم الذى يهوى القتل تحت بواث الاخذ بالثأر ، وكثيرا ما كان يتحسر لعجزه في التمييز بين الشابة والعجوز من النساء في مجتمع ينذر ان تظهر فيه المرأة ... واذا بالمل يستبد به في النهاية ويشعر بان يعيش حياة رتيبة كئيبة لا تسرى عنه سوى الجلسة المشابهة كل يوم في القهوة مع الاصدقاء ذاتهم يتحدث معهم في نفس الاحاديث التى لا تنفیر ، وعادة تدور حول خبايا عائلات الزملاء من الموظفين وخاصة حول تصرفات بعض الزوجات المنحرفات (٣٢) فأخذ يتشوق لعمل ينقذه من تلك الحياة القاسية الكئيبة ، واذا بالآمال تراوده في البحث عن مستقبل آخر يبعده عن هذا المكان يحمره من اسر الرف ، ويطلقه في عالم اكثر رحابة الى أن صادفه ذات مساء اعلان في صحيفة يومية .. فبينما (كنت راقدا بعد العشاء على السرير بعد نهار أنك روحى وان له جسدى .. اقلب ولا أقرأ صحيفة يومية واذا بنظري يقع على اعلان لوزارة الخارجية بانها تستعد مسابقة تعيين الفائزين فيها بوظائف امناء المحفوظات اى سكرتيرين في القنصليات والمفوضيات » (٣٣) فتوقظت فيه كل الرغبات السابقة التى كثيرا ما شوقته للحياة في الخارج حيث تتوافر مختلف المتع الفكرية والثقافية والفنية وكذلك الحياة المتحضرة الراقية التى للمرأة فيه دور بارز وسريعان ما (تقدمت للمسابقة ... ونجحت .. وان جاء اسمى في ذيل قائمة الفائزين .. صدر امر تعيينى امينا لحفوظات القنصلية المصرية في جدة باعتباراه اسو المناصب الشاغرة وقتذاك) (٣٤) ..

وهكذا حدث الانقلاب الخطير الثانى في حياة يحيى حقى بعد حدث هجرته من القاهرة للصعيد

بعاميين من الزمان .. فانتقل من حياة يفيض فيها العمل المرهق عن الزمن المحدود الى حياة يفيض فيها الزمن عن عمل موهوم .. (٣٥) فلم يتأخر يحيى حقى في تسلّم المنصب الجديد رغم انه لم يحقق كل طموحه ويرضى تطلعاته ، الا انه عبر عن رضاه بالعمل في جدة بقوله : سآزور الحجاز .. وادرس المذهب الوهابى .. واعرف مشاكل الحج والكورنيتين ... وأرى جميع الشعوب الاسلامية .. وبعض كبار المستشرقين .. (٣٦)

(٣١) يحيى حقى : ام العواجل : قصة : ازاة ربعة .

(٣٢) يحيى حقى : خليها على الله .

(٣٣) المرجع السابق .

(٣٤) يحيى حقى : اشجان فوضو منتسب : سيرة ذاتية .

(٣٥) يحيى حقى : خليها على الله ..

(٣٦) المرجع السابق ..

- ٣ -

ويبدو أن حياته في جدة وهى تمتد من عام ١٩٢٩ الى عام ١٩٣٠ لم تكن اسعد حالا من حياته في منفوط . فلقد كتب لي اخيرا رسالة خاصة ذكر فيها شيئا عن حياته في ذلك الوقت يقول « فقد عشت في جدة وعمرى ٢٤ سنة قرابه سنتين ... في جو حار وطب خائق ... بعض وعرق .. كنت اتماطى حبوب الكينسا يوميا .. اناام على مرتبة ساخنة داخل ناموسية .. استحم في طشت بماء من صفيحة .. اشتغل بالليل على كلوب اتلف عيني .. ومع ذلك قرأت مكتبة القنصلية كلها .. وتعرفت لأول مرة الى الجبرتي ، وكتبت عدة مقالات وقصص لا اذكرها .. اذ (في تلك الاونة كان النشاط الدبلوماسي قليلا فرحت اقضى وقت فراغى في مكتبة القنصلية حتى قرأتها من آخرها - وفيها اكتشفت تاريخ الجبرتي لأول مرة وفتنت به اشد الافتتان .. فلم اعرف كاتبها او مؤرخا استطاع أن يصور روح الشعب المصرى مثله » (٣٧) فلم يتوقف يحيى حتى وهو في جدة عن السعى من أجل تعميق مصريته . فاذا به يعيش مع الجبرتي يحوم حول الروح المصرية ويكتب مجموعة من المقالات في **جريدة البلاغ** تحت عنوان « **الفكاهة في المجتمع المصرى** » وقمعا باسم « **عبد الرحمن بن حسن** » وهو اسم الجبرتي نفسه . لخص فيها كل ما ورد في تاريخ الجبرتي من فكاهة . بعد ان حصرها وبوبها وارجعها الى اصولها النفسية ، محاولا الكشف عن بعض نواحي الشخصية المصرية .

ولعل اهتماماته بالشخصية المصرية وتعزيز معرفته بها في تلك الفترة هى التى شغلته عما يدور في بلاد الحجاز من حياة .. فلم ير هناك سوى « المسلمين يأتون للحج من جميع أرجاء العالم ، فيكونون لوحة شاسعة كان لها اقوى الأثر في نفسى » (٣٨) ومع ذلك لا تكاد نعر له عن أى نوع من الكتابات الوصفية التأثرية الفنية التى عرف بها - تعطى لنا لوحة قلمية حول اللعبة الشريفة او الحرم النبوى الكريم رغم شغفه الزائد بوصف كثير من الآثار الاسلامية في القاهرة واستنبول « وان كل ما ظهر له من انعكاسات حياته في جدة لم يتعد كتابة بعض المقالات عن المذهب الوهابى ومشكلات الحج والكورتينات في مجلة الرابطة الشرقية ، وهو في هذه المقالات يكاد يسير على هداية هؤلاء المستشرقين الذين التقى بهم خلال العمل الدبلوماسى واعجب بعقليتهم الغريبة المنظمة .. »

وهكذا نجد يحيى حتى في جدة منزويا في مكتبة القنصلية بعيدا عن المجتمع الحجازى .. يقرأ ويقرأ محاولا أن يجتر مدى ما توصل اليه من مصرية .. وان ذهب لمشاهدة المسلمين في ساحات الحج الا ان بواعثه كانت بواعث فضول - وما اقبل على دراسة المذهب الوهابى الا بدافع ثقافى يريد أن يتلمس مدى قدرة هذا المذهب على تطوير الفكر الاسلامى في الدين .

(٣٧) يحيى حتى : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(٣٨) الرجوع السابق .

وما أن تم نقل يحيى حقي من جدة الى استانبول في عام ١٩٣٠ حتى اتاه الفرج .. فاذا كان قد حبس نفسه في جدة بمكتبة القنصلية فانه في استانبول خرج الى المجتمع التركي يتصل بالعائلات ، خاصة تلك العائلات التي تمت له بصلة قرابة ، ويزور الاحياء الشعبية ويتردد على مقاهيها وملاهيها ، ويصف آثارها الاسلامية ويعايش الحركة الكمالية .. لا شك في ان خروج يحيى حقي من جدة الى استانبول اعاد اليه بعض حيويته .. فان قلب يحيى حقي لم يفض بفكر جديد وهو في جدة ، وان عقلاه لم ينفعل بحياة أهل جدة ، وعاش على هامش المجتمع الحجازي يتصل اكثر ما يتصل بالمستشرقين الاجانب ، واقتصرت تحركاته على نطاق الاعمال الدبلوماسية .. ولعل ذلك يرجع الى ضرب من الحذر الذي شب عليه يحيى حقي في معاملاته مع كل من لا يجري في عروقه دماء تركية ، خاصة من هم من اصل عربي صرف ، الذين دخلوا معهم خلال التاريخ في صراع مرير على السلطة استمر اجيالاً ، فتخوف من ان تظهر العقد القديمة اذا ما دخل في علاقات وطيدة مع الحجازيين ، واذا ما حاول ان يتعمق في فهم المجتمع الحجازي وتبين ايجابياته وسلبياته ، وفضل ان يكتفئ انفس فكره ويضيق الخناق على نبضات عقله حتى لا يتعرض لاتهامات التحيز .. ولكن بمجرد ان استقر يحيى حقي في استانبول حتى شعر انه يعيش في موطن اجداده الاول ، وانه عاد من المهجر الى بلد له فيه عدد عديد من الذين لهم به صلة رحم .. فلم يعد يحس بأن هناك ما يدعو الى الحذر ، وانطلقت تصرفاته في شتى المجالات يدخل بيوت الاقارب وغير الاقارب من الاصدقاء والمعارف ، ويزور المساجد ويتردد على الآثار الاسلامية .. ويحاول ان يصادق بعض المصريين المقيمين في استانبول ويدخل معهم في علاقات .. يندمج في المجتمع الدبلوماسي ويشاركه في كثير من تحركاته الاجتماعية .. ينفعل بثورة كمال اتاتورك ولا يتردد في تقويمها .. يقبل على تعلم اللغة التركية لأن معرفته باللغة التركية لم تكن تسعفه في التفاهم مع أهله اذ « لم تكن اللغة التركية تستخدم في بيتنا الا للسبب في لحظات الغضب » ، (٣٩) وقد استطاع ان يتقن تلك اللغة للدرجة انه تمكن من تدقيق الشعر التركي وان يتصل بشعراء تركيا ويتعرف عليهم .. ويتابع بوجه خاص تطورات الحركة الكمالية في عنفوانها يرقب محاولات كمال اتاتورك في تحويل تركيا من دولة شرقية اسلامية الى دولة علمانية حديثة ينفصل فيها الدين عن الدولة . ويشهد مظاهر تحول حكومة شعب مسلم متدين الى دولة تتجاهل دينه وتعاديته وتعتقد ان التمسك بالدين هو سرتاخر الشعوب ، وتحاول أن تزيل كل ما يمت للدين بصلة ... ويقرا كل ما كتب عن كمال اتاتورك فاستطاع ان يصاحبه يوما بيوم يشاهده وهو يخطب ويجالسه عندما زار السفارة المصرية في انقرة ليسترضي المصريين بعد حادثة اهانة الطربوش .. واذا كانت شخصية مصطفى كمال قد بهرتة الا انه اخذ عليه دكتاتوريته ومصادرته للحريات الدينية ومعاداته لرجال الدين وتعطيله اداء فرائض الاسلام ومحاولته اعادة مسجد اياصوفيا الى الكنيسة التي كان عليها اول الامر . ولكنه رضي بحل وسط بأن يكون البناء مجرد

متحف لا هو مسجد ولا هو كنيسة تبطل فيه الصلوات الخمس ولا تعود اليه ترائيم الصلوات المسيحية .. (٤٠) ولعل محاولات مصطفى كمال لقطع صلة تركيا بالدين الاسلامي - رمز الحضارة العربية الاولى . تهدف الى ازالة كل ما اخذه الاتراك من العرب .. ولذلك اتخذ خطوات ايجابية من اجل تطهير اللغة التركية من الالفاظ العربية وهي تكاد تصل الى ثلث مفرداتها .. والزام عامة الشعب التركي بكتابة اللغة التركية بالاحرف اللاتينية بدلا من الحروف العربية ، بل امر بكتابة القرآن الكريم ذاته والاذان بالحروف اللاتينية كذلك .. وفضل ان يرتقى في احضان الحضارة الغربية املا في التطور والاصلاح والتقدم على ان يظل راكدا جامدا في تكايا حضارة العرب وثقافتهم المتكاسلة ، رغم انه حارب بشراسة الاحتلال الغربي في بلاده حتى طهرها من التدخل الاجنبى .

ولقد تصور يحيى حتى ان مصطفى كمال كره العرب وحضارتهم وثقافتهم كرها لم يعرف له مثيلا بلغ الحماسة ، اذ ليس هناك « احق من رجل يهاجم في العصر الحديث دين رجل آخر ، فما بالك بحماسة من يفعل ذلك بامتة على بكرة ابيها » (٤١) واذا لم يثر الشعب التركي ضد مصطفى كمال بسبب نزعة المعادية لدين الاسلام فليس ذلك « خوفا من بطشه انما اكراما له لانه انقلبه من التمزق والعبودية واستلاب الاجنبى لارضه . » (٤٢) واذا استجاب الشعب التركي لاوامر مصطفى كمال بهذا الصدد ، فان قلبه ظل يخفق بدين الاسلام وايمانه به لم يتزعزع وان كانت تصرفاته تجامل تعليمات الحاكم ... واذا تحسر يحيى حتى على عداء مصطفى كمال للدين الاسلامي وحرمان الشعب التركي من الحرية الدينية فانه تضايق الى حد الفضب لانه نوعا من العداء للعرب يبدو في اهماله لحضارتهم واعطاء ظهره لثقافتهم ، رغم ان تركيا ما استطاعت ان تحكم العالم العربى ويقبل العرب الخضوع لسلطانهم زمنا طويلا الا بفضل تمسكها بالدين الاسلامي ، حين اهتم سلاطين الدولة العثمانية بان يتولوا الخلافة الاسلامية ، لأن سلطات الخلافة الاسلامية تعطى لهم من النفوذ والتأثير الروحي ما يضمن ولاء الاقطار العربية للدولة العثمانية .. ولقد كان الدين الاسلامي دواما من أهم العوامل التي قربت العناصر التركية في مصر من عامة المصريين ، ودعت المصريين الى حسن استقبال الاتراك كلما نزلوا بديارهم حتى لو بغرض الاستعمار والاستغلال .. ولقد ضحى مصطفى كمال بكل هذه الجذور التاريخية في سبيل اعتقاده بان حضارة الغرب هي حضارة المستقبل ، وان حضارة العرب آخذة في الدبول ولا حاجة لتركيا فيها وضررها يفوق نفعها ..

ولكن ما هو الباعث الحقيقى لهذه الغيرة الدينية عند يحيى حتى ... ؟ هل هو باعث روحي صرف ، او هو باعث يحركه نوع من القلق يخشى انفكاك الارتباط الروحي بين تركيا

(٤٠) يحيى حتى : دعة .. فابتسامة .

(٤١) الرجوع السابق .

(٤٢) نفس المرجع السابق .

ومصر ؟ ان هذا الحرص على الدين لم يتسر لم به يحيى حتى وهو في الحجاز مسقط رأس الديانة الاسلامية حيث ولد رسول المسلمين عليه الصلاة والسلام .. وانطلقت منه دعوته الى العالم الخارجى .. وحيث الكعبة الشريفة اقدس المقدسات الاسلامية .. وحيث قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومقابر آل محمد والصحابه وشهداء الاسلام الاول .. فان كل هذه المواقع المقدسة لم تدغدغ حواس يحيى حتى الروحية كما دغدغ وجدانه مسجد اياصوفيا ومسجد الانصارى الصحابى باستانبول .. واذا كان ازدحام ساحات الكعبة الشريفة بالحجاج قد بهره واثاره الا ان ذلك لم يدفعه الى كتابات اشبه بكتابات عن ازدحام مسجد اياصوفيا بالمصلين في ليلة القدر .. **فالفرة الدينية هنا تكاد تكون غير ارتباط ..!! لا شك في ان يحيى حتى يعشق مصر عشقا مابعد عشق ، ولكنه يود كذلك لو تظل هناك علاقات وطيدة بين مصر وتركيا وخاصة العلاقات الروحية .. وان الدين الاسلامى كان على الدوام من اهم العوامل التى تولق الروابط بين الشعوب وتجدد حيويتها كلما اعتراها فتور بين المصريين والأتراك ..** فاذا ما تخطت تركيا عن الدين الاسلامى وارتدت في احضان الحضارة الغربية فان الذى يقلق يحيى حتى في المقام الاول ان هذا التخلي يقضى على ما تبقى من روابط الوصال بين مصر وتركيا والعرب والأتراك .. ويعز على المصريين الذين تجرى في عروقهم دماء تركية ان يشهدوا المصراع الاخير لعلاقات تاريخية قاومت القرون ، وأن يستشهدوا على فتور الروابط بين المصريين والأتراك الى حد العدم .. وكل ذلك يضعف من اتصالات المصريين بأقربائهم في تركيا ويبعد اقطع العروة الوثقى بوطن اجدادهم ... ولهذا السبب بالذات كان يحيى حتى ضد سياسة مصطفى كمال في معاداة الاسلام وكراهية العرب .. !!



الا ان اقامة يحيى حتى الطويلة بين الشعب التركي خلال فترة عنفوان الحركة الكمالية ، وما اثارته من تقلبات فكرية ونفسية ، وما خاضته من تجارب اجتماعية وثقافية اتاحت له من الفرص ما مكنه من أن يدرس جوانب كثيرة من اتجاهات الشخصية التركية السلوكية والاجتماعية ، بينما يشاهد تصرفات الأتراك وانفعالاتهم وميولهم فتكشف له من المفارقات ما لفت انتباهه . . ولعل اهتمامه الزائد بتحليل الشخصية التركية يرجع الى حد بعيد لرغبته في فهم بعض اتجاهاته الداخلية .. ولعل نجاحه في فهم هذه الشخصية يعينه أولا وقبل كل شيء على فهم ذاته فهمها يعرفه .. فوجد أن الشعب التركى « شعب غريب يجمع بين المتناقضات » تتسم شخصيته بسمات متعارضة تجمع بين « القوة والرقه » ورأى في الافراد « عيون بعد أن تبرق بلهب نظرة النمر الجائع تترقرق فيها السماحة وحب الدعابة ... فرض الاعتداد بالنفس يغلو في مواسم التأدب الاغواتى .. شعب يتوه في الخيال وترفعه الموسيقى الى السماء ثم لا يحيد في نظراته عن الواقع العلى والمنفعة المادية ... شعب تنضج في اغانيه الشعبية بدموع البكاء على الشهداء الذين سقطوا في ميدان الجهاد ضد روسيا وضد اليونان .. واشدها حزنا البكائيات على الشهداء

في حرب البلغار .. ثم هو في الوقت ذاته يزدري الموتى والقبور ازدرأ شديدا .. لم اشهد طوال اقامتي اربع سنوات في استانبول جنازة واحدة .. تتم المراسم كلها في المسجد .. يتقبل العزاء ثم انصراف كل حى لسبيله (٤٣) ورغم انه شعب فشا فيه التصوف وكثرت التكايا وتمددت الطرق الصوفية .. ومع ذلك فليس في استانبول قبر لولى من هذا الشعب يزار وتنسب له كرامة « ولذلك فلا نعجب اذا ما تقبل الشعب التركى الغاء التكايا .. ووجد يحيى حقى « بين الكتب الرائجة في استانبول تتندر برياء الدرويش الذى يزعم انه يلتزم المسجد واذا سئل عنه وجدوه في الخمار « وكان ذلك من بين الدواعى التى حثت الحكومة على حل الطرق الصوفية ومطاردة « المتتمين اليها مطاردتها للمجرمين المستحقين للشنق » وكذلك شجعت عامة الشعب على الاستهزاء بالدراويش والوعاظ « وما اكثر هزء نكاتهم الشعبية بالوعاظ ودعاة الفضيلة والكرم وبالوعود المحمولة على الفد لا اليوم « بل ان « مساجد استانبول كلها كانت لا تنطق بشيء عما تنطق به احجارها .. كلها روائع معمارية فحسب .. مقامة على مقابر العظماء من سلاطين آل عثمان .. لا توحى باية شحنة روحية .. ورغم ذلك لم ار مثيلا للشعب التركى في تبجيلة وتحيته واعزازه لشخص الرسول بشرا لانبيا فحسب « (٤٤) .. واذا انتقل يحيى حقى من واقع الحياة الدينية الى عالم الرجل والمرأة وجد ان « استعلاء الرجل على المرأة * في تركيا لا يتمثل الا في اختطافه لفنائه من قريته والهرب بها الى الجبال ونوالها عنوة .. فهذا الاختطاف هو عنده البرهان الوحيد على الرجولة .. « (٤٥) وشد انتباهه كعادته احوال بائعات الهوى فيقول « لم ار مثل البغى التركية في ايمانها بانها ضحية مجتمع الرجال الذى لا يرحم .. « وتحسر حين شاهد « في تلك المقاهى الشعبية الصغيرة في استانبول بين ربى التلال المخضرة المشرفة على البسفور او مرمرة اعزازا وتصفيقا لفتاة لم تبلغ سن الرشد .. ولكن خدها مداس للجميع « ثم رثى لظروفها القاسية عارضا لاحوالها المتضاربة « لم ار انسانا ضعيفا مثلها يجمع بين الابتسام والرعب وبين الصلف والمسكنة .. بين الافصاح والاختناق .. بين الطرب والأنين « وكم اغاظه مجتمع الرجال لانهم « تقننوا في تفصيل ثوب لها .. ثوب فنظرية اسمه اللل .. « (٤٦)

هذه هي الملامح الاساسية للشخصية التركية كما تكشف ليحيى حقى في ضوء تجاربه في استانبول .. ولا شك في أن اقامته الطويلة في تركيا التى بلغت ست سنوات على فترتين متباعدتين في استانبول وفى انقره قد مكنته من أن يتعرف على مدى التفاوت بين الشخصية

(٤٣) يحيى حقى : دعة .. فابتسامة .

(٤٤) المرجع السابق .

(٤٥) المرجع السابق .

(٤٦) نفس المرجع .

المصرية والشخصية التركية .. كيف أن تعميق معرفته بالشخصية التركية يعينه على حسن التصرف خلال شخصيته المصرية ، ويكشف له بعض ما خفى عليه من جوانب ذاته الموروثة من الأصول التركية ، فيتمكن من أن يتحرر من ازدواجية الاتجاهات وتضارب الانفعالات وتصادم القيم المصرية والتركية ، ويحقق شخصية واحدة متجانسة ترتاح لكل ما هو مصرى ولو رفضها طبعه التركي لسبب من الاسباب .. وان طول اقامته بين اهل اجداده لم يحدث فيه أية رجعة نفسية ارتدت به عن مصر .. بل لم تفارقه احساسات الغربة وهو بعيد عن مصر .. فان اتضحت له جذور مقوماته التركية فان ذلك لم يمنعه من أن يتعمق في فهم روحه المصرية في نفس الوقت الذى يتأسى فيه على هؤلاء المصريين الذين ينحرفون عن طريق التفكير المصرى الاصيل السليم .. !!

- ٤ -

ولقد قرأ يحيى حتى قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم فاذا بالحنين الى مصر وشعب مصر يعاوده ، واذا به يبعث بمقال عنوانه « توفيق الحكيم .. بين الخشبة والرجاء » لمجلة « الحديث » بحلب في آخر سنة له في استانبول عام ١٩٣٤ . وكانت من اولى مقالاته التى حاول فيها أن يحدد المسار الذى ينبغى ان يسير فيه الادب المصرى حتى يصبح المعبر الحقيقى عن كل ما يختلج داخله من انفعالات وآمال .. فاستهل مقاله بانه « لعل الاغتراب هو وحده الذى حفرنى الى كتابة هذا المقال » (٤٧) وعاب فيه اتجاهات الادب المصرى التى تغلب عليها الميول الفردية من دون الميول العامة التى تعبر عن روح كلية هى روح الشعب المصرى بأجمعه .. ولذلك كانت اغلب الكتابات الادبية في ذلك الوقت مجرد صرخات شخصية تدور في واد لا تجد لها من صدى بين عامة النفوس ... ولقد ذهب توفيق الحكيم باتجاهاته الصوفية في مرحلة اهل الكهف يشيد بأن كل موجود هو من الله .. والله دائم .. فكل ما هو موجود دائم .. وينبؤه الى أن الزمن هو احدى خصائص عقل الانسان الذى لا يدرك الا بثلاثة مقاييس .. وبذلك حاول ان يمزج بين المواقف الصوفية والنظرات العلمية .. الا أن هذه المسرحية بملذبتها الصوفى العلمى لا تكاد تعبر من قريب أو بعيد عن مشاعر الجماهير ولذلك لم يكن لها اى صدى لدى عامة الناس ، ولم يتجاوب معها الشعب المصرى ككل ، ذلك الشعب الذى كان يمر بمرحلة نضال سياسى واجتماعى واقتصادى يحتاج اكثر ما يحتاج الى عوامل تقوى فيه نزعات الجهاد حتى يستطيع ان يتغلب على مختلف انواع المصاعب التى يضعها الاستعمار لعرقلة نهضته .. وليس في حاجة على الاطلاق لتقوية النزعات الصوفية التى قد تدعو الى نوع من الاسترخاء ، يستمرىء الكسل والخمول ، ويتهرب من المسؤولية الوطنية بدافع من الانانية التى تحت على قطع صلة الفرد بكل ما حوله طلبا للظهور والخلاص ، في ظل وهم نظرية صوفية سطحية .. **ولذلك اعتبر يحيى**

حتى مسرحية « اهل الكهف » من المسرحيات الخطرة على شباب مصر ، اذ قد تستهوية بالمبول الصوفية، على حين انه لا خلاص لمصر من الاستعمار ولا نهضة للشعب المصرى من الفقر والتخلف الا على يد جهود شباب مصر الذى يجب ان يبذل كل فرد منه في تعاون ويشترك اقصى ما يستطيع من جهد ، دون نظر لاي نوعية من المنافع الفردية سواء اكانت مادية او روحية .. ولذلك فاذا كانت مسرحية اهل الكهف بمثابة نجاح كبير لتوفيق الحكيم كفناني في عالم الادب فانه لا يكاد يكون لها اى دور ايجابي في المجالات التى تدعم مقومات الشعب المصرى .. ولا نمجبا اذا ما شك يحيى حتى في قيمة مسرحية اهل الكهف بالنسبة لشعب مصر .

واحسب ان يحيى حتى هنا يكاد يكون متأثرا بالحركة الكمالية من جهة ، وبالنزعات التركبية العملية من جهة اخرى .. فان مصطفى كمال قد قاوم التصوف بكل صوره ليصرف جهود عامة الجماهير ويركزها في خدمة تركيا .. ويبدو ان يحيى حتى كان يتمنى في ذلك الوقت ان يظهر في مصر شخصية قيادية مثل مصطفى كمال تعطي لشعب مصر من الكرامة والحوافز المادية والمعنوية ما يلهب القوى الكامنة لتعمل على رفع قيمة الانسان المصرى .. دون ان تستغرقها قيم غيبية لا تساعد على رؤية افصاح الحقائق التى يعيش في قلبها المصريون ..

الا ان يحيى حتى تنبه الى ان نزعة التصوف التى تشوب قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم تتسم بالمحلية خلاف نزعة التصوف العالمية التى تتسم بها مسرحية « اهل الكهف » وهى قصة تقوم على ديانة الفراعنة تستوحى اسطورة اوزوديس وايزيس ، وتتخذ من ثورة ١٩١٩ الشرارة التى اوقدت الحياة في اشلء مصر المتقطعة الاوصال المتفرقة المبرقة الجوانب ، واعادت اليها الروح التى وحدت جميع الصفوف وشملت تحت راية مصرية واحدة .. وعرضت هذه الافكار تصرفات عائلة مصرية صميمة .. رغم انها كثيرة الافراد . فلقد كان يعمهم اتحاد ووصال وود .. ولكنهم وقعوا جميعا في حب فتاة متلاعبة تسكن بجوارهم حاول كل منهم ان يتقرب اليها على غفلة من اخوانه .. فتوشك المصلحة المتضاربة ان تباعد بينهم .. واذا بالثورة المصرية تعصفهم جميعا وتكتسح جبههم التافة ، وتجمعهم على الوفاق من جديد داخل حب كبير هو حب مصر .. فعادت الروح الى مصر التى ظن الجميع انها ماتت ، حتي ان عودة الحياة الى هذه الروح لفتت انتباه اجنبى فرنسى .. ويرى يحيى حتى في هذه القصة صورة صادقة للمجتمع المصرى سواء في القاهرة او في الريف ، ولذلك لها قيمة واقعية يمكن ان تعود بشيء من النفع . لانها استمدت اصلا من التراث المصرى القديم من ناحية ، واتخذت من الحياة العائلية الحديثة سبيلا للتعبير عن عظيمة الماضي وحيوية الحاضر .. الا ان يحيى حتى لم يجد في قصة « عودة الروح » ما يشفي غليله الوطني ويشبع اتجاهاته المصرية الصاعدة اشباعا قويا . فان القصة تريد بصدق وايمان الجمع بين الروح والجسد .. بين المعنى والرمز .. بين السر والتغير .. بل وتريد كذلك ان تبين لنا كيف تسري الحياة من جديد في جسد مصر .. ولكن القصة لم توضح كيف اسهم كل فرد من افراد الاسرة في الجهاد الثورى .. كما جاءت الخاتمة

باردة تافهة ليس فيها حرارة الباطن ولا عظمتة. فكانت صورة الثورة باهتة مقتضبة كما لو كانت دخيلة على القصة وثانوية بالنسبة لموضوعها .. لم تجد مصرها واحدا يليق بأن تعلق على لسانه بأن مصر التي خال الجميع انها ماتت قد عادت اليها الروح واختارت اجنبيا فرنسيا لكي يشهد على هذا التحول .. بينما جعلت جميع افراد الاسرة بصرهم المرض ، وتنتهى القصة وهم اشبه بالموتى ، كل منهم لائد بفراشه .. ورغم ان القصة توحى بأن مصر لا يمكن ان تحيا الا بطلمس الفراعنة . فلا شك في ان استلهم مجد الفراعنة يثير كثيرا من الاحلام الجميلة .. الا ان اسطورة اوزوريس ما زالت بعيدة عن الوعي المصري العام ، وبذلك لا تستطيع ان تستفز روح مصر الحديثة استفزازا قويا فعلا ، مما اصاب القصة بنوع من عدم التوازن بين الباطن الفرعوني المقتبس والظاهر المعصرى المستمد من الواقع . فاذا كان الباطن عظيما فان الظاهر لا يوجه اليه العناية الكافية ، وتغلب عليه الوقائع الصيبانية التي لا تخلو من تصنع واستطراء .. فان الادب المناسب لشباب مصر في هذه الايام ينبغي ان يكون ادب كتاب اقوياء يجلو فيهم حرارة اليقين الذي لا يسلم من وسواس الخشية .. وتكون روحهم مزيجا من الكبرياء والتواضع وخليطا من الحلم بالآمال والشعور بالواقع المموس .. ينظرون الى السماء ولا ينسون ان ارجلهم على الارض .. (٤٨)



وهكذا أصبحت المصرية تشغل يحيى حتى أكثر من أى شيء آخر ، ويكاد يغلب المصرية على التركية بينما هو يعيش في تركيا الوطن الاول لاجداده ، اذ لم تستطع الحياة للتركية بسريرا الحثيث نحو الاستقلال والتقدم ان تستهويه استهواء يجعله يتأفف من مصريته ، بل اعطته دوافع قوية لكي لا يالو جهدا في سبيل ان يصل بالمصرية الى درجة من الشفافية والوضوح . حتى تهدأ روحه العاشقة لمصر .. ولقد ظهرت قوة حاسته المصرية درجة قوية من البصيرة الصادقة حين حاول ان يكشف الخلل في المصرية الكثيرين من المصريين خاصة اذا كانوا من بين المصريين المهاجرين ويشغلون بمسائل عامة تهم كافة المصريين .. فانه من المعروف عن نجيب الريحاني ان فنه « مصرى خالص صادق قد انبعث من قلب مصر ودل عليها وترحم عنها وأرخ لها .. وان الريحاني هو مصر ، ومصر هي الريحاني .. (٤٩) الا ان ازدواج شخصيته وجمعها وبين الاصل العراقي او الشامي والمصرى المصرى يراه يحيى حتى « مفتاح الفاز حياته وتفسير شخصيته .. عاش الريحاني طيلة حياته يشعر بفارق مكتوم بينه وبين المصريين .. وهذا سر وحدته الملحوظة في حياته العامة والخاصة .. (٥٠) . ولن كان

(٤٨) الرجوع السابق .

(٤٩) نفس الرجوع السابق .

(٥٠) نفس الرجوع السابق .

الريحاني من أوفى طبقات المهاجرين الى الشعب المصري وأكثرهم فهما لعاداته وعجائب طبيعه فانه لم يسلك الطريق السوى الذى يخدم الفن المسرحى خدمة مصرية خالصة .. ونأثر حد كبير بظروف مصر السياسية والاجتماعية دون أن يؤثر فيها ، وجارها دون أن يطورها .. عالج ميوبها معالجة سطحية لم تنفذ الى الاعماق وتقتلعهما من جذورها .. فلما فكر الريحاني فى تكوين فرقة مسرحية هزلية كانت فرقته تستمد موضوعاتها من هامش الحياة المصرية . ومسرحياتها الاستعراضية لا تكاد تخرج عن أنها مجرد مسرحيات « فرانكو آراب » تعتمد على رواد من الليفانتين الاجانب ومن انصاف المتعلمين من المصريين الذين سحرهم الثقافة الغربية .. ويترددون بين الشرق والغرب وهم لا مصريون أو اجانب .. ولما حاول الريحاني ان يطور مسرحه ويعطيه صبغة اكثر مصرية لجأ الى شخصية « كشكش بك » عمدة كفر البلاجى الحديث الثراء بسبب ارتفاع اسعار القطن المفاجيء فأصاب انفاقه ضروبا من الاضطراب ، فآخذ يصرف أمواله بسخاء على اللهو والمتعة ، مما جعله موضع سخيرة سعايرة القطن واشباههم واستغلال الراقصات والفانيات .. فاتخذ منه الريحاني موضوع تسلية على المسرح يهزأ من تصرفاته وهو يعبث بين بائعات الهوى ينفق عليهن كل ماله بلا مبالاة ، دون ان يحصل منهن على شيء .. لكى يسرى على رواد المسرح ، وأغلبهم من الطبقة الوسطى ، سواء من المصريين أو الاجانب المقيمين فى مصر .. ولكن سرعان ما مل الجمهور شخصية « كشكش بك » لرتابة الموضوعات والحركات والكلمات ، فاضطران يغير من الشخصية الاولى لمسرحياته ويجارى التطورات الاجتماعية ، فاتخذ من شخصية « الافندى » - الذى أعده دنلوب فى المدارس المصرية واسلم اليه الانجليز شئون مصر الداخلية ، وأخذ يكون طبقة وسطى نامية ينتمى اليها فى الغالب موظفو الحكومة واشباههم ليكسب جمهورا عريضا متزايدا من المصريين ، وحيث ان هذا الافندي لم يألّف بعد ليس البدلة أو رباط العنق .. معزق بين الشرق والغرب .. دخله متواضع لا يكاد يكفى مطالب الحياة الحديثة .. يعيش بين دسائس الديوان وتحكم الرؤساء وانتشار الوساطة .. فاتخذ الريحاني يعبر عن مشاكل هذه الطبقة حتى يبدو اكثر مصرية وأكثر تطورا فى معالجة حياة مصر الحديثة . تصور مسرحياته ، المقتبسة من المسرح الفرنسى الرخيص ، هذا الافندي على أنه انسان طيب القلب حسن النية وان كان لا يخلو من مكر ودهاء .. لا يريد من الحياة الا السلامة ، ولكنه قادر على الدس والطعن دفاعا عن النفس .. عواطفه حائرة بين حب الفتاة العفيفة المتخلفة والفتاة الحديثة المشكوك فى اخلاصها .. ولا يجد ما يتسلّى به الا النكت التى تسخر من خداع الناس ونفاقهم وتكشف خبثهم الاجتماعى .. ومع ذلك لا يتخلّى عن خلقه الشرقى الصميم الذى يسلم بالقدر والرضاء بما قسم الله .. الا أنه عز على يحيى حتى أن يستمد الريحاني مواصفات هذه الشخصية من مسرحيات غير مصرية اعتمدت اكثر ما اعتمدت على المسرح الفرنسى الهابط واقتبست منها اكسد بضاعة بعد ان زوقت بلغائف من التدليس والخداع لا تكاد تخرجها عن أعمال الفس التجارى ، واستوردت لشعب مصر لكى تحبسنى نطاق هذا الفن المسروق وتفرض عليه ان

يعيش فقط في متاعب طبقة واحدة هي طبقة الإندية .. « ولولا غلبة هذه الطبقة على المصرى ما توفرت أسباب هذا النجاح السطحى للريحانى . » (٥١)

ولذلك كم آلم يحيى حقى أن يقتصر مسرح الريحاني على شخصيات منحرفة غير سوية .. لا تصور الا ما في المجتمع من تفكك وضعف وتخاذل وتواضع .. تنحصر في شخصيات .. ابن اللوات التالف .. والفتى العبيط ... والخادمة الشرشوحة .. والبنت الدلوعة .. والمعلم لابس الملاسة .. والافندي العجوز الخبيث .. وامرأة تركية عجوز لاضحاك الجمهور على رطانتها العربية تشبها باضحاك الاتراك على شخصية باشا مصرى يقسم بالله بين كلمة وأخرى .. ورغم ان هذه الشخصيات هي شخصيات مجتمع السنوات الاولى من عشرات القرن العشرين الا انه حز في نفس يحيى حقى أن لا ترى مسرحيات الريحاني في المصريين الا اشخاصا طبيعتهم بلاهة ، وغزلهم تلعب حواجب ، غضبهم سريع واعصابهم مفلوثة .. يثورون للتافة من الامور . يستسلمون للحكم والمواظع الفارغة .. يميلون للردح والتشليق . اذ ان عرض الشعب المصرى يمثل هذه الصورة البشعة التي تبعث على اليأس من قدرة المصرى على النهوض والتطور والتقدم لا يمكن أن تكون الا خلال نظرة خاطفة متملجة لاجنبى تخدمه بعض المظاهر فينساق في الترويج لها والالاحاح عليها على انها هي كل شيء في الشعب المصرى شأنه في ذلك شأن الزائر الطارئ او المقيم الذى لم يندمج فلم تنح له فرص فهم بواطن الامور في الشخصية المصرية .. فاعاقت مسرحياته الشعب المصرى عن فهم امكانياته فهما صحيحا: وبلبلت كثيرا من المعاني والقيم ، مما عرقل تطوره بما تبثه من ضعف وعجز ويأس ، ومن تشويه للواقع وتشهير بالحقائق .. وبذلك لم يقدم مسرح الريحاني خدمة تذكر للحياة المصرية ، ولا شك في ان ضرره تعدى كل ما سببه من ضحك وقهقهة .. واذا كان الريحاني فنانا عظيما لم يؤد خدمة عظيمة لمصر . وهذا هو عيبه الكبير الذى لا يمكن ان تغفره له الحماية المصرية ، ولا يرضى ان يسكت عنه كل من يعشق مصر ، ولا يفكر الا في دفع المصرية في المسار السوى الصميم .

- ٥ -

واذا لم يرض يحيى حقى عن اتجاهات الافكار الاجتماعية في مسرحية اهل الكهف ، وتضايق من ضالة العواطف الوطنية في قصة « عودة الروح » .. كما عز عليه ان يشوه الريحاني ملامح الشعب المصرى ليسلى الاجانب تارة وانصاف المتعلمين من الطبقة الوسطى تارة اخرى .. فانه ايضا لم يغفل عن هؤلاء الاتراك الذين جرى في قلوبهم حب مصر ، ثم لم تستقم لهم الحياة بين المصريين لسبب او لآخر ، فتأوه أشد التأوه من المصائب التي نزلت

بالاسرات التركية المصرية التي ارتاحت الى العزلة والانزالية ، واتخذت مواقف سلبية انانية من الحياة العامة في مصر ..

ولقد صور لنا يحيى حقي ابرع تصوير كثيرا من الشخصيات القلقة التي تعاني من عقدة الصراع بين المصرية والتركية في كتابه « دمنعة .. فابتسامة » وفي كتابه « ناس في الظل » ولعل تحليله لشخصية « علي بك فوزي » تعد من اروع التحليلات واشملها لذلك المصري الذي يشعر بحنين ضائع لوطن يشعر في أعماقه انه اصبح غريبا عنه .. لقد سيطر الصراع بين المصرية والتركية على نفسية « علي بك فوزي » فلم يعرف الاستقرار أو الراحة ، وظل يقاسي من القلق حتى غاب عنه الهدف الرئيسي الذي يشده من الحياة . واستولى عليه نوع من الضياع الروحي لم يسمح لمصريته أن تستفرقه استفرقاتا ولم يمكنه في الوقت ذاته من أن يستعيد تركيبته الاولى في صورتها النقية .. وعرض يحيى حقي كل ذلك في كتابه « ناس في الظل » في لوحة انتقادية رائعة حاول أن يحلل فيها احوال ذلك المصري الذي تجرأ في عروقه دماء تركية، ويعانى من اضطرابات ترجع لضرب من ازدواجية في الميول والرغبات والنزعات والعواطف والأفكار والمثل ... وبين كيف ان علي بك فوزي خاب في أن يوفق بين النزعات التركية ودوافع الحياة المصرية ، وبالتالي عجز عن الوصول الى تلك المواءمة التي تحقق له السلامة النفسية والاتزان العاطفي والانسجام الفكري ، الذي لا يشمئز من قبول الواقع المصري على ما هو عليه والاندماج فيه قلبا وقالبا ، مشاركا الناس مشاركة فعالة ايجابية في كل ما يخطر على وجدانهم من آمال وآمانى ، وكل ما ينزل بهم من آلام ومصائب ، ولا يدع الاسى على فقدان الجاه والسلطان يشل ارادته ويدفعه لعزلة لا تقدم ولا تؤخر ، تعرقل نشاطه وتجعله يجترأ وهاما بائدة لا تنتهي ، ولن تعود عليه الا بأن تمنعه من أن يتطور مع تطور الاحداث الجارية ، فاذا به يقف عند حد التأفف من كل سلوك هابط .. والضيق من قبح الفباء وغلظة الحس وتبلد الشعور ، والتبرم من الكلمة النابية والنكته الباردة ، وكراهية الجلف والمفرور الذي يدوس على اقدام جلسائه دون أن يدرى أو يبالي .. وهكذا لم يتقبل علي بك فوزي كثيرا من الاوضاع الاجتماعية السائدة بين عامة الناس ، ولم يرتح اليها على اعتقاد انها تنافى مع المستوى الحضارى الرفيع المتمدن والخلق الكريم الفاضل .. فوسع هذا الاعتقاد هوة التناقض بين الاتجاهات التركية والواقع المصري ، وأدى الى نوع من الانفصام يفصل الفرد عن المجتمع ...

لقد تخرج علي بك فوزي في مدرسة المعلمين العليا التي كانت تعتبره في ذلك الوقت أقل المعاهد العليا شأنًا ، خاصة بين الطبقات الشراكسية التي ينتمي اليها ، على اعتبار انه من سلالة المالك ولما جاء ترتيبه الاول بين المتخرجين أرسل الى بعثة لانجلترا على نفقة حكومة مصر ، ليدخل مدرسة أكستر التي لا تصل الى مستوى جامعات كمبردج واكسفورد التي لا يدخلها الا أبناء القادريين من الاعيان المصريين على نفقتهم الخاصة .. وكل هذا امتهان وظلم لابن من أبناء الانساب العريقة

التي كان لها الحكم والسيادة في يوم من الايام ... وما أن عاد من البعثة الى مصر واشتغل بالتدريس حتى اصطدم بتحكم « مستر دنلوب » الانجليزى مستشار وزارة المعارف والمهيمن عليها هيمنة تامة ... وتحركت في داخله كوامن السخط على الاحتلال البريطاني الذي ازال كثيرا من نفوذ العناصر التركية ونافسها منافسة خطيرة تهدد مستقبلها ، فأحس بأنه يقع تحت وطأة الظلم الاستعماري الذي اضاع هيبة العناصر التركية وأضعف مكانتها بين المصريين .. في حين ان على بك فوزي رجل رفيق مهذب شديد الحساسية متمدن يتبع اساليب الحضارة .. ذكي الفؤاد غترف من الثقافات الغربية والعربية .. صاحب ذوق فني وأدبي يعشق الطبيعة ويتحسس جمال الالفاظ .. وقف علمه وثقافته ومواهبه في أول الامر على تعليم تلاميذه لا المنهج فحسب ، بل كذلك معنى النخوة والرجولة والشهامة والاعتزاز بالوطن وامجاده .. ومعنى التبرى من التعصب والفرور والصلف والكبر الفسارغ .. ومعنى الاستمسك بالعدل وكرامية الظلم حتى قدره تلاميذه تقديرا عظيما واخلصوا له الود والحب .. الا أنه لم يشعر بالسعادة لمثل هذا التقدير وذلك الحب ، لانه كان يحس على الدوام أنه مغلوب على أمره يعمل تحت ظل الاستعمار الذي تشخص أمامه في شخصية مستر دنلوب الكريهة، وان رضاه بالسكوت عن استبداده دون مواجهة يناقض الدروس الاخلاقية التي يلقتها للطلبة ، فهرب من مهنة التعليم ودخل في مهمة الوظائف الادارية حتى بلغ منصب السكرتير العام لوزارة الزراعة وحصل على رتبة البكوية ... ولكن رق الوظيفة الادارية تحت الاحتلال قضى على كل ما تبقى من قوة الاحتمال ونفذ صبره ، فمال للعزلة والتبجر في دراسة التصوف ... لانه لم يكن عنده القدرة على ان يعلن الثورة ضد الاحتلال ويقاوم الاوضاع الفاسدة ويعترض على سياسة الحكام ويقوم تصرفات المحكومين .. بل لم يكن أمامه الا ان يتخذ موقف الرفض ، وهو موقف سلبي يلجأ الى عزلة قد تشيع ميوله في التصوف وتمغيه من اللوم ، وتنفي عنه المسؤولية الناجمة عن الاشتراك في أى عمل من الاعمال ، وتقلده مما يتفشى بين الناس من احقاد وخسة ووضاعة ، الا انها حطمت كل جسر يربطه باهتمامات الناس ، وجعلته يعيش في امتعاض كامل لكل ما يدور حوله ، سواء من تسلط الانجليز او من استعلاء الاجانب على المواطنين ، او من تخبط سياسة الوزراء او من نهب الخديو للبلاد .. او من تقشى الغلظة واللجاجة والوقاحة والغش والمكر والخبث بين العامة .. فاذا بالشعور بعدم الرضا الذي ادى به الى العزلة يتحول الى سخط ، والسخط يصبح امتعاضا يشعره بأنه ليس له مكان في هذا البلد فترك مصر هربا من كل هذه الاوضاع التي لا يرتاح اليها .. ولكن ما ان خرج من مصر حتى وجد نفسه في مهبط آلام ضاربة تعصف به من كل جانب .. فما استقر في بلد الا وأحس بالفربة وعاش في عذاب اشد من عذاب الحياة في مصر ، فلم يصبر على الإقامة في المانيا وسرعان ما هاجر الى استانبول لعله يجد في بلاد ينتسب الى أهلها بنسب من الاصل بعض الراحة بين آل اجداده ، ويحس بنوع من الامان والاطمئنان يخلصه من الشعور بالظلم والاضطهاد والمهانة .. ولكن ظل جيبس عزله وصراعاته ، تبدو عليه مظاهر

الامياء من ارهاق نفسي رهيب .. تشقيه الوحدة في الشيخوخة وتضنيه الهزيمة بعد ان ضاع الامل في كل شيء ، ولم يعد يبالي بالتقدم او التخلف بالحياة او بالموت فلا الحياة في مصر اعطته ما يريد ولا العودة الى الوطن الاول ردت اليه ماظن انه فقدته في مصر .. وما ان اشتد به المرض حتى اضطر للعودة الى الوطن الذي نشأ فيه وتربى ليموت ويدفن في مقابر أسرته .. ولقد شيع جنازته خلق غفير من تلاميذه واصدقائه وكل من سمع عن مكانته وجهوده ليشهدوا العالم على ان مصر لم تبخل على هذا الرجل بالتكريم والتقدير ، ولا تنكر فضل من قدم لها خدمات جليلة ، حتى ولو تنكر لها واعطاها ظهره ليخفي معالم الغضب والضيق والرفض والامتعاض. (٥٢)

الا ان يحيى حقي لم يكتف بان يعرض مشكلة تعثر العناصر المصرية التركية في تعميق مصريتها عرضا واقعيا من خلال مشاهداته وملاحظاته هنا وهناك في مصر وتركيا ، وفي مختلف الاوساط التي اختلط بها واجتمع فيها مع عناصر تتضارب في داخلها التيارات المصرية التركية من الاقارب والاصدقاء والمعارف .. بل اهتم ايضا بمعالجتها كفنان القصص المتميز تاركا مطلق الحرية في العرض والوصف والتحليل لشخصيات موجودة فعلا في المجتمع المصري ، دون ان ينبه الى اصولها التركية الا بالاشارة او الرمز ، محاولا يبرز مجهوداتها المتواصلة من اجل الاندماج في المجتمع المصري اندماجا كليا خلال شتى مراحل تطور تفكيره . ونخص بالذكر هنا ثلاثة نماذج مختلفة تناولها في « قنديل ام هاشم » وهي شخصية « داود افندي » في قصة « السلحفاة تطير » .. وفي مرحلة « صبح النوم » وهي شخصية « القزم مع زوجته » .. ثم في مرحلة « الغراش الشاغر » وهي شخصية « فتي العائلة » .

١ - اما عن شخصية « داود افندي » في قصة « السلحفاة تطير » انهي تصور لنا كيف ينزل المجتمع العقاب بكل من يعتزل الناس ويعيش بعيدا عنهم ولا يشاركهم في معارفهم وانفعالاتهم ، فيتعدى عليه الاندماج اندماجا ايجابيا فعلا في الحياة العامة ، فيجانب تصرفاته الصواب ، اذ كثيرا ما تختلط عليه الامور ويقع فريسة الحقد والمكر ، فيتصرف بحماقة قد توقعه في مشاكل تضيق عليه كل شيء وتفرض عليه ضربا من التأقلم تفقده مقومات شخصيته الاصلية المتوارثة ، دون ان يمتحها أصالة جديدة ويفرقها في تقاليد بالية متخلفة .. وبصر يحيى حقي على أن « داود افندي » شخصية خيالية ، الا أنه يؤكد من حين لآخر انه ليس شخصية خرافية بل لا ينفي احتمال وجوده بيننا حيا يرزق .. وداود افندي كما يصوره لنا يحيى حقي احد اولاد الدوات الذين ورثوا من وارثين من وارثين .. فكان من المعقول ان يفتقروا طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل « فاصبحوا كالحيوان البرمائي لا هو هنا ولا هو هناك .. فهم لذلك اسرع انقراضا » (٥٣) يتشبه

(٥٢) يحيى حقي : « نس في القل » كتاب الجمهورية العدد ٢٨ يوليو ١٩٧١ القاهرة .

(٥٣) يحيى حقي : قنديل ام هاشم .. قصة السلحفاة تطير : دار المعارف - القاهرة مجموعة اقرا رقم ١٨ .

بأن يسكن في ملكه بدار قديمة في حارة مسدودة ، مع أن له استحقاقاً في وقف ورثة عن أم أمه أو جد جده ، يمكنه من أن يعيش في حى افضل .. هو بالنسبة لجيرانه غنى ولكنه في الواقع فقير .. يعتز بأصله الذي يفنيه فيستريح ولا يسلكه في الفقراء فيريح .. ان هو ككل اولاد اللوات الذين تربوا في آثار عز سالف .. نجد فيه مع الكبرياء والانفة كثيرا من الاخلاق الصبيان وقلة الدراية بالحياة في معتركاتها .. بما في العالم الخارجى تمسكا بالماضى .. طيب كريم مع معاونته .. ينفر من الغريب .. أهل الحارة تجلسه لفناء .. وتستعبطه لنزوله الى مستواهم ، ويتعجبون كيف يجد لذة في أن تصافح يده الناعمة النظيفة يدا صلبة خشنة كيد العمال ...

ولما حدث ان استدعى لقسم الشرطة بسبب مخالفة القاء ماء قذر في الطريق وهو يجهل اسلوب التعامل في المجتمع الذى يعيش فيه - فاذا بعامل تعود الجلوس معه ويتظاهر بصداقته يستفزه ويسهل عليه اثارته ضد سوء معاملة رجال الشرطة لعامة الناس ، ويبدى رغبته في الذهاب معه الى قسم الشرطة ليكون في عونه .. الا انه لم يف بهذه الرغبة .. وكان الجاويش فعلا من الحفاظة وقلة الادب بحيث لم يستطع داود افندى ، بما فيه من الكبرياء وقلة الصبر ، أن يقبل أن يهزه الجاويش هزة توقع طربوشه على الارض أمام عدد كبير من الناس .. وصمم على أن يرفع دعوى تمويض بقرش صاغ واحد كرد شرف .. وما كان من هذا العامل الا أن سايره وشجعه على أن يستمر في مقاضاة الجاويش .. ولم يتأخر هذه المرة في الذهاب معه الى المحكمة . لما رآه وجلا مضطربا رغم انه اعتقد ان العدالة تقتضى ان يدفع داود افندى ثمن تعاليه وابتعاده عن محيط الحياة التى يعيشها المكوددون المتعبون من عامة الشعب المتصببون هرقا في زحمة الحياة القاسية ، اذ ان قلبه رق له عندما اشتد به القلق .. ولكن سرعان ما اعتاد داود افندى المحاكم بعد أن تكرر تأجيل جلسة الدعوى مرة بعد اخرى .. واذا به يصاحب وكلاء المحامين الذين وجدوا فيه صيدا ثميناً يلتفون حوله ، يحتسون القهوة والشاي ، ويدخنون النارجلية على حسابه .. ويجد متعة تصل حد الهواية في عمل المحاكم دعمته الى ان يشارك وكلاء المحامين في احاديث القضايا ويدخل معهم جلساتهم لمجرد الاستمتاع .. مما اغرى صديقه العامل بأن يعرض عليه بأن يتكلف برفع دعوى لقريب له معدم يستولي رجل ذو بطش وسلطان على ملك واسع له نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما .. فوقع في المصيدة واذا بشهامته وطيبته وجهله تبسط له الامور ، وتدفعه لان يظهر كامل استعدادده ليصرف على هذه الدعوى حتى ولو رهن مصاغ زوجته .. وبورط نفسه في مشاكل الآخرين غرقه فيها هذا العامل عن حسن قصد او سوء نية ، اذ انه يدعى انه ما اراد الا خير الجميع بان يخدم الاثنين معا فيشغل داود افندى اوقات الفراغ في عمل يعود عليه بالنفع ويرجع الملك المفتصب لقريبه .. ولكن وكلاء المحامين تراحموا حول داود افندى يستغلونه ويستنزفون امواله ، كأنهم يريدون أن يستردوا دينا بطريقة غير مباشرة او يستعيدوا اموالا كانت لهم سلبت منهم بطريقة او بأخرى ..

فكان داود افندي ضحية انتقام جيل مما سبق فعله اجداده بعمامة الفلاحين واستغلالهم لكافة المصريين وخداعهم لهم وسلب اموالهم .. وهو لا يدري كيف يتصرف بحكمة وقورة .. بل تستولى عليه كبرياء وانفة تجعله يعيش في الماضي اكثر من الحاضر .. وتدفعه لان يعتز بأصله الذي لا يفنيه ، ولكنه يتشبث به لجرد أنه يريحه ويرتاح الى المشاعر التي توهمه بأنه ما زال ابن عز من قمة رأسه الى اخمص قدمه ... « عجبت من همه التأفف .. ولكن كثيرا من الناس الطيبين لا يسلمون في بعض الاحيان من الوهم والشك في براعة ماضيهم ... فتختلط في اذهانهم الرغبة بالحقيقة ... ام هم يستيقظون فجأة الى انه ليس هناك دليل واحد على ان الحياة غير مزدوجة .. لا يستطيع ان يكون واقعا كل الوثوق من أن ليس له في الوقت نفسه حياة أخرى كالاحلام .. لا يشعر بها كما لا يشعر بما حوله من ركب الدوار في حياة تنصل طي ضباب كثيف بحياة اشد غموضا لكائنات أخرى .. (٥٤) » .

ولكن سرعان ما طحنته الايام وضاع بين الاحداث وتاه في خضم المشاكل ، بسبب جهله بالمصريين وبعده عن الحياة المصرية وتفوقه داخل عادات واتجاهات تأبى عليه الخروج من داره القديمة بالحارة المسدودة .. ومع ذلك اجبر في النهاية الى أن يندمج في الحياة المصرية وغما منه ولكن من الباب الخلفى دون ان يتحرر من مشاعر القرية .. وان بدا انه اخذ يجارى بعض المظاهر السطحية للحياة المصرية .. بخلاف جاره ذلك العامل الذي نشأ نشأة متواضعة ولا ينفك يعرض عليه خدمات لا ينجزها ، بل يورطه في مشاكل مدمية انه يقصد مساعدته ... يركز اهتماماته نحو التخلص من وسط عمال اليومية ليلحق بطبقة الافندية اصحاب المرتبات الشهرية .. واخيرا نجح في تحقيق رغبته بعد الحاج وازالة ماء الوجه وتخلص من ماضيه الكريه كله . حتى الحارة المسدودة تركها وسكن المنيرة .. بينما انحدر المال بداود افندي .. واذا به يشاهد يجلس في مطعم امام طبق فول ملمس بجلاية وجاكيتته ، تجمع اصابعه بلقمة حبات الفول ويمسحها في الزيت ثم تحملها كتلة واحدة كالكرة الى فمه .. ويتجشأ برائحة البصل الاخضر والفجل .. وهو الذي تعود تذوق ضروب من الموسيقى الرفيعة يتأق في ملبسه ولا يأكل الا أخف انواع الطعام ، امعانا في اقهار احساساته بأنه يختلف حقا عن عامة الناس .. وما ان شاهده العامل وهو يأكل في مطعم الفول حتى اظهر انشراحه وسروره لهذا التحول في حياة داود افندي . اذ تأكد ان صحة داود افندي آخذة في التحسن ، وانه تخلص من امراض معدته التي يشكو منها .. ولكن ما ان تقدم اليه لتحيته حتى نظر اليه داود افندي نظرة تجمع اقصى ما تستطيع ان تستوعبه من الكراهية والتأفف والبغض ويصرخ شائحا بوجهه : « روح الله يخرّب بيتك زى ما خربت بيتى » (٥٥) .. وهكذا القى داود افندي مغبة كل ما وصل اليه

(٥٤) نفس المرجع السابق .

(٥٥) نفس المرجع .

من حال على هذا العامل البسيط الذى أصبح أفنديا .. ولا يدري لماذا يكن له داود أفندي مثل هذه الكراهية وذلك العداء ، مع أنه حاول أن يقدم له كل ما يستطيع أن يقدمه له من خدمات .. ولم يعرف ماذا فعله حتى يلقي منه مثل هذه المعاملة القاسية .. !!

ب - ان تفسخ شخصية داود أفندي لم تغادر ذهن يحيى حتى .. فما ان قامت ثورة ٢٣ يولية حتى دعت ما أحدثته هذه الثورة من تغييرات جذرية في المجتمع المصري الى وضع قصة « صبح النوم » ليحلل نماذج من الشعب المصري قبيل الثورة وبعيها .. واذا به يهتم بان يكون من بين الشخصيات المصرية الصميعة شخصية التركي المصري ، على اعتبار انه ظاهرة اجتماعية تعيش في المجتمع المصري تحتاج للوصف والتحليل والدراسة .. ويقع اختياره على قوم فوقازي يتناول تصرفاته قبل الثورة هو وزوجته في لوحة من القسم الاول لصبح النوم سماه « كتاب الامس » كما تتبع تطورات هاتين الشخصيتين بعد الثورة في القسم الثاني من هذه القصة الذي سماه « كتاب اليوم » ، محاولا ان يكشف عن المزيد من ملامح الشخصية التركية المصرية في ضوء المتغيرات الجديدة ، لتتضح له خبايا دخالها عن طريق ملاحظة كيفية تكيفها مع كل ما يقع من تغييرات اجتماعية ... ولعله في ذلك يريد ان يصل الى معرفة نفسه أولا وقبل كل شيء حتى يجنبها التخبط والتورط والارتباك ، ويحفظها من الضياع الذي ليس بعده ضياع .. !!

وكان يحيى حتى في تعرضه للقرم وزوجته اكثر صراحة في تحديد اصولهما التركية .. لم يقف عند الرمز والاشارة ... واذا به يصور لنا رجلا بلغ من قصر القامة حتى كاد يكون قزما .. بعد نفسه من ابناء القرية بينما هو حفيد اسرة من برارى آسيا ، تركوا الوطن وهاجروا الى مصر وتقربوا الى حاشية السلطان الذى اقطعهم ارضا فسيحة في تلك القرية التي يدعى أنه من ابناءها ... بنت الاسرة في هذه القرية دارا فخمة كان اثاثها وتحفها حديث الاهالي ودهشتهم .. ومع ذلك لا تقيم فيها الا حين تجيء مع جمع المحصول ، ثم تعود الى العاصمة بعد قبض ثمنه « وشاء ربك مالك الملك ان يخلف الآباء ابناء اضعوا ما ورثوا ، واخذت الارض تتناقص اطرافها ، ويد الخراب تمتد الى المنزل .. ولم يبق لسلالة هذه الاسرة في وقتنا هذا الا ثلاثة افدنة وحجرتان فوق مدخل الدار لم تهدم جدرانها .. » (٥٦) ومن اجل هذه التركة بلبل حفيد هذه الاسرة جهدا كبيرا ليفوز بمنصب امين مخزن السماد الهين ومرتب الضئيل ، حتى يستطيع ان يعيش هو وزوجته فيما تبقى من المنزل ويراقد ارضه وينتفع بخيراتها .. وحتى لا تردد زوجته ما تدعيه من انها تزوجت عاطلا .. كما يعيش في وسط اناس يعرفون قدره واصله .. فتتم له كرامة وعمل وجاه .. لم يكن قد تبقى في اسرته من الرجال الا هو .. يلتف حوله عدد قليل من النساء بعضهن ارامل واغلبهن عوانس وكلهن مصابات بأمراض شتى .. يعيش جميعا

في فاقة مستترة في منازل مختبئة في أزقة العاصمة .. ولما تزلت واحدة من تلك القرى وخلف لها زوجها المرحوم ثروة غير يسيرة قبل العزم ان يتزوجها بعد ان وضعت يدها على التركة رغم انها ضخمة الجثة ذميمة الخلقة بشعة الصورة .. وادعى انه ما تزوجها الا قياما بواجبه كزعيم للأسرة اذ ليس لها احد غيره .. وقبلت ان تذهب معه للقرية .. الا انها اقامت في دار حسنة جميلة في اطراف القرية يدفع لها ايجارا يوازي مرتب الزوج .. ثم جاء باناث لا بأس به يدل على سعة العيش واستعان بخادم اسود ، وهو ترفلا تعرفه القرية ...

وما استقر القزم في القرية حتى اخذ يرتاد على الحان ويتردد على فتاة من بائعات الهوى في عاصمة الاقليم ، يبعثر نقوده التي يبتزها من زوجته بعد عراك وصياح ويواجه عقبها من اسرافه بغضب اشد ارهابا ، مدعيا بان الديون قد كثرت عليه وينبغي ان يسددها فلا تقوى على احتمال رؤيته مغموما فتجود عليه بما يسأل ... ولكن جاء يوم ونفذ فيه صبر الزوجة ويشت من علة .. فاذا بها هي الاخرى تحاول ان تبعثر نقودها وتوزعها على جيرانها المازومين والمساكين ، قبل ان يستولى عليها ويصرفها على الخمر والنساء .. واخذت تتوسع في الاحسان فربت لاسر فقيرة اعانة شهرية لا تنقطع .. وتكفلت برعاية بعض ايتام القرية ، وتقدم لهم ما يحتاجون اليه من مأكول وملبس وتعليم .. وتهزل لمساعدة المرضى بالهدايا والمال .. فلما صيبت كرمها بعد ان عم خيرها اهل القرية واحبها الناس حبا جما .. واخذوا يضربون بها المثل في النبل والعطف على الفقراء والمساكين وصارت دارها مقصد المحتاجين وملجأ المعوزين ... ولكن كثرة انفاق الزوجة خفف النقود في يد القزم واذا به لا يقدر على زيارة عاصمة الاقليم الا مرة واحدة كل اول شهر ، وان لم ينقطع من الحان فانه اخذ يباعد بين الكأس والكأس ويكثر من التحدث عن نكبته في تلك الزوجة التلافية التي تبعثر نقودها على الغرباء وتبخل على زوجها ، رغم انها تعلم ان كثيرا من قصادها من النصايين والادمياء .. ومع ذلك احيانا يتجح في الوصول على مال منها بطريقة او باخرى ، وسرعان ما يندفع الى الحان ويشرب حتى الثمالة ، ويجبر جميع رواد الحان على الشرب على حسابه ، وويل للذي يرفض .. انه يجمع بين المهابة والعريضة يصر على ان يحترمه اهل القرية حين يتبسط معهم .. ويشور اذا لم يتبسطوا معه حين يزور عنهم متعجرفا ...

وكان هذا بالامس .. ولكن ما ان جاء الاستاذ - ابن القرية المثقف - وتولى حكم القرية وبدأ اصلاحاته باغلاق الحان والزم الجميع بالاستقامة حتى تبدل حال القزم وزوجه .. فاذا به يحرم على الخروج من داره في الصباح بعد ان تاب عن شرب الخمر حرصا على النقود ، بل لم يعد ايضا يهتم بحسن هندامه ، فذهبت اناقته وتبدل مظهره بعد ان انصرف كل تفكيره الى استرداد الارض التي اضاعها الاء بعد ان ورثوها من الاجداد « كانت ارضنا مربعة الشكل .. خير اراضي القرية .. فانا الآن لا افكر الا في استرداد هذه الارض .. وان ارى ارضنا عادت

مربعة الشكل كما كانت .. كان الجزء الناقص مقطوع من قلبي .. اذا عادت لى ساكون اسعد خلق الله ... ومن اجل ذلك قررت انا وزوجتى ان نوفر كل قرش وكل مليم لشراء هذه الارض . وبذلك انتهى كل نزاع وخلاف بين الزوجين لما توحدت اهدافهما وخططهما .. واخذت الزوجة تدخر ايرادها كله حتى تمكن زوجها من استرداد ارض - اجداده .. وقبلت ان تتحمل في سبيل ذلك كل مشاق العمل المنزلي بعد ان استغنت عن الخادم ، ولم تعد تبالي بمساعدة احد .. لا يههما سوى ترقب اليوم الذي تحلم به هي وزوجها .. وهو يوم تبيع الارض ..

فما الذى بدل الاندفاع والعجزة والتبذير والحماقة عند القزم الى حرص وتقدير واهمال المظاهر .. ؟ ولماذا انسأقت الزوجة وراء الزوج في مثل هذه التصرفات ، ورضيت ان تتخلى عن الإحسان والعطف على الفقراء والمحتاجين ، وقبلت العمل المنزلي الشاق دون عون خادم وهي التي نشأت على الترف والرخاء .. ؟ ولماذا هذا الإصرار على تبيع الارض .. ؟ **لاشك ان هناك انفعالات عميقة هزت شخصية المصرى التركي تنبه يحيى حتى الى تطورها الغريب بعد قيام ثورة ٢٣ يولية التي نزلت نزول الصاعقة على كثير من العائلات المصرية ذات الاصلاب التركية بسبب ما أحدثته هذه الثورة من تغييرات اجتماعية واقتصادية فاذا بكثير من هذه العائلات تجد نفسها فى العراء بلا ارض او مال بل بلا سند من السلطان بعد الغاء الملكية واصدار قوانين التأميم وتحديد ملكية الاراضي الزراعية ..** اذ احدث كل ذلك ضربا من الفرع الفكرى ما جعل مثل هذه الشخصيات تنكشف انكماشاً اجتماعياً مريضاً يتخلى عن القيم التي تمسك بها وتعودت عليها، فتنتكرت للإحسان ومساعدة الآخرين وحسن معاشره الذين يحيطون بهم ، وجبست انفاسها فى احلام الماضي تحاول ان تحقق آمالا بالعزلة والحرمان من تلك المتع التي كانت ملك ايديهم فى ذات يوم بدون مقابل من الجهد والعرق ...

الا ان يحيى حتى لا يترك قارىء « صبح النوم » دون ان يشعره بانه ما زالت فى جمبته تحليلات تخص الاسر التركية المصرية لم يفض بها بعد ... واذا به يفاجئنا بقصة « الفراش الشاغر » فنجد فيها من الكتابة والبشاعة ما تشمئز منها النفس على غير ما تعودنا عليه ... فاذا كانت صراحته وسخريته لازمة فان عرضه للخراب الروحي الذى اصاب اسرة شارع الريحان يثير الفرع المخيف .. ويتعدى مرحلة الضياع التي كانت تعيشها اسرة القزم .. وتندثر بخراب يبعث على نفور انساني مروع من واقع حياة كريهة تشنه ، يئن فى اعماقه من تأوهات تشكو من ظلم الانسان للانسان على مدى اجيال واجيال خلال احداث ومحن لا ذنب فيها للجيل الحالي المتخاذل المتواني ، الذى استسلم لوهم بان الاقدار هي التي شاءت وهو لم يشأ شيئا على الاطلاق .. !!

ولكن يحيى حتى لم يرد أن يكون واضحا كل الوضع في قصة « الفراش الشاغر » ولذلك لجأ الى الرموز الرهيبة التي تهول في إثارة القرف من مصير أسرة شارع لريحان التي هوت الى حضيض خلقى يحط من كرامة الانسان .. واستباح لنفسه بأن يستعين بشتى الصيغ البلاغية من تشبيه واستعارة وتورية وكنابة .. يخفف بما يتعمده ايهام واعمال فكر من وطأة البيان المباشر من الفحش والفسق والخسة في الانسان .. !!

اذ تصور لنا قصة « الفراش الشاغر » مدى ما وصلت اليه أسرة مصرية - هي في الاغلب من اصل تركى كانت تسكن بشارع الريحان ، وهو أشبه بحارة في حي شعبي تتزاحم على جانبيه كثير من الدكاكين المتلاصقة الفقيرة .. من بينها دكان حانوتى يقع قبال بيت هذه الاسرة التي تتكون من اب وأم وولد ، وحين تعيش في سر وترف وسط أسر مطحونة وعمال فقراء ... ومع ذلك تركها الجيران واهل الشارع في حالها لما بدا لهم ان افرادها على قسط كبير من الحياء الذى يجعلها تفضل ان تعيش في عزلة وراء ستر .. الا انها لم تستطع ان تخفى ما ترتع فيه من سعادة ورفاهية وترف ، اذ تفيض مظاهرها في المواسم والاعياد بنور الفرح الذى يتدفق من النوافذ وما يصل الى اسماعهم من خلجة الضحك .. كما انه كثيرا ما تقف سيارة فاخرة من حين لآخر امام باب البيت وينزل منها رجال يتأسون لحاله لما يصدر عنه من تصرفات غريبة ..

الا ان هذه الاسرة في الحقيقة تميل الى « نفث اليدين من دنيا الناس .. هي عندهم زناير لا امن الا في تجاهلها .. » - وتعتقد ان العيش ، ليس خطأ عموديا يرتكز جديده على قديمه ويتسع الافق كلما علا .. ولا قوس دوران فلك شروق ثم سمت فانحدار فمغيب بل تقف نظراتهم الى الحياة عند حد انها مجرد خط افقي ابيض مستقيم ترسمه نقط سود متشابهة ضاع لونها من شدة تلاحمها ولذلك أثرت هذه الاسرة الانسحاب من دنيا الناس ، فأفرغت حياتها من كل مضمون ايجابي ... ومضت تحيا في السلبية ... انهم يخشون الجهد ... فيؤثرون حياة الشح والجبن لانها دائما مضمونة ... اما ان تكون كريما وشجاعا على الدوام فهذا ليس مضمونا » (٨٥) بلغ ترقهم درجة ان « طعامهم تمضغه لهم قبلهم المغارم ويد الهاون .. يأكلون اللحم والخضروات كلها عجينة واحدة مهروسة ، ويجدن لذة مذاقها في ضياع طعم اجزائها .. فالشيوخ عندهم نجاة من مقابلة وجهها لوجه لنعمة مخلوعة العذار . (٥٩) » واذا كان الحق يقتضى ان يشكروا الله على هذه النعم .. الا انهم يتنكرون لها وينكرونها مما يوقعهم في وضع متعب ، يفتح على مصراعية كل ابواب الفكر ، رغم انهم اكثر من غيرهم معرفة بقيمة هذه النعم وينبغي ان يكونوا اشد امتنانا لها ... واذا زعموا أنهم « كفوا عن الاعطاء خشية نوال عوض يفرقهم يجذبهم او

(٥٨) يحيى حتى : الفراش الشاغر .. مجلة الكاتب .. ابريل - ١٩٦١ - القاهرة .

(٥٩) نفس المرجع السابق .

يمتصهم بغضائه وأدعوا انهم بذلك امنوا التفجع وضرب الكف لدمامة العقوق من الآخرين الا انه بهذه الزاعم وتلك الادعاءات لا يخفون الا خسة ارواحهم هم انفسهم وهي تنهيب عن الاخطاء حتى تبقى على ما هي عليه من حنق الشح وخوره .. وتبعد عنها ما استطاعت سماحة الكرم وشجاعته .. ولذلك « اذا ما خلوا الى انفسهم يشعرون بان ايامهم قد سقت اسماؤها » وتشابهت ولا ينتبهون الى ما بينها من فروق .. ولا يحسون بحيوية حدث من الاحداث الا اذا ارتبط « بدوران ظل او بترديد صيحات الطيور المهاجرة (٦٠) » .

ورغم ما تعيش فيه هذه الاسرة من غربة تكاد تفصلها تماما - سواء اكان فكريا او عمليا - عن كل ما يحيطها ومن حياة اجتماعية مما يجعلها عاجزة على التجاوب مع كل ما يطرا عليها من تقلبات وتطورات .. فان هناك ايضا رباطا هشالا يكاد يوطد العلاقات بين افراد هذه الاسرة .. ولذلك لا نعجب اذا ما اختلطت الاعمار باختلاط الايام ونادى الزوج امراته بيا امي .. وهي تناديه بيا ابني .. ويناديان ابنا الوحيد بيا اخانا .. ونادى الابن امه بيا عروستى .. في حين ان مناداته لابيه قد نسيها لانه اقلع عنها منذ سن الخامسة ، واصبح لا يتحدث اليه او عنه في حضرته ، ولا يشير اليه بضمير الغائب « هو » في حالة غيابه ...

ورغم ما تعيش فيه هذه الاسرة من سرور فاهية فانها رضية بان تقيم في شارع الريحان الشعبي الفقير المتواضع الذي كل اهله من الكادحين المكودين ... وقد يرجع ذلك الى نوع من الحب للشارع واهله ينبعث من ارتياح افراد هذه الاسرة الى نظرات التقدير والانبهار التي يشاهدونها في عيون الاهالي من حين لآخر ، وتموضهم عما فقدوه من سلطان وقوة ونفوذ .. ولذلك فضلت السكنى في وسط هؤلاء القوم البسطاء السذج في نفس الوقت الذي تحيا فيه حياتها الخاصة حسب تقاليدها وما شئت عليه ، فهي وان كانت تترتاح للإقامة في احد بيوت شارع الريحان كمكان استيطان فانها لا تميل لمشاركة الناس والجيران وسكان الشارع سواء في حياتهم الخاصة او العامة .. بسبب فقدان الثقة المتبادلة ولا وقبل كل شيء .. وتوقع الغدر من الآخرين في اية لحظة بمناسبة وبدون مناسبة .. ولذلك خشى افراد هذه الاسرة تقديم المعروف حتى لا يقابلوا بالخسة وتكران الجميل ... بينما يشعر اهل الشارع بان هذه الاسرة ترقع في عز ليس من حقها لان افرادها لا يكادون يعملون شيئا ولا يؤدون خدمة ما تعود على احد ينفع .. في نظرهم لا تستحق حتى مجرد الحياة .. وان ما تنوهمه فيهم هذه الاسرة من خداع وغش وتكران للجميل ما هي الا ضروب من الاسلحة يتدربون بها ضد مواقف مثل هذه الاسر من عزلة وسلبية .. وتأتي التقرب بالزلفى والخضوع والطاعة لن يمتنع عن الاعطاء ويريد في مقابل بقايا ما يتساقط من الموائد المزيد من الشكر والعرفان .. ولذلك لا نعجب اذا ما انعدم التفاهم وتفككت الروابط ، وان كان الجميع يلتفون حول حب الشارع ولا يريدون به بدلا ويتعلقون به كل التعلق ...

وهذا التضارب في المشاعر يدعو الى ضرب من التخييط الانفعالي لا يعرف كيف ينسق بين تيارات هذه المشاعر المتعارضة ... فالعزلة لا تمنح الامان . . . والاختلاط لا يبعث على الاطمئنان . . . !! ان الكبرياء المجروح .. والتعالي العاجز والعنجهية المتداعية تشعر على الدوام بأن المشاركة والامتزاج والدوبان لا تخلو من انهزامية ، وتنم عن خيبة وفشل « واضمحلال فيزاد التمسك بالعزلة كستار يخفى العجز ويمنع الآخرين من كشف النقص والضعف والتخاذل ، ويكتفى ، بأن يعيش حياة سهلة ميسرة تخفف عنه وطأة ضياع النفوذ والسلطان ولا تشعر بالحاجة الى العمل الجاد النافع ، او تدافع لتحقيق مستقبل افضل ... لان المشاركة بمختلف الجهود لن توصل الى ما كان عليه الاجداد او ترجع مجد الماضي الذي ولى . . . فهناك نوع من اليأس ادى الى حالة من الرفض لا تقبل الاستسلام والرضوخ للامر الواقع ، فانساق اصحاب المجد الضائع الى العزلة السلبية والامتناع عن عطاء يعلنون بها عن سخطهم وغضبهم ... ولم يجدوا ما يمنهم من التمتع بالثراء المورث في لا مبالاة تقف عند حد الاستهلاك لهذا الثراء ، دون التفكير في استثماره استثمارا يعود على الجميع بالخير يدعون انهم يعيشون على موارد يحاول الاهالي نهبها وحرمانهم منها ، وليس امامهم الا زيادة الحرص الذي اضاف عليهم مظهر الشح الذي يتهرب من السخاء ، خشية مفبة تكاثر عدد المطالبين بالهبات والهدايا ... وهكذا تحول الخوف من نهب المال المورث والمصدر الوحيد للحياة الرغدة الى امتناع عن الاعطاء . . . !! ولا بد ان نتوقع انقطاع كل صلة نبيلة بينهم وبين عامة الناس . وضياع الثقة المتبادلة بين الجميع ... ولا تدري كيف يمكن تحمل مثل هذه الحياة التي تفتقد كل هذه المعاني لولا حب الكل للشارع . . . !! ان العزلة مهما كانت صارمة لا تستطيع ان تقطع كل الصلات بحياة اجتماعية يعيش الانسان في وسطها ، وتحيطه من كل جانب ، وتقايله رغما منه في اية خطوة ولذلك فان الانطواء الذي يلتزم بالعزلة الكاملة لا يمكن ان يصل الى حد الهروب الكامل الشامل من هذا المجتمع . . . بل ان العزلة في حد ذاتها لا تستطيع ان تحول دون اثر المجتمع المضاد الذي قد ينزل اشد ضروب العقوبة على كل من يقف منه موقفا سلبيا ولا يسهم اسهاما ايجابيا في تقدمه ويمتنع عن المشاركة والبلد والاعطاء .

لقد توفر لاسرة شارع الريحان حياة سهلة مترفة دون صراع او تراحم ، جعلها لا تبالي ببلبل جهد او امعان فكر ، لانها لا تحس بالقلق على الرزق او تخشى من تقلب القدر . . . كما تعودت ان تتصرف بحرية دون قيد او ضغط . . . تتمتع بقدرة على التحرك دون ان تسمح بتدخل من احد . . . يوجد بين افرادها علاقات رقيقة لا عنف فيها ولا صخب ، تهتم بتبادل الاحترام والحرص على مظاهر المحبة . . . وتلتزم بتماسك لا يعترف بتسرب دخيل . . . الا انها في النهاية لا تكون مجتمعا قوى البنين يحتمل مواجهة كل ما يحدث من تطورات في المجتمع الكبير . . . ولذلك غالبا ما تتخبط التصرفات وتضطرب التحركات اذا ما احتك احدهم بالمجتمع الخارجي . . . او اعترى هذا المجتمع اى تغير مفاجىء او تعديل غير متوقع . . . رغم ما يتمتع به من حرية تسمح بالانطلاق والتصدي لكل ما يستجد من مفاجآت . . . وتقوى على ازالة كل غشاوة تعوق وضوح

الرؤية وتطمس معالم الطريق السوى .. وذلك لأن أفراد هذه الاسرة رغم ما يرمعون فيه من مستوى حضارى متقدم فانهم يقضون ايامهم بلا آمال عريضة تقصد تحقيق هدف محدد ، ويسرعون بتلبية رغباتهم الطارئة دون اهتمام ببلوغ غاية مرجوة ... !!

ولذلك لما أبدى الابن الوحيد رغبة في الالتحاق بكلية التجارة دون ان يبدى الاسباب لم يعترض احد ، وتركت له مطلق الحرية في الاختيار .. بل لم يندهش الوالدان حين عدل عن الدراسة في الكلية بعد ان أمضى بها سنة كاملة .. اذ لم يخطر على بالهما أن يجبراه على دراسة أورثته كرها للعلوم التى تتعلق بشئون المال والتجارة والادارة والارقام .. لانهما لم ينتبها الى ان فقدان الهدف والبرنامج وضياع الامل في المستقبل هو الذى جعل الفتى لا يجد المتعة العقلية في هذه العلوم .. فلم يواصل دراسته في كلية التجارة ... ورغم أنه رأى باختياره ان يلتحق بعد ذلك بكلية الآداب ، الا أنه لم يرجح الى ما عرفه من نظريات ومذاهب ودراسات حثته على الجدل والثرثرة والسفسطة ، ولم ترب فيه تلوقا للادب والفن ، ولم تقدر على تنمية احساسه بالجمال ... ولم يجد من يراجع له حين عدل عن دراسته في كلية الآداب بعد ان كرس لها سنة أخرى .. بل طأوعه والداه حين فضل ان يقطع صلته بالدراسة ويبقى في الدار عاطلا بلا عمل سنة ثالثة ... ولكن الفراغ قلب حياته رأسا على عقب ، اذ أخذت تراوده أفكار الزواج .. الا أنه لم يشغل نفسه طويلا في البحث عن زوجة تهون عليه مثل هذا الفراغ ... لقد كانت تزورهم فتاة ريفية في صحبة أمها ومع ابنيها مستأجر اطيان نجم العائلة كلما حل موعد تسديد القسط الشئوى او القسط الصيفي ... وسرعان ما استولت عليه نزوة حكمت بأن هذا الفتاة تصلح له « فهي فتاة خام ساذجة لها عيون سبالة لا تقوى على توجيه النظر .. وجبهة لا تبرق بفكرة .. وجسد في حالة شيوع تاهت فيه مفاتن الامضاء .. وشعر ملبد يرى من الآن مقدار سحره اذا غسلته وتهدل ضغائر مبتلة على جبينها وخديها .. » فلم يتردد ووقع عليها اختياره لتصبح زوجة له ، رغم انه عرف انها ارملة لزوج من اقربائها في الصعيد قتل في حادث اخذ بالثار بعد ايام معدودة من زفافها اليه ... اذ أحس وهو في طريقه اليها انه قد ارتد الى الطبيعة الام وتخلص من تقاليد الاجداد ، التي جرت على خوض المارك من أجل الظفر بزوجة ابتداء من المطاردة واقتناص الوحش للوحش الى خطف ثم شراء واثبات بطولة بعد نزال الحالى فيما ينساق اليه من متاهات الفزل والسهرة ... ولا يوجد ما يجبره على ان يجارى الشباب والتنهدات .. وراقه ان يحصل على زوجة سهلة قد تولى غيره فك بكارتها ودكها كالطاجن .. وما عليه الا ان يشتريه مستويا ناعما جاهزا .

ولقد هيات له نزوته في الزواج من فلاحه صعيدية حالة نفسية جعلته يستغنى عن فرش المدينة ، ويهتم بأن يؤث حجرة العرس على النمط الريفي من حصيرة ترص عند حافتيها الشباب والشباب والقباقيب .. وسرير من الحديد لعملة شاءت العروس ان تكون من سلك هزاز ... وناموسية من حرير وردى ... وصندوق للعلبس مزين- بالاحمر والاخضر .. وطشت

ودست للفسيل .. حتى يعيش في جو مصري ريفي خالص ... ولعله يكون قد توهم بأن اقباله على الزواج من صعيدية ، وثالث غرفة ريفية على خلاف عادة اسرته في الزواج داخل العائلة ذات الاعراق المتشابهة والتقاليد المتقاربة قد ساعد على تحقيق رغبة كامنة تنشد الامتزاج بعمامة الناس ولا تعرف السبيل الى ذلك ، ولكن النزوة والتوهم والرغبة لا تكفي لتحقيق حياة مستقرة ... لقد اختار الفتى زوجة فقيرة جاهلة ساذجة بسر لها كل ما تنشده في عش الزوجية ، وكفل لها كل سبل المعيشة الطرية .. وتوقع ان تكون طوع بنانه .. فلقد اعطاها ما فيه الكفاية وهو لم يتعود الاعطاء .. وليس لها في ان تلزمه بأى نوع آخر من الاعطاء .. وغاب عنه ان هناك اعطاء تفرضه الطبيعة يعد في نظرها ونظر شبيهاتها من أولى واجبات العشرة الزوجية ، لا تتحقق الا به ولا تتم أو تستمر الا في احضانه .. نفوجي في الليلة الاولى ذاتها بأن يرى هذه الفتاة الخام الساذجة الطيبة في حياء قد انقلبت الى وحش ضار مفترس .. العيون المسبلة ابرقت وانبعث منها في جوف الليل نظرة مستعرة تلحس جسده .. والجبين الذي لا يلعب بفكرة أصبح سطورا عليه امر مستعجل نافذ الاداء على الفور .. الشفاه الرقيقة المطبقة انفرجت عن رعشت تلهث ... الفم يلمظ ولا يستقر ... وانكشفت اسنان تلالا جوعها فتطير من حولها الظلام مدعورا ... والاعضاء التي كانت تزعم انها فقدت فتنها في شيوع الجسد استرد كل منها حقه ، بل واغتصب لنفسه فتنة الجسد كله .. « ولم يكن يتصور ان واجبات العشرة الزوجية تتطلب كل هذه الحدة والاندفاع وذلك النهم والالحاح .. والامر لا يحتاج لمثل هذه العجلة التي تفقد الشهية وتضيع المتعة .. انه اراد من الزوجة ان تكون مجرد دمية طيبة يتسلى بها ، او لعبة جامدة يلهو معها .. ليس لها حق المبادرة وهو غير ملتزم بأية مسئولية نحوها .. ولذلك لم يكن يتوقع ان تصدر مثل هذه الانفعالات المفرية عن تلك الفتاة السمراء .. ! !

ولكن كيف يتصرف معها ويعطيها ما تتمسك بطلبه .. ؟ كيف يرى ظمأها الغريزي الملهب ويشبع جوعها الجنسي العارم .. وهي لا تقبل التسويف والمماطلة والمراوغة .. ؟ بينما هو سليل اسرة كفت عن الاعطاء من زمن طويل ، ولا تقبل على امر الا اذا كان سهلا ميسرا . ولا تقدم على عمل الا طواعية وبإرادة كاملة دون دفع .. ولا تلتزم بمسئولية او تكره على اداء واجب . ! !

وما كادت تختبره في أول واجبات العشرة الزوجية في نظرها حتى تعثر .. واذا بفحولته لما شعرت بانها وضعت موضع الاختبار والالزام تفقد حماسها ولا تسعفه .. فسقط امام العروس ورفضت ان تعيش في ظل حياة زوجية صورية لا جنس هائج فيها ولا غرائز ملتهبة .. فتبين استحالة الجمع بين سليل الاسر الراقية وبين الفتاة الصعيدية الفقيرة سلية الاسر الكادحة المكدودة التي لا متعة لها في الحياة الا المتعة التي وهبتها له الطبيعة ، وتضيع في جنباتها شتى المغارقات الاجتماعية والاختلافات الحضارية ، ويتساوى الجميع في اسلوب اشباع هذه الغريزة الاولى وينعدم مراعاة أى تمايز أو تمييز اذا ما كان شبق يلح في طلب الارضاء ... ولما تأكدت الفتاة ليلة بعد ليلة من عجز عريسها في مشاركتها جنسيا بعد ان عرت جسدها وكشفت له عن

نوع جنسى كانت تخفيه في سداجه وعباء ، واسباحت له نفسها تحت اعتقاد بان ذلك امر فرضته الطبيعة ولا تعترض عليه التقاليد والعادات واقرته الاديان ما دام يسلك الطريق الشرعى المتعارف عليه ... فاحست بالخدعة والمهانة بعد ان عرضت نفسها عرض العبيد ولم تجد غير الصد والابتعاد ... ففضبت لافتضاح شرستها الجنسية .. واثارت لغريزتها الجريفة .. ولم تتورع عن ان ترفس زوجها رافضة ان تستمر في عشرة رجل على ما هو عليه من احجام في فراش الزوجية .. وتصارحه بعرة ونخوة بان « نساء الصعيد خلقن لرجال الصعيد » ثم تمنع في امتنانه وتواجهه بفلظة في اباء وشمم .. « اننى ابول على نتودك واناقتك وكلامك الحلو » وتسخر منه مستهزاة .. « ابحت لك عن مومياء ملطخة بالابيض والاسود والاحمر » تليق بابن الاكابر وتستطيع ان تستثير فيه نوازه الجنسية المهيضة ...

لم يكن الفتى يتوقع ان يسقط هذا السقوط في اولى محاولاته الإيجابية للمشاركة الواقعيه التي تقر به بالفعل لبنت من عامة الصعيد وتمكنه من البدء في السير على درب الاندماج الكامل ... واذا بهذه المحاولة تحول على مذبح الجنس الى دفع في تيار عارم لا يقبل التردد والتسويق .. مع ان تصوراته في انه اختار زوجا مطواعا لبنة العربية تستسلم في هواة لاوامره ، طعيمة في كل شيء وتلبى رغباته عند الطلب دون مبادرة منها ... ولما فوجيء بضراوة جنسية مصممة على نوال حقوقها المشروعة دون الاهتمام باى اعتبار آخر .. فلم يخطر على بالها ان ترعى ما بينها من فروق في الحسب والنسب والتحضر والتمدن والنشأة والتربية والثقافة ... ولم تستعمله وتأخذه على راحته حتى يتغلب على كل هذه الفروق ، تغلبا يمكنه من ان يجتاز ما رسبته من حواجز نفسية تحول دون مساعدته على تكوين نوع من اللفة والانسجام والمودة ، تضيف على العشرة الحلاوة لا افتعال فيها ولا انتهازية ، فيسهل عليه ان يستجمع ركائز رجولته ويشغل فحولته لتكون على اهبة الاستعداد ... ولكن تمسك العروس بأداء حقها على الفور وفي اللحظة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية جعل العشرة الزوجية تقوم على مجرد نزوة طارئة طائشة عند الفتى في مواجهه زوجة جادة فى التمسك بحقوقها المشروعة ، بينما لم يسبق هذه العشرة الرسمية محاولات لتحطيم الحواجز التي خلقت ظروفها نفسية جلعت الفتى يحجم عن اداء اولى الواجبات النوعية ، كان قوى داخلية اكبر منه دفعته رغبا عنه ان يعلن نوعا من الرفض لمثل هذه الزيجة غير المتكافئة ، الخالية مما ينبغي ان تكون عليه من تقارب ومشاركة واندماج لا يمكن ان تتحقق الا ببذل جهود مسبقة متواصلة لم ينتبه احد من الطرفين ان يقدم على بذلها اولا وقبل كل شيء .. !!

ولكن الصعيدية كانت اكثر حسما للمشكلة .. وسرعان ما طلبت الانفصال .. اذ احست بأنه ليس هناك ظل من أمل في حياة زوجية على أبسط أساس من العلاقات بين الرجل والمرأة .. في حين ألم الفتى ان يسقط في نظر هذه الصعيدية التي يسيطر عليها شبق جنسى متوقد ورغبة

ملتعبة تلج في الاشباع كأنها لا تجد ما تستطيع ان تعوض به كل ما تمناه من ضروب الحرمان الا ماتريد ان تستمتع به من لذة في فراش الزوجية...!! ولم يكن أمام الفتى الا ان يرضخ لرغبتها في الطلاق ، ولم يعارض الانفصال ، ووجد فيه خروجاً من هذا المأزق اللعين .. وتركها تعود الى بلدتها بعد زواج صوري دام اقل من اسبوع ...!! وهكذا انتهت هذه الزيجة في مدة وجيزة لانها قامت على مجرد نزوة طفل حاول ان يلعب دور الرجولة ... وانسحبت الصعيدية من بيت الزوجية الثاني بارادتها غير آسفة .. الا ان هذا الانفصال جدد مواعج حسرتها على فقدائها لزوجها الاول الذي ضيعته عليها تقاليد الصعيد الصارمة في الاخذ بالثأر ، وتركها حيرى حتى اصبحت مطعماً لمن يريد ان يلهو ويلعب على حساب كرامتها وعزتها .. وفضلت ان تهجر حياة لا كيان لها فيها وعادت الى الصعيد لعلها تجد في قريتها من يعوضها عن عريسها الاول من بين رجال الصعيد الذين خلقت لهم نساء الصعيد ويطيّب لهن الحياة معهم .. بعد ان فشلت في ان تلعب مع زوجها الثاني دور الدمية التي لا يريد عنها بديلاً ...!!

ولكن اذا صعب على فتانا ان يحصل على دمية لبعض الوقت فانه يمكنه ان يصل الى ما اشبه بالدمية بعض الوقت متى دفع الثمن ... لقد أتاح له جو الحرية المطلق الذي تعيش فيه أسرته ان يلجأ الى العاهرات يشتري منهن ، لينفي عنه سبة العجز في فحولته دون اذعان لالزام او اكراه ... ويبعد عن رجولته شبهة العنة دون المساس بمشاعره التي يخزبها ان توضع قدراته الجنسية موضع الاختيار ... اذ « ليس لواحدة منهن حق عليه ... فلا مسئولية عليه قبلها .. انه يريد ان يشتري بالنقد لا بمبادلة شيء بشيء... » (٦١)

وكان في أول الامر لا يفرق بين غانية واخرى .. ثم بدأ يتأنق في الاختيار .. لا تروقه إلا البائسة التي يتكاثر عليها المشترون حتى يضيع في الزحام ومع ذلك قلما يجد جنته المنشودة لانه « لا يزال يتوهم حتى في اكثرهن رواجاً وانشغالا : اشاحه وجه .. أو لوية خشم .. أو دفعة يد تفسد عليه طمأنينته .. واصبح غاية ما يتمنى ان يجد من جمد وجهها فلا يتحرك ولو صبغ بلون الشمع .. ونعقد خشمها في قالب ثابت .. ولو تصلبت الشفتان كالخشب .. ومن شلت يدها ولو اصبحت باردة كالثلج .. » (٦٢)

وهكذا — حتى في احضان بنات الهوى لم يجد فتانا المتعة المرغوبة التي تكفل له الاطمئنان والثقة وتمتحة التقدير الذي يرد له اعتباره ويؤكد وجود ذاته ويمزج فحولته ويكرم رجولته ... فلما لم يعثر على العلاج الشافي عند الغانيات انتكس نكسة اصابته بعرض غريب سلط عليه ميكروبا ضعيفا تستطيع ان تلتهمه الكرات الحمراء وتقضي عليه في الحال بكل يسر .. ولكن جسده المتخاذل عجز كذلك عن مقاومة هذا الميكروب الوافى لالعة فيه وانما لفقدان ارادته الرغبة في المقاومة ،

(٦١) يحيى حقي : الفرائس الشافرة .

(٦٢) نفس الرجوع .

حتى اميا الاطباء في علاجه مما دعا احدهم الى النصيح بعرضه على طبيب نفساني .. قد يكشف عن عورات داخلية ويعرى ذاته من كثير مما تستر وراءه .. ويفصح خباياه الباطنية ويظهر للجميع خوره وتردده وضياعة سواء بين الرجال او مع النساء ... ويكفيه ما اصابه مما كشفت عنه بنت الصعيد .. وما كاد فتانا يصل الى هذا الحال حتى بدا وجهه ندبا ينطق « بانصياح رضى وطيبة حلوة » واذا بحركات اعضائه تتناسق ويشملها هدوء عجيب رماه بالبلادة والتراخي « ولكنه وجهه عز الاناقة ، فزاد اعتناؤه باظافره وربطة عنقه وانسجام هندامه » واخذ « يتحرك بخشوع فيه دلال مخنث .. ويتكلم بنبرات خفيضة فيها غنة .. وبدت في عينيه عذوبة كأنما كحلها بعسل » اضفت عليه رقعة مهذبة ارتاح اليها ، وان كانت مغرية تدعو الآخرين للتودد اليه معاً يشعره بأنه مرغوب فيه ولا ينفر منه .

وما كاد يشعر بشيء من الاستقرار النفسي حتى راودته الرغبة في مواصلة الدراسة من جديد .. واختار هذه المرة كلية الحقوق .. وسرعان ما انتبه زملاؤه لاناقة ورقته ، واخذوا يلتفون حوله لا يدرون ما يجذبهم اليه « أهى اظافره .. أم اصابعه الرخصة .. أم هذا العسل الذي يسيل من عينيه .. وهذه الرقة في حديثه » وان اسعده هذا الالتفاف الا ان « احدا منهم لم تتقدم به صلته الى درجة الصداقة التي يفصل رباطها قلبين عن وسط الزحام » ولكنه « لم يشعر بالوحدة .. بل شعر بالراحة » مما اضاف على تعسيلة نظراته ابتسامة حلوة « حتى ازداد تعلق انزملاء به واخذوا « يضربون به المثل في الطيبة ونبل الاخلاق » على اعتبار انه ابن الناس الاكابر ... وهكذا استطاع فتانا بحسن علاقته مع الزملاء ان يكسب ارضية جديدة تمنحه ما يحتاج اليه من اعتياد وتقدير يعود عليه بالثقة التي تساند الارادة .. وبالأمان الذي يدد الآمال والاماني .. رغم انه لم يسلم من اقوال السوء التي ترى ان مقالاته في الاناقة والرقة مقومة ورخاؤه هي اقرب الى الانوفة منها الى الرجولة ، مما دعا البعض الى توهم انه يعاني من شذوذ جنسي هو منه براء .. !!

اقبل فتانا على دراسة القانون هو مرتاح البال فتوالى نجاحه حتى لم يبق على تخرجه في كلية الحقوق الا سنة واحدة « فقد أعجبه ان القانون نجا برقبته من شريعة الكون وربكتها وتناقضها ... وتسميتها للظلم على انه في بعض الاحيان عدل » ورأى ان « القانون يصطنع لنفسه منطقاً مستقبلاً جميلاً على الورق .. بارع التقسيم والتسلسل عاجل النفاذ » الا انه بدا له كأنه « هدم بناء الحياة واتخذ من انقاضها قوالب مرقومة اقام عليها صرحه : القاضي لا يحكم بعمله .. بل من الورق ... فالورق ابين من الحقيقة .. الصدق عنده كالكذب مرفوض ، الا اذا دعمه دليل لم يجد من يكشف زيفه ... الرذيلة عنده محددة ... والفضيلة مبهمه ليس لها حساب » (٦٢) فالقانون قد يقضى لعقاب الزوج الخائن ولكن لا يكافئ الزوج المخلص ... كما ان نظرتهم متساوية للجميع دون تمييز بين العامل والجاهل والتطوع والمعدود . ولا يعطى اى اعتبار للقدر وما ينزله

بالناس من محن ومصائب وما يستلزم بعض الرفق والرحمة والعطف... ولذلك فإن احكام القاضي مهما كانت نزيهة لا يصل الى مستوى العدالة الحقة... ومع ذلك فإن القانون المنطقي مهما كثر من مثاله افضل بكثير من شريعة عادلة بلا منطق مفهوم... وهكذا اختلطت الامور على فتانا واخذ ينقد تدريجيا الاحساس بالفروق بين الفضيلة والرذيلة... بسبب ما نوهمه من وجود تناقض كبير بين منطق شريعة الكون الالهية وبين منطق القانون الوضعي... عجز عقله عن ادراك ما بينهما من تقارب ووقف عند ادراك ما بينهما من تفاوت...!! فإن ارتاح الى دراسة القانون في الامر لوضوح منطقة وتسلسل احكامه الا انه لم يجد فيه... ما ينصفه من قسوة القدر ويرحمه من شريعة الكون ويمكنه من الانتصار على ذاته وينقذه من مصيره المحتوم...!!

ولكن اذا لم تحقق دراسته للقانون ما كان ينشده من وضوح الرؤية وراحة الفكر... الا انها اتاحت لذهنه من فرص التأمل الحر المنطلق ما أدى به الى بلوغ « لحظة صفاء » غمرته بنقاء وسكينة خلصته من كل ما يكبله من قيود واغلال. وانقذته من شتى الاوهام والمخاوف وطهرته من الدنس والنجاسة وفاضت عليه بمشاعر لا حد لها من الحرية الرحبة... كان يستطيع ان ينتهز هذه الفرصة التي لا تعوض في تدعيم احوال الصفاء والنقاء والسكينة والطهارة والنجاة والحرية وتعميقها في الذات وتثبيتها بين جنبات الوجدان... الا ان ذلك يتطلب سلوك هدى طريق شاق لا يقوى على تحمل جهاده الا من عرف الندم والتوبة، والترم بطريقهما وجاهد جهادا متواصلا لا ينحرف من مزاولته شتى ضروبه من المجاهدات الجسدية والرياضات النفسية... ليقتلع كل ما في داخله من جذور الشر... ولذلك غفل كيانه الهزيل الهش المتخاذل عن ادراك جلال ما انتابه من لحظة صفاء، ولم ينتبه الى ان ما توصل اليه من نقاء يمهده له الاقتراب من حال التوبة... فغاب عليه ان يسير في طريق الندم والتوبة... واذا به ينمى على ما غمره به الصفاء والنقاء من حرية بلغت من العنفوان ما زلزل قوامه زلزلة اعجزته عن ان ينهض ويصرع الرجس في داخله ويصحح الخلل الذي اصابه، وينقذه مما هو مساق اليه من امراض مستعصية... ورضى ان يبقى على حاله في مرحلة يتصارع فيها الخير والشر ويتنافس في السيطرة على تصرفاته الملاك والشیطان... فوقع صريع دوامة الحق والباطل... الا انه فضل ان يعاني الصراع بين الفضيلة والرذيلة تستولى عليه بليلة تسوقه الى متاهات غريبة شاذة على ان يترك هذه الحرية التي اتته بدون جهد يذكر تطفى على كيانه وتحكم في تصرفاته الهوجاء... فاذا باحساس ملل فظيع يستولى على كل وجدانه، ويعكس كيانه بمرارة مرة ما بعدها من مرارة ساقته في تيه من التخبط والقلق... بينما لم يبق امامه الا اشهر قليلة ويتقدم لامتحان ليسانس الحقوق مما زاد من توتره... وتجمعت عليه شتى المواجه، ودفعته دفعا لتصرفات بلهاء حمقاء أبعد ما تكون عن الحكمة والرفقة والنخوة الانسانية، وساقته سوقا الى حتفه في هاوية سحيقة لا قرار لها بعد ان سمح للشيطان ان يلعب برأسه، ويترك للمعصية ان تفتسه فيغيب عنه الوعي الطاهر القويم، وينساق وراء اوهام حكمت عليه بالعار والاحتقار واثارت ضده مشاعر التقزز والاشمئزاز فاستحق اللعنة في الدنيا وفي الآخرة...!!

فنجذ الطالب الجامعي الذي عجز عن توطيد صداقة كريمة بزميل له في كلية الحقوق يتمتع في كنفها بما يرحمه من زحمة الحياة .. يقنع صريع صداقة مهينة غير متوازنة لا تكاؤ فيها بين الطرفين ، ويرضى أن يصاحب صبيًا حانوتيًا في شارع الريحان ... وإذا بأقويل السوء التي كانت تهمز بالشذوذ تصبح فجأة حقيقة واقعة ... !! لقد تعود الصبي الحانوتي أن يراه على ما هو عليه من أناقة ونعومة ورقية ورخاوة في نزوله وصعوده من البيت الذي يقابل دكانه ... ربما سولت له نفسه أمرا خبيثا فأخذ يترصص به حتى ينتهز فرصة ليوفق علاقته به وينال منه مراده ... وحدث بينما هو يضج ضيقا مما يعيث فيه من ملل أن وقع نظره عفوا ذات مرة وهو خارج متأخرا من بيته بغير عادة على صبي الحانوتي وهو واقف على سلم يعلق لافتة على دكانه ... فما أن تقابلت العيون ورأى فتانا شابا « مدكوك الجسم ككيس قطن .. قصير القامة والذراع .. ضخيم اليد .. ضيق الجبهة والعينين .. نظراته ثاقبة لها لمعان ، فيها مكر وحنق وعكارة دم فاسد وجوع الوحش » (٦٤) فظن صبي الحانوتي أن الفرصة المرتقبة قد واثته « وقبل أن يشيخ بوجهه رأى الصبي يبتسم له ويرفع يده إلى رأسه بتحية وسلام .. فمضى وهو يعلم أنه لا بد عائد إليه » .

ولا ندري كيف توثقت عرى الصداقة بين شابين رغم ما هي عليه من تباين اجتماعي واقتصادي وثقافي وحضاري وكيف : « أصبح من عادة الفتى أن يعفى أمسياته في صحبة صبي العلم أمام الدكان » لعله حاول بذلك الهروب من الملل والتحرر من الشقاء الذي يعاني منه الأمرين ... !! كان أول الأمر ينزل إليه مرتديا بذلته وحذاءه .. ثم « ثم لم يجد بأسا من أن ينزل إليه في جلبابه وشبشبته » لما توطدت اللفة وزالت ما بينهما من فروق .. فلم يجد فتانا ما يحول دون مجاراة صبي الحانوتي ليس في ملبسه فقط بل شاركه كذلك في موضوعات الحديث بشغف زائد ، خاصة تلك الموضوع التي تتصل بعمل الحانوتي حتى أصبح « حديث الصبي عن الشغل ومواسمه وسابق مجده ولذته ومتاعبه وطقوسه وفنونه وحيله » (٦٥) ولما أحس صبي العلم بازدياد شغف فتانا بالاستماع إليه والاستفسار المتواصل عن كل ما يتعلق بتفاصيل عمله في عالم الموتى والقبور .. رغبة في أن يحضر معه ليشاهد بنفسه عن قرب كل ما يستفسر عنه .. ومن الغريب حقا في ألا يتردد فتانا في قبول مثل هذا العرض في التو واللحظة مجذوبا بسحر عالم الموتى الذي لم يكن يدرس عنه شيئا .. كأنه مساق وهو في غيبوبة بعد أن فقد انطلاق الحرية وصفاء الطهارة واستكان لأفراء دعوات خبيثة تحت تأثير وهم مضلل بأن ما يتحكم في مصيره المحتوم قدر لا يخضع لمنطق أو قانون ولا يعرف الرحمة أو الشفقة .. فاندفع في تيارات هوايته الجديدة التي أصبحت لعبته المفضلة ، مع أنه لم يسبق أن رأى جثة ميت من قبل .. !!

(٦٤) الفراش الشافر .

(٦٥) نفس المرجع .

وما أن رأى أول جثة حتى وقف امامها مشدوها في حيرة ما بعدها حيرة لا يدري هل ما يراه امامه هو « استسلاما بلغ حد التعذيب به .. ام عذابه بلغ مداه فذاب في استسلام » .. ؟ وما أن أدرك أن الذي امامه « لا شيء .. له صورة بنى آدم » حتى زالت عنه الرهبة من الموتى وأقبل يفسل الجثة برفق آمن مادام الميت « ما يشيح بوجهه .. ولا يلوى خشيمه .. ولا يدفع بيده » (٦٦) فطاب له هذا العمل الذي اطلق له حرية التصرف .. وأصر على أن يصحب صبي الحانوتي في كل طلب .. بينما ظن صبي الحانوتي أن تمسكه بمصاحبته يرجع أولا وقبل كل شيء الى شدة تعلقه به شخصا ، بحيث لا يستطيع له فراق ، خاصة وأن ابتسامته له أخذت تزداد رقة وعدوية .. وأن نظراته فاضت تعمسلا وحلاوة .. بينما استولى على جسده ارتخاء ورخاوة .. فطمع فيه ووسوس له شيطانه أن يتجرا عليه ويصارحه بما يريد منه ويطلب منه الا يتدل عليه أكثر من ذلك ويستسلم له ما دامت هذه هي رغبته .. وحته على أن يتسربا داخل ظلام الدكان حيث يوجد نعش كبير يسعهما معا ويتيح لهما أن يقضيا مآرباهما في شوق زائد اليه ، ورغم أن الفتى رد صبي المعلم عن غيه .. الا أنه لم يظهر له أى نوع من الغضب او الضيق لمجرد توارده مثل هذه الرغبة على شهوة صديقه .. ولم يبد عليه أى نوع من التأفف من مثل هذه المهانة التي يريد أن يسوقه اليها هذا الرفيق المفضل .. لأن ذهنه التائه في غيبوبة يستولى عليه ملكوت القبور ولا يكاد يلتفت لأى شيء آخر ولو كان يتصل بكرامة رجولته .. ولذلك لم يمر أى انتباه لكلام صبي المعلم الذي لما لم يجد استجابة فورية لم يلح عليه وتركه في ملكوته فابتعد عنه بعد أن كان ملتصقا به وهو يناوله هذا الحديث حتى يوحى للفتى بأن ما طلبه كان مجرد نزوة طارئة ، وأنه تاب الى رشده ورجع عن رغبته .. وغير موضوع الحديث ودخل في كلام ليزيل ما يكون قد انتاب الفتى من انفعالات الرفض فيفقدته الى الابد قبل أن ينال مرامه منه ، وإذا بحديثه يذهب الى « الاستعباد ودم الزمام والتحسر على الماضي » ليشغل الفتى بكلام عام يتردد هنا وهناك بلا مغزى ولا هدف ...

ولكن صبي الحانوتي لم يتخل هدفه وتحقيق مآربه بطريقة أو أخرى .. وأن رفض الفتى غير الحاسم لم يدعه يئأس .. ودفعه لأن يفكر في امادة المحاولة بطريقة أخرى أكثر فاعلية تفقده القدرة على المقاومة وتجبره على الاستسلام وهو غائب الوعي مشغوف عنه بمآرب آخر .. وهكذا يحاول كل منهما أن يلعب على الآخر لعبة الشيطان ... !! وإذا بصبي المعلم يفاجئه بنبا يثيره كل الاثارة بعد أن أخبره بوفاة عروس صغيرة السن قبل ليلة زفافها بيوم واحد .. هي عز الطلب ... وأخذ يزيناها له حتى يرغبه فيها ويحصل منه على ما يريد في مقابل تحقيق رغبته .. فلم يتورع عن استثارة تلك الرغبة بكل شدة والحاح ، وبين له كيف شيعت جنازتها بالموسيقى ونثرت الحناء على القبر ، وغطى جسدها بثوب الزفاف ، وأهل عليها بإاقات الياسمين فاشعل هذا الحديث كل كوامن رغباته وإيقظ شهواته المكبوتة ، فاذا بها تطلب الاشباع وترأوده على أمر

لا يقره عرف أو قانون ولا يرضى عنه خلق أو دين وتآباه كل الآباء الكرامة الانسانية .. الا ان احساسا حادا استولى عليه يصور له ان امامه فرصة فريدة طالما تمنها لها قد واثته ولن تتكرر وليس امامه ان يقتنصها مهما غلا الثمن الفادح !!

وهكذا انهارت كل القيم التي شب عليها الانسان منذ الازل .. وضاع الفتى سليل الاكابر ابن الاصول في متاهات وضیعة تنم عن شراسة بشیعة كامنة تريد ان ترد اعتبارها وتنقم لكرامتها بأساليب لا انسانية ولا اخلاقية ، لم تبال بما قد يصاب به الفرد من خراب روحى او دمار فكرى فلا تستقيم له حياة سوية ... ولم يكن هذا الفتى اول من ضاع في هذه الاسرة .. ولن يكون آخر شخص يتعرض لمثل هذه الامراض المستعصية .. لقد سبقه نجم العائلة .. اذ بلغه عقب ارتكابه الفحشاء مع العروس الراقدة جثة هامة في قبرها لا حول لها ولا قوة انه هوى في المستشفى وهو يعالج من ادمان تعاطى مخدرات يلجأ اليها ليبعد عن مخيلته تصورات قاسية وتهيؤات ، خادعة توهمه بأنه محاط باعداد مجهولين يتربصون ويريدون تحطم روحه ووعيه ومنطقه ... فتكرت نهايته فراشاً شاغراً في المستشفى تندر بان هنالك نزىلاً جديداً يتوقع ان يحل مكانه الشاغر قريباً .. لعله فتانا مما يهددمصر هذه الاسرة المنكوبة ويؤدى بها الى الانقراض والغناء ... !!



لا شك ان قصة « الفراش الشاغر » تشهد ليحيى حتى انه قد تحرر فعلاً من الميول التركية ونزعانها الموروثة ، ولم تقف حائلاً دون الرؤية الصادقة لواقع الاعراق التركية المصرية وما وصلت اليه من حال .. وان تناول هذا الواقع تنقصه الصراحة الواضحة ، ولجأ فيه الى دبلوماسية لا تخلو من حياء تستعين بصيغ بلاغية هي اقرب الى الرمزية منها الى الواقعية .. فانه ربما اراد تخفيف وطأة النقد الاليم الذى يفضح خبايا بنى اعراقه ويتقرز من مبادئهم ... ومع ذلك فان قصة الفراش الشاغر يمكن وضعها في قمة نتاج يحيى حتى القصصى باعتبارها آخر فصل في ملحمة صراع الاصلااب التركية المهاجرة ، تشهد مأساة المهاجر التركي الذى قاوم اللوبان في المجتمع الجديد ، فتكالبت عليه نواجل المجتمع المصرى واعطاها فرصة لان تعضه بشراسة خلال سلبياته ، وتظهره بمظهر معين يثير الازدراء والراء على حال من فقد الجاه والسلطان والمجد وتخلى عن الشرف والكرامة والفضيلة ، وانساق في هاوية سحيقة من الدمار الروحى والخراب العقلى ..

ان قصة « الفراش الشاغر » هي آخر لون فنى لجأ اليه يحيى حتى ليحدد معالم الشخصية التركية المصرية، فلقد ابتدا بتحليل نماذج بشرية. ثم اهتم بتصوير لوحات أدبية .. الا انه لم يبرع البراعة الكاملة في عرض ما آلت اليه الشخصية المصرية التركية الا عند تأليف « الفراش الشاغر »

الدرامية التي تمثل صراعا رهيبا بين الانسان وقدره وكيف أدى به الى مصر غاشم لا رحمة فيه ولا عدل ... الا ان قصة «الفراس الشافر» اشبه باعلان رفض واستنكار ... يحذر وينذر ... بل يتوعد بسوء العاقبة التي تبدو في اُبشع صور الانسانية المنحطة لكل من يعترض على سنة الحياة ، ويتعمد اعتزال الناس والابتعاد عنهم لا يشاركهم في حياتهم الخاصة أو العامة، ويفضل ان يظل كامنا داخل دائرة ضيقة يأسر كيانه تقاليد وعادات تمنعه من تكوين صداقات سوية ، وتحرمه من علاقات الوصال والود وتحول دون التضحية والاعطاء والبذل ... ولذلك تكاد قصة « الفراس الشافر » تعوى بعواء كئيب نحيف يريد ان يروى كيف يؤدي الانغلاق الى العفن ويسوق بصريح الانسان الى الانحطاط ...

ان قصة « الفراس الشافر » ليست الاصرخة توجع غاضبة فيها حسرة واسى على ما وصلت اليه بعض الاسر المصرية التركية فاخذت تستعرض فاجعة نجوم اسرة شوارع الريحان وشبابهم وتبين ما اصابهم من خراب روحى ودمار عقلى وانهاى خلقى ، وتظهر ضيق افق الاسر التي لا تراعى في تربية ابنائها ظروف المجتمع الذى تعيش بين جنباته ، ولا تعد شباب العائلة لخوض تياراته بكل قدرة وتمكن حتى لا ينشأ على العزلة ولا يشب على الشح وعدم الاعطاء ... ولا يبدو امام المجتمع انه يرفض ان يطاوع عامة الناس ويتعالى على الدوبان فيهم بعناد يسوقه الى الدمار والخزى والعار وينزل بكرامته لعنة ملعونة لا امل لها في رحمة الله ...

ولا يخلو تصوير هذا الانتحار الروحى على مذبح التقاليد العاتية الراسخة الجذور من قسوة وعنف وايلام ... فان يحيى حتى لا ينه أو يحذر فقط انما يهدد ويهيب كذلك بأسلوب مربع بشع لا يضع مجالا للاختيار الا بين اتجاهين لا ثالث لهما . اما الامثال طوعية دون عناد أو تكبر للظروف الاجتماعية الجديدة التي آلت اليه حياتهم ، وقبول تعديل السلوك المتوارث عن رضا واقتناع ، تمهيدا لمشاركة الناس والاندماج فيهم أو الاختلاط بهم الى حد الدوبان عن طريق الود والتعاون والاتصال والوصال والتضحية والاعطاء والبذل والسخاء ... وذلك لمن اراد النجاة ... واما التجمد على ما هو عليه من عزلة وابتعاد والتحجر على ما شب عليه من شح وامتناع عن الاعطاء ، منهريا من الناس والمجتمع خشية التصادم بالجحود والكران ، ومتجنباً مواجهة الخسة في اي مكان ... فتتفشى في داخله اوبئة تبدد قيمه الانسانية ، وتصيبه بخراب يقضى على الادمية ويعرض سلالته لنهاية اليمة حقيرة ...

- ٦ -

لا جدال في ان محاولات يحيى حتى المتوالية لتحليل الشخصية المصرية التركية ، ونجاح جهوده في تحديد معالمها الاساسية لكنه من التحرر من ضغط النشأة والتربية الاولى مما عاونته على التخلص من قيود التقاليد وأغلال الوراثة ، وهيماله من الفرص الكاملة لاداء واجبه نحو بنى جنسه

بان حذرهم التحذير الشديد من مغبة ما قد ينزل بهم من دمار وخراب وهلاك .. الا انه لم يعف المجتمع المصرى من مسئولية بعض ما اصاب آل سلالته من جمود وتدهور وانحلال .. وكيف ان فساد بعض جوانب المجتمع اصابه بالتعفن والتخلف الحضارى ، واضاع عليه كثيرا من القيم الانسانية واشاع فيه فوضى لا اخلاقية .. امتدأثرها بصورة او اخرى على الاسر المصرية التركية ويعكس على تصرفاتها سلوكا معيننا .. !!

فان بنت الصعيد لما اكتشفت في عريسيها ابن الاكابر .. من وهن جنسى يتوانى عن تادية ما عليه من التزامات ، ويتقاعس عن ان يهبها كل ما يملك من حيوية في الحال وبلا تردد ودون مقابل عاطفى ، ما دامت قد وهبته نفسها وعرضت عليه كل بضاعتها واباحت له ان ينال منها ما ينال ، حتى قبل ان تعرف من هو وتتوطد بينهما المحبة .. لم تستطع بنت الصعيد ان تقف موقفا سلبيا من هذا العريس ولم تجد داعيا لان تستمر علاقتها معه وهو على ما هو عليه من شح جنسى يمنع من الاعطاء الحيوى فسارعت بمطالبة الفراق في اشمئزاز وعثرة .. ولم يكن امام عريسنا الا الرضوخ لهذا الطلب وهو صاغر لانه وضع في ظروف لا يستطيع ان يعاند فيها او يكابر ، وانه لا يملك ان يعطى الا بقدر وحساب وحين يشاء او يريد دون املاء او اجبار .. فما كان منها الا ان نبلته في اباء وشمم ، وتخلصت من عشرته غير نادمة على ما يمكن ان يتيح لها من حياة رغدة .. ولا آبهة بما قد يؤول اليه من مصير .. فتركته حطاما هشيما لا يقوى على مصارعة الواقع المتربص به .. فاذا به يتسرب في حرية الظلام متسللا من الابواب الخلفية الى حياة رخيصة وضيفة هي اقرب الى الموت .. ورات ان سعادتها الحققة في العودة الى مسقط رأسها لتعيش بين من يقدرها من اهل الصعيد ويستطيع ان يمنحها ما تريد دون تخاذل او مراوغة ..

الا ان ابن البلد لم يستمهله ولم يتورع عن ان ينتقم منه شر انتقام ، وينهش عرضه ويلد رجولته وهو يجرى وراء رغبة حمقاء تريد ان تنال متعة خالصة لا يشوبها عائق ولا يفترها صد او منازلة ، وخاصة اذا ما كانت على مديح بنت الصعيد فلم يبخل عليه ابن البلد بان يتيح له مثل هذه المتعة ولكن ليس قبل ان يسلبه كل عشرة وكرامة ، ويدفع به الى هاوية سحيقة لا نجاة منها .. لقد نشأ على الشح لا يعطى دون مقابل واذا به في النهاية يعطى كل حياته ويفقد انسانيته وادميته دون مقابل ، بعد ان رضى ان يضاجع الموتى وهو في غيبوبة من الحس والشعور والادراك والوعى .. فكان الخراب الروحى والدمار العقلى والانحطاط الخلقى ..

بمثل هذه التحليلات الواعية استطاع يحيى حقي ان يتطهر من قيود العقدة التركية المتزمتة .. ولكنه يعيش وسط مجتمع يعكس عليه كثيرا من الانطباعات التى لا يرتاح اليها وجدانه وتحد من انطلاقاته الفكرية .. فاذا به يقف حائرا امام الاتجاهات المصرية غير المتوازنة لخضوعها لتيارات متضاربة يغلب عليها روح الانتقام ولا تتورع عن ان تلجأ للفرد والخباع وتخلط بين سفك الدماء

والجريمة وبين العزة والكرامة .. قد تحسم المواقف بالعنف ولكن دون فاعلية ايجابية وتترك
جلود المشاكل تستشري .. فاحس يحيى حقي بأنه مكبل بقيود تدخله في صراع جديد من أجل
حريته - فاذا به يجاهد في سبيل معرفة الشخصية المصرية الاصيلية ويتكفل بتحليلها وعرضها خلال
تطور خبراته الفكرية في صور ادبية متنوعة تشمل فحص النماذج البشرية واستعراض اللوحات
الفنية وخلق القصص الدرامية .. ويبدو موقفه من الشخصية المصرية واضحاً في قصص
« البوسطجي » و « قنديل ام هاشم » ولوحات « صح النوم » ويمتاز هذا الموقف بأنه لم يصل
بعد الى حد اليأس ودرجة التشاؤم التي تلوح بصراحة عن الضياع والخراب والهلاك .. وأنه
ما زال هناك أمل يدعو الى الجهاد في سبيل تحرير المجتمع المصري من كل مخازيه ، ويسوق
الشخصية المصرية الى السلامة الفكرية والسوية الحضارية .. بتعديل مسار انحرافات وترشيد
اندفاعاتها بالتنسيق بين تياراتها المتداخلة ..

واحسب ان عرض موقف يحيى حقي من المجتمع المصري والشخصية المصرية ومدى توفيقه
في التحرر من انعكاساتها على نشاطه وتربيته وتعليمه بما لها من ردود فعل تنبعث من مكن
النزعات التركية التقليدية المتوارثة .. يحتاج الى دراسة مفصلة تبحث مرحلة اخرى من مراحل
صراعات يحيى حقي المستمرة من أجل الحرية .. تبين حدود معاركه مع ذاته - اولا وقبل كل شيء -
سواء وهو يعيش المجتمع المصري ويختلط بالشخصية المصرية .. او حين يتحرك من ميوله
الصوفية الفتية الى خضم البوهمية الصاخب المنطلق .. ويصارع بعقليته الشرقية تدفق أمواج
الحضارة الغربية المتلاحقة .. !!

النقد الروائي الانجليزي في دور التكوين

كثيرا ما عبر الروائي الانجليزي عن مخاوفه من الناقد المحترف الذي رأى فيه قوة معرقة لتطور الرواية ولحرية الكاتب . فإشار سومرست موم (١٨٧٤ - ١٩٦٥) الى خطأ الاعتماد كلية على نقاد من غير الادباء المبدعين لان الناقد ، كما يقول موم « الذى لا يعمل بنفسه في حقل الادب الخلاق يحتمل ان تكون خبرته في صناعة الرواية بسيطة . ولذلك فهو اما يعتمد في نقده على انطباعاته الشخصية التى قد لا تكون ذات قيمة تذكر . . . او يصدر احكاما مبنية على اساس جامدة على الروائي ان يتقيد بها اذا ما أراد أن يحوز قبول الناقد » (١) . ونبه هـ.ج. ويلز (١٨٦٦ - ١٩٤٦) H. G. Wells ، قبل ذلك بربعين عاما ، الى عدم جدوى اصرار النقاد على قواعد ثابتة ، والى خطورة اللجوء الى النقاد المحترفين عند تقييم الرواية ، فقال :

اذا اردنا ان نعرف ان الرواية اكثر من وسيلة للترفيه فلا بد ان نعتاد من ان نتحرر من القيود التي يلج عليها اولئك الذين يرغبون في تحديد اطار عام لها . ان كل فن لهذه الايام يجد نفسه مضطرا الى ان يسلك طريقا ومرا بين

“The Art of Fiction”, Ten Novels & Their Authors (1954), 19-20.

صخور من المستويات النافذة المهنية وبين دوامة من النفذ العشوائي اللامعقول . فعندما يصبح نقد أى فن من الفنون منحصرا ومحترفا ، وتظهر الى الوجود طبقة من الحكماء على الادب ، يبدأ وضع قواعد ومقاييس علمية محددة ونماذج تطبق على الفن ... لقد تناول النقاد الرواية كما لو كانت ذات شكل فني لا يقل تحديدا عن شكل السونييتية (٢) .

وانخلدت فرجينيا وولف (١٨٨٢ - ١٩٤١) Virginia Woolf الروائية التي اشتهرت بتجاربها في الرواية الانجليزية الحديثة ، موقفا مضادا لموقف ويلز وموم عندما اسفست لانعدام النقد الروائي النظري تقريبا . ورات ان مشاكل الادب الروائي في ايامها ترجع الى عدم اهتمام النقاد بشكل الرواية ونظرياتها الفنية والجمالية ، نقالت :

إذا كانت هناك صعوبات تواجه الرواية فلعل السبب في ذلك هو عدم وجود من يعالجها بشغف ويحدد معالمها بدقة . لم يقن احد للرواية ، ولم يولها الا القلة اهتماما جادا . وعلى الرغم من ان القوانين قد تكون مخطئة ويجب تعطيها ، فان لها مزاياها ، فهي تصفى الوفاة والنظام على الرواية ، وتعترف لها بإمكاناتها في المجتمع المتحضر ، وتثبت حقها في التقدير والدراسة (٣) .

وابا كان موقف الروائي من الناقد فمن الملاحظ ان ناقد الرواية المحترف - باستثناء امثال برسي لايبوك (١٨٧٩ - ١٩٦٥) Percy Lubbock وف. ر. ليفيز (١٨٩٥ - F.R. Leavis) وتلاميذهم في القرن العشرين - لم يصل الى مستوى نقاد الشعر والادب المسرحي . فليس هناك ناقد روائي خلال القرون الاولى لظهور الرواية وتطورها يضاهي ارسطو وصموئيل جونسون (١٧٠٩ - ١٧٨٤) Samuel Johnson وكولردج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) Coleridge في النقد المسرحي والشعري . ومما يسترعى النظران ماثيو آرنولد (١٨٨٢ - ١٨٨٨) Matthew Arnold عميد النقاد الفكتوريين لم يلتفت اطلاقا الى الادب الروائي الانجليزي الذي بلغ ذروته في ايامه .

بدت الرواية الانجليزية في اول نشأتها كمارد جبار . ووصلت الى مستوى ادبي رفيع خلال السنوات التي تلت ظهور روبنسون كروزو (١٧١٩) رواية دانيال ديفو (١٦٦٠ - ١٧٣١) Daniel Defoe الشهيرة . وعندما نشرت اعمال الروائيين الكبيرين فيلدنج (١٧٠٧ - ١٧٥٤) Fielding وريتشاردسون (١٦٨٩ - ١٧٦١) Richardson اصبحت الرواية الانجليزية واقعا لا جدال فيه ، واحتلت المكانة الاولى عند هواة القراءة . ومع ذلك لم يصاحب نشأة هذا الشكل الادبي الجديد نقد يستحق الذكر . لقد اثارت روايات ريتشاردسون في عدد قليل من الكتيبات بعض التساؤلات عن اهدافها ، ومدى اضرارها بمستوى القراء الخلقى . كما بدا نفس الاتجاه الاخلاقي في مقال لمجهول بعنوان « دراسة لتاريخ توم جونز » (١٧٥٠) (٤) .

”An Examen of the History of Tom Jones“ هاجم فيه الكاتب هجوما عنيفا مقلدا ما اعتبره انحطاط الاخلاقيات التي بنيت عليها رواية فيلدنج ، دون اية اشارة الى قيمتها الادبية ،

(٢) “The Contemporary Novel”, An English Man Looks at the World (1914), 150-51.

The Moment & Other Essays (1947), 90

Orbilius

(٤) المقال المكتوب تحت اسم مستعار هو (اوديليوس)

وكانها منعقدة تماما . ثم ظهر اتجاه مماثل في الخلاف الذي قام حول روايات **لورانس ستيرن** (١٧١٣ - ١٧٦٨) [Laurence Sterne] في نفس العصر عندما ركز المتناظرون جدالهم حول مدى اللياقة في ان يكتب ستيرن ، وهو قسيس ، روايات على الاطلاق . ولم يعلق واحد من هؤلاء النقاد على التجديدات الفنية التي اشتهرت بهاروايات ستيرن فيما بعد ، والتي جعلته من اعمق الروائيين تأثيرا على تطور الرواية الانجليزية في عصرنا . وكان على ستيرن ان ينتظر حتى عشرينات القرن الحالي ليحتل المكانة التي تليق برائد الرواية الانجليزية الحديثة ، عندما اكتشفت فرجينيا وولف اهمية تجاربه الفنية . وان ما يدعو الى الدهشة في كل هذا هو فشل النقد في ان يلحق بركب الرواية في نشأتها وتطورها سنين طويلة .

استمر تجاهل النقاد للرواية طوال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، اى خلال السنوات التي لاقت فيها الرواية شعبية لا مثيل لها اذاما قورنت بانواع الادب الاخرى . واولى النقاد الشعر اهتمامهم كما في **تراجم الشعراء الانجليز** (١٧٨١) *Lives of the English Poets* لصموئيل جونسون ، او الى نظريات النقد الجمالية في كتابات بيرك (١٧٢٩ - ١٧٩٧) *Burke* ورينولدز (١٧٣٢ - ١٧٩٢) *Reynolds* . اما فيما يختص بالرواية فقد ظهرت في دوريات من مثيلات *The Monthly Review* (١٧٤٩ - ١٨٤٥) و *Critical Review* (١٧٥٦ - ١٨١٧) تعليقات على الروايات التي اخذت تتكاثر بسرعة فائقة . ولكن هذه التعليقات تمثلت في ملخصات للروايات وسرد لاحداثها ليس الا .

على ان الاوضاع قد تحسنت قليلا بالنسبة للدوريات الجديدة في اوائل القرن التاسع عشر، الا ان تجاهل المعلقين عامة لروايات **جين اوستن** (١٧٧٥ - ١٨١٧) *Jane Austen* التي ارتقت الى مصاف اعظم الروائيين الانجليز ، يشير الى حقيقة الامور فيما يتعلق بالنقد الروائي المحترف وكان الاستثناء الوحيد لافتقار النقد في ذلك العصر هو المقال (٥) الذي رحب فيه الروائي **سير والتر سكوت** (١٧٧١ - ١٨٣٢) *Sir Walter Scott* في بحرارة برواية **اما** (١٨١٦) *Emma* لـ **جين اوستن** اما المحاضرة السادسة لوليم هازل (١٧٧٨ - ١٨٣٠) *William Hazlitt* في محاضراته المنشورة بعنوان **الكتاب الانجليز الهزليسون** (١٨١٦) *Lectures on the English Comic writers* وتقليد ولتر سكوت في كتابه **تراجم الروائيين** (١٨٢١ - ١٨٢٤) *Lives of the Novelists* لا سبق ان انجزه صموئيل جونسون في مؤلفته **تراجم الشعراء الانجليز** ، فليست الا محاولات عقيمة في النقد الروائي .

ومتى وصلنا الى العصر الفكتوري وجدنا اتجاه النقاد الملحوظ الى تجنب الرواية في دراساتهم . فالروائي الوحيد ، تولستوى ، الذي تناوله ماثيو آرنولد في مقال طويل (٦) لم يكن انجليزيا بل روسيا . وكان آرنولد في اول المقال صائبا عندما قال : « لقد ولى عهد الروائيين

Quarterly Review (1816)

(٥)

Essays in Criticism) (1888) Second Series

(٦)

الانجليز العظام ، ولم يتركوا من بعدهم خلفا في مثل شهرتهم » . وفي هذا القول دليل على قدرة آرنولد على التمييز بين الجيد والردىء من ادب الرواية ، ومع ذلك فقد اولى ظهره لامثال ديكنز (١٨١٢ - ١٨٧٠) وذاكرى (١٨١١ - ١٨٦٣) Thackeray وجورج اليوت (١٨١٩ - ١٨٨٠) George Eliot وهم من اعظم الروائيين الانجليز في فترة انتاجهم الخصب وعصر الرواية الانجليزية الذهبى .

يبدو مما سبق اننا اذا ما اردنا ان نكتشف حصيلة من النقد الروائي الذى يعترف بالرواية كاذب رفيع يستحق الدراسة الجادة ، فعلى ان نوجه انظارنا بعيدا عن الناقد المحترف متجهين نحو الاديب الروائي نفسه وما جاء في كتاباته عن ادبه . وهنا نتذكر ما قالته اليزابيث بوين (١٨٩٩ - ١٩٧٤) Elizabeth Bowen الروائية الانجليزية في الروائي الناقد ، وهو : « ان الكاتب الابداعي الذى يفتقر الى ملكة النقل لا وجود له . بل ان مهنته كروائي لا تتحمل مثل هذا الافتقار » (٧) . ومما يؤكد الدور الذى يلعبه الروائي الناقد بروز اسماء فيلدنج وجورج اليوت هنرى جيمس (١٨٣٤ - ١٩١٦) Henry James ود . هـ . لورانس (١٨٨٥ - ١٩٣٠) D. H. Lawrence واسم . فوستر (١٨٧٩ - ١٩٧٠) E.M. Foster و فرجينيا وولف ، على سبيل المثال لا الحصر ، في تاريخ النقد الروائي الانجليزى .

وباستثناء فيلدنج ليست هناك اية محاولة في القرن الثامن عشر لدراسة الرواية على اساس نقدي جاد . ويبدو اسهامه في هذا المجال فيما كتبه في نقد الرواية ونظريتها بينما كان يحاول ان يفسر لنفسه ولقرائه تجاربه في الكتابة الابداعية . ولا جدال ان فيلدنج هو رائد النقد الروائي في انجلترا بغير منازع . بل لعله ليس مجرد رائد لان الرائد يتبعه آخرون ، وهذا ما لم يحدث في حالة فيلدنج الذى سبق النقد الروائي بقرن من الزمان على الاقل . وتكون تسميتنا اكثر دقة لو لقبناه بمستكشف وحيد خاص في نقده عالم الرواية البكر وتحسس معالمها المجهولة .

ونقد فيلدنج الذى احتواه في ثلاث مقدمات لروايته جوزيف اندروز (١٧٤٢) Joseph Andrews وفي ثماني عشرة مقدمة ، واحدة لكل كتاب من كتب روايته **توم جونز** (١٧٤٩) Tom Jones ، محاولة فريدة في اسهابها ترمى الى الرفع من شأن الرواية بتحرير بعض القنايس النيو كلاسيكية وتطبيقها على الرواية . وايا كانت نتيجة هذه المحاولة (وقد باءت بالفشل كما كان فيلدنج نفسه يعلم) ، فان المحاولة في حد ذاتها كانت مثالا مبكرا للنقد النظرى للتعريف بالرواية والتقنين لها .

كان الهدف الاساسي الذى سعى اليه فيلدنج اول الامر هو تعريف ماهية الرواية متخذاً روايته جوزيف اندروز نموذجا لهذا الشكل الجديد . فوصف الرواية بانها « ملحمة هزلية

منشورة « (٨) . وكان فيلدنج يعلم تماما مدى الابتكار الذي تتضمنه تلك الموازنة بين الرواية والملحمة ، كما كان يعلم ايضا ما يحتمل من اساءة فهم القراء له في مقارنته بين هذين الشكلين من الادب . فيقول في مقدمة جوزيف أندروز أن الرواية « تمثل ... نوعا من الادب لا اذكر انني رأيت حتى الآن اية محاولة مشابهة له في لغتنا » . ويستمر فيلدنج في شرح اوجه الشبه والخلاف بين الرواية والملحمة ، كما عرفها هوميروس ، مشيرا الى ان الملحمة مثل المسرحية ، منها ما هو هزلي ومنها ما هو مأساوي . وهوميروس ، كما جاء في ارسطو ، ترك لنا ملحمتين ، احدها هزلية بعنوان *Margites* وقد فقدت ، والثانية مأساوية وهي *اللياذة* . والملحمة قد تكتب اما بالشعر واما بالنثر ، وان كان الشعر هو الاسلوب الغالب ، ونبه فيلدنج الى عدم الخلط بين « الملحمة الهزلية المنشورة » وبين المسرحية الهزلية والرواية الرومانسية المنشورة الجادة . فالرواية عند فيلدنج او « الملحمة الهزلية المنشورة » كما عرفها تختلف عن المسرحية الهزلية من حيث ان « حركتها اكثر امتدادا وشمولا ، ودوائر احداثها اكثر اتساعا ، وشخصها اكثر تعددا واختلافا » . وعندما انتقل فيلدنج الى توضيح الاختلاف بين « الملحمة الهزلية المنشورة » والرواية الرومانسية صادف صعوبات لا حد لها . واعتبران من اساس الاختلاف الاسلوب الهزلي والميل الى المحاكاة التهكمية *burlesque* للادب الجاد ، والمغالاة فيها ، وهي التي وجد فيها فيلدنج متعة بالغة .

ونج عن تعريف فيلدنج للرواية وتفسيره لهذا التعريف كثير من الخلط . والسؤال الذي نطرحه هنا هو : هل الرواية كما عرفها فيلدنج اساسا مجرد « محاكاة تهكمية » للشكل الملحمي المأساوي ، ام هي رواية هزلية اخلاقية متكاملة في حد ذاتها ترمي الى تصوير المجتمع المعاصر ؟ ويعكس هذا السؤال الانشطار الواضح في جوزيف أندروز بالذات ، التي بنيت اول الامر على « المحاكاة التهكمية » لرواية *باميللا* (١٧٤٠) *Pamela* لريتشارد سون ، ثم تطورت واخذت شكل رواية « المفامرات » *Picaresque* التي تصور مساويء المجتمع بأسلوب الهجاء الساخر ، مستندة الى المبادئ الاخلاقية . وليس في هذا الخلط الواضح بين اتجاهين مختلفين ما يثير الدهشة لانه موجود أصلا في نظرية فيلدنج النقدية .

لا شك ان فيلدنج قد تنبه الى عدم التناسق في تعريفه للرواية مما أدى به بعد ذلك الى تجنب اية محاولات لبناء نظرية في الرواية متكاملة . وقضت السنوات السبع التي فصلت بين جوزيف أندروز وتوم جونز على الدور الرائد الذي لعبه فيلدنج في النقد الروائي . ولا يعني هذا انه احجم كلية عن النقد . فتوم جونز تحوى من حيث الكم نقداً اكثر مما تحويه جوزيف أندروز ، ولكنه نقد متناثر يفتقر الى الوحدة . وحتى هذا النقد المتناثر في المقدمات يقل تدريجيا

طولا ومضمونا خلال الرواية . وان كان فيلدنج يشير من آن لآخر في **توم جونز** الى نظرية « الملحمة الهزلية المنشورة » ، الا انه من الواضح انه بدأ يفقد اهتمامه بالمسائل النظرية المجردة .

ان ميل فيلدنج الى الاحجام عن التحليل النقدي في **توم جونز** يشير الى اكتشافه ان النقد في انجلترا في عصره لم يسلك الطريق السليم ، وان الدور الذي لعبه النقد في سن القوانين وتطبيقها ما هو الا عبث ، لان القواعد التي اصر عليها النقاد النيوكلاسيكيون مستقاة من تراث ادبي غريب عنهم ولا تتناسب مع العصر . « والوحدات » التي ألح النقاد الكلاسيكيون على ضرورة اتباعها في المسرحية لم تكن في نظر فيلدنج الا اصطلاحا ضارا يردده النقاد دون تفكير . وقد عبر فيلدنج عن هذا الرأي ستة عشر عاما قبل ان يكشف صموئيل جونسون ، وهو من اعظم نقاد القرن الثامن عشر ، عن عقم هذا القانون في مقدماته لعمال شكسبير . كما انتقد فيلدنج رغبة نقاد عصره في تطبيق حرفية القوانين المستخرجة من روائع الادب الكلاسيكي دون الاهتمام بروح الادب نفسه . كل هذه احكام جريئة تدل على انها صادرة عن وعي نقدي صائب ، حتى ولو ان صاحبها قد فشل في التوصل الى اسلوب في النقد يحل محل النقد العشوائي السائد في عصره .

وعلى الرغم من فشل فيلدنج في بناء نظرية نقدية في الرواية فانه كان واعيا على الاقل ، باعتباره روائيا اصيلا ، باهمية هذا الشكل الجديد من الادب وما يستحقه من اهتمام وما يتطلبه من تثبيت اقدمه والاعتراف بمكانته ، ولعل محاولات فيلدنج النقدية التي كانت ترمى الى الارتقاء بالرواية الى المكانة الادبية اللائقة بها ، هي في حد ذاتها انجاز له قيمته في هذه المرحلة المبكرة من نشأة الرواية ، ونحن نطلب من اول روائي ناقد في انجلترا اكثر مما يستطيع اذا ما حملناه مسؤولية وضع نظرية متكاملة في تعريف ماهية الرواية .

وكان من الطبيعي اثناء نشأة الرواية ان يتلاحق اسئلة الروائي عن كيفية كتابة الرواية من الناحية العملية المحضة ، وهي اسئلة في الواقع لا بد وان يطرحها كل روائي في كل مرة يبدل في خلق رواية جديدة . فكما يقول تولستوى « ان كل فنان عظيم لا بد وان يخلق الشكل المناسب لعمله » . وكلما ازداد الابتكار والاصالة تكاثرت الاسئلة التي هي من صميم عمل الناقد .

وكان ستيرن من اهم التجريبيين في ادب الرواية ومن اعظمهم ابتكارا في رواية تريسترام شاندى (١٧٦٠ - ١٧٦٧) Tristram Shandy التي قلب فيها الزمن رأسا على عقب . وبدلا من ان يقدم بطله كما كان متنبعا في اولى صفحات الرواية فانه لم يسمح له بالظهور الا بعد انقضاء اكثر من نصف الرواية . ومن هنا تظهر احدى المشاكل الفنية الاساسية في كتابة الرواية ، وهي : من اين يبدأ الروائي وكيف يعالج موضوع الزمن وتتابع الاحداث ، ماذا يختار وماذا ينحى جانبا ؟ وقد عرض ستيرن لبعض مشاكل الروائي الفني في **تريسترام شاندى** ، متخذا من التأليف احد موضوعاته . ومن اهم الاسئلة التي شغلت باله السؤال : الى اى حد يعتبر الروائي قد حاد عن جوهر موضوعه عندما يستطرد في تصوير ابعاد الشخصيات المحيطة ببطله ليحسمهم للقارئ ؟

وهذا سؤال لا بد وأن يجيب عليه الروائي قبل أن يبدأ في الكتابة ، كما لا بد وأن يطرحه الناقد أيضا عندما يتناول الرواية ، وهو نابع من الوعي بالشكل الفني للرواية .

وسترين مثل فيلدنج لم يصل الى اجوبة واضحة في النقد الروائي . والاجوبة في هذه المرحلة من نشأة الرواية ليست في نفس مستوى اهمية الاسئلة ذاتها . فالذي يهم هو صحة الاسئلة وتنوعها واتساع الرقعة انى تغطيها في مجال الادب الروائي . ويتضح من الاسلوب الذي اتبعه هذان الروائيان في ادماج تعليقاتهما النقدية في كتاباتهما الابداعية ، انهما لم يشعر بالحرص في الجمع بين دور الكاتب الخلاق والناقد في آن واحد . فلا تناقض بين الابداع والنقد ، بل هما بالنسبة الى الروائي متكاملان .

وتتبع **جين اوستن** نفس الاسلوب في الجمع بين الابداع والنقد في بعض رواياتها ، الا انها تصر آراءها كناقدة في موضوع الرواية وتصوير شخصياتها وتطوير حركتها ، بدلا من ان تعرضها ، كما فعل فيلدنج ، في المقدمات . ويبدو هذا في رواية **نورث أنجر آبي** (١٨١٨) **Northanger Abbey** التي تكشف عن قدرة **جين اوستن** على تقييم الرواية المعاصرة لها من خلال « المحاكاة التهكمية » . وقد كتبت **نورث أنجر آبي** في قالب ساخر يحاكي اسلوب «الرواية العاطفية » « رواية الرب » بهدف نقد هذين النوعين من الروايات التي انحدرت بالمستوى الادبي والفني للرواية بشكل ملحوظ . وجاءت هذه الروايات مجرد تكرار لا ابتكار فيه لما سبق ان كتب في مواضعها . فكانت شخص الرواية من بطل وشرير صورة طبق الاصل لبطلات وبطلان وشرار مثيلاتها من الروايات ، وهذا صحيح أيضا بالنسبة للمواقف والاحداث والحركة والحوار الى غير ذلك من عناصر الرواية .

ويبدو دور **جين اوستن** كناقدة روائية عند افتتاح الرواية وتصوير البطلة كاترين مور كنقيض للبطلة المتفق عليها في الروايات الشعبية . فهي كما تقول الروائية ليست بطلة مثالية ، وليست من اسرة عريقة ، ولا تنصف في طفولتها بالجمال والنباهة والحس المرفه والنبوغ في الموسيقى والتصوير ، الى آخر تلك الصفات المبالغ فيها . وانما هي طفلة عادية ، وتصبح عندما تنمو فتاة عادية ايضا . وتتضح سخرية **جين اوستن** اللاذعة في موقف كاترين الفتاة البسيطة الميالة الى تصديق كل ما تقرأ من « روايات عاطفية » و « روايات الرب » التي تعطي البطلة صورة كاذبة عن الحياة . وتضع **جين اوستن** بطلتها في عدة مواقف تطابق المواقف المعروفة في « روايات الرب » ، فتصور كاترين ان الحياة انعكاس لمجموعة التجارب المثيرة التي تمر بها بطلات « روايات الرب » التي استحوذت على تفكيرها وخيالها . الا ان مواقف كاترين تنتهي دائما بخيبة املها ، واكتشافها للاخطاء التي وقعت فيها نتيجة لانها رأت الحياة من خلال قراءتها لتلك الروايات الرديئة المثيرة . والدرس الذي تتلمذه البطلة في نهاية **نورث أنجر آبي** هو ان الحياة لا هي « رواية عاطفية » ولا هي « رواية رعب » وان كانت لا تخلو في الواقع من العاطفية والرعب .

من الواضح أن نقد جين أوستن للرواية الشعبية المعاصرة لها يدور حول الهوة الشاسعة التي تفصل بين الواقع وتصوير الرواية له . وبسخرتها من الأثر الذي يتركه هذا الفصل بين الواقع والخيال المثير المبالغ فيه تنقد الكاتبة الرواية التي لا تنتمي إلى الواقع في شيء ، والتي تصور الحياة بجمود وتصنع . وتشير جين أوستن إلى الاحتقار السائد للرواية وخجل قرائها من الاعتراف بأدماهم لها ، مما يؤكد مستوى الرواية الهابط وشعبيتها في نفس الوقت . وفي الفقرة التالية تنكر القارئة هوائتها ، بينما تعلق جين أوستن على الموقف .

« أنا لست من قراء الرواية ، فقلما تصفحها . لا تظن أنني أقرأها كثيراً » . هذه هي التعليقات التي يكثر ترديدها . « وماذا تقرأين أيتها الأنسة ؟ » فيكون جواب الأنسة « أنها ليست (الرواية) بينما تطرح كتابها أمامها بلا مبالاة مصطنعة ، أو في خجل مؤلمت (٩) .

والامر الذي يهم جين أوستن هو ألا يتعدى هذا الاحتقار إلى الرواية عامة التي تستحق التقدير . وفي دفاعها المباشر عن الرواية كما صرفتها وكتبتها تبدو امكانيات الرواية في احسن صورها . ويلاحظ أن هذا الدفاع مكتوب على لسان الكاتبة نفسها موجهة قولها إلى القارئ ، وهذا أسلوب قلما تستخدمه جين أوستن في رواياتها ، مما يوضح الأهمية التي تعلقها على تلخيصها لمهمة الرواية الأدبية كما فهمتها . وتستمر الكاتبة في تعليقها الساخر على لا مبالاة القارئة التي هي في الواقع تقرأ ، كما تقول الكاتبة : « جود ما انتجته ذهن انسان :

انها (أي الرواية التي تقرأها الأنسة) ليست الأسبيليلا أو كاميللا أو بليندا ، أو بالآخرى ، أنها ليست إلا عملاً من الأعمال التي تكشف عن أعظم قدرات العقل الإنساني ، التي تنقل إلى العالم في احسن أسلوب مختار معرفة وثيقة بالطبيعة البشرية ، ومعالها المختلفة ، وفكرها المتقد ، وحضورها الذهني ، وروح الفكاهة التي تتصف بها (١٠) .

ويبدو من هذه الفقرة أن جين أوستن إنما تصف كتاباتها هي ، كما تصف الأدب الروائي في أرقى مستواه . وهي تحاول في هذا التعريف أن تضع أسساً ومقاييساً عامة للرواية .

وترى جين أوستن نتيجة للاحتقار السائد للرواية ضرورة وقوف الروائيين من أمثالها صفا واحداً ضد النقاد المحترفين ، الذين يحطون في تقديم الروائي المنشور في الدوريات من شأن الرواية ، فتقول :

فلندع الملقين النقاد يذفون الرواية ذات الخيال المنطلق بأقصد الأوصاف كما يحلو لهم ، ويتحدثون عن كل رواية جديدة بأسلوبهم الواهن ، مشيرين إلى العيب الذي ثمن من تحته دور النشر . علينا ألا يتغلب علينا عن بعض . أننا نحن مشر الروائيين هيئة مغبونة . فعلى الرغم من أن إنتاجنا قد وفر للقراء ترفيحاً لا حد له ، ولا يمكن لأي هيئة أدبية أخرى في العالم أن تصاهيها ، فليس هناك شكل أدبي آخر قبول بمثل الهجوم الذي قوبلت به الرواية (١١) .

(٩) نورت انجر ابي ، الفصل الخامس

(١٠) الرجوع والفصل السابقان .

(١١) الرجوع والفصل السابقان .

في كل ما سبق أن جاء في نقد الرواية على لسان فيلدنج وسترون وجين أوستن على ضالته وتحسسه في الظلام ، نجد محاولة الروائي توضيح ماهية الرواية ومهمتها ، مما يعينه عمليا في كتاباته الخلاقة ، كما يكتشف هذا النقاد رغبة الروائي في الارتفاع بالرواية الأدبية والرفع من شأنها .

وقد مهدت هذه الخطوات الأولى في نقد الرواية الطريق لأديب روائي آخر هو سير والتر سكوت ، الذي اشتهر في القرن التاسع عشر برواياته التاريخية ، فظهر مقاله « أما رواية » " Emma, a Novel " كمثل جيد للنقد الموضوعي . ويستحق هذا المقال مناهة خاصة لأنه مثل مبكر لتقييم حاد للرواية سواء أكانت مجرد التسلية أو أنها تتضمن هدفا أخلاقيا واجتماعيا . وإلى جانب هذا فالمقال من أجود ما جاء في نقد أدب جين أوستن وفي التعرف على الأهمية الأدبية لرواياتها في أيامها الأولى . وملكة النقد الموضوعي مند والتر سكوت تتضح على وجه التحديد في قدرته على تقييم عمل كاتبة مثل جين أوستن يختلف اختلافا تاما من انتاجه التاريخي .

ويشير سكوت في مقاله الى نوع الروايات الهزيلة التي اكتسحت السوق في أيامه ، وإلى موقف القارئ منها ، الذي سبق أن اشارت اليه جين أوستن في نورث أنجر آبي - أي رفض القارئ الاعتراف صراحة بقراءاته على الرغم من استمتاعه بها . وسكوت لا يحكم بقسوة تامة على هذا النوع من أدب الهروب الذي يساعد ، كما يعترف ، على التخفيف من كثير من آلام البشر مثل « الملل والقلق والالام وحتى الفقر » ، كما يخفف من وطأة حياة « المسنين والعزباء المهجورين والوحيديين » . ونظرة سكوت التسامحة الى رواية الهروب جعلته يشعر بالتزام أكثر نحو توضيح قيمة رواية في مثل مستوى أها الأدبي ، فيقول :

ان واجب الناقد يصبح مضاعفا حيال اعمال ... تكشف عن معرفة عميقة بقلب الإنسان ، وتعبير عنها بقوة وجرأة تهدف الى وضع هذه المعرفة في خدمة الفسيلة والشرف (١٢) .

واهم ما في نقد سكوت في مقاله هو التفرقة التي سبق أن اشارت اليها جين أوستن في نورث أنجر آبي بين روايات معاصريها ورواياتها هي التي تتطلب « اهتماما يفوق بكثير ذلك الاهتمام الذي يتطلبه انتاج معاصريها الزائل الذي يفلى مكتبات الاعارة ومشتريها من النساء » . فاعمال جين أوستن ، كما يقول سكوت :

تتنمي الى مستوى من أدب الرواية لم يكد يظهر الا في عصرنا الحالي ، وتصور الشغوص والاحداث المستقلة على نحو أكثر مباشرة من حياتنا العادية اليومية . وهو أمر لم تسمح به القواعد السابقة للرواية (١٣) .

Emma ; a Novel, Quarterly Review, October 1815

(١٢)

(١٣) المقال السابق

ان حكم سكوت الصائب كروائي ناقد جمع بين الرومانسية والواقعية في رواياته التاريخية مكنه من تقدير مشكلة الروائي في عصره الذي تحرر من قيود المواضيع الرومانسية البعيدة عن الواقع دون ان يتحرر من التقاليد الرومانسية في اسلوب الكتابة . ويقول سكوت بهذا الصدد :

ان الرواية الحديثة في ظاهرها هي الطفل الشرعي للرواية الرومانسية ، وعلى الرغم من ان شكلها العام قد تغير ليناسب العصر الحديث ، الا ان المؤلف استمر مقيد بكثير من العالم الخاصة بالرواية الرومانسية التي ظهرت منذ نشأتها (١٤) .

من الواضح ان سكوت يشير هنا الى المعالجة الفنية التي لا تتماشى مع موضوع الرواية العصرية ، ويبدو هذا ايضا عندما يقول : « ويمكن متابعة (هذا الاسلوب) في تناول احداث الرواية وتطورها ، وفي المناخ العاطفي المحيط بالشخص الروائي (١٥) » .

وان كان اسهام جين اوستن في تطور الرواية الحديثة يتلخص في التحرر من المواقف والشخص والاحداث التقليدية كما جاءت في الرواية الرومانسية ، فان اسهام سكوت في نقدة يرجع الى تعرفه على ما انجزته جين اوستن في كل من الموضوع والشكل الفني اللذين لا يفصل بينهما . ويقول في هذا :

اننا لا نعلم ثناء فصيلا على مؤلفة ما عندما نقول انها تلزم القرب من الاحداث العادية والاشخاص العاديين . ومع ذلك فقد انتجت صورا مبتكرة ذات حيوية الى درجة اننا لنشعر انها تفتقر الى الالفة التي تعتمد على سرد احداث غير عادية ... ان احداث رواياتها مبنية على وقائع عادية لا تختلف عما تقع تحت عين غالبية الناس . وتتصرف شخصياتها نتيجة لدوافع وعلى اساس مبادئ يسهل على القارئ ان يتعرف عليها ، لانها نفس الدوافع والمبادئ التي تحكمهم وتحكم غالبية اصنافهم (١٦) .

وعلى الرغم من جميع هذه المحاولات النقدية التي ترمي الى النهوض بالرواية الادبية فانها لم تكن ذات اثر فعال . لقد بنيت على مناقشات جادة لبعض نواحي الادب الروائي مما يدل على وعي الروائيين الرواد بمشاكلهم الفنية والشكلية، ولكن نقدهم لم يفصح عنها باستفاضة ، ولا على نحو منظم يمكن ان نستخلص منه مجموعة من الاسس النقدية المتكاملة . والى جانب هذا فان دفاع الروائي عن ادبه وما يستحقه من احترام لم يأت بالنتيجة المرجوة .

استمر الهجوم على الرواية حتى الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر على اساس ان هدفها الاوحد هو التسلية ، وان قراءة الروايات ليس الا نوعا من الالمان والانغماس في اللذة . وليس في هذا ما يثير الدهشة ، لان الفكتوريين عرفوا بالتطهيرة والتزمت اللذين دفعا بكثير من الاياد الى حرمان اولادهم من تلك « التسلية الخطرة » ، كما سموها قراءة الروايات . ومنهم غير ذلك من الشروط العشوائية . وقد شبهت عادة قراءة الروايات نهارا بشرب الخمر في الصباح،

(١٤) مقال السابق

(١٥) مقال السابق

(١٦) مقال السابق

من كان اقل صرامة فوضعوا قواعد لقراءة الرواية تبدو لنا اليوم مضحكة في شروطها . فحرم بعضهم قراءة الروايات صباحا او ايام الاحد ، وسمح بعضهم قراءة والتر سكوت وجرم دوماس الى كما شبهت العادة عامة بالاقبال المفرط على الحلوى الذي كانت لها شروطها ايضا في البيت الفكتوري . وقد استخدم كثير من الروائيين انفسهم هذين التشبيهين ، 'نقال **ترولوب** (١٨١٥ - ١٨٨٢) Trollope : « ان الناس تقرأ الروايات كما يأكل الرجال الفطائر بعد العشاء والشعور يداخلهم بأن المذاق في كلتا الحالتين زائل ان لم يكن ضارا » . و اشار لكري الى نفس المعنى عندما قال : « آه - تلك الروايات البديعة . كم اذكرها جيدا . انها حلوة ولذيذة مثل فطائر الفاكهة التي عرفت في صباي » . ومن عشاق الرواية في عهد فكتوريا هنري كراب روبنسون Henry Crabbe Robinson الذي لم ينقطع عنها طوال سبعين عاما . وقد عبر عن ادمانه في مذكراته بقوله :

« ان الرواية بالنسبة لي مثل الخمر بالنسبة للآخرين » . ويقال انه كان يقرأ الروايات دون تمييز بين الجيد منها والردىء . وهذه هي علامة المدمن الحقيقي . وقد واصل القراءة حتى سن التسعين ، عندما اشار في مذكراته الى قراءته لرواية *Vanity Fair* (ولم تكن للمرة الاولى) وهو مستلق في الفراش ممسكا بشمعة لتنير له الصفحات .

كان من الصعب اذا القضاء على النظرة الترفيفية المجردة للرواية التي اشترك فيها الروائيون انفسهم في بعض الاحيان ، وهي احدى الاسباب التي يرجع اليها تأخر تطور النقد الروائي . ومع ذلك فلاستمتاع بقراءة الروايات الذي وصل الى حد الادمان في كثير من الحالات ، وان كان عائقا في سبيل ظهور النقد الروائي ، يمثل في الواقع نقطة الارتكاز في هذا النقد . فالروائي ، كما قال **ترولوب** ، « غير مسموح له بان يبعث الملل . ان كاتب القصص لا بد ان يدخل السرور على قرائه . والا فهو لا شيء » (١٧) وسأنده في هذا الراي هنري جيمز الروائي والناقد الشهير ، وهو من اكثر كتاب الرواية وميا بشكلها الفني ، عندما قال : « ان الشرط الوحيد المسبق الذي ينبغي على الرواية ان تتقيد به هو اثارة اهتمام القارئ » (١٨) . وعندما يوضع ذلك الاهتمام تحت الدراسة الموضوعية في محاولة لتفسير ما الذي ادى في الرواية الى اثارة ذلك الاهتمام ، يولد النقد . ما الذي يدفع بالقارئ الى قراءة الرواية الواحدة عدة مرات بعد ان كشف من تطور احداث الرواية والعلاقات بين شخصياتها ومصيرهم من زواج ووفاة الى غير ذلك ؟ ان مهمة النقد هي الاجابة على هذا السؤال .

ولكن قبل ان يتجه النقد الروائي الى هذه الدراسة الموضوعية التي تركز على تحليل وتقييم لشكل الرواية واسلوبها ، اتبع طريقا آخر تناول من خلاله الرواية من حيث اخلاقياتها ودورها

Autobiography, ch. XII.

(١٧)

The Art of Fiction (1884)

(١٨)

الفعال في المجتمع . وهذا اتجاه لا غرابة فيه متى تذكرنا تطهيرية الفكتوريين وقلقهم العميق من أي اثر ضار قد يلحق بمجتمعهم . وقد بلغ هذا القلق ذروته خلال الستينات واستمر حتى الثمانينات . ففي عام ١٨٦٦ ظهرت في دورية London Quarterly Review ، التي اشتهرت بمبولها المتطهرة ، حملة ضد ما اعتبرتها روايات مثيرة كتبها تشارلز ريد (١٨١٤ - ١٨٨٤) وولكي كولينز (١٨٢٤ - ١٨٨٩) Wilkie Collins ، ومسز هنري وود Mrs. Henry Wood ووصفتها بأنها نوع من « السم الخفي » الذي سيؤدي الى انهيار المجتمع . ويتضح من الاسلوب الذي اتبع في هذه الحملة التي لم يكن لها أي اساس من الصحة ، هبوط مستوى النقد الروائي والا منطقية التي بنى عليها . فكان النقاد يقفزون من اعتراضهم على لا اخلاقية رواية بالذات الى الحكم الشامل على طبيعة الرواية عامة وتأثيرها الفاسد على المجتمع .

وقد طبق كثير من النقاد المحترفين مقياس الفائدة الاخلاقية للرواية على نحو اكثر تفاؤلا . فاشاد بعضهم برقى مستوى الروائيين الاخلاقي وطهارة تعاليمهم الاخلاقية . وبذلك اصبحت الرواية في نظرهم اداة للتعليم ووسيلة لتصحيح الاوضاع الاجتماعية الفاسدة المعبية ، ولنشر الفضيلة . وتنعكس هذه النظرة المنفعية الى الرواية في السبعينات في الجدل الذي نشأ حول الرواية . وسرد المدافعون عنها امثلة تثبت ان الرواية تعمق من تجربة القارئ ، وتعمل على احياء المثل الغاضلة ، « وتوقظ قليلا من البطولة » وتعلم الفتيات « الايثار والطيبة والرقه » (١٩) . ولا تمتنع ، نفس الدورية ، من مهاجمة والترسكوت لفشله ، كما تقول ، في تطوير الفائدة الاخلاقية التي رافعت الرواية الى مصاف الادب المحترم منذ ان كتب رواياته . وتعود مرة ثانية الى وصف رواياته بأنها روايات تسلية لا اكثر ولا اقل ، متسائلة كيف يتأتى لثل هذا الكاتب بما له من نبوغ وقوة وامكانيات ان يسقط من حسابه اهدافا عظيمة تتفتى مع ما حياه الله به ، وتنتهي بالسؤال : « اليس هناك قضية واحدة حية تستحق الدفاع ؟ » (٢٠)

وبذلك كانت معاناة الرواية ، في نهاية المطاف ، من اصدقائها الاخلاقيين المنفعيين لا تقل عن معاناتها من اعدائها الاخلاقيين المتطهرين . ففي كلتا الحالتين لم يثمر موقفهما عن الاعتراف بالرواية كشكل ادبي له كيانه واستقلاله الذاتي .

ومع ذلك فقد تقدم النقد الروائي على ايديهما نتيجة لا تفاهما على تقييم الرواية على اساس تأثيرها المنفرد على خيال القارئ ومشاعره . وفي مقال نشر عام ١٨٦٦ في Saturday Review اشار الكاتب الى هذا التأثير غير المباشر الذي اعتبره اعظم ما تنصف به الرواية فيما يتعلق بفائدتها العملية ، ويرجع الى الصلة الوثيقة بين « خيال الانسان المسرحي »

“The Uses of Fiction”, Tinsley's Magazine (1870), vi.

(١٩)

The Scott Centenary' المبد التاسع (١٨٧١ - ١٨٧٢)

(٢٠) نفس المرجع ،

ومجمل طبيعته الاخلاقية . ويعطي هذا النوع غير المباشر من الفائدة العملية لكل من الروائي والناقد النظري مجالا اوسع للعمل مما يعطيه النوع الآخر من الفائدة العملية المباشرة . وهذا النوع السابق هو الذي اعتمدت عليه جورج اليوت في تبرير اهمية عمل الروائي وجديته . وجاء فيما قالته :

ان اعظم فائدة ندين بها للفنان ، سواء اكان رساما ام شاعرا ام روائيا هو تأثيره على اتساع دائرة مشاعرنا وتعاطفنا ... ان الفن هو اقرب شيء للحياة ، وهو وسيلة لتوسيع حلقة تجاربنا ، ولد صلاتنا ببني البشر خارج حدود حياتنا الشخصية (٢١) .

ويتبين من هذه الفقرة ان جورج اليوت ، مثل جميع الفكتوريين العظام ، كانت تنظر الى دورها كمعلم او مؤثر على فكر الناس ومشاعرهم نظرة جادة ، كما تؤمن بمسؤولية الكاتب الكبيرة وفداسة عمله .

وقد ادى الاعتراف باهمية الدور الذي يلعبه الروائي في حياة الانسان والمجتمع الى تأكيد جديد في النقد الروائي لاعلى اثر الرواية في السمو بالاخلاق ، ولكن على النواحي الفكرية والابداعية في الرواية . وفي مقال ظهر في *British Quarterly* عام ١٨٦٧ ارتفع الكاتب بالقياس الفنية التي تتطلبها الرواية ، واضفى ثناء على الرواية لشمولها واحتوائها على الادوار المتعددة التي تؤديها كل من الملحمة والمسرحية والشعر الغنائي . ويتناول الكاتب « ما الذي لا يستطيع الروائي عمله ؟ » . ان اسمى الحقائق في نظره - وهنا يميز وبين مجرد الدرس الاخلاقي والموعظة - يمكن التوصل اليها عن طريق الرواية ، وخاصة اذا كانت جورج اليوت هي كاتبة الرواية التي يقارن الكاتب بينها وبين جوته *Goethe* من حيث نظرتها الجديدة وسمو مبادئها .

وتختلف جورج اليوت عن كثير من معاصريها في مفهومها للنظرية الاخلاقية للرواية ، فهي تعتمد في تأثيرها على القارئ لا على الموعظة المباشرة (وان كانت رواياتها تحوي كثيرا من هذه المواقف) ولكن على التأثير الخفي لا سلوكها في الكتابة الذي تخاطب به مشاعر القارئ وعقله وحواسه كاتسان متكامل لا يمكن الفصل بين عناصر انسانيته المتعددة . وتقول جورج اليوت في هذا الصدد مؤكدة العامل الجمالي في رواياتها لا العامل المذهبي المباشر :

ان مهنتي هي مهمة المعلم الجمالي لا المعلم المذهبي . وهي تهدف الى احياء اقبال الشاعر التي تدفع بالانسان الى الرغبة في العدل الاجتماعي ، ولا تهدف الى وصف الخطوات العملية اللازمة المهددة التي قلما يستطيع عقل الفنان الحكم عليها مهما حركه تعاطفه الاجتماعي (٢٢) .

اصبحت القضية هنا قضية فنية جمالية ، وليست قضية تلقينية هادفة مباشرة ، كما اصبح الشكل الجمالي او الفني اساسا في تصوير الرؤية الاخلاقية الشاملة . اي ان الشكل الفني في سبيله الى الارتقاء الى نفس مستوى اهمية الموضوع ، او على الوجه الاصح اهمية الرؤية .

"The Natural History of German life", Westminster Review, (1856), X

(٢١)

Letter, edit G. S. Haight, 1954-5, vii p. 44

(٢٢)

وهنا اعتراف صريح بالدور الفنى والشكلى للرواية الذى لم يتنبه اليه النقاد في غمرة دفاعهم عن اخلاقيات الرواية المتعلقة بالموضوع .

ولعل جورج اليوت في الرواية هو من اجود واقدر ما كتب في هذا المجال في العصر الفكتورى . ونظريتها - ان صح تسمية تعليقاتها المتفرقة بنظرية - مبنية على الاسلوب الواقعى الذى نادت به ، ودافعت عنه ، وطبقته عمليا منذ اول رواية نشرت لها . وقد اتخذت الالتصاق بالواقع القيد الوحيد للرواية ، وهاجمت في نقدها ، مستندة الى هذا المبدأ البسيط الروايات التى حادت عنه . فالمبالغة والتقاليد الادبية البالية ، وكل ما يمكن وصفه بالتصنع الادبى لاقى منها نقدا لاذعا . وقد نشرت تعليقاتها ومقالاتها في دوريتى ليذر Leader ووستمنستر Westminster في خمسينات القرن الماضى . واهم ما كتبه في هذا الصدد مقالان بعنوان : « التاريخ الطبيعى للحياة الالمانية » "The Natural History of German Life" « روايات تافهة لنساء روائيات » "Silly Novels by Lady Novelists" وفي الفصل السابع عشر لرواية آدم بيد (١٨٥٩) Adam Bede شرحت نظريتها الواقعية موضحة البساطة والقوة اللتين بنت عليهما رأيا في تصوير الحياة ، وقالت :

وبذلك فاننا راضية ان احكى قصتي البسيطة دون ان احاول تصوير الاشياء على نحو افضل مما هي عليه فى الواقع . انا لا اخشى شيئا بالتاكيد الا عدم توخى الصدق ، فهذا رغم اقصى ما نبذله من جهد شيء يخشى منه . ان البعد عن الحقيقة سهل والصدق صعب . وفي صفة الصدق الرفيعة النادرة هذه ، التى تتصف بها صورى الواقعية ، واتى يحترها اصحاب النفوس المتعالية ، في هذه الصفة اجد متعة كبيرة .

ان الاحترام ، بل والتقدير ، اللذين تتميز بهما جورج اليوت في نظرتها الى انتاجها الروائى ساعدا في الجزء الاخير من القرن التاسع عشر على قيام حركة في مجالى الرواية والنقد الروائى اساسها الجدية والفكر والعقلانية . واصبح روائيون من امثال جورج ميريدث (١٨٢٨ - ١٩٠٩) George Meredith وجورج مور (١٨٥٢ - ١٩٣٣) George Moore وجورج جيسنج (١٨٥٧ - ١٩٠٣) George Gissing وتوماس هاردى (١٨٤٠ - ١٩٢٨) Thomas Hardy تقطعة التقاء عاصف وجدال مستمر حول الرواية الادبية ، وما يجب ان تكون عليه . فكان رأى ميريدث انها يجب ان تتضمن « فلسفة » و « فكريا » و « فكرة » بدلا من ان تكون قالبا لاخلاقيات الطبقة المتوسطة ووسيلة لقتل الوقت . واتخذ جورج مور نفس الموقف مهاجما معاصريه عندما قال غاضبا : « ان اهتمامى لا يتجه نحو اولئك الذين ينظرون الى الادب وكأنه نوع آخر من رياضة ركوب الدراجات » (٢٣) . واصبح « الضمير الفنى » المصطلح الذى تعارف عليه الروائيون النقاد في حربهم لرفع المستوى الفنى للرواية ووضعه في المرتبة الاولى قبل اى اعتبار آخر . وكان يخشى عليه ، كما حدث في العصور السابقة ، من انتشار الرواية الرخيصة الشعبية واكتساحها السوق في اعقاب قوانين التعليم الجديدة التى استوعبت عددا كبيرا من المواطنين ، تعلموا القراءة والكتابة دون ان يحصلوا على اية ثقافة .

وكان جورج جيسنج من الروائيين النقاد الذين بهروا بانجازات الروائيين الفرنسيين والروسين ، الذين اتصفوا بآمالهم بذلك « الضمير الفني » الحى الذى وضع الادب فوق اى اعتبار مادى ، مالا كان ام شهرة . وقارن جيسنج بين الرواية الفرنسية والروسية من ناحية وبين الرواية الانجليزية من ناحية اخرى ، فقال :

ان الروايات الانجليزية مادة بائسة بسبب بائس جدا ، وهو ان الروائيين الانجليز يخشون من انجاز احسن ما في مقدورهم لخوفهم من يفر ذلك بشعبيتهم ، ومن ثم بدخلهم... فليكن الروائيون صادقين مع ضمائرهم الفنية وسيستجيبهم اللوق الجماهيرى فيما بعد (٢٤) .

ساعد موقف الروائيين النقاد من الرواية في الربع الاخر القرن التاسع عشر على الانتباه الى الشكل الروائى ومناقشة جمالياته . وكانت هذه آخر مرحلة من مراحل تطور النقد الروائى في القرن الماضى واصعبها ، كما يبدو من تخطيط النقاد وترددهم ، وعدم توصيلهم الى ابسط المبادئ التى يمكن الاستناد اليها .

فانكرت فيرنون لى Vernon Lee الروائية التى عكفت على دراسة البناء الروائى ، جماليات الرواية . ان الرواية في نظرها ، متى قورنت بفن التصوير او الموسيقى ، ليست الا نصف فن . فهى تفتقر الى الوسيلة التى يمكن بواسطتها ان تحول موضوعها ذا الاهتمامات الانسانية الاخلاقية الى تلك الانطباعات الحسية التى منها يتألف كل ما هو جميل . ان جاذبية الرواية في نظرها غير جمالية ، بل تستند الى ميلنا المنطقي نحو النقاش والجدل واكتساب معرفة بالحياة ، والاثارة العاطفية ، والشعور بالرضا الذى تدخله علينا نماذج مركبة من الكلمات . وهذا العنصر الاخير هو الوحيد الذى يمكن اطلاق مصطلح « الشكل » عليه وهو عنصر ، كما تدعى فيرنون لى ، تستطيع الرواية الاستغناء عنه (٢٥) .

وظهرت نفس السلبية فيما قاله جورج بارنيت سميث George Barnett Smith عام ١٨٧٤ عن بناء الرواية . فبعد ان الثنى ثناء عظيما على فيلدنج واعماله الروائية ، قال :

لن تحظى الرواية ابدا بمكانة توازى في اهميتها مكانة المسرحية بسبب العيوب في بنائها (٢٦) .

ووقع سميث ، كما وقع كثير من معاصريه ، في نفس الخطأ الناجم عن الاعتقاد بانه يمكن الحكم على بناء الرواية المتفكك بالاستناد الى مقاييس تنتمى الى شكل ادبى آخر مثل المسرحية ، لا الى مقاييس تناسب اهداف الرواية .

(٢٤) "The New consorship of literature", letter to the Pall Mall Gazette, XI, (December 1884)

(٢٥) "The Aesthetics of the Novel", Literature, (1899), V 98-100.

(٢٦) "Our First Great Novelist" Macmillan's Magazine, xxx (1874), 1.

وعلى العكس من ذلك اعتبر آخرون مرونة الرواية واحدة من مزاياها الجمالية . فقال احد المعلقين على الرواية :

ان الرواية من بين جميع الاشكال الادبية هي الشكل الوحيد الذى يستطيع ان يعبر بسهولة مطلقة عن كل عاطلة يمكن تصويرها (٢٧) .

غير انه صاد ثانية واعترف بمخاطر هذه المرونة فى البناء الروائي .

والمهم فى كل هذا ، سواء اجاءت التعليقات النقدية على الشكل الروائي ايجابية ام سلبية ، هو بدء ظهور الوعى بالناحية الجمالية للرواية ومناقشتها . وقد صاحب هذا الاتجاه الجديد فى اواخر القرن التاسع عشر ازدياد الوعى الفنى عند الروائيين انفسهم الذين وقعوا تحت تأثير فلووير (١٨٢١ - ١٨٨٠) Flaubert الروائى الفرنسى الذى ساعد اهتمامه بالشكل الفنى للرواية على تطوير الرواية الحديثة ، كما ساعد على النهوض بالرواية عامة لما ابداه من جدية فى معالجته اياها .

ونتيجة لهذا ، اخذ النقاد الروائيون بالذات فى اواخر القرن ، يعبرون عن حماسهم المتزايد للرواية وعن ثقتهم فيها ، متخذين من الرواية الفرنسية مثلاً يحتذى لرفعة الفن . فى احدى المقالات الهامة التى ظهرت عام ١٨٨٤ بعنوان « فن الرواية » « The Art of Fiction » اكد والتر بينزانت (١٨٣٦ - ١٩٠١) Walter Besant الروائى الانجليزى ، ان الرواية قرين تام لاشكال الفنون الاخرى ، محكمة مثلها بقوانين دقيقة يمكن ان تلقن كما تلقن قوانين الهارمونى فى الموسيقى . وعندما نصل الى عام ١٨٩٠ نجد ان النقاش والجدال قد ازداد حول اهداف الرواية واساليبها ومبادئها ، حتى اصبحت ظاهرة من ظواهر الدوائر الادبية . وانصب هذا الجدل حول جانبى الشكل والموضوع ، وكان لكل منهما انصاره . فاصبحت الرواية محور اهتمام عدد من النقاد اعتبروها الان شكلاً ادبياً يستحق الدراسة .



كان الوقت قد حان لظهور ناقد يستطيع ان يجمع الخيوط المفككة فى شكل مترابط . وآلت هذه المهمة الى الروائي هنرى جيمز الامريكى الاصل الذى عاش معظم حياته الادبية فى انجلترا وتجنس بالجنسية البريطانية . وقد ارتفع جيمز الى مصاف الروائيين العظام كما اصبحت رائد النقد الروائي فى العصر الحديث .

كانت الثورة فى النقد الروائي التى قامت على اكتاف جيمز مفاجئة وساحقة وكاملة . ففي عام ١٨٨٤ جاء على لسان جيمز ، وهو ما زال فى منتصف العمر ، ان الرواية الانجليزية ليست

"Novels & Novelists", Saturday Review, xxxiii (1872), 722-3.

موضوعا « لدراسة » (٢٨) ، وعبر عن اسفه العميق لافتقارها الى النقد لاهميته في تطور الادب . وبعد عشرين عاما ، كان جيمز قد درس الرواية وحلها بدقة لم يسبق لها مثيل في مقدماته الثماني عشرة التي كتبها لطبعة نيويورك « لرواياته وقصصه » (١٩٠٧ - ١٩٠٩) . ولعلنا لا نخطيء اذا ما قلنا انه ليس هناك في تاريخ النقد ثورة في مثل شمول الثورة التي ادت الى مقدمات جيمز . وينفرد النقد الروائي في هذه الظاهرة المفاجئة ، يعكس النقد الشعري الذي نما وتطور في انجلترا ببطء وصعوبة طوال ثلاثة قرون منذ ايام الشاعر درايدن . واذا ما استثنينا المحاولات الراهنة المتفرقة التي سبق ان ذكرناها ، فاننا لن نكون مخطئين كل الخطأ اذا قلنا ان النقد الروائي في اواخر القرن التاسع عشر في انجلترا ولد من لا شيء . وايا كانت الاهمية التي نضيفها على نقد جورج اليوت وزميلها جورج هنري لويس George Henry Lewes فمن الواضح لنا اليوم كما كان واضحا لجيمز انها كتبت دون استناد الى مبادئ فنية موثوق بها ، بدون التاكيد من ان الجمهور القارئ يتمتع بنفس الثقة في الرواية . اما في حالة جيمز ، ففي استطاعتنا ان نقول انه لأول مرة منذ ايام فيلدنج ، الرائد الاول في النقد الروائي ، يتحدث روائي عن فنه بمعرفة وثيقة ، كما يكتب عن اعمال غيره من الروائيين بنفس الاسلوب الواثق .

ان نشر مذكرات Note books جيمز عن رواياته عام ١٩٤٧ اثبت بما لا يدع مجالا للشك ان جيمز كان فنانا ذا وعي عميق استطاع ان يعبر عنه منذ البداية . فمن سن الخامسة والثلاثين حتى وفاته لم يتوقف عن شرح الاسباب والظروف التي دعت الى اختيار موضوعات بالذات ، موضحا في مذكراته نواة رواياته ، والخطوات التي مرت بها ، وكيفية تطورها . ان كل رواية من روايات جيمز وكل قصة من قصصه ظهرت الى الوجود بارادة واعية افصح عنها الكاتب باسهاب لا يكاد يكون له نظير في تاريخ الرواية . في هذه المذكرات اذا ، التي بدأ جيمز يكتبها عام ١٨٧٨ ولد النقد الروائي كما نعرفه اليوم . اما مقدمات رواياته الثماني عشرة التي كتبها في نهاية حياته الادبية فهي فتوح لجيمز انجازاته . ويجب ان نشير هنا الى ان الاعتقاد السائد بان النقد كثيرا ما ينشأ نتيجة لفشل الكاتب في اعماله الخلاق لا ينطبق اطلاقا على جيمز ، حيث نجد التوؤم التام بين النقد والخلق . ويلاحظ ايضا ان جيمز لم يكتب معتبرا او مدافعا عن بعض او كل ما جاء في عماله . ان مجموع نقده يتصف بطابع الثقة المتواضعة ، كما يتصف باحترام الكاتب العميق لذلك الغموض الذي لا بد ان يكتنف كل عمل ادبي خلاق .

واذا ما تركنا مذكرات جيمز جانبا لاختلافها العام عن بقية نقده من حيث هي توضح وتفسر لعملية الابداع عنده ، فان نقده يقع في ثلاث مراحل يتناول الناقد عبرها كتابا معاصرين له وفالبيتهم من الروائيين الانجليز والفرنسيين والامريكيين . وتفطى المرحلة الاولى مقالته المنشورة ابتداء من سن الواحدة والعشرين في مجلة Nation وغيرها . وهي تعليقات على كتب من مختلف الانواع ، من

بينها مقال (١٨٠٥) هاجم فيه رواية صديقنا المشترك (١٨٦٥) Our Mutual Friend لتشارلز ديكنز . اما المرحلة الثانية فهي تلك الفترة الوسيطة المثمرة التي بدأت بنشر مقال (فن الرواية » (١٨٨٤) " The Art of Fiction " ، وهو تعليق على محاضرة والتر بيزانت المنشورة تحت نفس العنوان ، وبيان في نظرية الرواية . ثم تلتها مقالاته الهامة عن الروائيين **ترولوب** (١٨٨٣) و**ستيفنس** (١٨٨٨) و**موباسان** (١٨٨٨) **Maupassant** و**زولا** (١٩٠٣) **Zola** و**بلزاك** (١٩٠٥) **Balzac** ويمكن ان نضيف الى هذه المقالات مقالة عن **هوثورن** (١٨٧٩) **Hawthorne** اعطى فيه الروائي الأمريكي حقه في الثناء كاملا ، ثم مقالة عن **كونراد** **Conard** و**آرنولد بينيت** **Arnold Bennett** و**هيو والبول** **Hugh Walpole** بعنوان « جيل الشباب » " The younger Generation " . واخيرا تجيء المرحلة الثالثة التي ظهرت خلالها مقدماته (١٩٠٧ - ١٩٠٩) التي تتضمن مجموع ما جاء في نقده الروائي ، وتمثل عمق وغنى اهتماماته النظرية في النقد . واعتبر جيمز هذه المقدمات في مجموعها مرشدا لمن يصبوا الى مهنة الرواية الشاقة ، كما سماها . ولا يمكن ان ننكر ان هذه الاشارات لا تتبع نظاما معينا ، فكل رواية وكل قصة كانت تطرح اسئلة نقدية خاصة بها لا تنطبق على غيرها ، ولا تستند الى خطة واضحة الهدف . ومع ذلك فمجموع ما جاء فيها ذو طابع متنوع تشمل جوانبه العديدة اهم اوجه النقد الروائي عند جيمز .

وكان جيمز في هدئه طموحا ، فرمى الى خلق تقليد انجليزي في النقد الروائي من لا شيء . وكان مصيبا في شكواه من افتقار الرواية الى النقد عندما قال :

كان الاعتقاد السائد الى وقت قريب على ما يبدو ، هوان الرواية الانجليزية ليست على حد قول الفرنسيين مجالا للدراسة . ولم يبد عليها انها تستند الى نظرية او اقتناع او مدى بنفسها ، او انها تعبير عن مقيدة فنية نتيجة اختبار ومقارنة ... لقد كان هناك شعور عام مريح منسبط بان الرواية هي رواية كما ان « البودنج » هي بودنج (٢٩) ، وان مهمتنا الوحيدة هي ان نبتلعها . (٣٠)

وقد سبق ان لاحظ جيمز في مقاله عن **ترولوب** ان « من الخطورة بمكان » في انجلترا « ان يكون المرء فنانا صريحا او واعيا ، وان يتبع نظاما او مذهباً » . وقد اخذ جيمز على عاتقه مهمة اصلاح الوضع بان جعل الرواية الانجليزية موضع « الدراسة » الجادة لأول مرة تقريبا في تاريخها الطويل .

واساسا النقد عند جيمز هو التعاطف والتوحيد بين الناقد والعمل الادبي . ويعرف النقد بانه « مبدأ تفهم الاشياء » ومهمته « الالحاق في المطالبة بحاجة جميع الاشياء الى التفهم » (٣١) . ولا فائدة من ان يضجر الناقد من موضوع المؤلف ، كما سبق ان حدث مع المتطهرين والنفعيين ، لان

(٢٩) « البودنج » نوع من الحلوى المألوفة الشكل ويقصد باستعمال الكلمة هنا افتقار الرواية الى الشكل المحدود .

"The Art of Fiction"

(٣٠)

Views & Reviews, (1908), 94

(٣١)

الموضوع هبة تعطي من طريق مؤثرات وعمليات هي في نهايتها غامضة . واهتمامات الناقد يجب ان تنصب على المعالجة الادبية التي لا يستطيع ان يلم بها الا « بالانغماس في عبقرية الكاتب » ، وتبع خطاه ، والتعرف على كنهه « (٣٢) . ومع ان جيمز في مقدماته كان في وضع يحسده عليه النقاد من حيث انه كان يلعب دور الناقد لاعماله الخلاقة ، وبذلك كان ناقدا مكتمل المعلومات عما يكتب ، فانه كان يلعب دور القارئ ايضا الذي تفوته اشياء كثيرة ، وخاصة فيما يتعلق بالاعمال التي انتجها منذ زمن بعيد . ولذلك فعندما تناول رواياته اقترب منها في تواضع الناقد الذي لا يستطيع مهما حاول ان يتعرف على كل ما يكنه العمل الخلاق . فكان مثلا للناقد المثالي كما تصوره جيمز ، الذي عليه ان يقبل حدود معلوماته ونقائص قدراته عندما يقف وجها لوجه امام السر الغامض الذي يكتنف كل عمل ابداعي . ان الناقد المحترف يستطيع ان يتعلم الكثير من موقف جيمز من العمل الفني ، واعترافه باستحالة التوصل الى كل الحقائق التي تؤول في نهاية الامر الى ما نسميه فنا . وقد عبر جيمز عن هذا بقوله :

ان التاريخ الخاص لاي عمل مخلص مهما كان متواضعا ، يبين في مجموعته على جو الرواية الفني المحاط بالغموض ، مما يضيئ وقارا على العمل (٣٣) .

ويقول ايضا :

ان السطح المغمور هنا وهناك يرفض الاستجابة ، بلاشك ، فالاسرار والنوايا الخفية مدفونة الى درجة لا تسمح لها بالظهور لانية (٣٤) .

وفي موقف جيمز هذا بعض الشبه بنظريات النقاد المحدثين الذين يؤكدون عدم جدوى تتبع نوايا الكاتب . ولكن الشبه لا يعدو كونه سطحيًا ، اذ ان جيمز يملك من البصيرة ما يمنعه من القول بان الاستحالة تعني عدم المحاولة . ان جيمز يعلم تماما انه ليس هنالك نقد مهما تعمق ، يستطيع ان « يستحوذ ذهنيا » على العمل الفني . وانما النقد انواع ، فمنه ما يقترب قليلا من العمل ، ومنه ما يبعد عنه كلية .

وقد كتب جيمز قصة قصيرة في موضوع الكاتب والناقد بعنوان **الصورة في السجاد** (١٨٩٦) *The Figure in the Carpet* . ويشير العنوان الى السر المدفون في العمل الفني الذي ينبغي على الناقد والقارئ ان يكتشفاه . ويلاحظ ان السخرية في القصة لا تصدر ، كما ظن البعض ، عن الاعتقاد بان سر « فيريكر » ، الكاتب الابداعي ، لا يستحق الاكتشاف ، ولكنها تصدر عن خطأ لاعتقاد بان هذا السر يمكن التوصل اليه دون اللجوء الى قراءة متعمقة ومتفهمة للعمل الادبي نفسه . وكل محاولة لاكتشاف سر « فيريكر » الكاتب العبقرى الذي يموت حاملا معه هذا السر الى القبر ، كما تظن شخصو القصة ، كل محاولة جديدة تلقي بالباحث بعيدا عن الجواب ، لانه يعتمد في بحثه

(٣٢) "Notes on Novelists with Some other Notes" (1914), 259.

(٣٣) "The Art of the Novel", edited by R. P. Blackmur (1934), 4.

(٣٤) المرجع السابق . ص ١١ .

على الآخرين وليس على « تحليل دقيق مبنى على التقدير » للأعمال الإبداعية ذاتها . والقصة تعبير عن احتجاج جيمز على افتقار انجلترا الى النقد الروائي الجاد ، وعلى « جمود الحسن العام » فيما يتعلق بالرواية . وقد لخص هذا في قوله :

« ان ما نسميه نقدا بعيد عن الاحساس بحقيقة الاشياء » (٣٥) .

ويرمى جيمز في هذه القصة الى الارتقاء بالرواية الى مكانة الفن الرفيع المركب الذى يصعب على الناقد ان يحلل جميع تركيباته ، وان يستخلص منه بالتجريد رؤية الكاتب او « الصورة فى السجاد » ، كما سماها جيمز فى قصته . فجوهر العمل الخلاق مر غامض لا يمكن الاستمتاع به وتقييمه ، الا عن طريق القراءة المتعاطفة . ويعنى هذا ان مهمة الناقد شاقة . فيجب ان يتصفه بالقدرة على النظرة المركبة والاحساس المرهف ، وعلى بلل كل مشامره وانتباهه . ان النقد عند جيمز هو « آخر الفنون واكثرها تركيبا ، آخر ما يؤهل له الانسان ، وآخر ما يصل اليه . وهو اكثر الفنون حاجة الى النضوج والفهم والمقارنة » (٣٦) .

وجيمز فى نظرية للرواية التى تناولها فى مقاله « فن الرواية » يصوغ بعض العبارات المحددة فى مفهوم الرواية والرؤية الروائية التى ينفرد بها هذا الشكل الادبي ، كما يوضح نقائصها ومزاياها التى لا جدال فيها . ونقطة الابتداء عنده ، كما كانت عند فيلدنج وجين أوستن وجورج اليوت ، هى تصوير الرواية للحياة . فيقول :

ان السبب الوحيد لوجود الرواية هو انها تحاول تصوير الحياة . ومتى اقلت هذه المحاولة جانبا ... تكون قد وصلت الى وضع غريب عنها (٣٧) .

ويقول فى مكان آخر : « ان الرواية تتصف بالشمول والعمق فى مطابقتها الرائعة للحياة » . (٣٨) وهناك فقرات عديدة فى نقد جيمز تشير عامة الى تقبله للاسلوب الواقعى واعجابه بكتاب هذا الاسلوب من الروائيين العظام من امثال بلزاك وفلوبير وموباسان ودودييه وجورج اليوت وتورجينييف . وبينما يعبر عن استيائه من اسلوب جورج صاند (٣٩) (١٨٠٤ - ١٨٧٦) George Sand لافتقاره الى « الدقة » - اى اسلوب الحقيقة ، فانه يثنى على « الدقة فى تصوير التفاصيل » الى حد « التشبع » فى روايات بلزاك وفلوبير .

وعلى الرغم من تأكيد جيمز لعلاقة الرواية بالواقع فانه لا يخلط بينهما . فالرواية ليست مرآة ولا هى محاكاة للحياة بالمعنى الضيق لان الفن ، فى نظر جيمز ، لا يمكن ان يكون مجرد

(٢٥) المرجع السابق ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

(٣٦) "The Art of Fiction".

(٣٧) "The Art of Fiction".

(٣٨) Partial Portraits (1888), 378.

(٣٩) French poets & Novelists (1878)

« شريحة من الحياة » كما ادمى زولا . بل الرواية مختارات من الحياة ، يحورها الروائي ويشكلها ويخلقها من جديد . والاختيار ضروري لان الحياة كلها شمول وفوضى ، والفن كله تمييز واختيار » (٤٠) .

وقد شبه جيمز الفن بالمفاعل الكيميائي الذي يصهر مواد الحياة حتى تظهر في قالب جديد لتؤدي عملها . واستخدم نفس الصورة في وصفه للفنان عندما قال : « انه الكيميائي Alchemist الحديث الذي يبعث الحلم القديم في البحث عن سر الحياة (٤١) » .

الرواية اذا تعطى القارئ صورة واهمة بالحياة ، ويكون نجاحها بالقدر الذي يستطيع الروائي بأسلوبه اقناع القارئ بهذه الصورة وهنا تظهر مشكلة الصدق الفني التي شغلت بال جيمز كما كانت موضع اهتمام جورج اليوت التي اكتشف في رواياتها « ذلك الدليل القوي الكامن بالصدق » (٤٢) . فجيمز احتار في تحديد ما كان يعنيه بالصدق والحقيقة فيما يتعلق بالاسلوب الواقعي . ولم يستطع « تثبيت » درجة الواقع الذي يتطلبه العمل الفني . ووجد صعوبة في قبول شخصياته خيالية مثل دون كيشوت ومسترميكوبه لان « حقيقتهما » كما قال « مسألة في غاية الدقة ، مصوغة برؤية الروائيين الى درجة تتردد معها في تقديمها كنموذج يحتذى . مهما وضحت معالم الشخصيتين وحيث » (٤٣) . واتخذ جيمز موقفا مماثلا حيال رواية ديكنز صديقنا المشترك ، فقال عنها انها تحفل بشخص ممسوخة تثير الضحك ، مشوهة في مظهرها ومسلكتها دون سبب مقنع ، الى درجة قصت على انسانياتهم .

فالواقع اذا ذو اهمية اساسية في الرواية ، ولكن ليس من السهل اعطاء فكرة واضحة ووصف كامل لما يعنيه الواقع ، كما يتضح من قول جيمز :

لا جدال لي انك لن تستطيع ان تكتب رواية جيدة الا اذا كان لديك الاحساس بالواقع ، ولكن من الصعب ان اعطيك وصفا مفصلا للعناصر التي تعمل على خلق هذا الاحساس ، ان الانسانية شاسعة والواقع ذو اشكال لا حدود لها (٤٤) .

وهنا يتساءل جيمز لماذا يحاول الروائي ان يخلق صورة « واهمة بالحياة » ؟ وماهي وظيفة الفن ؟ والسؤالان متداخلان والاجابة عليهما تكاد تكون واحدة . ووظيفة الرواية في نظر جيمز هي اعطاء القارئ « عالما آخر » ، تجربة تشبه في مفعولها الاثير الذي يستخدمه طبيب الاسنان ، فكلاهما يسكن من « آلام الواقع » . ويضيف جيمز : « ان مانراه طبعا هو واقع آخر ، واقع اشخاص آخرين ، ويتوقف ما نراه على القدر الذي تحتويه الصورة من الحياة » (٤٥) . غير ان جيمز لا يدعى انه يعرف كنه هذا الشعور بالسكون والتخفيف من الآلام الناجم عن قراءة

“The Art of Fiction”

(٤٠)

Notes on Novelists, 275

(٤١)

Views & Reviews, 4.

(٤٢)

“The Art of Fiction”

(٤٣)

(٤٤) المرجع السابق

Notes on Novelists, 436

(٤٥)

تجارب الآخرين في الرواية . وكل ما توصل الى ملاحظته هو أننا بعد القراءة نعود الى واقعنا ، وقد ازدادنا قوة وصلابة . وتبين ان الروائي الذي يسمح لنا بأن « نحيا حياة الآخرين » لا يعمق من تجاربنا فحسب ، بل كذلك رؤية جديدة للحياة ومعرفة صادقة بانفسنا . اننا نشارك في رؤية الروائي ونتشكل هـ . وفي هذا الراى امتداد وتطور لنظرية جورج اليوت في الواقع والصدق الروائي وتأثيرهما الخفى على القارىء .

ان الرواية تستطيع ان تكشف للقارىء عن حقائق نفسه وعالمه بنسبة اكثر من اشكال اخرى فنية في نظر جيمز . فالروائي ، كما يقول جيمز ، يمكن القارىء من ان يختار ويقارن ويتفهم ، حتى يصل في نهاية المطاف الى نوع من التكامل الذي لا ينتمى الى الوضاعة والنفاق مهما كانت سطحيتها وفنائه » (٤٦) . وهذا التكامل الذي يعتبره جيمز اثارا رائعا من آثار الرواية يفترض مسبقا الشمول في هذا الادب والابتعاد عن النظرة الجزئية للواقع . فعلى الروائي ان يعبر من خلال ادبه عن كل نواحيه الانسانية . وهنا يجد جيمز مكانا للاخلاقيات والضمير في نظريته ومقاييسه الادبية . ويرى على هذا الاساس ان الرواية يجب ان تكون عملا وصفيا محليا ، مجرد صورة للسطحيات . بل يجب ان يكون لروح الانسان وجوهه مكان في الرواية خليق به حتى لا يظهر مجزا معزقا بل متكامل روحيا وعقليا وجسميا .

وينتقل جيمز بطبيعة الحال من هذه الفكرة الى تناول موضوع العلاقة بين الرجل والمرأة في الرواية فعبّر عن اعتراضه على الرقابة المستترة في انجلترا تلك التي حرمت على الروائي معالجة نواحي هامة من الحياة ، كما عبّر عن اسفه للقيود التي وضعتها الميول المتظهرة والاحتشام المتكلف في ذلك الوقت على العمل الروائي . ونادى جيمز بضرورة التحرر من هذه المواقف للرواية في سعيها نحو الرؤية المتكاملة .

ولكن لم يطل دفاع جيمز عن فكرة التحرر هذه التي استلهمها من الروائيين الفرنسيين وتراجع عنها نتيجة تطهره هو ونفوره من الناحية الفريزية في الانسان ، واقباله على الناحيتين الروحية والاخلاقية ، اى ما اعتبرهما اكثر انسانية وشمولا . وقد وجد ، رايه ، ان غالبية الروائيين الفرنسيين يفتقرون الى الرؤية الاخلاقية . فهم على حد قول اساتذة في الفن والشكل ، وفي تصويرهم لسطحيات الحياة : الاحساسات والفرائز والرغبات ، ولكن ينقصهم تصوير « الشخصية في حركتها ، وامكانيات سلوكها ، والدور الذي تلعبه الفكرة في الحياة . . . وعندما يضعون ايديهم على حياة الانسان الروحية تتبدد مهارتهم » (٤٧) . ويقارن جيمز مقارنة فاصلة على هذا الاساس بين الروائيين الانجليز والفرنسيين .

فالانجليز ، في نظره ، كتاب تملأ كتاباتهم العيوب ، وينقصها الشكل ، ويميلون الى معالجة الامور معالجة نفسية اخلاقية باحتشام متكلف . اما الفرنسيون فهم اساتذة ضحل لا اخلاقيون في تصوير سطح الحياة . وكان جيمز يرمى الى تحقيق التواءم بين الميول الانجليزية والفرنسية

Selected letters, ed. Leon Edel, (1956), 157

(٤٦)

Essays in London & Elsewhere (1893), 183

(٤٧)

في الرواية بكتابة الرواية النفسية الاخلاقية ذات الشكل الفني المتناسق ، اى الجمع بين المعنى الاخلاقي والناحية الجمالية .

ورأى جيمز ان مثل هذا التكامل امر شخصي محض وثيق الصلة بالعقل الذى يصدر عنه . وقال فى هذا الصدد :

ان اعظم ما يسفر عنه العمل الذي هو عمق العقل الذي انتجه ... فالرواية الجيدة لن تصدر ابدا من عقل سطحي . هذه حقيقة تغطي ، بالنسبة للفنان ، المعنى الاخلاقي الذي يحتاجه (٤٨) .

فمعدل الفنان بالمفهوم العريض هو الذى يشكل رؤيته وكلاهما محور اهتمام الناقد الروائي وقد شبه جيمز ادب الرواية بالبيت و « بيت الرواية » (٤٩) ، له واجهة عريضة تتخللها نوافذ عدة ، كثيرا ما تكون مجرد ثقب ووراء كل واحد من هذه الفتحات اسس ذات عيني أو نظارة مكبرة - اى اداة ملاحظة فريدة تضمن لصاحبها انطبعا يتميز على كل انطباع اخر . فقد يرى المشاهدون نفس المشهد ولكنه يكون دائما مختلفا لان الرؤية تتوقف على المشاهد وزاوية الرؤية . والمنظر هنا هو مشهد الحياة ، والفتحة أو الثقب هو الشكل الادبي والمشهد الذى نفت الحياة فى كلها هو وعى الفنان المتكامل . هذه هي الصورة اللافتة التي استخدمها جيمز في احدى مقدماته الاخيرة لوصف فن الرواية ، الذى لا وجود له الا بوجود « المشاهد من الناقد » .

وقد ركز جيمز اهتمامه على ناحية الخلق عند الروائي التى تعكس الخيال اثناء عملية الابداع ، وتكشف عن عملية نسج مشاعر الكاتب وانطباعاته ، اى ذلك الوجه الذى يعكس ذاتية الفنان الدقيقة . وكل روائي يستحق المراجعة النقدية فى نظر جيمز « حالة خاصة » . وجمع هذه « الحالات » فريدة فى نوعها . ويكون الحكم على مستوى الناقد وقدراته بقدر ما يستطيع ان يصل الى اعماق « الحالة » التى يدرسها . ويلخص جيمز بعض تلك « الحالات » التى درسها فى نقده على النحو التالى : ففلوبير هو « المثل والصورة للحالة الفكرية » ، وزولا هو الشخصية التى « تسود وتهيمن فى النهاية » ، اما موباسان « فحالته » مميزة لانه يكتب عن طريق الاتصال الجريء المباشر بحواسه . وجيمز فى نقده هذا يكتب كالطبيب الذى يحاول تشخيص « حالته » لا وصفها . والشئ الذى يبحث عنه فى « تشخيصاته » المستندة الى اسلوب العمل الادبي ونسجه ، هو مزاج الروائي الفريد ، ومدى رؤيته ، وحركة مشاعره وحواسه . انها تلك الاشياء التى سماها جيمز ب « لون الهواء الذى يشبع به الفنان ، ايا كان ، صورته للحياة دون وعى » . فالنقد عند جيمز لا يقل ابداعا من العمل لخلق ، والناقد مثله كمثل الروائي يجب ان يتشبع بالعمل الذى يتناوله ويتفاعل معه كما يتشبع الاديب بالحياة المحيطة به ويتفاعل معها . والهدف فى نهاية الامر هو الوصول الى الجوهر .

وقراءة الرواية على هذا النحو معناها دراسة الروائي نفسه والعيش من جديد فى جو حياته الدفينة . ومع ذلك فان جيمز فى نقده لا يخلط بين الروائي وعمله . ويقول فى هذا الشأن :

« ان الحياة والاعمال شيان مختلفان ، والمعرفة الوثيقة باحدهما ليست ضرورية اطلاقاً للاستمتاع العام بالآخرى » . ولكن على الناقد ان يتعلم « ان يقرأ ما بين السطور » .

وجيمز لا يقع ابداً في الخطأ الذي وقع فيه كثير من النقاد من بعده ، وهو محاولة استنباط حياة الكاتب من خلال عمله . انه لا يرمي الى مجرد الترجمة عندما « يقرأ السطور » وإنما يرى الى مسائل اكثر اهمية بمراحل تكشف عنها حياة الكاتب ، مثل الاسلوب الذي من خلاله اختبر الحياة والناس ، والاشياء التي سلط عليها اهتماماته ، وتلك التي اشاح عنها بوجهه ، والمواقف التي تنبأ بها في رواياته وكيفية حلها . وعلى رأس هذه القائمة تقع قيمة الاخلاقية المستقاة من تجاربه . فالمطلوب من الناقد عملية تقترب من المنهج النفسى . ويؤكد هذا مقالات جيمز في نقد الروائيين التي تستند الى الملاحظة النفسية ، والاستنباط والاهتمام بالعاني الخفية ، والعلاقات الانسانية ، والظروف المحيطة بها ، والدوافع المسلكية .

وجيمز في تأكيد لاهمية المشاعر والاحساسات عند الناقد يمكن اعتباره الى حد ما ناقداً رومانسياً تنصب اهتماماته على عملية الخلق عند الاديب ، مثله في ذلك مثل كوليردج الشاعر والناقد الانجليزى . وهناك شبه ملحوظ بين نظرة جيمز الى العمل الخلاق ونظرة كوليردج ، فكلاهما يتعرف على عضوية العمل الحيوية التي تضفى عليه استقلالاً مثل استقلال اى من الكائنات الحية . وفيما قاله جيمز عن شخص روايته صورة سيده (1881) *The Portrait of a Lady* دليل على استقلالها الذاتي ، ووجودها المنفصل عن وجود المؤلف . فيقول جيمز انه بينما كان يكتب روايته اخذت شخصها تتعرف على افراد وكأنها هي بدورها تبحث عن مؤلف آخر يطلق لها العنان . وكان انطباع جيمز اثناء عمله انها تقول له « لو انك اعطينا ثقتك فسنرشدك الى الطريق الذى يجب على البطلة ازابيل آرثر ان تسلكه » . وفي مقدمته لرواية *The Ambassadors* (1903) نصح جيمز قراءه الا ينتقصوا من قيمة « القوة الدافعة التي تولدها الرواية لنفسها » والتشبيه الذى يستخدمه جيمز ليوحى بالحياة التي تتخلل العمل الخلاق يبعث الى الاذهان ما قاله كوليردج ايضا من الوحدة العضوية للقصيدة الشعرية . واليك نص ما كتبه جيمز ، وهو الاقتباسات المشهورة في النقد الروائي :

(الرواية) كائن حي ووحدة مستمرة ، مثلها في ذلك مثل اى عضو حي ، وبقدر ما فيها من حياة سنجدها ، كما اعتقد ، ان كل جزء من اجزائها يحتوى على بعض مما في اجزائها الاخرى (هـ) .

وتؤدى هذه الفكرة الى وجه من اهم اوجه النقد عند جيمز ، وهو اهتمامه الملح بالشكل الفني وعلاقته بالموضوع . وفي تأكيد جيمز لاهمية الشكل ، الراجع الى تأثير الرواية الفرنسية والحركة الجمالية في نهاية القرن الماضي ، اسهامه الاساسي في النقد الروائي . وتتركز مقدماته حول قضية الشكل التي كان يعلم جيمز مدى تعقيدها وتركيبها . لقد كان يعي انها مبنية على تناقض لا يمكن حله . فهدف الرواية والشكل النهائي الذى يأخذه لا يتقابلان

ولا يتواءمان كما يحدث للماء في الوعاء ، والعلاقة بين الشكل والمضمون علاقة مختلفة تماما عن علاقة الوعاء والماء . ولم يحاول جيمز تبسيط القضية ، بل حاول ان يعيها في ابعادها المتعددة .

ولقد لخص جيمز اهمية « الشكل » بالنسبة للرواية في قوله « بدون الشكل تكون الرواية مجرد « بودنج مائع » . وهذا ما وصفه روائع روايات تولستوى ودوستوفسكي . وبني اعتراضه على روايات تولستوى لما اعتبره افتقارا الى الشكل ، وان كان لم يسعه ، وهو الناقد ذو البصيرة النفاذة ، ان يضيف عليها عظيمها . فروايات تولستوى كما قال جيمز :

كتلة رائعة من الحياة . واقعة عظيمة - حدث عشوائي هائل . وحش قيد لموضومه الكبير هو الحياة باجمعها (٥١) .

ان اعجاب جيمز بهذه الاعمال الرائعة لا ننكر . لقد وصفها بانها « بودنج » حقا الا انه اعترف ان عبقرية الروائي الروسي جعلتها طيبة المذاق . ومع ذلك فجيمز يؤكد عيوبها وهي : « الافتقار الى التكوين ، وتحديها للاقتصاد والشكل البنائي » (٥٢) . اما اساس اعجابه بالرواية الفرنسية ، على الرغم من نفوره من اخلاقياتها ، فهو اهتمامها بالشكل والوعي الفني الذين انصف بهما الروائيون الفرنسيون .

وقد يبدو من تعليقات جيمز على اعمال تولستوى ان نظرتة الى الشكل في الرواية نظرة ضيقة تفصل بينه وبين المضمون . ولكننا اذا ما معنا النظر في نظرية جيمز في الرواية وجدنا وعيا كاملا بالوحدة بينهما . فهو يشكو من الاعتقاد السائد بان الموضوع والشكل في العمل الحي مختلفان ومتفرقان . ويحاول اقناعنا بان ذلك التمييز الخطير بين المضمون والشكل في العمل الفني الرفيع يجب القضاء عليه . وبين ايضا انه من المستحيل وضع حد فاصل بينهما وتحليل التكامل الذي هو جوهر العمل . وقد اثني جيمز على مدام بوفاري Mme Bovary لفولبير لهذا التوافق الكامل بين الشكل والمضمون ، فقال :

والشكل في حد ذاته لا يقل باى حال من الاحوال من جوهر الموضوع او الفكرة في اداة الاهتمام وفي الفاعلية . ومع ذلك فهو مطابق للمضمون لا يمكن فصله عنه الى درجة اننا لا نستطيع ان نستخلص الشكل في اية لحظة على انفراد (٥٣) .

وهذه الوحدة بين الشكل والمضمون هي احد متطلبات جيمز الاساسية في الرواية ، فالشكل وحده ، كما يقول « يأخذ المضمون ويمسك به ويحفظه » (٥٤) .

وبالاضافة الى تحليل جيمز الدقيق لوجه الرواية الفنية المختلفة ولانجذابه نحو المشاكل الشكلية المتعلقة « بوجهة النظر » والاداة المصطلح عليها « الوعي المركزي » المبنية على

“The future of The Novel” Essays on the Art of Fiction, ed. Leon Edel (1956) 228 (٥١)

Selected Letters, 171. (٥٢)

Notes on Novelists, 80. (٥٣)

Selected Letters, 171. (٥٤)

تصوير الفعل من خلال وعي شخص ذي حس مرهف وذهن متقن قريب من المؤلف نفسه ، بالإضافة الى كل هذا فان اسهام جيمز في تطور النقد الروائي يظهر ايضا في مفهومه العضوي لكل عمل خلاق ، ذلك المفهوم الذي على اساسه رفض الاشتراك في جدال النقاد حول ما سمي « برواية الحدث » « برواية الشخص » . فجميع عناصر الرواية كما رآها جيمز متداخلة ومندمجة ، ومهمة الناقد تقييم الشكل الذي هو جماع هذه العناصر . ويقول جيمز في هذا الشأن :

يكثر الناس الحديث عن هذه الاشياء (الوصف - الحوار - الحدث - الشخص) كما لو كان كل منها يتميز عن الآخر بشكل قاطع ، بدلا من ان يلوب بعضها في بعض في كل لفظة من الانفاس ، وتشكل مجتمعة في علاقاتها المتداخلة وحدة شاملة معبرة . انا لا استطيع ان اتصور شكلا مكونا من سلسلة من الكتل ، او ان تكون هنالك في اية رواية تستحق الدراسة على الاطلاق فقرة وصفية لا يكون السرد من مهمتها ايضا ، او فقرة من الحوار لا ترمى في نفس الوقت الى الوصف ، او لمسة من الحقيقة ايا كانت لا تلعب دورا في الحدث ، او حدثا يستحق الاهتمام من اى مصدر غير المصدر العام لنجاح الرواية ، وهو قدرتها التصويرية . فما هي الشخصية اذا لم تكن تحديدا للحدث ؟ وما هو الحدث اذا لم يكن تحديدا للشخصية ؟ واين هي الصورة او الرواية التي لا تتناول الشخصية (٥٥) .

بهذا يؤكد جيمز طبيعة الرواية العضوية ووحدةها . ولكن بما ان الوحدة تتصف بالعضوية فانها وحدة مبنية على التعدد والاختلاف . وجيمز يعلم جيدا ان هناك تناقضا في محاولة احتواء الحياة التي لا شكل لها في اطار الرواية المصطنع الذي لا بد وان يكون له شكل ومجرد « فكرة تثبيت » (تلك الكلمة التي يرددها جيمز مرارا في **مقدماته**) الحياة هي في حد ذاتها تناقص للحياة . وعندما يأخذ جيمز في ادلاء النصيحة الى الكاتب الروائي قائلا انه يجب ان يبدأ من نقطة تجارية ، يجد نفسه يتحدث بشكل عام دون تحديد ، ويعترف بان نصائحه لن تفيد الروائي كثيرا . ويقول :

فاى نوع من التجارب نعني ؟ واين تبدأ واين تنتهي ؟ ان التجربة لا حدود لها ولا هي مكتملة ابدا . انها نوع من الحساسية الهائلة تشبه بيت منكبوت ضخم بنى من ادق الخيوط الحريرية المعلقة في غرفة الوهم ، وتمسك في نسجها بكل ذرة تطير على اجنحة الهواء . انها مناخ الفعل : وعندما يكون خياليا ، بل عندما يكون عقل مبقري ، فانه يحتفظ باوهن ما يوحى بالحياة ، ويحول نبضات الهواء نفسها الى زوى (٥٦) .

ويعرف جيمز مشكلة الروائي بانها مشكلة الاختيار من تجارب الحياة الغنية وتركيزها وتشكيلها لايهام القارئ بالحياة . فعليه ان يختار ، كما يقول ، من فوضى الحياة « العديدة الشكل والنظام » ، من الواقع « العديم الهدف » بحيث يشكل اختياره هذا معنى ويكشف عن قيم . وبدلك فالرواية في نهاية الامر تتضمن - حتما - نوعا من الخداع . ولكن جيمز اصر على ان يكون الخداع مكيفا ومشكلا ومصنعا بمهارة المحترف التي تتطلب المعالجة الدقيقة الواعية . فالحياة ، كما قال جيمز ، مستحيلة التحديد لا تعرف اين تنتهي ، اما الرواية فيجب ان تعلم حدودها . وعلى الرغم من ان جيمز يؤكد **اهمية الاختيار والتركيز والاقتصاد** ، فانه يصر ايضا على ان الهدف هو جعل الرواية « مثقلة للحياة شاملة عليها » ، ولكن دون ان تخلف

يطابق رؤيا الفنان . وهو في هذا يقارب روائي ناقدا آخر هو د. هـ. لورانس ، يختلف تماما عن جيمز ، وانما يتفق معه في تأكيد ضرورة استمتاع الروائي بالحرية الكاملة ليحقق رؤياه بشرط واحد ، وهو ان يكون صادقا ومخلصا في هذه الرؤيا بما يرضي ضميره الفني . وقد قيم لورانس الرواية في مقالة « الاخلاقيات والرواية » (١٩٢٥) (Morality & The Novel) واعتبرها ارقى وسيلة لتصوير الحقيقة ، وكان يعنى بذلك الحقيقة التي تنتمي الى سلوك الحياة . كما الح على انه ليست هناك قواعد لبناء الرواية ، وان القواعد يمكن تطبيقها فقط على الروايات التي هي مجرد نسخ من روايات اخرى لا اصالة فيها . وفيما عدا ذلك ، فالرواية الحية التي تصور « الإنسان الحي » لا تحكمها الا الحياة . لقد تقدم لورانس كثيرا عن جيمز فيما يتعلق بتحرر الروائي في كتابه ، وان كان هناك صدى للورانس عن كيفية كتابة الرواية حين يقول جيمز : يجب ان تكتبها كما تستطيع .

ومهما نقل عن الثورة التي حققها جيمز في النقد الروائي فلن نكون مباغين . فغالبية المبادئ التي نستند اليها في النقد الروائي الحديث والتي اغنته بالمصطلحات المعروفة اليوم هي من آثار جيمز . انه هو الذي نبهنا الى المعنى الشامل الموحد في الرواية ، وهو الذي كشف لنا عن الوحدة العضوية بين اجزاء الرواية وعناصرها ، وهو الذي عرف الدور الذي تلعبه الاخلاقيات بالمعنى العريض في الرواية ، وليس بالمعنى الضيق المبني على السلوك الاجتماعي المتفق عليه ، وهو الذي اشار الى عامل الخداع في الرواية ، وفي نفس الوقت أكد جوهر الصدق فيها . وفوق كل هذا ، فجيمز هو اول ناقد انجليزي بحث في اسباب المسائل الجمالية والفنية في الرواية . ومع ذلك فقد أنجز كل هذا دون اللجوء الى شروط مسبقة . وفيما قاله ليون ادبل Leon Edel الناقد المشهور بابحاثه عن جيمز وترجمته لحياته ، اشارة الى عدم مذهبية الاديب والناقد الكبير :

ليس هناك كاتب حجة اقل مذهبية من جيمز . انه يتحدث الينا بفصاحة حتى اليوم ... معرفا بنفسه ، وبذلك الفن الذي احترفه بالاخلاص . (٦١)

ومنذ وقت بعيد مضى قال برسي لابلوك الناقد الروائي المعروف الذي تتبع خطى جيمز في نقد الرواية ، قال انه الناقد الحقيقي الوحيد في فن الرواية .

وكان جيمز مثالا للاديب الذي وهب حياته لفنه وعاش ليصور في رواياته قيما انسانية ، ليمتد بالحياة ويتعمق فيها حتى تصبح دقيقة في وعيها وغنية في مسئوليتها . اما النقد الروائي بالنسبة اليه فهو اداة ترمي الى تفهم ذلك النوع من الادب الذي انتجه . ومن الطبيعي ان تكون الاداة في نفس مستوى رقى الادب ، ما دام كلاهما وليد نفس العقل والروح . ان النقد عند جيمز لا يقل ابداعا عن العمل الخلاق ، بل يصح ان نقول انهما وجهان لعملة واحدة ، ومظهران متكاملان لعبقرية جيمز الابداعية التي تركت تراثا في النقد الروائي لا يقل في كثير عما تركته في الادب الروائي . وبانجازات جيمز في النقد بدا الطريق امام الناقد الروائي المحترف من بعده اكثر وضوحا ، وانتقل النقد الروائي الى مرحلة جديدة تتميز بالثقة والتقييم المتزن .

آفاق المعرفة

تكنولوجيا العصر والجمال الطبي
للعالم العربي سنة ٢٠٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ .
ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً لِيُفِيَّ قَرَارَ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا
النَّظْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمَضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ
خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ
صلى الله عليه وسلم

للدكتور : مصطفى كمال محمد

الوسطى ، بل تتعداه الى العصور القديمة
حيث قامت وازدهرت حضارات مصر وبابل
وآشور . وفضل هذه الحضارة على العالم
والذي لازال يدين لها بالشكر والعرفان .
فالعرب امة علوم واختراعات ، وامة ادب
وشعر، وهم الذين اسسوا الاسس الاولى في
شتى ألوان العلم والمعرفة . ان جابر بن حيان مثلا
هو الرائد الاول في ميدان البحث العلمي
التجريبي ، والكندي اول من اثبت كروية
السطوح المائية ، والادريسي الذي اكتشف

فما من شك ان عقل الانسان العربي
يحمل في تقدمه سمات ماضية ، فالحضارة
العربية سلسلة متعاقبة لتطور هذا العقل
العربي وكشفه من أسرار هذا الكوكب الذي
يعيش فوقه والكواكب المحيطة به ، وفي
الكشف عن مختلف القوانين الفيزيائية
والكيميائية والرياضية والطبيعية وتذليلها
لغاياته ، وأصبح هذا العقل المستنير يحمل
شعلة الحضارة من عصر الى عصره . فمقربة
الحضارة العربية لا تقف عند حدود العصور

من هنا جاء اهتمامي بتناول العلاقة بين التقدم الحضارى في مجالات العلم والتكنولوجيا وبين التغير الاجتماعى الذى يمس نظم المجتمع وقيمه الاجتماعية . وان درجة النمو الاقتصادى تتوقف على درجة نقل واستيعاب التكنولوجيا الراقية الموجودة في المجتمعات الصناعية المتقدمة .

البلاد المتقدمة تعيش في نهضة علمية وثورات تكنولوجية مستمرة وذلك منذ منتصف القرن التاسع عشر . كذلك فان القدر الاكبر من النمو الاقتصادى في هذه البلاد يدين الى التقدم العلمى والتكنولوجى الذى تحقق في هذه البلاد .

فلكى نعيش هذا العصر ونصل الى سنة ٢٠٠٠ بسلام ، فاننا يجب ان ندرك تماما اهمية التكنولوجيا المعاصرة وتطبيقاتها في شتى المجالات كقوة ثقافية ديناميكية عصية ، بمعنى ان رصد اى دولة من رجال العلم والتكنولوجيا بمعاملهم او اجهزتهم ومعداتهم ، هو الذى ينقل المعاصرة اليها . والتكنولوجيا في هذا البحث لا يقصد بها المعرفة بمعناها العام وباختلاف فروعها بل اعنى هنا المعارف العلمية التي قد تنوع في مجالاتها التخصصية . ولكن، لا ننكر ايضا انها تشترك وتتركز على المنهج العلمى السليم والذى يعتمد بصفة رئيسية على التحقيق الموضوعي والتجريب التطبيقى ومدى الانتفاع منها ومدى الحدود التي تتيح استخدامه . بهذا البحث اود ان اوضح مساهمة تكنولوجيا العصر في المجال الطبى وكيفية الاستفادة منها في بناء العالم العربى سنة ٢٠٠٠ ، وكيفية التركيز على خلق وتنمية ائمن ما نعتز به ، وهو الطاقة البشرية القادرة على الاسهام بالعلم في صنع المستقبل . هنا ايضا لا اطمع الى جعل الانسان العربى خالداً، ولكن كل ما اريده هو اعطاء اشباههم ولادة بدون حادث، ونمو عادي ، وحياة بدون عيوب وامراض وآلام . وان طريق العلم يؤدي دائماً في نهايته الى تحقيق الفايات المرجوة وتوفير

منايع النيل والاسطرلاب - ثم ابن سينا وبحوثه العظيمة في المجرات وتكوين الجبال والمعادن ... ثم ابن يونس الذى اخترع البندول ... وكذلك الرازى وكشوفاته الطبية العديدة ... ولا نستطيع ان نتجاهل اسهام كل من ابن الهيثم والبيرونى وابن النفيس والبوزجاني وابن رشد والجاحظ وابن البيطار وغيرهم في مجال العلوم والمعرفة كالجبر والهندسة والفلك والطب والتشريح والصيدلة والكيمياء والفيزياء والنبات والحيوان والمعادن وغيرها .. كما ان القيم الاسلامية لا تتعارض مع العلم ، بل هي روح العلم نفسه ، والتقدم التكنولوجى طالما يستهدف في النهاية خير الانسانية وسعادة البشر .

لا جدال في ان اقامة مجتمع الرفاهية هو الهدف الاسمى الذى تسعى اليه كافة الدول المعاصرة، وهو المعيار الذى يقاس به مستوى تقدم الشعوب . 'مجتمع الرفاهية هو المجتمع الذى يتحقق فيه اكبر قدر من الرفاهية الكلية .. اى اكبر قدر من الاشباع من المنافع والسعادة لمجموع افراده .

فالدول النامية تخوض الآن على الصعيدين الوطنى والدولى حرباً ضد الجهل والفقر والمرض وسيطرة الدول الاقوى عليها . فالعالم العربى في اشد الاحتياج الى استراتيجيات علمية مدروسة لتنمية موارده الطبيعية والبشرية . لأن الدولة الحديثة التى نريد بناءها تعتمد بالدرجة الاولى على الانسان العربى صاحب الحضارة العريقة ، وحامل القيم الشريفة ، وهذا يتطلب تحقيق تغيرات جذرية في انماط السلوك الاجتماعى ومحاولة احداث تغيير في تركيب وخصائص البيئة المحيطة بالانسان العربى ...

فان العلم والمجتمع يكاد يكمل كل منهما الآخر . فنقدر حاجة المجتمع الى النتائج العلمى لتنميته وازدهاره ، فان العلم في حاجة الى التقبل الاجتماعى لتدعيمه وتثبيته .

العصر في المجال الطبي ، ومدى الاستفادة منها
للعالم العربى سنة ٢٠٠٠ .

✽ تكنولوجيا انتاج العناصر الالكترونية
والمفناطيسية وعلم الانفورماتيك في المجال
الطبي : اشار العالم لوكلائش رئيس اكاديمية
الطب بغرنا الى الاهمية المتزايدة التى يحتلها
الالكترونيك والانفورماتيك في مجال العيادة
الطبية . فمئذ فترة قريبة جدا كان العلماء
يعتقدون ان مخ الانسان يتكون من ١٢ - ١٤
مليار نيرون ، متحدة مع بعضها بأعجب الطرق
ومتصلة بخيوط عصبية مع اعضاء وانسجة
الجسم . كما يوجد نيرون الجسم الحى عادة
في حالتين اما هادئة واما مثارة . ويقول
الخبراء ان وظيفتى النيرون هاتين يمكن
مقارنتهما ، في التصوير المبسط بعنصر راديو
الكترونى ذى وضعين يعمل بنظام « انوصل
والقطع » ويمكن أن يكون ذلك صامما أو مرحلا
أو ترانزستورا . ومن النيرونات « تبنى »
الاعصاب التى تعتبر بالنسبة للجسم بمثابة
الاسلاك ، او خطوط المواصلات بين الجسم
ككل وبين بعض الاجهزة او القطاعات على
حدة . وبعبارة أخرى فان الاسلاك - الاعصاب
تربط الجسم بالمحيط الخارجى : فنجد مثلا
المخيخ وحده وهو غرفة التحكم في الجهاز
العصبى المركزى - يضم حوالى ١٠٠ مليار
خلية . والخلية هنا ليست مجرد « نواة
الحياة » بل مؤسسة متعددة الفروع ذات
قطاعات عمل واقسام مختلفة ، ونظام للتفدية
بالطاقة ووسائل نقل . ففى الجسم الحى
يجرى باستمرار تنسيق العمل بين مختلف
الاجهزة ، وتتجمع المعلومات عن حالة النظام
وعن ظروف الوسط الخارجى ، ويحافظ على
درجة حرارة ثابتة وضغط ثابت . من هذا
المنطلق وعلى أسس علمية قوية توغلت
تكنولوجيا العصر وعلم السيبرنييتيكافروعها
بثقة في المجال الطبى لخدمة الانسان البشرى
واصبحت انتصاراتها في هذا المجال أكثر اهمية
وبذلك نجد أن المجال الطبى استفاد ، وسوف

السعادة المنشودة لبنى الانسان العربى في كل
زمان ومكان .

وواجب الانسان العربى ان يتعلم وأن
يسعى الى مجالس العلماء ليتفقه ويتعظ
بالعلم النافع الموصل الى رضوان الله تعالى ،
لان الله عز وجل يسائل الناس عن تقصيرهم
في طلب العلم ومجالسة العلماء الصالحين .

وان خطة عملنا لا بد أن تستهدف الوصول
الى تكنولوجيا عربية عصرية ، وان نلتزم
بشعار (العلم للمجتمع) مع الحرص الشديد
على توفير كل أسباب الدعم والنجاح للبحث
العلمى . فمن جانب يرى أيضا ان يتركز عمل
العلماء في المجال الطبى على تحسين الاداء من
خلال علاج المرضى والوقاية منه بمتابعة
واستخدام احدث الاساليب التى تكتشف في
الدول المتقدمة . كما يرى ان يخصص البحث
العلمى والتكنولوجيا جهدا خاصا موجها
لمساندة صناعة الدواء المحلية الوطنية ، بحيث
يكون ذلك من خلال :

- نقل التكنولوجيا الخاصة بانتاج
الكيمائيات الدوائية التى تصنع منها
المستحضرات والعقاقير الطبية اقتباسا وتقليدا .

- استكشاف مصادر جديدة للدواء في
النباتات الاقليمية .

- التركيز على الرعاية الطبية وابحاث
القضاء على الامراض الوبائية والمستوطنة
واعتماد مشروع القضاء على البلهارسيا مشروعا
قوميا عربيا يشترك فيه علماء الداخل والخارج

- استخدام الاجهزة الحديثة والعقول
الالكترونية في المجالات الطبية بشتى فروعها .

وبالتالى سوف اعرض هنا في هذا المقال
لبعض التطبيقات الهامة والابتكارات
والخدمات الفعلية التى تقوم بها تكنولوجيا

❖ الأوتوماتون

جهاز يمثل نظام آليات وتركيبات (الالكترونية كهربائية ، ضغط الهواء ، هيدروليكية) تجرى عمليات استقبال وتحويل ونقل واستخدام الطاقة والمادة بطريقة ميكانيكية اوتوماتيكية اى بدون مشاركة الانسان .

❖ المنطق الرياضى

تأسس هذا العلم بفضل المفكر الاغريقى ارسطو ، الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد ويرجع الفضل أيضا الى فلاسفة العصور الوسطى مثل عالم اللاهوت والكيميائى راييموند لوليا ، والعالم الرياضى والفيلسوف الالمانى تفريد ولهم ليبنتس وهو مؤسس أيضا المنطق الرياضى . وهو الذى حاول فى القرن السابع عشر ان يؤسس اول حسابات منطقية حسابية وجبرية حرفية ، والعالم الرياضى جورج بول وأبو الكتابة المعروف فوينتش صاحب رواية « الذبابة » . وقد قام ارسطو بتحليل التفكير الانسانى وأشكاله مثل المفاهيم والحكم والاستنتاج العقلى . وبالتالي علم المنطق هو علم الاستنتاجات السليمة الذى يتناول أشكال وقوانين التفكير . وبدأ هذا العلم يتوغل بسرعة الى عصرنا هذا فى شتى المجالات ويعمل فى كل مكان وكل شئ تعمل فيه الحاسبات الالكترونية . فكل مسألة تحلها الآلات انما تحلها على أساس قوانين المنطق الرياضى الصارمة .

وينبغى هنا ان نوضح كيفية تحويل الاحكام المنطقية الى صيغ رياضية . فنجد فى العبارات البسيطة التى يستخدمها الانسان انها ترتبط ببعضها بواسطة احرف مثل : لا - أو - و . وهذه الاحرف الثلاثة تستطيع ان تفعل فى المنطق كل شئ . ولقد اتفق العلماء (علماء المنطق) على علامات معينة للدلالة على هذه الاحرف - مثلما نفعل فى علم الرياضيات فنستخدم الاشارات الرياضية الآتية (+) ،

يستفيد كثيرا ، من وجود نظام للمعلومات - نظام يمكن ان يجمع المعلومات ، ويحلل المواد رياضيا ، ويجد بسرعة الحالات المرضية المماثلة وستكون هذه بمثابة « ذاكرة » طبية ضخمة . من هذه الحالة يكون بإمكان أى طبيب من أى مكان ومن أى دولة من بلدان العالم ان يتلقى الاستشارة من هذه « الذاكرة » الطبية الموجودة .

وبذلك دخلت السيبرنيكا الآن غرفة العمليات الجراحية وهى تشارك بشكل مباشر فى العمليات وتتحكم فى الوظائف الحيوية للأجسام ، فتتابع عمل القلب ، وتضبط ضغط الدم فى الشرايين وتراقب عمق التخدير .

من هنا يأتى تعريف علم السيبرنيكا : هو علم يدرس طرق ادارة المجتمع البشرى ، وهى كلمة اغريقية قديمة « سيبرنيكس » وتعنى « ماسك الدفة » أو « الربان » بمعنى القائد . حيث كان علم قيادة السفن فى اليونان القديمة يسمى « سيبرنيكا » أى علم التحكم والاتصال فى الأجسام الحية والآلات . وبالتالي نرى أن العناصر الهامة فى علم السيبرنيكا تتناول العناصر الآتية :

❖ نظرية المعلومات :

حيث ان كلمة معلومات Information لاينية الاصل وكان معناها فى البداية تصور ثم تطورت الى أخبار اى نقل الاخبار او نقل معلومة ما . وقد وجد العلماء فى السنوات الاخيرة ان المفهوم العام لكلمة « معلومات » مطاط للغاية فحددوا معناها على ان يصبح « معيار التحدد فى الخبر او المعلومة . وبذلك تعتبر مفهوما علميا جديدا يعطى للباحثين منهجا جديدا ، نظريا - اعلاميا ، يمكن بواسطته التغلغل فى كثير من العلوم التى تدرس الطبيعة الحية وغير الحية ، والمجتمع والادراك .

من الدراسة العميقة والشاملة لمجالات التحكم والتوصل الى القوانين التي تخضع لها عمليات التحكم . وفي كل مكان نجد أن تنفيذ عملية التحكم مرتبطة بنقل وتجميع وحفظ معالجة المعلومات التي تحدد الشيء المتحكم فيه ومسار العملية والظروف الخارجية وبرنامج العمل . وبالطبع فمن الممكن أن تكون ناقلات المعلومات في النظم المختلفة ، مختلفة أيضا من حيث طبيعتها : فقد تكون اشارات صوتية أو ضوئية أو ميكانيكية أو كهربائية أو كيميائية أو واثق أو افلاما تلفزيونية ، ولذلك ، ومن المهم في المجال الطبي الحديث انشاء أجهزة الكترونية لجمع المعلومات عن العمليات الجارية في الجسم . لهذا الغرض اخترعت وابتكرت أجهزة مدهشة ، حساسة للغاية ودقيقة جدا وكفى أن نذكر منها واسمات القلب الكهربائية التي تدرس نشاط القلب ، ورأسمات الدماغ الكهربائية ، والتي تفحص في اسرار نشاط الدماغ ، ورأسمات العضلات الكهربائية والتي تسجل عمل العضلات ، والاقراص الدقيقة التي هي عبارة عن مجسات لاسلكية لدراسة المعدة ، والأمعاء ، والمجهر الالكتروني بأنواعه والمجهر التلفزيوني والتلفزيون الملون في الطب وما الى ذلك من أنواع مختلفة متطورة للغاية . لذلك يعتبر علم الالكترونيات والانفورماتيك من الفروع الهامة والاساسية من فروع العلم والتكنولوجيا . وتبين هذه الفروع مدى أهمية علم الكهرباء وتطبيقاتها في المجال الطبي - ابتداء من السمكة التي ترسل تيارا كهربائيا حتى آلة تقوية القلب . يشمل علم الالكترونيات اساس وتصميم وتركيب الاجهزة الكهربائية المفرغة ، والاجهزة المصنوعة من اشباه الموصلات مثل الجرمانيوم والسيليكون .

فلاجهزة الكهربائية المفرغة من الهواء واشباه الموصلات تستخدم بنجاح في الاجهزة الاوتوماتيكية واللاسلكية والتلفزيونية والتي تشترك في رحلات الفضاء ولخدمة الطب الفضائي ، وأجهزة الراديو الالكترونية الحديثة

(-) ، (x) ، (ب) وذلك على أن تحل محل الكلمات المستخدمة مثل « زائد » ، « ناقص » ، « في » ، « على » على الترتيب . فقد اتفق بالفعل على استخدام الرموز الآتية ولاستخدامها في علم المنطق الرياضي فمثلا الرمز « الاشارة » الموجبة (+) للدلالة على كلمة أو الرمز أى علامة الضرب في (x) للدلالة على كلمة (و) ومع استخدام بعض الاسس البسيطة في علم الجبر نستطيع أن نصل الى حل بعض المسائل المنطقية المعقدة . وتستطيع الآلة الاوتوماتيكية ان تقوم بالشيء نفسه .

* الالفوريشمات

علم حيوى ضرورى لحل مختلف أنواع المسائل ويتضح لنا ان الرياضة في الطب ، وأخص علم الوراثة ، لا نستطيع الاستغناء عن تكنولوجيايتها . ان العملية التكنولوجية لحل أعقد المسائل تتكون من عدد كبير من العمليات البسيطة ، من الخطوات البسيطة الاولى . ولقد اكتسبت كلمة الفوريثم أى القاعدة معنى واسعا للغاية في الوقت الحالى . فهو دليل لحل المسائل . ومن الممكن أن تصوغه في شكل أوامر قصيرة ينبغي تنفيذها بدقة ودون أى اعتراض ، وعندئذ يكون الالفوريثم مرشدا لنا لجميع حل المسائل المعقدة .

ويقول الاختصاصيون انه في الوقت الحالى الذى تتطور فيه الرياضة الآلية بسرعة وتصبح الحاسبات الالكترونية واقعا ملموسا . فإن الحاجة تصبح أكثر إلحاحا لايجاد الالفوريثم الذى يساعد على حل المسائل المعقدة .

الهدف الاساسى من علم السيبرنييتيكا والذى يسعى علماء الرياضة والفيزياء والهندسة والطب من مختلف بلدان العالم اليه هو الوصول الى اقصى قدر من اتمته عمليات التحكم في مختلف مجالات النشاط الانسانى وزيادة انتاجية العمل . ومن أجل ذلك لابد

أجهزة القياس ، الدوائر النبضية - الآلات الإلكترونية الحاسبة كما توضح أيضا في أجهزة خاصة داخل كبسولة يبتلعها المريض فترسل اشارات عن حالة المعدة والامعاء . كما تفضل أجهزة اشباه الموصلات عن الصمامات الإلكترونية بالمميزات العامة التالية:

- الوزن الخفيف والمقاييس الصغيرة .
- انعدام استهلاك الطاقة على تسخين الفتيلة المستخدمة في الصمام .
- طول مدة الخدمة (يبلغ عشرة آلاف ساعة)
- لأجهزة اشباه الموصلات المختلفة في المضخمات ، أجهزة الاستقبال ، أجهزة كفاءة عالية . إذ أن فقد الطاقة في نفس الأجهزة قليل .
- متانة ميكانيكية عالية (تتحمل الاهتزاز والصدمات والمؤثرات الميكانيكية الأخرى)

- تحويل الصورة الضوئية الى تيار كهربائي ذي شكل خاص .
- توجد دائما تغذية مرتدة داخلية . والسبب هو وجود اتصال كهربائي مباشر بين دائرتي الخروج والدخول .
- تعمل بجهد تغذية منخفض .

✳ مصنع لأدوات تقوية القلب

توجد أدوات تقوية القلب منذ خمسة عشر عاما ، وقد عرفت تحسينات متوالية مع تطور فنون تكنولوجيا صنع أدوات تقوية القلب . حيث ان هذه الادوات تعمل بشكل نبضات كهربائية فوق عضلة القلب مما يجبرها على متابعة عملها بانتظام .

- وفي الآلات الإلكترونية الحاسبة وأجهزة الطب بفروعه والبيولوجيا والفيزياء وفي فروع هندسة القياس المختلفة وغيرها . فالمضخمات والمولدات والمقومات ومرسمات التذبذبات وأجهزة القياس وغيرها من الأجهزة الإلكترونية أصبحت سلاحا فعالا للبحوث الطبية ولتنظيم العمليات الجراحية وأجهزتها . وهكذا فان علم الإلكترونيات زودنا بإمكانات غير محددة مثل الترانزستورات بشتى أنواعها . حيث أن الترانزستورات تشغل مكانا هاما بين أجهزة اشباه الموصلات الكهربائية التي تستخدم لتقويم وتضخيم وتوليد وتغيير تردد التيارات الكهربائية المختلفة ، وكذلك لرسم تذبذبات الظواهر الكهربائية وغير الكهربائية . وتكون دوائر الترانزستورات عادة دائرتان : دائرة الدخول أو التحكم ودائرة الخروج أو الدائرة المتحكم فيها . وفي دائرة الخروج يوجد الحمل . وتصنف الترانزستورات حسب طريقة التصنيع والمواد المستعملة وخصائصها للعمل ، ولها ثلاثة مخارج أو أكثر ، وتبعا لعدد المخارج تسمى بصمامات اشباه الموصلات الثلاثية أو الرباعية وهكذا .

وفي أجهزة اشباه الموصلات الحديثة تستخدم بكثرة اشباه الموصلات الآتية : جرمانيوم ، سيليكون ، سيلينيوم وجاليوم زرنيخي وغيرها من مواد اشباه الموصلات . واشباه الموصلات هي المواد التي تحتل موصلتها الكهربائية النوعية أي « المقدار الذي يميز التوصيلة الكهربائية للمادة » مكانا متوسطا بين الموصلات والعوازل . ويجب هنا ان نميز بين التعبيرين « التوصيلية الكهربائية » ، و « الموصلية الكهربائية النوعية » فالتوصيلية الكهربائية تعرف بخاصية تمرير المادة للتيار ، فنجد الفرق واضحا بين التعبيرين .

وتستخدم الترانزستورات الآن بنجاح في المضخمات ، أجهزة الاستقبال ، أجهزة الإرسال ، المولدات ، المستقبلات التلفزيونية،

يجرى التحقق من موقع الشريط كى لا يحدث انقباضات في حاجر القلب ، وهو يعتبر جيدا عندما يكون مستوى التقوية منخفضا. عندئذ يجرى ربط السابر بالوريد ، كما توضع العلبة داخل تجويف يجرى اعداده لهذه الغاية فوق الجرح . اما العملية الجراحية التى تجرى بواسطة التخدير الموضعي فتتابع بالاشعة وتعتبر عملية بسيطة .

تمثل الادوات المقوية والحارسة للقلب حوالى ٨٠ الى ٩٠ في المائة من الادوات التى جرى تركيبها خلال السنوات الاخيرة ، وهى مزودة بمجرى اضافى بحيث يراقب السابر حركة القلب ويسير عمل الآلة فور ظهور الحاجة . في بعض الاحيان يجرى صنع العلبة من مادة التيتانيوم النقى ، وهو معدن قوى وذو جودة خصائصية عالية . وبشأن البطاريات ، يبدو ان الليثيوم سيحل محل بطاريات الزئبق مع زيادة العائدات وفترة العمل .

في الوقت الحاضر يقدر ان هذه الآلات ستملك استقلالاً في العمل خلال فترة تمتد من ٥ الى ٨ سنوات . ومع ذلك ، فان مقويات القلب بنسق محدد ، او المحركات الكهربائية لاتزال تحافظ على مقدرتها . كما ان هناك مؤرجح يرسل نبضات بمعدل سرعة محددة سابقا ، وهى توازى ٧٠ نبضة في الدقيقة مع عدم مراعاة البطين (القلب) حامل هذه المحركات . واخيرا فهناك آلات تقوية القلب النظرية مع اشروطها الكهربائية اى البطاريات العاملة بالبلوتونيوم . تدوم هذه الآلات اكثر من الماضى ، ولكن ذلك لا يقضى على الرقابة الفعلية للمريض .

تجرى ابحاث عديدة لتحسين أدوات تقوية القلب ، وللحصول على مواد جديدة لتصنع منها هذه الادوات . وبالرغم من ذلك فان هناك عيوباً بسيطة في اجهزة أدوات تقوية القلب الموجودة في وقتنا الحاضر . حيث نخشى دائما من عطل يصيب المعدات . وهو

في القرن التاسع عشر ، درس ايرلنديان وهما روبرت ادامس (١٧٩١ - ١٨٧٥) ووليام ستوكس (١٨٠٤ - ١٨٧٨) المرض الذى حمل بعد ذلك اسم ستوك - ادامس ، وهو مرض يجمع بين بطء النبض والاعماء . وفي عام ١٩٥٢ ، خطرت للعالم الدكتور بول زول فكرة اعادة تحريك قلب متوقف بواسطة شريطين كهربائيين فوق صدر المرض .

ومنذ عام ١٩٥٨ ، تخيل العالم فورمان تدريب القلب بواسطة سابر . وابتداء من هذه الابحاث التجريبية السابقة واعتمادا على نتائجها ، تناولت ادوات تقوية القلب انتاج تيار كهربائي بواسطة البطاريات . ولقد ساعد تطور الالكترونىك وتطور علم السيبرنتيك في ظهور هذه الآلات الالكترونية والترانزيستورات في صنع ادوات تقوية القلب وسهولة انتشارها .

من المعروف ان كل عضلة لها المقدرة على ان تنقبض ، بالتالى تنقبض عضلة القلب ، كما تسبق الانقباضات مظاهر كهربائية تولد وتنشئ تغييرا في القوة . اما الرسومات والتدليلات التى يحصل عليها عند التسجيل فيمثل التسجيل رسم انقباض عضلة القلب وذلك نتيجة مرور التيار الكهربائى . وفي افضل الحالات يقدم موجات متتابعة ومتشابهة تظهر باستمرار . وفي كل من الاجزاء ، تجيب موجة موازية لانقباض اذين القلب وموجة اخرى صادرة من بطين القلب تصادف عودة الاستقطاب قمة اخرى وبعد ذلك تبدأ الدورة من جديد .

تتألف ادوات تقوية القلب خاصة من علبة دائرية ذات سمك ضئيل للغاية ، كما يكفى حجمها لاحتواء البطاريات ، كما تحتوى على سابر بشكل شريط . اصبح السابر الآن وحيدا ، وهو يمثل الشريط الكهربائى الذى يجرى ادخاله في الوريد الايمن او الايسر للراس ، ويصل بدقة حتى البطين الايمن .

راى الحاسبة الالكترونية « أورال » مع راى الأطباء . وعند اجراء العمليات ثبتت صحة تشخيص الآلة . كما وضعت نظريات ونظم التشخيص الطبى التى يستطيع الأطباء بواسطتها فى العيادات ان يحددوا لا تشخيص عيوب القلب فحسب ، وانما كذلك أمراض الكبد والمعدة وبعض الامراض المعوية والاورام المختلفة ، بما فيها اورام الدماغ .

✽ اذن الكترونية للصم والبكم

خلال المؤتمر الحادى عشر للحديث عن أمراض الاذن والانف والحلق ، وقد عقد فى بونس ايرس « الارجنتين » ذكر الدكتور كلود شوارد انه حقق مع مساهمة ومساعدة علم الالكترونيات « اذنا الكترونية » يمكن ان تقدم مساعدة هامة للصم البكم . اوضح كيفية وصوله لدمج عقل الكترونى (اورديناتير) صغير فى الاذن الداخلية ، ومع تحقيق الاتصال مع اطراف عصب السمع ، وضعت هذه الآلة اللاقطه نهائيا تحت الجلد ، ويبلغ قطرها الفعلى سنتيمترين مع سمك يبلغ سنتيمتر واحد ، كما تتلقى النبضات الكهربائية المغنطة للدياع متنقل ، بحجم آلة تسجيل صغيرة . يعتبر الدكتور شوارد اخصائيا فى امراض الاذن والانف والحلق ، وقد سبق له ان وضع بنجاح خلال عام ١٩٧٣ اشربة كهربائية فى الاذان الداخلية لثلاثين شخصا من المصابين بالصم . تتصل هذه الاشربة الكهربائية بآلة غير متنقلة ، وقد

سمحت للمرضى بالاتصال مع العالم الخارجى ، تمثل هذه الطريقة صعوبات سائدة ، اذ تفرض على المرضى الخضوع كل اسبوع لمعالجة لتجنب اخطار التهابات . اما الآلة التى اعدت اليوم فقد تحققت فى اقل من عامين بين سبتمبر ١٩٧٤ ونهاية عام ١٩٧٦ وحتى الآن ، واقيمت « الاذن الالكترونية » لدى ثلاثة اشخاص أو أكثر من الصم والبكم ، وقد سمحت لهم بالاستماع والحديث بعد عدة اشهر من التدريب .

يقع فى مختلف الطبقات سواء كانت الآلة ضعيفة او البطاريات فارغة او الاشربة مقطوعة او السابر متنقلا من مكانة . وبالتالي ومن المستحسن ان يساهم المريض فى مراقبة ساعة الاسعاف المرافقة . ومن ناحية أخرى ، لا يهمل الطبيب المعالج مريضة ، وهو يراه فى مواعيد محددة ، كما انشئت مراكز لمراقبة هذه الآلات . كما ان دراسات تردد النبضات يعتبر حاسما ، ويحصل على ذلك بوسائل عديدة : فحص النبض كل اسبوع - الفحص الهاتفى واشارات « بيب بيب » التى تكشف وتحول الى اشارات صوتية ، وكل ذلك لا يبعد من مصلحة المريض بشكل مناسب ، كما لا تثير هذه التدابير خوف المرضى ، بل على العكس ، تثير فى نفوسهم الاطمئنان ، كما تسمح لهم بالحياة فى ظروف معقولة . وبشكل خاص يتعلق الامر بالذين يشكون من عدم انتظام عمل الاذنين والبطين ، ومهما كان اصل هذه الشكوى . بإمكان امراض اخرى ان تستفاد وتعالج بواسطة هذه الآلات . وطالما لا يوجد حل كامل لقضايا الانسجة والمناعة التى تحد من عمليات تطعيم القلب . فان هذه الآلات تبقى وسيلة الاسعاف الحقيقية لمرضى القلب . ومن هذا المنطلق اقيمت فى الدول المتقدمة مصانع لادوات تقوية القلب لمدى حاجة المرضى لمثل هذه الادوات لتساعد القلوب المريضة .

✽ الحاسبة الالكترونية « أورال »

هى حاسبة الكترونية ذات تشفير برنامجي . وتعتبر الاجهزة الالكترونية هى العناصر الاساسية فيها ، وهى قادرة على اجراء ملايين العمليات واكثر من ذلك فى الثانية الواحدة . وهذه الحاسبة الالكترونية « أورال » تستخدم لتشخيص الامراض . فهى تضع فى السنة حوالى ٢٠٠٠ تشخيص لعيوب القلب الوراثية ، وليس هذا فحسب بل انها احيانا تكون أكثر دقة فى التشخيص عن الطبيب المعالج ، فقد حدث اكثر من مرة ان اختلف

تطبيق العلاج بواسطة المياه المعدنية . اذاع كل من الدكتور روبرت كوفيلير والعالم كلود لاروش والأطباء الباحثين جود لويسكى وجون دى لاتور ما برهنته الاختبارات والإبحاث التجريبية التى تمت على الفئران فى مختبر المياه بمستشفى فيشى بفرنسا عن فعالية العلاج بواسطة المياه المعدنية ، وقد تبينت فائدتها خاصة فى علاج التهاب الشرايين فى الاعضاء السفلى وأمراض الاوردة وأمراض أجهزة التنفس العليا . وسجلت النتائج أن ٦٠٪ من النتائج كانت مرضية ، ٢٠٪ من النتائج غير مرضية ، ٢٠٪ من النتائج فاشلة .

وبصورة عامة ، تبين أن المرضى الذين يحصلون على افضل نتائج العلاج بواسطة المياه المعدنية هم دون الخامسة والستين .

اما لدى المرضى الذين هم دون الخامسة والاربعين ، كانت ٨٪ من النتائج المدهشة ، ٦٠٪ جيد جدا ، يعتبر النجاح سريعا وعميقا بقدر معالجة المريض منذ ظهور اعراض المرض فى البدء .

❖ الاجهزة الاوتوماتيكية فى خدمة المعجزة :

ان عالم الاجهزة الاوتوماتيكية فى ايامنا هذه شديد التنوع . وهو دائم التوسع والتعقيد ، وتعتمد الاجهزة الاوتوماتيكية على تحديد ما يسمى باستقرار النظام وبذلك يمكن مقاومة مختلف انواع الانحرافات فى العمل ، وعلى حساسية الاجهزة الاوتوماتيكية . فساهم هذا الفرع من التكنولوجيا بتقديم خدمات هامة للمعجزة لاعطائهم فرصة المشاركة مع الآخرين بالحياة العادية .

فقدمت لهم آلة تدعى « هانديكار » أى عربية اليد الكهربائية ، وهى تسمح للعاجز بالجلوس امام المقود والتنقل بشكل مستقل بدون مفادرة مقعدة .

❖ تكنولوجيا النفخة غير المنتظمة للتحركات الموجبة الصوتية لمعالجة امراض الاذن والانف والحلق .

يحدث عادة ان امراض الاذن والانف والحلق تسبب انسداد قناة تسمى بقناة أوستاش وتقع بين الفم وطبلة الاذن . تعتبر هذه القناة يصعب الوصول اليها لمعالجتها حيث يتراوح قطرها بين ملليمتر واحد وملليمترين . وبصورة عامة تصيب هذه الامراض غالبا الاطفال وخاصة التهاب الاذن الداخلية (حيث يصاب ٢٪ من الاطفال فى سن الدراسة بالالتهابات فى قناة أوستاش) وفى حالة تكرارها أى تكرار اصابة الطفل بهذه الالتهابات ، تعتبر هذه الاصابات سيئة بالنسبة لقناة أوستاش الواصلة بين الاذن المتوسطة والجزء الداخلى لطبلة الاذن .

ونتيجة الالتهابات الحادثة فى الاذن المتوسطة يتسبب خلل فى توازن الضغط بين جانبي طبلة الاذن ، ومن المحتمل ان يحدث الصمم . عندئذ يتلقى الانف والحلق افرازات تسيل من القناة المسدودة . وعند تجمع هذه الافرازات ، تحدث التهابات وتلف المخاط . كما يعود ٤ الى ٥٪ من هذه السدود الى الحساسية . ولذلك أعدت طريقة تكنولوجية تعتمد على اسس علم الصوت فى الفيزياء وهذا التكنيك تم انجازه بواسطة المختبرات البحرية لتحديد الضغط اللازم الذى يسمح بمساعدة « نفخة الصوت » بفتح القناة عند الابتلاع . كما استنكر أيضا اطباء امراض الاذن والانف والحلق استخدام الادوات القاضية على الجراثيم مثل المضادات الحيوية وذلك بشكل دائم لأن ذلك يحدث زيادة فى عدد اصابات الالتهابات الجلدية بالمقابل .

كما اشاروا الى محاسن العلاج بالمياه المعدنية لامراض الاذن والانف والحلق حيث انه نتيجة للدراسات والاحصاءات حول

والصفات التقنية للهاندكار تتناول الآتي :-

- دراجة كهربائية ذات اربع عجلات .
عجلتان اماميتان للتحريك والتوجيه، وعجلتان مستقلتان في الخلف .

- هيكل الدراجة من مادة البوليستر القوي وتنسج لشخصين . اما قاعدة حمل الدراجة فهي من انابيب الفولاذ المتحممة .

- فرامل هيدروليكية وتوجه بواسطة رافعة امام القائد .

- محرك كهربائي بقوة ٩٦ فولت و ٤ كيلو وات وهو يحرك العجلات الامامية .

- الاستهلاك ، ١٠ كيلو وات ساعة للتعبئة الكاملة مع استقلال للتنقل بين ٥٠ ، ٧٠ كيلو مترا .

- اقصى سرعة : ٥٠ كيلو مترا في الساعة .

- مجموعة الكترونية او كهربائية ميكانيكية توجه بواسطة مقود دائري له تأثير على تموين المحرك الكهربائي .

وبالتالى نجد ان هذه العربة الكهربائية تسمح للعاجز بالجلوس امام المقود والتنقل بشكل مستقل بدون مفادرة مقعدة اذ يكفى الضغط على زر كي يهبط حتى مستوى الارض ويسمح ذلك للعاجز بالدخول الى المركبة من الخلف بواسطة الدفع ، كما يفعل ذلك عادة بواسطة عجلات عربته . يضغط مجددا على زر يرفع مستواه كما يفلق الابواب في نفس الوقت . وهناك نظام اوتوماتيكي لتجميد المقعد للسيار .

❖ جهاز للمواليد قبل الموعد

حققت المؤسسة الاوروبية للابحاث والتطبيقات الطبية معدات بسيطة تسمح بنقل

المواليد «الخدج» الذين وضعوا قبل الموعد الى مركز العناية اللازمة في ظروف جيدة تشمل عدم الحركة والعزلة الحرارية اى الابتعاد عن تغير في درجة حرارة الوسط والمراقبة وهذا تحت عنوان ايزوكوك . درست هذه المعدات الجديدة ونظمت بالاتصال مع قسم المساعدة الطبية للحالات المستعجلة في باريس، ويديره العالم الدكتور كارا . وقد استخدمت حتى الآن للنقل ١٥٠٠ مولود جاءوا قبل الموعد . ويتراوح وزن المولود بين ٦٠٠ جرام الى ٥٢٠٠ جرام، لقد أعد شكل من البوليسترين المتعدد (مواد بلاستيكية تبدو بشكل خلوى وتدعى كذلك « رغوة » بلاستيكية) وهى تتألف من هيكل وغطاء يسمح باطلاق حرية رأس الطفل ، ويسمح الهيكل الفارغ باقامة المولود وعدم حركته بواسطة رداء وغطاء عازل ومعقم ... بعد وضع المولود بهذا الشكل يؤمن الغطاء بعزلة حرارية مع السماح باعطاء الاوكسجين للطفل لتسهيل عملية التنفس . اما المميزات الرئيسية للايزوكوك فتتناول الآتي :

- الوزن حوالى ٩٠٠ جرام ، اى خمسين مرة اقل من المعدات الكلاسيكية .

- لا يحتاج الى اى مصدر خارجي للطاقة .

- حجمه ضئيل (٧١٠ × ٤١٠ × ٢٢٠ ملليمتر) .

يسمح كذلك بتحقيق جميع فنون التنشيط - اعطاء الاوكسجين ومد الانابيب - التنفس - اعطاء الدم ... الخ وذلك في ظروف تأمين مطلق بسبب عدم وجود آلة كهربائية .

❖ الاسعاف الطبى السريع

في باريس يؤمن قسم « المساعدة الطبية والاسعاف السريع » اعمال تنسيق الاسعافات السريعة ، وقد اقيم في مستشفى نيكر ويديره العالم كارا . حيث يؤمن عدد من عمال المخبرات

منخفضة ، وتملك أيضا دقة في القياس الحرارى (درجة الحرارة للمريض) بمعدل عشر الدرجة بين ٣٥٥ ، ٤٠٥ درجة سنتجراد . اما المجموع فيوجد داخل وعاء بلاستيكي مرقم يبلغ طوله ثلاثة سنتيمترات بعرض سنتيمتر وبالإضافة الى مقبض . ترتفع جميع مقاييس المواد بنسبة حرارة الجسم وتحول من الحالة المتبلورة الى الحالة السائلة كما يتبدل لونها بفضل اضافة مادة تلوين .

تعود فائدة هذا الترمومتر الطبى الحديث الى سهولة اكثر في قراءة درجة الحرارة بالنسبة للمريض ، كما تعود الى دقة اكثر وسرعة عطب اقل وسلامة صحية اكثر عند استخدامه (يستخدم مرة واحدة) ويبلغ ثمنه حوالى فرنك فرنسى بالنسبة لموازين الحرارة الكلاسيكية .

✽ تكنولوجيا الفيزياء النووية وأهميتها

في المجال الطبى :

سمحت تكنولوجيا الفيزياء النووية باقامة اول سيكلوترون طبى للخدمات الطبية فى القارة الاوربية وذلك فى مستشفى فريدريك - جوليو باورسيه بفرنسا ، ويسمح ذلك باستخدام الاشعة النظائرية وسيخصص من ناحية علاج امراض السرطان بواسطة النيوترونات . وضع السيكلترون داخل جدران سميكة من الاسمنت وذلك بجوار معامل الكيمياء وغرف فحص المرضى . وذلك لتسهيل نقل العناصر المشعة المستخدمة ، حيث انه تكفى ثوان معدودة لنقل هذه العناصر المستخدمة والتي تتجاوز فترة نصف حياتها اقل من نصف ساعة أى أن مدى الحياة لها قصير - وذلك بواسطة الضغط الهوائى داخل أنابيب خاصة للنقل . يجرى انتاج العناصر داخل غرفة يتحقق فيها العمل بشكل أوتوماتيكي الى اقصى حد وهنا نجد أهمية الأتمتة حيث

ستندرديست وطبيب على الاقل سرعة الاتصال الاذاعى والهاتفى الدائم ، وقد وضع ذلك تحت تصرف القسم المتنقل مع خمس سيارات للاسعاف ، كما يمكنه الاستعانة عند الحاجة بطائرات الهليكوبتر التابعة لرجال الامن والحماية المدنية .

اما دوره الرئيسى فيتناول خاصة نقل المرضى بين مختلف المستشفيات . كما تتصل سيارة الاسعاف المجهزة بطبيب التخدير عن طريق الاذاعة بسيارات الاسعاف التابعة للشرطة ، كما تتصل بقسم المساعدة الطبية والاسعاف السريع .

يحقق المساعدة الطبية السريعة ونظام الاسعاف السريع مايلى :

- اعداد بيان يومى بشأن لائحة الاسرة الشاغرة فى قاعات الاسعاف .

- تأمين النصائح الهاتفية .

- اداة القسم المتنقل للاسعاف السريع ، حيث يهتم هذا القسم بشكل خاص باسعاف المرضى وعند الحاجة بنقلهم بواسطة سيارات الاسعاف والهليكوبتر أو الطائرة .

✽ طريقة جديدة لتسجيل حرارة المريض

قدم العالم الصيدلى مارسيل جيو طريقة جديدة لتقدير الحرارة خلال الاجتماع الذى عقد فى اول يونيو سنة ١٩٧٦ امام اكاديمية الطب الوطنية الاوربية - ويعتمد الميزان الحرارى (الترمومتر الطبى) الذى عرضه العالم جيو على قوانين انصهار المركبات الكيميائية وهى فى الحالة السائلة . كما انها مقررلة لتسجيل حرارة الفم (تحت اللسان) يتألف ميزان الحرارة الجديد اساسيا من خمسين قطعة بلاستيكية صغيرة يحتوى كل منها على كمية من المواد المتبلورة عند درجات

وإذا كان لهذا التكنيك فوائد عديدة في مجال الأبحاث التطبيقية فله أهمية أيضا في مجال الأبحاث الأساسية . وهذا التكنيك لا يزودنا فقط بإمكانية الحصول على مقاطع رقيقة من العينات المطلوبة فحصها ودراساتها « مثل الطرق المستخدمة في فحص مقاطع رقيقة جدا من المواد الأخرى » ولكنه أيضا يزودنا بمنافع أخرى وعديدة الأغراض نتناول منها الآتي :

- رؤية المظهر الخارجى للخلايا .

- رؤية القطع البلازى مع إمكانية رؤيته بسهولة بواسطة النزج الجزئى لقطع الخلية .

- رؤية المظهر الخارجى للنواة ، والفجوات الصغيرة ... الخ .

- دراسة الاسطح الممزقة لهذه الاعضاء الحية . كما لهذا التكنيك فوائد أخرى ، فانه يسمح بإزالة تكوين الشوائب غير المرغوبة والتي من الصعب مراقبتها عند التكوين . ويتم هذا التكنيك Cryodécapage تحت فراغ كامل . ويفهم بالخلاء (الفراغ) الغاز ، وخاصة الهواء المخلخل بدرجة عالية . حيث يتم التبريد وطريقة قطع العينة المتجمدة تحت هذا الفراغ . كما يزود هذا التكنيك بترموتر الازدواج الحرارى وذلك لمراقبة درجة الحرارة . وبعد اتمام الحصول على السطح الممزق والمنتج اثناء قطع العينة المتجمدة والتي تم لها عملية Cryodécapage تبدأ الخطوة التالية وتسمى الطبع أى يتم تبخير جزئيات من الكربون على العينة المقطوعة ، ويتم كل هذه الخطوات تحت الفراغ . وبعد ذلك من السهولة التامة فصل الطبقة المتبخرة والتي ترسبت على العينة والمميزة لتكوين الخلية بواسطة الميكروسكوب الالكترونى . ومن المميزات والفوائد الأساسية لاستخدام الخلايا المتجمدة في الحالة الحية وذلك لفرض فحصها ودراساتها ، فانها تحتفظ بحيويتها عند

إنها مرحلة من مراحل الانتاج الصناعى تتميز بتحرير الانسان من الاداء المباشر لوظائف ادارة العملية الانتاجية ونقل هذه الوظائف الى الاجهزة الأوتوماتيكية . أعدت هذه الآلة النموذجية والصغيرة الحجم من قبل شركة س.ج.م.د.ف والمرتبطة مع شركة تومسون س.اس.اف - وذلك لحساب مفوضية الطاقة الذرية . وبإمكانها العمل مع فريق من الفنيين المتخصصين في هذه المجالات . أما استقلالها بشكل واسع فيفرض وجود عمل فريق بحثى هام من علماء الكيمياء الذين يعملون على توسيع واستخدام الوسائل الجديدة والسريعة لتخليق الجزئيات المرقمة . وقد تطورت هذه الفنون بفضل برامج الأبحاث التى تتعلق بالفيزياء النووية ، وقد وجدت تطبيقات هامة على الصعيدين البيولوجى والطبى وخاصة الالكترونىك والميكانيك والتحليل الكيمائى او فنون تخليق المواد الجديدة ، وأجهزة الحس الالكترونى وتطبيقات المجهز الالكترونى الماسح . فنتيجة ذلك تطور الطب النووى تطورا سريعا وتحقق سيكلوترون طبى لمعالجة الامراض السرطانية بواسطة النيوترونات .

❖ طريقة تكنولوجية حديثة لفحص الخلايا والأنسجة الحية بواسطة استخدام الميكروسكوب الالكترونى .

يقدم هذا التكنيك إمكانيات رائعة وحديثة لفحص المواد البيولوجية والطبية ويطلق على هذا التكنيك اسم Cryodécapage (تبريد - Cryo ، إزالة - décapage) والتطبيقات الشائعة في هذا التكنيك تتناول الآتى :

- دراسة الخلايا النباتية .

- فحص الميكروبات الحية غير المرئية بالعين المجردة .

- فحص الأنسجة النباتية .

أعدت شركة فرنسية - انجليزية للأشعة آلة تستخدم أشعة اكس وقد أطلقت عليها اسم دانسيكوم . يتعلق الامر بطريقة تحدث ثورة في ميدان استخدام تكنولوجيا الاشعاع . يمر شعاع دقيق من أشعة اكس فوق المخ وذلك بشكل طبقة بعد طبقة . تجمع المعلومات بشكل اشارات كهربائية وترسل الى العقل الالكتروني (أورد يناتير) ليعيد تركيب الصور .

وهكذا يمكن مشاهدة مالم يسبق تحقيقه بواسطة التصوير بالأشعة - الاورام الرخوة - تشوهات اوعية الدم وكل امر هام يجب اكتشافه بسرعة لانقاذ المريض .

وتتناول هذه الطريقة كالاتى :

يمتص المخ الأشعة عند مرورها ، كما يقيس جهاز الكاشف أهمية هذا الامتصاص للأشعة . أما المحول المستخدم بالجهاز فيحول الفرق الحادث الى أرقام حتى يمكن دراستها ومعالجتها بواسطة استخدام العقل الالكتروني . تم تميز اسطوانة الفيديو هذه الارقام الى صور واضحة على شريط مغناطيسى لتسجيل صور التلفزيون . كما يأمل الذين يستخدمون الأشعة توسيع تطبيق هذه الآلة في اجزاء اخرى من الجسم .

❖ علاج المرضى المصابين بسرطان الرئة :

ان الجراحة في الوقت الحاضر هي العلاج الوحيد الذى يستطيع شفاء عدد من من المرضى المصابين بسرطان الرئة .

في مركز جراحة مارى - لا نيولونج في باريس . أجريت عمليات لالفي مصاب بالسرطان البدائى في الرئة وقد شفى ٢٣٪ من الذين أجريت لهم عملية منذ خمس سنوات على الأقل . أجريت عمليات اخرى لمئة وستة مرضى مصابين بداء السرطان الثانوى « ميتا ستاز » وقد شفى ٣١٪ من الذين

التحضير تبعا لهذا التكنيك - كما اثبت هذا التكنيك من الامكان وبدون اى مصاعب دراسة هذه العينة المحضرة والمنتجة بهذه الطريقة Cryodécapage بأنها تعطى صورة حقيقية للخلايا والانسجة الحية . وبهذا يثبت بان العينات لم يحدث ولا يطرأ عليها اى تعديل اثناء التحضير بطريقة Cryodécapage وفحصها باستخدام الميكروسكوب الالكتروني . وهنا اود اوضح ان الميكروسكوب الالكتروني عند تشفيائه يستخدم الشعاع الالكتروني بدلا من الشعاع الضوئى كما فى الميكروسكوبات الضوئية .

❖ تكنولوجيا الاشعاع وعلم الكيمياء في

معالجة الامراض السرطانية وغير السرطانية .

تستخدم طريقة تكنولوجية لمعالجة بعض الحالات الشاذة لوعية المخ . وهذه الطريقة التكنولوجية الجديدة لا تحتاج الى ضرورة اجراء عملية جراحية للمريض . حيث ان هذا التكنيك العلاجى بواسطة الفحص الاشعاعى يتم عن طريق اعطاء فرصة للأشعاع كي يتخلل الى الاوعية المصابة مستخدما سابر الكترونيك مغطى بغطاء على شكل بالون . ينفخ بعد ذلك الغطاء ويكون بمستوى جرح الاوعية التى تحت العلاج مما يحدث سدا للقرح مع المحافظة على امتداد الشريان ، وهذا يسمح بتأمين وصول الاوكسجين بشكل جيد . كما ان هذا التكنيك الحديث مخصص حاليا لمعالجة الشقوق الناتجة عن رضوض الوجه وعدد من اشكال القروح التى تصيب شريان القلب والتى لم تكن لوقتنا الحاضر قابلة لاجراء عملية بواسطة جراح الاعصاب ، وعملها غير قابلة للعلاج باى طريقة اخرى . ومع ذلك فبالامكان توسيع نطاق هذا التكنيك في حالات عديدة قبل اجراء عملية جراحية من اجل البحث عن افضل مكان لاجراء العملية بمستوى اوعية المخ وذلك لعدم اتلاف مرور شريان القلب .

دعت هذه النتائج الايجابية الى محاولة استخدام هذا العلاج مع المرضى الذين استؤصلت الاورام لديهم مع المحافظة والعناية على العضو المصاب والمزود ببذلة عظيمة للحماية وتحمل مكان قسم الورم المقطوع . كما تدل ملاحظات أخرى تتناول معالجة اورام المبيض والامعاء الفليضة والمعدة والرئة لدى عدد محدود وخاص ، تدل على اتجاه أطباء السرطان حالياً وهو اتجاه يهدف الى عدم الاقتصار على العلاج المحلى بواسطة الجراحة والاشعة ، وانما للاستعانة ايضا بعلاج كيميائى عام لمهاجمة المرض عندما لا يمكن ادراكه وهو موجود . كما سيسمح هذا الشكل الجديد لمكافحة السرطان الثانوى بمساهمة المريض مساهمة فعالة وحقيقية في علاجه ، كما يمكن بهذه الطريقة ان تعطى فرصة طبية لاجراء عملية تعديل كاملة وتحسين العلاقة بين المريض وأطبائه .

قدم كل من الطبيب دوبراك وديكولكس تقريراً يبين التقدم التكنولوجى الحديث في مكافحة السرطان الثانوى (ميتاستاز) للعظم . يمثل السرطان الثانوى والمعروف بالتكوين البدائى السرطانى انتقالاً او مراكز ثانوية للأورام الخبيثة التى تبدو في موقع بعيد عن المنظمة في البدء .

يقدر الطبيب دوبراك والطبيب ديكولكس أن عشرين بالمائة تقريباً من الأشخاص المصابين بالسرطان قد عرفوا الاصابة بظهور السرطان الثانوى للعظم .

تؤلف الخلايا السرطانية مجموعات بمستوى العظم وتسفر عن تحطيم تدريجى للنسيج العظمى الذى يترجم بشكل كسور . بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٧٠ أدخلت الفنون التقليدية لجراحة النسيج العظمى هذا العلاج الجراحى في حالة ظهور علامات السرطان الثانوى العظمى ولم يكن يعرف قبل ذلك غير العلاج بواسطة تنظيم التشويه عن طريق تجميد العضو

أجريت لهم عمليات تعود الى ثلاث سنوات على الأقل . اما الوفيات خلال العمليات فلا تتجاوز ٣٥٪ . يعود التقدم الذى تحقق في هذا الميدان خاصة الى معرفة المرض باكراً كما يعود الى مراقبة عدد من انواع السرطان المتطور والى علاج كيميائى أكثر فاعلية وأخيراً الى تحسين طاقة العلاج بواسطة الكوبالت الاشعاعى .

شدد العالم بويار (باريس) على ضرورة الجمع بين عدد من الادوية التى يعتبر تأثيرها المشترك له فاعلية أكثر من تناول كل علاج على حدة . وبهذه الوسطة يمكن للعلاج الكيميائى ان يامل القضاء على الخلايا السرطانية بشكل أهم . كما تبين ان العلاج بواسطة الاشعة يمكن ان يستخدم بين مرحلتين من العلاج بواسطة الادوية الكيميائية . . . ومع ذلك ، يجب ان يستخدم في البدء عندما تسد القرحة شعبة الرئة وتسبب الى التنفسى ، من ناحية أخرى ، يعتبر العلاج بواسطة الادوية الكيميائية مفيداً بعد انتزاع القرحة السرطانية . اما النتيجة فتتحسن بمعدل خمسين في المائة وبإمكانها كذلك استدراك أو تخفيف الانتكاس .

* معالجة سرطان العظام :

يسفر هذا النوع من السرطان عن ظهور مرض الرئة . ولفتت الانظار خاصة للاعمال التى يقوم بها العالم جافية وفريقه في الولايات المتحدة ، وهى تناول استخدام العلاج الكيميائى بالادوية الكيميائية في البداية وذلك لوقف نشاط ظهور المرض الذى لا يزال في حالة بسيطة . وهكذا يبدو ٦٠ الى ٨٠ في المائة من المرضى الذين يعالجون بهذا الشكل في حالة مرضية (طبية) بعد مرور اربع سنوات من اجراء العملية الجراحية ، ولا تبدو لديهم علامات ظهور المرض ، بينما تبلغ هذه النسبة ٢٠٪ لدى المرضى الذين يعالجون بالجراحة فقط .

الموضوع بطريقة مركزية داخل قالب اسطواني من الصلب اللين ومن الضروري بعد ذلك ان يجرى اجراء البلمرة تماما لمركب الاسمنت الاكريليكي وذلك لزم من يراوح ما بين ٢٠ دقيقة او اكثر .

❖ أمراض الثدي

نجد هنا مدى أهمية تكنولوجيا العصر في التوصل السريع والكشف عن الجروح في انسجة الثدي حيث ان امراض الثدي « الطفيفة » نجد لها اهميتها وخطورتها . لان مضاعفة الاورام غير السرطانية والتي تعتبر في البداية ليس لها أهمية يمكن ان تؤدي الى استئصال الثدي بشكل كامل . لذلك من المهم ان نتجه الى علماء تكنولوجيا العصر لخدمة هذا المجال . اشار اطباء امراض الثدي الى انه من المهم الكشف سريعا عن الجروح في انسجة الثدي . وهنا تتدخل تكنولوجيا العصر لتجد الطريق السليم لانقاذ المرضى . يجرى جمع المعلومات المتعلقة باستخدام وسائل تكنولوجيا العصر للفحص وذلك للحصول على خلاصة نتائجها بنية الكشف عن اصفر ظاهرة مرضية .

اعدت طريقة للفحص ولا تزال في مرحلة الاختبار ، وهي تتناول تسجيل ومقارنة تبدلات القوى الكهربائية البيولوجية بمستوى الثدي ، ويسمح ذلك بتحديد الثدي الطبيعي والثدي المريض ، وذلك تبعا لاهمية التفير الملحوظ في السعة . كما يمكن تحديد اصل عدد من الاورام الصغيرة التي تبدو في الثدي على سبيل المثال ، نذكر منها ان الاكياس لا تتطور اطلاقا نحو السرطان ولكن يعود اصلها الى عوامل نفسية وجسدية . نتيجة ذلك ادت الى الاهتمام بدراسة وفحص خطوط الجلد والاصابع واليد بكاملها لدى ثلاثة آلاف امرأة فقط لوحظ ان عددا من هذه الخطوط يدل اتجاه « تجسيد » للعواطف والاجهادات على الصعيد الجسدي . وفي الوضع الحالي لهذه الاعمال ، قدر ان بعض الحالات الخاصة من الامكان ان يشار اليها وهي قابلية الإصابة

المصاب بالجص . في الوقت الحاضر - تطورت فنون تكنولوجيا التحطيم التدريجي للنسيج العظمي او البدلات الخاصة بكسور العظم . وهي تحمل املا جديدا للمرضى . يكمن هذا الامل بامكانية الانتقال بحرية وبدون خطر يهدد انكسار العظم . يحل هذا الفن فوائدا جديدة كما يبين أهمية تكنولوجيا علم البوليمر في العلاج الطبي الحديث والتي ساعدت هذا الشكل الجديد للعلاج .

وهناك أولا استخدام الاسمنت الاكريليكي ، حيث يجرى حفر العظم المصاب ويملا الفراغ بالاسمنت . وبالامكان كذلك استخدام مسمار في عظم المصاب ، وتجرى تقويته كذلك بالاسمنت الاكريليكي .

وبالامكان كذلك بالاستعانة « بالتحطيم الشامل » الذي يؤمن صلابة فورية ويسمح بالحصول على تقوية العظم بحيث يستطيع المقاومة فورا وطوال فترة طويلة امام الحركات الميكانيكية التي يخضع لها . اما جراحة استبدال الاعضاء فتتمثل شكلا آخر للعلاج ويوصى بها : ان تقوية البدلات بواسطة الاسمنت الاكريليكي هي عبارة عن عنصر اساسي لنجاحها . ويعتمد الاسمنت الاكريليكي الجراحي على مادة بولي ميثيل ميثا اكريلات وتستخدم كمادة اساسية لمركبين ، في احدى المركبين تكون جزئيات سلفات الباريوم منتشرة داخل المادة الاساسية . وتخلط كمية معلومة من جزئيات سلفات الباريوم ببودرة البولي ميثيل اكريلات ويضاف بعد ذلك سائل الميثيل ميثا اكريلات للخليط بالنسبة الآتية :

جزءان من بولي ميثيل ميثا اكريلات وزنا .

١ - جزء من سائل ميثيل ميثا اكريلات وزنا .

وبعد ذلك يخلط خلطا جيدا وان يكون في حالة رخوة ويضغط حول قضيب من الصلب

ومع مراقبة طبية سليمة ، ليستطيع الحياة بشكل عادى على قدر الامكان .

❖ التكنولوجيا وميدان طب الاسنان :

اقيم في عام ١٩٧٤ المؤتمر الثاني الوطني لجمعية طب الاسنان الفرنسية في قصر المؤتمرات بباريس وتناولت اكثر المذكرات العلمية نزع اللثة من الاسنان واصابتها بالقروح وبنسبة هامة . توازى إصابة الاسنان بالقروح كمية استهلاك السكر . كما لا يوجد أى لقاح ضد قرح الاسنان ، ومن أجل تجنب هذا المرض ، لا بد من المحافظة على الانظمة الصحية والاساسية لتنظيف الاسنان مرارا كل يوم وذلك لمنع ظهور طبقة تتراكم فوق الاسنان . كما يعتبر نزع اللثة عن السن مسئولا عن استئصال عدد كبير من الاسنان .

واذا عني بالاسنان باكرا بالامكان شفاؤها وذلك بفضل جراحة تسمح بالقضاء على رسوب الطرمة فوق اللثة . اما افضل وقاية لهذه الظاهرة فهي نظافة الفم . وبهذا الشأن ايضا اسفرت عدة ابحاث عن اعداد بدلة الاسنان أى جهاز صغير يقوم مقام عمل السنن واوضحت النتائج باننا الان نشهد نهاية اسطورة الذهب . الواقع أن هذا المعدن الثمين يستبدل أكثر فأكثر بمزيج يتركب من أساس يعتمد على النيكل والكروم - تملك هذه السبيكة مميزات مماثلة ولكنها اصعب اعدادا لانها اقل ليونة . ومع ذلك يعتبر سعرها اقل ، مما يسمح بتحقيق توفير هام عند اعداد بدلة للأسنان . تمكن حوالي سبعمئة طبيب اسنان بكلية جراحة الاسنان بجامعة باريس من اجراء دراسات تكتيكية ترافقها بيانات واقعية عن تأثير الطبقة الصفحية الشكل التي تغطى السن والتي تحدث التسوس والنخر وتجريد الاسنان . كما أنه من السهولة أن يتمكن الانسان من مقاومة تسوس الاسنان والنخر وذلك بالعناية الصحية على الاسنان . كما أن تنظيف الاسنان

لامراض الشدى الطفيفة نتيجة للاعراض السابق ذكرها .

في نطلا... المحادثات التي تمت بفرنسا (باريس) بشأن مرض السرطان والمصابين بداء السكر وبناء على طلب العالم ماتيه حاول اخصائيان وهما جاكين فابر وهينريكا أونج تحديد نفسية المصاب بداء السرطان وقد وضحا على التوالي مختلف المراحل التي يتعرض لها المصاب بداء السرطان .

عندما يكتشف المصاب بداء السرطان حقيقة مرضه ، فانه سيواجه مرحلة انهيار عصبي قبل ان يتمالك نفسه . عندئذ من الضروري تخفيف حدة مخاوفه والحديث عن علاجه والحديث مع غيره من عائلته . لانه في حاجة للثقة بالطبيب الذي يقوم بعلاجه وان يحصل على طمأنينة فعلية من طبيبه . وتحت هذه الظروف في الامكان ان يتعاون مع الطبيب لمكافحة المرض . وبالتالي عندما يتأكد ويعرف أن جميع التدابير قد اتخذت لتخفيف من آلامه الجسدية والنفسية، عندئذ يقل قلقه ويأسه . كما السح كثيرا كل من الطبيين جاكين فابر وهينريكا أونج بضرورة التحدث بين مرضى السرطان وعائلتهم وكذلك الاطباء ايضا وذلك لتخفيف حدة المرض لديهم . والواقع أن المرضى بداء السرطان ينتظرون من الهيئة الطبية وكذلك من الذين يجاورونهم وعائلتهم قوة الكفاح معهم .

كما أوضح كل من السادة تشوبرتسكى، لورانت ، دردين وتوتان ضرورة تعليم المصابين بداء السكر منذ البداية ماهية مرضه وكيفية معالجته . كما من الضروري والواجب ان يتخذ هذا التعليم شكلا جديا وعمليا وعلميا . وهو يحتاج الى عشر ساعات تقريبا . وتكمل هذه الدراسات بتوزيع منشورات خاصة على المرضى بداء السكر . وبالنسبة للمرضى الذين يحتاجون لاستخدام الانسولين ، يجب ان يتلقى المريض الاشراف بنفسه على احواله

دوليا شهيرا في ميدان امراض الفم والاسنان ، وتناول قسم هام من ابحاثه كيفية تركيب السن . وقد كرس احدث اعماله وتجاربه العلمية البحثية لحركة انتقال المواد الكلسية بمستوى مختلف اطراف السن . كما تناولت ابحاثه بعد ذلك بواسطة استخدام المجهر الالكتروني الماسح (التصوير بالاشعة) . تحققت هذه الاعمال في اسنان القلط المولود بعد حقن شرايينه بالكلس المشع من نوع (Ca 45)، وبرهن العالم فرانك عن وجود طريقتين لمسور الكلس (الكالسيوم) من شعب الدم الى الانسجة التي يقويها الكالسيوم المشع . يعر الطريق الاول بين خلايا النسيج والثاني عبر الخلايا المسؤولة عن تركيب العظم . اما قوة وطرافة هذا العمل فتعود لاثباته ان الطريق الثاني هو اهم من الطريق الاول . تتحقق هذه الاعمال والابحاث بواسطة الحيوانات المولودة ، وهي تقدم معلومات ثمينة حول تركيب الاسنان .

والتطبيقات العملية لمثل هذه الاكتشافات من الامكان ان تتضاعف وخاصة في ما يتعلق بآلية ظهور وعلاج تركيب السن والانسجة الخاصة التي تعتمد عليها السن عند الظهور .

كما تحدث ايضا العالم بيار فوهر عضو الاكاديمية الوطنية لطب الاسنان بفرنسا عن طريقة جديدة تتناول استخدام اكسيد الكالسيوم الثقيل او الهيكسوكاليكس، اكتشفت هذه المادة الجديدة عام ١٩٧٢ من قبل العالم بيار برنار من باريس. وقد درسها فريق يتألف من ستة باحثين تمكنوا من تنظيم استخدامها بشكل علمي . وقد استخدم الهيكسوكاليكس لمعالجة ١٦٠٠ شخص تقريبا . سمح له ذلك بالقول ان هذه المادة يمكن ان تستخدم بشكل فعال في جميع حالات معالجة الاسنان .

ان امكانيات هذه المادة ليست ضئيلة ، وهي تشمل القضاء على جميع الادوية وتخفيض استخدام الادوات اليدوية ، وكذلك تخفيض

بانتظام يكفي في الحقيقة لمنع ظهور هذه الطبقة الصفيحية فوق الاسنان . وهي تتألف بنسبة ٨٠٪ من جراثيم . وفي الواقع هذه الجراثيم تنتهي بمهاجمة الانسجة التي تسند السن ، وبالتالي تحمي هذه الانسجة وتصبح غالبا مقرا للعدوى قبل ان تفقد الطاقة الكلية التي تسند السن قبل الوقوع .

ومن اهم الاستنتاجات التي اسفرت بهذا الاجتماعي العلمي التكنولوجي في ميدان طب الاسنان :

— مواد جديدة للاجهزة التي تقوم مقام السن وذلك للحماية وتسمى بالبدلة وملء السدود . كما هناك اصماغ جديدة لها قدرة الالتصاق بالسن بشكل افضل ومن اهم مميزاتها بأنه ليس من الضروري عمل اعداد خاص . وقد اوصى باستخدامها .

— زرع الاسنان ، ويعتبر من التجارب التكنيكية الحديثة، ويمثل ذلك جلدور صناعية حقيقية كما تستخدم كاساس للجهاز الذي يقوم مقام السن او عديد من الاسنان (البدلة) ويوضع على جانبي العظم ويثبت في مستوى سمك العظم ، ويبدو ان الاتجاه السائد نحو استخدام الفحم الزجاجي .

كما توصلوا بأنه يوجد تأثيرات جانبية اخرى وذلك لالتهاب الاسنان ، وبالامكان ان يكون هذا التأثير على القلب واوعية الدم والعظام والكلية والعين او الجلد .

في الوقت الحالي — ولمثل هذه الحالات — لا بد من العمل بحذر شديد وعدم انتزاع الاسنان بدون تبصر . وبناء على ذلك يجب تحديد الموقف بدقة سواء لانتزاع الاسنان أو حفظها تبعا للخطر الذي يمكن ان يكون حيويًا.

يعتبر الاستاذ دكتور روبرت فرانك مدير كلية جراحة الاسنان في ستراسبورج ، اخصائيا

نسبة اجراء العمليات الجراحية ، ومن شأنها كذلك ان تضاعف نمو العظم من جديد .

ايضا أسفرت عدة ابحاث عن التغيرات الحادثة في تركيب ودرجة نفاذية العاج الخاص بأقنية جذر السن بعد تعرضه للحوامض الضعيفة والمواد المطهرة بالنتائج الآتية :

- ليونة عاج جذر السن بواسطة المواد الكيميائية يقلل الوقت اللازم لعملية توسيع قناة الجذر ميكانيكيا . كما وجد ان درجة ليونة العاج تتناسب طرديا مع وقت الانغماس ولذلك يجب استعمال اى مادة من مواد البحث لمدة ١٥ دقيقة فقط .

- ليست عملية تحديد الوزن المفقود طريقة دقيقة لمعرفة تأثير المادة على علاج جذر السن، ولكن قياس أيونات الكالسيوم الموجودة في خلايا الكالسيوم المترسبة تعطى ضوءا أفضل لتحديد تأثير المواد المستعملة في البحث على عناصر العاج غير العضوية . ومن الواضح من نتائج البحث ان كل المواد المستخدمة تعطى زيادة في أيونات الكالسيوم بعد مضي ٢٤ ساعة مع تغير بسيط فيها بعد مضي ٤٨ ساعة - ومن ضمن النتائج ان تحديد وضع استعمال اى مادة يعطى تفاعلا محدودا .

- منحنيات ونتائج تحليل حيود الاشعة السينية (اكس) اعطت اجابة واضحة عن التفاعلات والمركبات الجديدة الناتجة بين عاج جذر السن وبين هذه المواد .

- كما وجد ان اساس كل المكونات الجديدة الناتجة هي خلايا الكالسيوم ، وان التغيرات في فوسفات الكالسيوم القاعدية (اساس تركيب السن) تغيرات بسيطة وكل التغيرات تمت في مركبات اخرى مثل هيدروكسيد الكالسيوم .

- درجة نفاذية الصبغة تتناسب طرديا مع وقت الانغماس وهذا يعطى ضوءا جديدا على

استعمال المواد الكيميائية قبل استعمال المواد المطهرة .

- وجد ان اى مادة كيميائية تستعمل يجب الا تتعدى حدود قناة العصب حتى لا تسبب اى ألم للمريض في بادئ الامر .

- كما نستطيع القول بأنه لم يستقر الأمر بعد على شكل وضع هذه المواد عند استعمالها اكلينيكيا . ان استعمال كمية هذه المواد في التجارب العملية كانت اكثر بكثير من كمية المادة اللازمة عند استعمالها اكلينيكيا، ولكن هذه الكميات يمكنها ان تعطينا فكرة عن التغيرات التي ستحدث في عاج السن .

ومن التحليلات الاحصائية ومقارنة حامض الخليك ١٠ في المائة ، ٢٠ في المائة وثلاث مواد اخرى متداولة مثل :

EDTA - ENDOSOLVE - LARGALULTRA

وجد انه يفضل تكرار استعمال حامض الخليك كمادة كيميائية لعملية التوسع الكيميائي الميكانيكي اللازمة في قنوات السن .

❖ الصحة العامة وطب الأطفال

عرفت ابحاث الكلية خزل السنوات العشر الاخيرة تقدما خاصا فيما يتعلق بأمراض الكلية والضغط . اذا كان قد تحقق في الواقع تقدم مدهش للعلاج بواسطة الكلية الصناعية وتطعيم الكلية . ولا تزال هذه الوسائل مسكنة كما تمثل حولا مؤقتة . ان الوقاية من امراض الكلية ترجع عامة لفضل الدراسات والابحاث المتعلقة بالوراثة خاصة ، كما انها ستسمح بتخفيض نقص عمل الكلية لدى الطفل وبالتالي لدى البالغين .

اوضح العالم جون هامبورج عضو اكاديمية العلوم ومدير مركز ابحاث امراض الكلية في مستشفى نيكر باريس وذلك كان خلال المؤتمر الذي عقد بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس

المرض ، وبالفعل ظهرت فعاليته بإيقاف الوباء الأخير الذى حدث فى البرازيل .

ذكر العالم تريو من مؤسسة ميريو انه اذا كانت الاوبئة الكبرى المعروفة مرتبطة بالجراثيم من نوع 1 ، س ، فلا يمكن التأكد بأن الجرثومة من نوع ب تعتبر مسؤولة لوحدها . فى فرنسا جرى احصاء كل عام وذلك من الالف الى الالف وخمسمائة اصابة ، كما لا يمكن التأكيد بأنها لن تتخذ يوما هذا الشكل من الانتشار . فى الوقت الحالى لم يتمكن التحقيق وتصنيع الطعم المقابل . واما فيما يتعلق بمرض الانفلونزا وذلك خلافا لالتهابات الاغشية المحاطة بالمخ ، لا يوجد حاليا أى علاج .

يقضى داء الانفلونزا فى فرنسا كل شتاء على ٨ - ١٨ الف شخص وبينهم ٩٠ ٪ من الذين تجاوزوا الستين عاما . اما التطعيم فيبدو افضل الاعمال . ذكر العالم هانون من مؤسسة باستير ما يلى :

اذا كانت حماية التطعيم ضد الانفلونزا فى البداية غير كاملة (جرعة التطعيم) قليلة مع عدم معرفة سلوك تطور الجرثومة التى تعتبر اصل الوباء . اما اليوم فيفضل تطور فنون تكنولوجيا التقنية سمحت لنا باستخدام جرعات منتجة وذات فعالية قصوى مع اختفاء كل الاضرار تقريبا التى كانت سابقا تنتج عنها .

منذ شهر نوفمبر ١٩٧٥ ولان يجرى بقسم الامراض المعدية فى قسم البحث الطبى الاجتماعى ، وهو تابع للمؤسسة الوطنية للبحث الطبى لاوروبا ، تحقيق يعتمد على نسبة تفيب الطلبة عن حضور الدروس وتعتبر هذه النسبة من التفيب كدليل على اهمية انتشار وباء الانفلونزا . من اجل هذا التحقيق ، جرى اختبار تلاميذ الصف الاول والثانى فى المدارس الابتدائية . وتراوح اعمارهم بين السادسة والثامنة ، وهو السن الذى تصيبه عادة امراض الاطفال المعدية (الحصبة

المؤسسة الوطنية للصحة العامة والبحث الطبى ، فان زيادة نسبة البولينا فى الدم ليست ناتجة عن تجمع المادة البلورية من البولينا نتيجة ضعف الكلية لدى الانسان السليم فقط بل انها تقضى على هذه المادة ايضا . وان كثيرا من ذلك برهنت الابحاث التجريبية خلال سنوات عديدة على ان عجز وظائف الكلية يؤدى كذلك الى سلسلة متوالية من الخلل او عدم الاتزان فى المواد الهامة والتى يعتمد عليها اساسا الوسط الداخلى لجسم الانسان مثل الماء والصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنيسيوم وغيرها من المواد الثابتة . وبرهنت الابحاث التى تتعلق بامراض الكلية والتى حققها عدد من الفرق العملية البحثية من العلماء الفرنسيين والمتخصصين فى هذا الفرع على ما وراء « أزمة الكلية الحادة » من امراض خطيرة تؤدى فى النهاية لوفاة المرضى . وهذه الامراض المختلفة تهاجم الكلية وتحدث فيها اصابات . وان معرفة كل من هذا الخلل وعدم الاتزان فى المواد الاساسية فى تركيب جسم الانسان بشكل اوسع وكذلك البحث عن اسبابه (يتعلق الامر غالبا بالمناعة) يعتبر لازما للعلاج وكذلك للوقاية من هذه الامراض . ويحاول علماء الكيمياء عزل المواد السامة واحدة بعد الاخرى وهى التى تجرى مع الدورة الدموية وتعتبر مسؤولة عن الخلل القاتل . ان الكلية الصناعية وحدها هى التى تستطيع حاليا تحقيق عملية التنظيف .

اما فيما يتعلق بامراض التهاب الاغشية المحاطة بالمخ ، نجد حاليا ان يعاد استخدام المضادات الحيوية والسولفاميد لعلاج مثل هذه الامراض ، وبالتالي نتج عن ذلك ان نسبة الوفيات تناقصت من ٨٠ الى ٢٠ فى المائة ومع ذلك لا تزال هذه النسبة مرتفعة ، ولكن ذلك يعود جزئيا الى قدرة الجرثومة المدهشة والتى تسبب هذا المرض واصرارها على الحياة والتطور بسهولة لمقاومة العلاج . فاهتم الباحثون بتصنيع طعم خاص للوقاية من هذا

الطفل . ولا يوجد مثيل لهذا المركز في فرنسا نفسها او الخارج ايضا ويديره العالم الاجيل .

اسفر وجود هذا المركز ، نتيجة تعاون بين الخدمات المتخصصة بالمستشفى ، عن دراسة التشخيص والاسباب لامراض الكبد لدى الطفل ، وبين وحدة أبحاث امراض الكبد لدى الطفل . وقد انشئت هذه الوحدة من الابحاث التي تتعلق بامراض الكبد بالمؤسسة الوطنية والبحث الطبى عام ١٩٦٩ .

عقد القسم الاول من هذا الاجتماع الدولى تحت رئاسة العالم روبر دى برو فى قصر اونج شامب حيث يوجد هناك مقر المركز الدولى للطفولة . وفى هذا الاجتماع الدولى اجتمع خمسة عشر امريكا وخمسة عشر اوروبيا . اما المرحلة الثانية فقد عقدت داخل مقر وحدة أبحاث امراض الكبد لدى الطفل . سمح مؤتمر المؤسسة الوطنية للصحة والبحث الطبى لعدد كبير من الاطباء والباحثين بالمساهمة فى أعمال القسم الاول .

ترتبط احدى الاعمال الجديدة لهذا اللقاء بتنوع الابحاث العلمية . كما ضم الاخصائيين فى الكيمياء الحيوية وفى علم المناعة وعلم الجراثيم وكذلك الاخصائيين فى علم التشريح - والامراض او الاطباء المتخصصين فى امراض الكبد لدى البالغين او الاطفال - وفى هذه المناسبة قامت فكرة السباق الاساسية للتقدم التكنولوجى ودورها الهام فى البحث الطبى .

واشار العالم جوى جود لويسكى الى موضوعين حديثين يتعلقان بالعلاج بواسطة المياه المعدنية : التهاب الكبد الجرثومى والانفعالات الفذائية للطفل ، وبالإمكان يؤدى موضوع الانفعالات الفذائية لدى الطفل الى انشاء مستشفى خاص لاجل معالجة اضطراب الهضم لدى الطفل .

التقى حوالى عشرة الاف طبيب من جميع بلدان العالم لتبادل معلوماتهم وخبرتهم فى

- التهاب لوزتى الاذنين الخ) فى فرنسا مثلا اختيرت ١٢ مدينة . من بينها نانت ، بوردو ، مونييليه ، ليون وغيرها من المدن . وفى هذه المدن اجرى مراقبة ستة آلاف طفل تقريبا . وفى كل صف يحدد يوميا عدد الفائزين وما سبب التفيب عن الدراسة . وعندما تتجاوز نسبة الفائزين ١٥ ٪ يتوجه شخص مكلف بالتحقيق الى المكان الذى يقع فيه الغياب من اجل تحديد ومعرفة ما اذا كان الامر يتعلق بوباء الانفلونزا . وفى حالة تحديد المرض ويشخص على انه بالفعل وباء الانفلونزا يتناول الخطوات الهامة الآتية :

يجرى التقاط بصاق الحلق لدى الاطفال المرضى وكذلك كل من يجاورهم من العائلة ، ترسل جميع هذه الآثار الى مؤسسة باستير فى باريس او الى مركز مراقبة وباء الانفلونزا او الى المختبرات الوطنية للصحة العامة وهى مختبرات تضم قسم الاوبئة . وبالتالي تقوم جميع الفحوصات اللازمة لعزل عدد من انواع جراثيم الانفلونزا ودراستها دراسة بناءة . ونتيجة لهذه البحوث العميقة سمحت النتائج بمعرفة انتماء هذه الجراثيم الى نوع ا - فيكتوريا او نوع الثانى من ب ..

وبالتالى استطاعوا ان يحددوا نوع الجرثومة التى ينتمى اليها وباء الانفلونزا ، ومن هذا المنطلق بدأت المؤسسات الصحية فى صنع الطعم الخاص لوباء الانفلونزا واستخدام العلاج الكيمائى السليم للقضاء على هذه الانواع من وباء الانفلونزا .

امراض الكبد لدى الاطفال

عقد فى اوروبا اجتماع دولى خصص للحديث عن امراض الكبد ومجارى الفدة الصفراء لدى الطفل وكان مقره فى باريس بمستشفى الاطفال بالضاحية الجنوبية . حيث اقيم خلال السنوات العشر الاخيرة مركز أبحاث لدراسة امراض الكبد ومجارى الفدة الصفراء لدى

في الحقيقة ، يعود أكثر حوادث التهابات مجرى التنفس لدى الاطفال والرضع، كما تعود تقريبا كل اصابات الانف والحلق ورأس الحلق وشعبة الرئة الى أصل جرثومي . وبالتالي تكون المضادات الحيوية والتي تخفض الحرارة (الحمى) ليس لها تأثير على هذه الامراض بشكل عام .

بالنسبة لاصابة الاطفال بارتفاع الحرارة لمدة طويلة غير معروفة السبب . في هذه الحالة يخشى أن تعطى المضادات الحيوية للطفل لانه من الاحتمال ان تعطى نتائج خاطئة أو سلبية بالنسبة للفحوص البيولوجية اللازمة للعلاج السليم . اما فيما يتعلق بإجراء عملية جراحية قادمة أو طفل يتناول ادوية كورتيزونية أو مائة للالتهاب العنسي ، يعتبر تطور التدابير الصحية الشديدة ، وخاصة في المستشفى ، أكثر فعالية وأقل خطورة من العلاج الوقائي بواسطة ادوية المضادات الحيوية .

حقق فريق مؤسسة باستير بفرنسا بادارة العالم فرانسوا جاكوب الحائز على جائزة نوبل الطبية - والعالم روبر فور اكتشافا هاما في علم الحياة . سمح هذا الاكتشاف بادراك سبب عدم تأثير مناعة الجسم على الجنين لدى المرأة الحامل وكذلك على السرطان في الجسم، بينما تعتبر هذه المناعة سبب لفظ الطعوم لأعضاء خارجية . وبالمقابل لم يحن الوقت للقول ما اذا كان هذا الاكتشاف يمكن أن يساهم في معالجة السرطان . وقد تركزت البحوث التجريبية الاخيرة على صعيد البحث الطبى على موضوع الخلايا التي بدلت نظريات الوراثة والفسولوجيا وعلم الامراض بكامله . كما اشار البحث الى علم المناعة مع الاكتشاف الهام الى علم الاجنة مع تخمين الامراض في ذرات الخلايا قبل الولادة ، وكذلك الى علم الهرمونات مع الوسائل الحديثة لمنع الحمل .

نطاق الميدان الطبى والعلاج والجراحة والاختصاصات التكنولوجية العصرية وامراض الفم والاسنان . وتم نقاش أربعة أبحاث حول مواضيع الساعة (المسؤولية الطبية ، ومنع الحمل - حوادث منزلية لدى الطفل ، مراقبة وصف الادوية وعدم الافراط في تناولها - المصابون بداء المفاصل الروماتزمية) . كما تناول النقاش أيضا جميع ميادين الجراحة العامة والصحة العامة والاختصاصات، وخاصة طب الاطفال، والتوليد وامراض الفم والاسنان اما في مركز المستشفى الجامعى - بيتيه - سالبترير فقد جرى نقاش حول الافراط في استخدام المضادات الحيوية لدى الطفل . حيث انه بعد ثلاثين عاما من اكتشاف هذه الادوية، تبدو باستمرار ضرورة تعلم استخدام هذه الادوية بطريقة منتظمة وبدون افراط . لأن الاستخدام غير المنتظم والافراط في استعمالها لا يؤدي فقط الى الاستهلاك المادى (المالى) ، بل يؤدي أيضا الى المضاعفات المتزايدة والخطرة لبدور المقاومة المختارة والبارزة من الانسان ، وهى تبعد عن كل مشروع علاجى . هذه السعة من المقاومة للمضادات الحيوية تعود الى الاحماض المحتوية على « طفيليات » في النواة للخلايا الحية او (بلاسميد) وبصورة عامة - من الضروري أن تستخدم المضادات الحيوية بطريقة سليمة والتي تستخدم بدون تمييز على سبيل الوقاية أو قبل معرفة ما اذا كانت هذه الجرثومة هى المسؤولة عن المرض ، وكذلك نوع هذه الجرثومة . يقدر علماء الجراثيم انه لا يصح استخدام المضادات الحيوية - أى الادوية المقاومة لحرارة الجسم - « للتغطية » كما يجب عدم استخدامها على سبيل الوقاية، الا في حالات محددة بعد معرفة نوع الجرثومة المطابقة للمرض والمقصود مكافحتها . كل هذا يعنى عدم اللجوء الى المضادات الحيوية قبل معرفة الجرثومة ونوع حاسبتها النسوية للمرض نفسه .

الدهنية والسكرية بشكل مبالغ فيه يؤدي كل هذا الى الاضطرابات الخطرة بجسم الانسان . وبالتالي لابد من تنظيم تربية حقيقية للتغذية تسمح بالمحافظة على التوازن الغذائي للانسان . بمعنى انه منذ الطفولة ، لابد من بدل تربية غذائية صحية للطفل ، مع دراسة دور الفيتامينات وتأثيراتها سواء كان الامر يتعلق بوجودها في العناصر الطبيعية او حفظها في المواد الصناعية او تأثيرها بواسطة المنتجات الصيدلانية .

عقدت اجتماعات في أوروبا وكان مقر هذا الاجتماع في باريس لدراسة أبحاث القضايا المتعلقة بالصحة الغذائية . وقد نظمت أخيراً من جانب اللجنة الوطنية للطفولة والمركز الوطني لتنسيق الدراسات والأبحاث المتعلقة بالتغذية خلال ثلاثة اجتماعات شدد المشاركون على ضرورة تعديل السلوك الغذائي للأطفال والبالغين ، وذلك بتحقيق تطور في تناول الغذاء الصحي وكمية السعرات اللازمة للطفل . حيث انه من الملاحظ ان الأطفال في سن الرابعة قد اعتادوا اكل الطعام المالح او الحار على كثير من السكر مع عدم شرب الماء .

أشار العالم روسيه رئيس أطباء مستشفى سان فانسان دي بول بباريس خلال اجتماع اللجنة الوطنية للطفولة وذلك لدراسة تغذية الشباب ، ذكر ان ثلث حالات البدانة والضعف يبدأ منذ الطفولة ، وأن عدداً من العادات الغذائية العائلية السيئة تمهد لبدانة الطفل . كما أضاف قائلاً : يخشى من تضخم الشحم بشكل غير قابل للنقص لدى الأطفال ويحافظ على ذلك عدم انتظار هرموني . لذلك يجب على طبيب الأطفال ان يراقب كل زيادة في الوزن .

كما أشار العالم دويان خلال اجتماع المركز الوطني لتنسيق الدراسات وأبحاث التغذية الى العادات السيئة منذ الأشهر الأولى وخلال العامين الأولين من الحياة . قال : « خلال الأشهر الأولى ينمو الطفل ويزيد وزنه جرماً

ذكر العالم مينكوفسكي ان مكافحة الوضع السابق لاوانه ، وهو يمثل السبب الأول للوفيات لدى المواليد الجدد يجب ان يتخذ الافضلية في ميدان الصحة العامة . من أصل ٨٠٠ ألف ولادة في فرنسا خلال عام ١٩٧٣ ، تحقق ٨٠ ألف ولادة قبل الاوان . ومن أصل هذا العدد ، توفي خمسة عشر ألفاً ، كما ان عدداً شبيهاً يصاب بعاهات تتعلق بالدكاء والحركة ، ومن ناحية أخرى لاحظ المسالم مينكوفسكي ان التقدم الهام في ميدان العلاج لا يجب ان ينسبنا ان الكشف عن الحمل الذي يمثل « خطراً كبيراً » والوقاية منه لا يزالان يعتبران السلاح الأكثر فعالية ضد الولادة السابقة لاوانها . وان زيارة الحامل للطبيب أربع مرات خلال فترة الحمل تعتبر من الأصل غير كافية . تبين انه في حالة فحص الحامل مرة في الشهر من الامكان تجنب حالات الوفاة للمواليد بنسبة كبيرة . كما يمكن تجنب إصابة ستين ألفاً بالعاهات خلال خمسة عشر عاماً . اشارت الطبيبة جنيفيف بارييه المختصة بالتخدير وإعادة تحريك المولود اشارت الى الاخطار التي تصيب الحوامل اللواتي يتلصص جميع انواع الادوية بفرض الوقاية والتقوية . فان عدداً من انواع الادوية المدرة للبول يمكن ان تكون سبب عدم التوازن الايوني لدى المرأة والجنين ، كما تسبب في نقص كمية الكالسيوم لدى الام . ان الادوية المسكنة والمهدئة للاعصاب تسرب اكثر الى الجنين بالنسبة للام . لذلك يجب الامتناع المطلق عن كل علاج عند الاقتراب من مرحلة الوضع .

* أبحاث تتعلق بالصحة الغذائية

ان الحياة الحديثة قد عدلت بعمق كثير انفعالات الجسم البشري ، الذي سيحتاج من جديد لاشياء عديدة يجب على ادوية ألفد ان تقدمها بمساهمة تكنولوجيا العصر .

يلاحظ في الواقع ان اكثر مساوئ التغذية بدون تعقل وحكمة والتي تسبب الزيادة الفائضة في السعرات والامتصاص الزائد للمواد

تنظيم الغذاء أن الاخطار الواقعية للاضطرابات والتي تسبب الحوادث إنما تبدو خاصة عندما يبدأ تناول العلاج ، وذلك قبل أن يعتاد الجسم عليه . ومن هذا المنطلق عكف الاخصائيون على العلاقات التي تنشأ بين الاجهاد العصبي وظروف التغذية ، وقد اتفقوا على أهمية الغذاء المعقول والمناسب . ومن أجل تمتع بانتباه كامل وسرعة استجابة ، لابد من تجنب نقص نسبة السكر في الدم مما يخفف نسبة الاوكسجين وحتى البروتين في خلايا الاعصاب . وكذلك تناول وجبات الطعام الفنية وهي تحدث عادة رغبة في التعاس . فنجد من المستحسن بالفعل احترام السعة المنتظمة للانتباه المفروضة على السائق والتي عادة تنقص بعد ساعتين من قيادة السيارة وذلك نتيجة للارهاق . بالتالي يجب هنا على السائق الوقوف بانتظام لتناول وجبات صغيرة من الطعام والمواد السائلة . تسمح هذه التدابير للسائقين بالمحافظة على انتباه أقصى وتجنب جميع الحوادث التي تعود الى تعب الجسد والاعصاب .

انشىء فريق بحثي لدراسة التعب والاجهادات العصبية ، وهو يضم الاطباء والباحثين في المجالات المختلفة - الأمراض والفسولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والطب العام والطب المهني والاطباء الشرفين على الصحة الرياضية (الطب الرياضي) والغدد والتنفس ... وكانت غاية هذا الفريق البحثي هي تناول المواضيع التالية :

- تحديد الاسباب والمظاهر والعناية بالاجهاد وضعف القوة الناتجة غالبا عن عجز عصبي أو نفسي .

- جمع ودراسة نشر جميع المستندات المتعلقة بهذه المواضيع .

- اعداد وتطبيق التدابير الصحية والوقاية بالنسبة لجميع علامات الاجهاد .

في الساعة (حوالي ٢٥ جراما يوميا) اما وزن الدماغ فيزيد جرامين يوميا ، وبعد ١٢ شهرا يزيد وزن الطفل ثلاث مرات بالنسبة لوزنه عند مولده ، كما يبلغ طوله عندما يبلغ عامين نصف الطول النهائي لبلوغه » . وهكذا برهن على أهمية قضايا التغذية لدى الرضيع، وشدد على الاخطاء التي تتردد في الغالب :

- تجاهل الأم للمميزات المختلفة لانواع الحليب وزيادة الكمية .

- استخدام باكر للغذاء المالح او الكثير السكر .

- لم يعد الاطفال بين الرابعة والسادسة يعرفون شرب الماء . كما يعطون مشروبات كثيرة السكر والالوان .

ونظمت ايضا مؤسسة تنظيم الغذاء في كلية الطب الباريسية مؤتمرا تناول دراسة الموضوعات المرتبطة بالصحة العامة والصحة الغذائية لسائق السيارة . توجد في الحقيقة علاقة وثيقة بين نظام الغذاء والانتباه . حدد عدد كبير من الاخصائيين التابعين للهيئة الطبية والمنظمات المسؤولة عن سلامة السير ، حددوا تأثير الكحول وعدد من الادوية بصورة خاصة على نوع رد الفعل العصبي . كما دلت الاحصاءات بوضوح على ان نسبة الحوادث تزداد مع زيادة نسبة الكحول في الدم . وان سلامة السير تعتبر أفضل طالما نسبة الكحول لا تزيد عن ٣.٠ جرام ، ويوازي ذلك كمية امتصاص ضئيلة وخاصة اذا جرى ابتلاع عدد كبير من الادوية دفعة واحدة قبل تناول الطعام فهناك عدد من الادوية المسكنة واللازمة لحالات الصرع والمنشطة والفاقة للشهية « القاطعة للجوع » وهي تؤثر مثل الكحول وتحدث زيادة في الوقت اللازم لاحداث رد فعل في الاعصاب، كما تحدث نقصا في قدرة تنسيق اعصاب البصر واضطرابات في التمييز والانتباه . كما وضحت الابحاث التجريبية التي اجريت من قبل مؤسسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا
وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَرْتَشِقُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ
الشَّجَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذَلَّلًا يَخْرُجُ مِنْ
بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ
أَنْ يَفِي ذَٰلِكَ لَا يَسْتَلْقُونَ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

صلى الله عليه وسلم

المؤلف . . . ان للعسل فوائد عديدة ونافعة وله آثار نافعة اذا استنشق صباحا فهو يساعد على سهولة التنفس وقاتل للجراثيم، بالإضافة الى انه مقو عام لجميع امضاء الجسم . . . والدليل على ان العسل له فوائد كثيرة ، خاصة للجهاز التنفسي، فقد انتجت المانيا الفريية دواء للسعال يدخل في تركيبه نسبة ٤٥ في المائة من العسل الابيض .

❖ علم النفس الهندسي والفسولوجي

اثبتت الابحاث التجريبية الحديثة ان تطور تكنولوجيا الاجهزة الاوتوماتيكية والالات والمعدات انها غيرت تفكير البشرية ، فكان الانسان في الانتاج يصنع كل شيء بنفسه ، اما الآن فهو الذي يتحكم في عملية الآلة اى اخذ يتحول اكثر فأكثر الى قائد يصدر اوامره للاجهزة الاوتوماتيكية . رغما عن ذلك التقدم ، فهذه الاجهزة الاوتوماتيكية فرضت على الانسان ان يكون منتبها قوى الذاكرة ، حاضر البديهة ، سريع الاستجابة . فتتطور الدراسات البيولوجية لخدمة الانسان فاستطاع العلماء نتيجة لدراساتهم وابحاثهم ان يحددوا الوظائف السيكلوجية العليا للانسان اى صنع معدات مهيأة للاتصال والتعامل مع الانسان ومتناسقة مع قدراته وطاقاته . حيث انه

اشارت تحقيقات حديثة الى اهمية وتكرار الاجهاد وضعف القوة الناتجة غالبا عن مجز عصبى او نفسي . وقد تبينت الاحصائيات للاطباء داخل المستشفيات ان مريضا من أصل اثنين يشكو من التعب والاجهاد العصبي . وعلى صعيد العيادة ، يشمل الضعف جميع مظاهر المرض، وان كل مرض جسمى او عقلى بسبب ضعفا . وعلى الصعيد النظرى ، اقتضت الدراسات الفسيولوجية الاساسية الكلاسيكية في الغالب على تعب العضلات ، وهى غير كافية لابرار مجموع مايتعلق بالاجهاد الناتج عن ضعف القوة وتأثيره على الحياة النفسية والاجتماعية .

❖ عسل النحل شفاء للناس

بدلا من استخدام العقاقير والادوية يوجد علاج جديد وقديم عرفه الانسان منذ القدم - انه عسل النحل الذى ذكر في كتاب الله عزوجل .. الهاما من هذا قدم الطبيب الروسى الاصل «روش» في كتاب تحت عنوان « النحل صيدلية مجنحة » يقول في كتابه ان العسل افضل علاج للأمراض الناتجة عن البرد . . . اما ان يخلط بالحليب الساخن او عصير الليمون او مع الشاي الساخن . . . هذا العلاج عرفه العالم منذ مئات السنين . انه يقضى تماما على البرد او الزكام . ويستخدم ايضا في ايقاف النزيف الرئوى مع خليط مع عصير الجزر ، وبضيف

❖ مكافحة التلوث والأضرار الصناعية :

في المجتمعات الصناعية والمجتمعات المجاورة، نجد الهواء يحتوى على ادخنة كثيرة . وكما ان مياه الانهار تحتوى على مركبات كيميائية ، حتى البحر يحتوى على البترول اى متلوث بالبترول ... الخ ، وهذا ما يسمى بتلوث الهواء والماء والبحر والاضرار التى تعود من هذا التلوث تسمى الى الصحة العامة للانسان . فتجرى مباحثات عديدة في نطاق مكافحة التلوث والاضرار الصناعية ومكافحة الضوضاء . في الوقت الحاضر يجرى بناء شكل جديد لجدار من الاسمنت ضد الضوضاء وذلك على الطرق السريعة والمزدحمة والتي تكثر فيها الضوضاء بشكل خاص . فامكن تحقيق ستار مصنوع من الزجاج والالونيوم وهو يندمج تماما مع الموقع، كما يشرب نسبة كبيرة من الارتجاجات التى تحدثها السيارات مما يخفف قليلا من انزعاج السكان المجاورين لهذا الطريق المزدحم . اما التصنيع والتلوث البيئى فهما عنصران متلازمان تتناسب العلاقة بينهما تناسباً طردياً فكلما ازداد التصنيع ازداد التلوث البيئى معه بما قد يؤثر على الصحة العامة وعلى نوع الحياة . في نطاق المعرض الدولى لتكنولوجيا الآلات لمكافحة التلوث والاضرار الصناعية والذى اقيم بين ٧ ، ١١ ديسمبر عام ١٩٧٦ في باريس وذلك برعاية ومساهمة وزارة نوع الحياة .

قدم هذا المعرض الدولى الاول لمقاومة التلوث والاضرار الصناعية المعدات والمنتجات والوسائل والخدمات المقررة لفنون الهواء والماء والضجيج والنفائى الصناعية ونفايا المدن ومكافحة التلوث والاضرار . حيث ان هناك نصوصا تشريعية عديدة تلزم كل من يسبب التلوث على استخدام تجهيزات لمكافحة التلوث والاضرار . تحققت أخيراً دراسات لحساب اللجنة الاقتصادية الأوروبية في بروكسل ، افادت ان اسواق صناعة مكافحة التلوث ستعرف تطورا بمعدل ١٤ في المائة في السنة حتى عام ١٩٨٠ . سترتفع هذه النسبة الى

لبيت عمليا بأننا نرى أكثر مما نتذكر في كل خطوة نخطوها . وبذلك يدرس علم النفس الهندسى الطبى باهتمام شديد « السعة » للانسان بوصفه قناة معلومات وقناة اتصال وايضا تحديد وتنمية المواهب المهنية لدى الانسان ورفع مستواها الى مستوى متطلبات التكنولوجيا العصرية المتزايدة .

وفي الابحاث التجريبية وعلى مدى واسع يجرى في هذا المجال وتقدم للانسان عدة مسائل متزايدة الصعوبة . ويقوم العلماء بعد ذلك ، وبواسطة اجهزة خاصة ، بتحديد ما يسمونه « معامل التقدم » اى القدرة على تنمية المواهب ، وتساعد هذه الطريقة على معرفة ما اذا كان الانسان يستطيع أن يعمل في اية مهنة من المهن التى تتطلب رد فعل دقيق وسرعة بديهية . وضبط اعصاب واسترشاد في المواقف غير المتوقعة ، وفحص العاملين قبل توزيعهم على الورش والتخصصات والمناصب . ويحدد العلماء الخصائص الفطرية لكل شخص وقدرته على تنميتها . وهذا يساعد على معرفة العمل الذى يناسب كل انسان ، وعلى عدم تضيق الوقت والمجهود في تعليمه عملا يناسبه او حرفة لا تتفق مع استعداداته . وبفضل تطور علم البيونيكا يقوم العلماء بوضع علاقات جديدة أكثر ارتباطا بين الانسان والآلة .

وعلم البيونيكا هو علم يدرس استخدام العمليات والمناهج البيولوجية لحل المسائل الهندسية الحيوية . ويمكن تعريف علم البيونيكا ايضا بأنه نظرية مناهج اقامة النظم التكنيكية التى تقترب مواصفاتها من مواصفات الاجسام الحية . يأخذ هذا العلم تسمية من الكلمة الاغريقية « بيون » اى « خلية حية » . وكس من أبحاث تجرى في ميدان علم البيونيكا ان العلماء يبحثون بجهد عن وسائل بيولوجية للوقاية من الاشعة الخطرة ويأملون ان يتمكنوا من بناء مرشحات حية لتنقية الماء والتربة من النشاط الاشعاعى .

وبفضل ما أصبح يملك من مقومات وقدرات على التطور وبفضل ما حققه وسيحققه من تقدم تكنولوجي .. وبفضل الاكتشافات ذات المستقبل الكبير في البيولوجيا الجزيئية وفي الكيمياء الحيوية والعضوية والفيزياء الحيوية والفيزياء النووية والاشعاعية وعلم الخلايا وعلم الوراثة، وبفضل ظهور اتجاهات جديدة فيها وغير متوقعة مثل الاحصاء البيولوجي والرياضيات البيولوجية ونظرية النظم. فوجدنا وتحققنا ان التكنولوجيا المعاصرة الآن قد دخلت بالفعل في المجال الطبي بشتى فروعه ، والاستخدامات الطبية للأجهزة الصوتية وغيرها فالعقل هو الطريق للإيمان ... ونحن نقبل على الايمان بعقولنا .. وان التقدم امر لا يمكن الرجوع عنه ، ولا يمكن إيقافه لان العقل دائم البحث والاكتشاف والابتكار . وبجانب هذا العرض أود ان اكرر اهتمامي والتركيز بالنبوض بالارتقاء الفكري والثقافي (السمو الفكري - المآثر الثقافية) في العالم العربي ونرتفع به الى اسمى مكانة والاعتناء ايضا بانماء ملكاتنا العقلية وعميق ثقافتنا حيث انها تقدم لنا قوة فكرية تقدمية في جو مكيف المناخ . كما يسمح الارتقاء الفكري والثقافي للطفل بتعليم ما لا يستطيع ان يتعلمه في الكتب، وبالتالي فان مهمتنا هي دراسة ما يمكن ان تقدمه المآثر الثقافية للعلم والتكنولوجيا ومع دولة العلم والايمان ومزودا بطاقة الاصال الحضارية التي تملكها الامة العربية .

١٥٪ في السنة فيما يتعلق بمعالجة المياه الصناعية ، كما ستبلغ ٥٥٪ بالنسبة لتنقية الهواء . اما ميدان أدوات القياس ومراقبة التلوث الجوي فسيزيد بشكل اكيد حوالى ٢٥٪ في السنة وذلك حتى عام ١٩٨٠ . اما فيما يتعلق بأجهزة العزل الحراري ، أجهزة الحماية ضد أى تغير في درجات الحرارة ستقارب الزيادة السنوية حتى عام ١٩٨٠ ، ١٥٪ ، بينما سيزيد بيع آلات القياس بمعدل ٢٥٪ . بإمكان قطاع جمع النفايات والقضاء عليها ، سواء كانت تتعلق بالنفايات المنزلية او الصناعية ، بإمكانه ان يعرف زيادة بيع الادوات والمعدات بمعدل ٢٠ في المائة في السنة ، وذلك بسبب بدء تطبيق قانون النفايات الصادر في يوليو عام ١٩٧٥ .

اليوم بوسعنا ان نقول اننا نشهد اليوم ميلاد مجال طبي جديد حيث تقف معه كلمات التكنولوجيا بمعدلها العلمي جنباً الى جنب مع هذا المجال وتسلح هذا المجال الطبي الذي يعد من أقدم العلوم ، والتي ولدت كعلم وصفى وتجريبي ، باحدث الوسائل في ترسانة العلوم ، الا وهى طرق التحليل السليمة ، والتفكير الذهني والحساب الدقيق . ولقد حطمت التكنولوجيا الحديثة الخرافات القديمة والشعوذة والقيم البالية في المجال الطبي . واصبح تقدم العلماء المؤثر الذى يوضح اتجاه الانسان الحديث ... وبفضل قدرة العقل الانساني المعاصر الخارقة والمجددة

المراجع العلمية

- ١ - الموسوعة الصغيرة في علم السيبرنتيكس - فيكتور بيكيليس
- ٢ - أسس الالكترونيات - أ. جرييتسوف
- ٣ - L'ASSOCIATION POUR LA DIFFUSION DE LA PENSEE FRANCAISE
- ٤ - مؤتمر امراض الاذن والانف والحلق - لوشون - مدينة المياه المعدنية بفرنسا سنة ١٩٧٦ .
- ٥ - المؤتمر الثالث والسبعون الفرنسي لامراض الاذن والانف والحلق والرقبة - باريس كلية السنان بير - سبتمبر سنة ١٩٧٦ .
- ٦ - فوائد العلاج بالمياه المعدنية - الاستاذ شارل دوبريه - فيشي فرنسا - مختبر المياه التابع لمستشفى بيشا .
- ٧ - A New Freezing - Ultramicrotome
H. Moor' Ph.D, K. Muühlethalaer, Ph.D., H. Waldner,
A. Frey, - Wyssling, Ph.D
The Journal of Biophysical and Biochemical
Cytology, 1961, Vol. 10, No. 1
- ٨ - Dijon - France 6° Congrès de la Société européenne de neuroradiologie
„Etude radiologique des Vaisseaux anormaux dans les tumeurs cerebrales” Sept. 1976.
- ٩ - L'exposition „Biocapt 75” (L'electronique au service du malade) BNF n. 1327
du B-12 75
- ١٠ - الأيام الوطنية لعلم الاشعة - باريس - ١٦ - ١٨ فبراير/ ١٩٧٦ بمستشفى امراض الاطفال .
- ١١ - الانسان والآلة - فرنسا - تولوز - ٢٥ - ٢٦ نوفمبر/ ١٩٧٦ .
- ١٢ - المؤتمر الدولي لجمعية امراض القلب الفرنسية - ٦ - ٨ ديسمبر ١٩٧٦ باريس ٧٥. ١٩ .
- ١٣ - المؤتمر الفرنسي للجراحة - معالجة سرطان العظم - باريس ١٩٧٦ .
- ١٤ - Le Professeur Charles Gros, MM. Quennville et Gautherie, Chercheurs a l'Institut
National de la Sante et de la Recherche Medicale de Strasbourg France 1976.
- ١٥ - Charles Gros: Fondateur de l'école de "Sénologie" strasbourg - France.
- ١٦ - Professeur Debrun. l'Hospital Henri - Mondor de Creteil - Paris - France.
- ١٧ - P.W.R. BEAUMONT, JOURNAL OF MATERIALS SCIENCE SEPTEMBER
1977 p. 1485 part I
- ١٨ - P.W.R. BEAUMONT AND B. L. PLUMPTON
JOURNAL OF MATERIALS SCIENCE SEPTEMBER 1977 p. 1853 part 2.
- ١٩ - ROBERT FRANK, DIRECTEUR DE L'ECOLE DE
CHIRURGIE DENTAIRE a STRASBOURG. FRANCE.

٢٠ - التفجرات العارضة في تركيب ودرجة نفاذية الحاجز الخاص بالفتية الجذر بعد تعرضه للحوامض الضعيفة والمواد المطهرة - رسالة دكتوراه ١٩٧٧ جامعة القاهرة - كلية طب الأسنان .

اشرف على الرسالة الدكتور سلسيل محمد محمود ابراهيم الاستاذ المساعد بكلية طب الانسان - جامعة القاهرة - والدكتور مصطفى كمال محمد المدرس بكلية العلوم جامعة المنصورة . . وصاحبة الرسالة السيدة الطيبة سلمى حسن المشري .

٢١ - Le Professeur Hannoun - l'institut Pasteur - 25^e Journees Pharmaceutiques internationales - Paris 1975.

٢٢ - الذكرى العاشرة لتأسيس المؤسسة الوطنية للصحة والبحث الطبى - ١٩٧٥ - فرنسا .

٢٣ - مؤتمر امراض الكبد لدى الاطفال - باريس ١٩٧٥ .

٢٤ - اجتماع الركن الوطنى لتنسيق الدراسات وابحاث التغذية باريس - ١٩٧٥ .

٢٥ - مؤسسة تنظيم الغذاء - مؤتمر لدراسة موضوع القضايا المرتبطة بالصحة الغذائية لسائق السيارة - كلية الطب - باريس ١٩٧٤ .

٢٦ - ايام الجمعية الفرنسية الوطنية للطب ما قبل الوضع وما بعده - مدينة تور - ١٩٧٤ .

٢٧ - Tables rondes - les Entreiens de Bichati :
CHU Pitié - Salpêtrière, 105, Boulevard de l'Hôpital, 75013 Paris 0 Septembre et Octobre 1976.

٢٨ - مؤتمر علماء الانفصالات الكيميائية للمواد الحية في باريس يوليو - ١٩٧٥ .

٢٩ - Groupe d'études de la fatigue - Docteur Pierre Burgard, 2, Square du Croisice - 75015 Paris.

٣٠ - La 2^e Semaine internationale de l'Environnement
du 7 au 11 decembre - Paris - 1976.

٣١ - التكنولوجيا الحديثة في المجال الطبى للتنمية وبناء المجتمع لعام ١٩٧٧/٢٠٠٠ لسنة ١٧ العدد ٥٥٦ - جريدة الشباب العربى - مصر . للدكتور مصطفى كمال محمد .

٣٢ - Journees Pharamaceutiques internationales
de Paris (26^e Journee Pharmaceutiques, Francaises)
"Le Pharmacien et le 3^e âge" Paris Sep. 1976.

٣٣ - 73^e Congres Francais d'oto - rhino laryngologie
et de pathologie cervicofaciale. Paris Sept. 1976.

٣٤ - 22^e Réunion européenne d'information
en Epileptologie et en Electroencéphalographie Marseille France Sept. 1976.

٣٥ - 5^e Congres international de médecine Psychosomatique - société française de psychosomatique "La place du corps dans la relation PSYCHOSOMATIQUE et Médicale.
Paris - sept - 1976

٣٦ - Colloque "Biomedica" 11^e - TRIA "Homme/machine" Toulouse - France
Novembre 1976.

٣٧ - Congres international de l'Association dentaire Francaise - Decembre - 1976.

٣٨ - Journées nationales de radiologie novembre - Paris - 1976.

٣٩ - Dr. Coucazon Jacques Spécialisé en Urologie, Académie de Moutpéllier, France.

الدافعية بين النظرية والنمذجة دراسة تحليلية مقارنة

طلعت منصخور *

ارتباطا بمتطلبات العصر الخاصة بتحقيق الاداء
الافضل والتوظيف الامثل لامكانيات الفرد
وطاقاته النفسية . ومن هنا ، كان الاهتمام
المتزايد بعلم النفس الدافعي (Motivational
Psychology) ، او بعلم الدافعية (Motivology) (١)

وتصور الدافعية - كما يقرر « بول توماس
يونيغ » (١٩٦١) - على انها مصطلح عام « لكل

لعبت الدافعية دورا متماظما الاهمية في
نظريات علم نفس القرن العشرين ، فمفاهيم
وفروض الدافعية تؤلف اجزاء متكاملة مع
الكثير من نظريات علم النفس بعامة ، والتعلم
والشخصية بخاصة . كذلك شهدت العقود
الثلاثة الاخيرة من هذا القرن بناء نظريات
للدافعية اكثر تخصصا . وترتبط هذه الحركة
بطبيعة الحال ، بتزايد مقدار النشاط التجريبي

(١) دكتور طلعت منصور مدرس الصحة النفسية بكلية التربية جامعة عين شمس . اسهم ببحوث منشورة في بعض
المؤتمرات الدولية . عضو الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، والمجمع المصري للثقافة العلمية ، والجمعية
الامريكية للتقدم والعلوم .

(١) مصطلح اقترحه « ر. س. وودورث » (١٩١٨) .

مادسن (١٩٥٩) ، هول (١٩٦١) ، براون (١٩٦١) ، يونج (١٩٦١) ، رتلينجشافر (١٩٦٣) ، اتكنسون (١٩٦٤) ، كوفروآيلو (١٩٦٤) ، توماي (١٩٦٥) ، بولز (١٩٦٧) وغيرهم . وقد ظهر أول مسح للميدان في الكتاب السنوي لعلم النفس المعروف بـ
Annual Review of Psychology
في عام ١٩٥٢ ، وكتبه « ماورر » .

كان ميلاد علم النفس كعلم مستقل نتاج « التهجين » بين الفلسفة والفسولوجيا التجريبية . وفي علم النفس التجريبي « الكلاسيكي » هذا ، الذي نشأ على أيدي فخر وفونت وابنجهاسوس وغيرهم من السيكلوجيين الالمان ، لم يكن ثمة مجال أو استخدام للمفاهيم أو الفروض الدافعية . ويمكن ان نعزى اسباب هذه الحقيقة التاريخية الى ان السيكلوجيين التجريبيين الكلاسيكيين قد استأثرتهم دراسة العمليات المعرفية - خاصة الاحساس والادراك - كما تملكتههم الطريقة الاستبطانية في هذا الصدد . وفي نفس الوقت كان هناك اتجاه صاعد آخر في البلاد الانجلو - سكسونية .

سيكلوجيا وايشولوجيا الفرائز ، في الوقت الذي كان فيه علم النفس التجريبي اخذا في النمو في ألمانيا ، كانت هناك ثورة علمية ذات دلالة بالغة تتقدم في انجلترا بنشر « دارون » لكتابه « اصل الانواع » (١٨٥٩) ، وهو الكتاب الذي اثر في علم النفس تأثيرا بالغ العمق . لقد جعلت نظرية دارون عن التطور البيولوجي في الامكان تفسير السلوك الانساني بتطبيق المبادئ ذاتها التي طالما استخدمت في تفسير سلوك الحيوان . ومنذ فجر التاريخ

محددات السلوك » ، يتطلب منا في هذه الدراسة ان نضع في الاعتبار تلك النظريات التي تتضمن مصطلحات اساسية مثل الدافعية الدافع ، الحافز ، الحاجة ، الغريزة ، القوة ، الباعث ، القيمة الذاتية ، وغير ذلك . ونرجو ان نكون قد وقفنا في انتقاء تلك النظريات التي اثرت في البحث السيكلوجي وفي تطور التصورات النظرية ابان العقود الثلاثة او الاربعة الاخيرة (١٢) .

وهدفنا الا نقدم اهم نظريات الدافعية واحدة تلو الاخرى ، ولكن ان نعرض لنتائج الدراسة المقارنة لنظريات الدافعية وفقا للموضوعات التالية :

- ١ - تطور التنظير في الدافعية .
- ٢ - مفاهيم الدافعية
- ٣ - نمذجة الدافعية .

(١) تطور التنظير في الدافعية

لعد قيل عن علم النفس ، كما يفر « ابنجهاسوس » ، ان « له ماضيا طويلا ولكن تاريخا قصيرا » . ولعل هذا يصدق بصفة خاصة على سيكلوجية الدافعية . فقد شكلت فروض ومفاهيم الدافعية جزءا هاما من التصورات الفلسفية والسيكلوجية خلال تاريخها الطويل اعتبارا من فلاسفة الاغريق . لكن الكتاب الاول الذي تركز تماما للدافعية قد ظهر في عام ١٩٣٦ (يونج - ١٩٣٦) ، ولم تظهر المراجع الاولى التي تغطي ميدان علم النفس الدافعي الا في العقد الاخير . كتب المرجع الاول عالم قد آخر هو (وودورث ١٩٥٨) ، ثم تبعه آخرون ، بندرا (١٩٥٩)

(٢) يمكن الرجوع ، لمن يريد معلومات اعمق واوسع عن نظريات الدافعية ، الى الدراسات المسحية لمجموعة من العلماء البرزين في هذا الميدان ، مثل : اتكنسون (١٩٦٣) ، بولز (١٩٦٧) ، توماي (١٩٦٥) ، هيلجارد (١٩٦٢) ، كوفروآيلو (١٩٦٤) ، كيش (١٩٥٩) ، مادسن (١٩٥٩) ، يونج (١٩٦١) ، بالإضافة الى المصدر البالغ القيمة Jones, M.R. (ed.) Nebraska symposium on motivation. Lincoln : Nebraska Univ. Press, 1953-1963.

انفعال التعجب ، غريزة الهرب - انفعال
الخوف ، الغريزة الاجتماعية - انفعال الميل
للتجمع ، غريزة السيطرة - انفعال الزهو ،
الغريزة الوالدية - انفعال العطف والحنان ،
وغير ذلك من الفرائز .

**ويتضح من التعريف السابق ان «الغريزة»
في نظرية ماكدوجل مصطلح تفسيري حصري
يتضمن :**

(أ) المكونات المعرفية التوجيهية (« ان
يدرك » ، « ان ينتبه الى ») .

(ب) وكذلك المكونات التنشيطية الدينامية
(« الاستثارة الانفعالية » ، « ان يخبر
اندفاعا » ، « ان يسلك ») . وتصور ماكدوجل
للفرائز على هذا النحو ، يعنى في نفس الوقت
انها مصدر لنظام الدوافع . واذ تتحدد هذه
الوظائف التوجيهية والدينامية باستعدادورائى
يصير مفهوم الغريزة عند ماكدوجل مفهوما
تفسيرا كاذبا Pseudoexplanatory concept
تماما ، خاصة وانه لم يقاوم غواية
ابتداعه لفرائز كثيرة للغاية . لقد قدم في كتابه
(١٩٠٨) فقط اثنتى عشرة غريزة ، ثم اوصل
هذا العدد فيما بعد الى اربع عشرة غريزة
لتنتهى بما يعرف بالثمانية عشر ميلا بطريا
Propensities ، وهذا التحول في المصطلح
كان نتيجة للجدل النقدي الطويل الذى شغل
علماء النفس في العشرينات من هذا القرن .
ويتركز ما يعرف بالجدل حول الغريزة في
عالم النفس « جون واطسون » ، الذى ادرك
- وغيره من السلوكيين - الخاصة التفسيرية
الكاذبة لمفهوم الغريزة بعد ما صار من الواضح
ان الكثير من علماء النفس والانثروبولوجيا
كان يلجأ الى ابتداع غرائز جديدة في كل مرة
يحتاجون فيها الى مفهوم تفسيري للظواهرات
التي يدرسونها ، وقد استبقي ماكدوجل في
مفهومه عن الميل الفطري Propensity
concept فقط تلك المكونات الاكثر دينامية

كان المفهوم الاساسى المستخدم في تفسير سلوك
الحيوان هو « الغريزة » للاشارة الى « القوى
الدافعة » وكذلك « الميكانزمات المحركة » في
سلوك الحيوان . وقد صار ايضا مفهوم الغريزة
بعد نشر نظرية دارون ، شائعا بين علماء
النفس ، خاصة في الدول الانجلو سكسونية .
لذا قدم وليم جيمس ، وهو اول عالم نفس
امريكى ذي شأن كبير ، غرائز متعددة لتفسير
السلوك الانسانى ، لكن موازية لمفاهيم تفسيرية
اخرى مثل « العادات » و « الانفعالات »
و « الارادة » .

كان وليم ماكدوجل (١٩٠٨) ، عالم
النفس الانجليزى - الامريكى ، هو الذى
اعتبر « الغريزة » على انها مفهوم اساسى في
تفسير السلوك الانسانى . وجوهر نظريته
محاولة لاقامة علم النفس استنادا الى مبادئ
التطور . وفي كتابه « مقدمة في علم النفس
الاجتماعى » ، الذى كان له تأثير بالغ على
الفكر السيكلوجى بحيث صدرت منه اثشر
من ثلاثين طبعة منذ نشره في عام ١٩٠٨ ،
يعرف « الغريزة » على النحو التالى :

« يمكن ان نعرف الغريزة ، اذن ، على انها
استعداد نفسي - جسمى موروث او فطري ،
تهى صاحبها الى ان يدرك وينتبه الى
موضوعات من فئة معينة ، وان يخبر استثارة
انفعالية من نوع معين عندما يدرك ذلك الشيء ،
وان يسلك وفقا لها بطريقة معينة : او ، على
الاقل : ان يخبر اندفاعا نحو ذلك السلوك »
(ص ٢٥)

وفي نظريته عن الفرائز ، يقابل ماكدوجل
الغريزة بانفعال معين ، مؤكدا بذلك نأثره
بالتوازية Parallelism كاتجاه مسيطر على
علماء النفس في هذه المرحلة المبكرة من تاريخه ،
ومن ثم فهو يربط بين قائمة الفرائز وما يوازيها
من انفعالات معينة . مثل غريزة المساواة -
انفعال الغضب ، غريزة حب الاستطلاع -

لمفهومه السابق عن الفريزة ، كما يتضح من التعريف التالي :

« الميل الفطري استعداد ، وحدة وظيفية لتنظيم الكلى للعقل . وهو استعداد ، حينما يستثار ، يخلق ميلا نشطا ، سعيا ، اندفاعا ، أو حافزا نحو هدف معين » (١٩٣٢ ، ص ١١٨) .

ويحدد مصطلح الفريزة فيما بعد على النحو التالي :

« الفريزة هي ذلك الجانب الخاص من تنظيم الكائن الحي (وحدة وظيفية) يعبر عن نفسه في تتابع اللداء الفريزي (ص ٤٩) .

بهذا التعريف الأخير للفريزة يكون ماكدوجل أكثر اتفاقا مع استخدام المصطلح لدى علماء الايثولوجيا المحدثين الذين حللوا المفهوم القديم للفريزة ، وهو مفهوم حصري غامض ، الى عناصر متعددة تحمل معانيا محددة أكثر .

يعتبر « ك . لورنز » مؤسس علم « الايثولوجيا » (Ethology) ، (٣) بينما يعتبر « ن . تنبرجن » منظره المنهجي . ويلخص « تنبرجن » نظريته عن الفريزة في هذا التعريف :

« سوف اعرف الفريزة بطريقة اختبارية على انها ميكائزم عصبى منظم بطريقة متدرجة هرميا ، تستهدف لجوانب معينة مهياة

للاستشارة (Priming) يطلق ويوجه بالاندفاعات (impulses) ذات الاصل الداخلي وكذلك الخارجى ، ويستجيب لهذه الاندفاعات بواسطة حركات متسقة تسهم في بقاء الفرد والنوع (١٩٥١ ، ص ١١٢) .

يعرف « تنبرجن » الفريزة ، كما يوضح هذا الاشتقاق على انها ميكائزم ينشط بالاندفاعات التى تعرف في موضع آخر كما يلى :

« يحدد تأثير هذه العوامل الخارجية الدافعية لدى الحيوان ، التنشيط والاستشارة لفرائزه » (ص ٥٧) .

هذا الفارق بين الميكائزم والدافعية يوجد ايضا في النظريات الاخرى التى نمت في هذا القرن موازية للنظريات « الايثولوجية » .

ورغم ما لنظريات الفرائز من آثار عميقة على علم النفس ، الا ان مصطلح « فريزة » قد استخدم بمعاني مختلفة . فاذا كان التعريف التقليدى للفريزة كنموذج منظم ومركب للسلوك يميز النوع الواحد في موقف معين ، كنموذج غير متعلم ، وغير مرن بدرجة او بأخرى ، فان الفرائز المحددة على هذا النحو غير موجودة بين الكائنات الانسانية ، ولم تتضح أى فريزة علميا . ففى الكائنات الانسانية تتأثر كل النماذج المركبة للسلوك بالتعلم ، بل حتى لدى الحيوانات الدنيا ، بتأثر النشاط الفريزي بالبيئة .

(٢) يشيع تعديد « الايثولوجية » على اساس وصف « فربلانك »

Verplank, W.S. (1957) Aglossary of some terms used in the objective science of behavior. Psychol. Rev. 64, No. 6, Part 2, pp. 1-42.

للعلم السلوكية الموضوعية ، التى يحدد فيها العالم الايثولوجي على انه « .. عالم سلوكي يلقى تدريبه في علم الحيوانات ، ويدرس عادة سلوك الحشرات والاسماك والطيور أكثر غالبا مما يدرس الثدييات والمجموعات الاخرى ... انه دارس للسلوك المقارن .. عالم سلوكي يحب حيواناته » (ص ١٤) . اما السلوكى فهو : « ذلك العالم الذى يبحث في سلوك الحيوانات بطريقة موضوعية والذى يحاول ربط ملاحظاته معا في نظام نظري لا يتضمن مفاهيم مستعارة من الاستبطان والفلسفة العقلية » (ص ٦) .

(١٩٤٠) الذين وجدوا ، بعد قطع الاعصاب من المعدة الى المخ ، ان مفحوصيهم كانوا يستجيبون كما لو كانوا في حالة من الجوع . اى ان الانقباضات المعدية ليست حدثا داخليا ضروريا لدافع الجوع ، لكنها أحد المتغيرات المعدية التي عادة ما تتضافر لاحداث الجوع .

وتوضح البيئة التجريبية أن تأثيرات الجوع على السلوك تتغير مع الخبرة بدرجة كبيرة . ولذا ، حينما اخضعت الفيران لجدول منظم من الحرمان مع اطعامها في نهاية كل فترة من الحرمان ، وجد أنها - بعد عدة مرات قليلة - اخذت تتناول كمية ثابتة من الطعام في كل مرة ، بدلا من التهام اكبر قدر ممكن من الطعام وتبين احد هذه البحوث (لاورنس ، ماسون ، ١٩٥٥) انه اذا ارتبطت فترة الاطعام التجريبية مع الفترة المعتادة لتناول الطعام ، فان الحيوانات سوف تاكل اكثر مما لو كان الاطعام غير مرتبطا بالفترات المنتظمة لتناول الطعام .

وهكذا ، توضح حقائق علم النفس الفسيولوجى Psychophysiology والمقارن Comparative Psychology ، ابتداء من دراسات بافلوف الشهيرة ودراسات التعلم الحيوانى ، ان الكثير من جوانب السلوك التي تبدو انها تعتمد على الجوع البيولوجى يمكن ان تستمدعى بالثيرات الخارجية المرتبطة بالهدف فبعض هذه الجوانب فطرى ، وراثى ، بيولوجى والاخر متعلم ، وكثيرا ما تتداخل في علاقات متشابكة مع نظام الدوافع .

وبالنسبة للانسان ، ثمة فارق كبير بين وجهة النظر التي تذهب الى ان الحاجات الاجتماعية لدى الانسان ، وكذلك حاجاته الجسمية ، جزء من الطبيعة الوراثية للنوع الانسانى ، ووجهة النظر التي تذهب الى ان الحاجات الاجتماعية متعلمة من الثقافة التي نشأ فيها وانه حتى اشباع حاجاته الجسمية

وتوازي نظام الفرائز عند ماكدوجل مع نظام للعواطف ينطوى على اثر الخبرة والتعلم على السلوك الفريزى ، وان كان ماكدوجل لم يتنبه الى ذلك . يطلق « ج . ميرفى » (١٩٤٧) على ذلك عملية الجدولة canalization

فالدوافع الاساسية لا تتبدى بنمط فريزى محض ، ولكن مختلطة ومتداخلة مع التجربة والتعلم . واذا اغفل ما كدوجل ما تتصف به الدوافع وما يعترئها من تبدل وتحول ، عنى فرويد بهذا الجانب المميز للدافعية لينتهى الى ان علم النفس مطالب ، ليس برد الافعال الى مصادرها الفريزية ، وانما بالكشف عن هذه التفسيرية في الحالات الدافعية .

فما جرى من اعتباره سلوكا قائما على الفريزة والفترة والتكوين البيولوجى للنوع ، لم يكن منعزلا عن آثار الخبرة والتعلم . وتلك حقيقة ايدها دراسات متعددة .

مثال ذلك ، في حانة حرمان الكائن الحى من الطعام لفترة طويلة ، تحدث عدة تغيرات جسمية :

(١) انقباضات معدية .

(٢) تناقص معدل السكر في الدم .

(٣) تزايد نشاط الجهاز العصبى المركزى ويشيع الاعتقاد خطأ بأن الجوع يتسبب عن الانقباضات المعدية . لكن يصف بعض الباحثين مريضاً خضع لعملية استئصال للمعدة gastrectomy ، الا انه كان يقرر بعدها انه يشعر كالعادة باحساسات الجوع (وانجنستين) كارسلون ، ١٩٣١) . واستجابت الفيران ، التي تعرضت لاستئصال المعدة ، للحرمان من الطعام بنفس « سلوك الجوع » مثل فيران المجموعة الضابطة التي لم تخضع للاستئصال (تسانيج ، ١٩٣٨) . هذه النتائج قد ابدتها بحوث (باش ، ١٩٣٩ ، مورجان ومورجان ،

يتأثر بثقافته بدرجة واضحة. ولعل الدراسات الأنثروبولوجية قد أوضحت أن ما يقرره بعض العلماء من وجود غرائز معينة لا توجد في بيئات أخرى كالثقافات البدائية مثلاً، ومن ثم لا يوجد اتفاق على نوع الغرائز وعددها، وبالتالي يبدى بعض الباحثين ميلاً إلى رفض نظرية الغرائز.

ويفضل بعض العلماء المحدثين عدم نبذ مفهوم الغريزة، بل أن يعدلوا من التعريف. فعلى سبيل المثال، يذهب «إرنك» إلى ما يسميه بـ «الحاجات المتفرزة»

Instinctoid needs، وهي حاجات ذات أساس غريزي، ولكن الطريقة التي تشبع بها تعتمد على التعلم بدرجة كبيرة.

في الحقيقة، بدلاً من تغيير تعريف الغريزة وإضافة مزيد من الالتباس إلى هذا المفهوم النظري، من الأفضل نبذ هذا المصطلح كما يتعلق بالسلوك الإنساني. فالتفكير في ضوء هذه «الثنائية» بين الغريزة والتعلم يؤدي بنا إلى نفس المنعطف المطلق الذي أعاق التقدم لفترة طويلة في قضية الوراثة - البيئة بالنسبة للدكاء.

ولعل من الأجدي أن يكون تفكيرنا في ضوء التركيب الوراثي للكائن الحي في تفاعله مع بيئته وثقافته. وهنا تؤكد الأهمية البالغة لطبيعة التركيب الوراثي. فالقطة، مثلاً، ترث نوع التركيب الذي يهيئها لمناشط معينة وفي نفس الوقت يحدد ما تستطيع أن تفعله (أن تمسك الفأر، وتسلق الشجرة، لكنها لا تستطيع أن تتكلم أو تقرأ كتاباً). والكائنات الإنسانية ترث نوع التركيب الذي يمكنها من أن تمشي، ومن أن تسوق السيارة، ومن أن تتصل بالآخرين عن طريق الرموز والكلمات

والمعاني، ومن أن تخطط للمستقبل. لكنها لا تستطيع أن تنمو طويلاً إلى خمسين عاماً، أو أن تعيش على الحشائش، أو أن تحل المشكلات التي تتعدى حدودها.

فسلوك الكائنات الحية يتحدد بطبيعة التركيب الوراثي والبيئة التي تعيش فيها. ومن ثم، فإن وصف ذلك السلوك على أنه سلوك غريزي أو متفرز يعتبر تبسيطاً زائداً.

• • •

في الوقت الذي خرج فيه ماكدوجل بنظرية الغرائز، ظهر اتجاهان آخران في علم النفس، تأثراً بدارون أكثر من تأثرهما بفونت. ويمثل هذان الاتجاهان النموذجين لنظامين جديدين في علم النفس:

(١) سيكولوجية التعلم أو الـ (Manthanology: (E)، وهو المنحى البيولوجي (Biotropic) لعلم النفس الدافعي الذي جرى داخل علم النفس الفسيولوجي وسيكولوجية التعلم.

(٢) سيكولوجية الشخصية أو «علم الشخصية» (Personology) (P)، وهو المنحى الاجتماعي (Sociotropic) لعلم النفس الدافعي الذي جرى داخل سيكولوجية الشخصية. وما حدث بين هذين المنحيين من تفاعل يتضح من شكل (١).

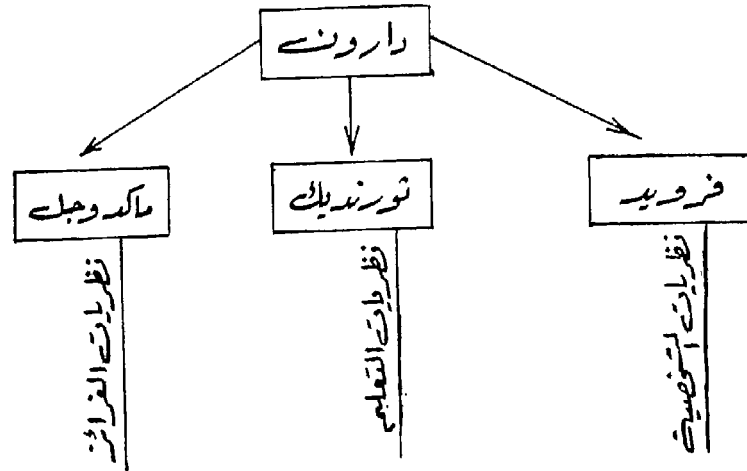
ولا يزال علم النفس الدافعي يرتبط بقوة بهذين الميدانين. كما أن الكثير من التصورات والفروض المعاصرة عن الدافعية يمكن فهمها

(١) هذا المصطلح مأخوذ من اقتراح قدمه «كلايد نوبل»

(Clyde E. Noble), Contemporary Psychology, 1968, 13, p. 10.

(٥) مصطلح اقترحه «ه. موراي» (١٩٢٨).

شكل (١)



سوف ترتبط بدرجة اوفق بالموقف ، بحيث انها حينما تعاود الوقوع ، تكون اكثر احتمالا للوقوع ، اما تلك التي تصاحب او تتبع بعدم ارتياح للحيوان ، مع بقاء الاشياء الاخرى متعادلة ، تضعف روابطها بالموقف ، بحيث انها حينما تعاود الوقوع ، تكون اقل احتمالا للوقوع . فيقدر ما يكون الارضاء او عدم الارتياح ، تكون قوة او ضعف الرابطة . (١٨٩٨ ، ١٩١١) .

وقد جعل « قانون الاثر » هذا من التدعيم الموضوع الرئيسي في سيكولوجية التعلم لثلاثي قرن . بتقديم مفاهيم « الارضاء » او « الاشباع » Satisfaction « وعدم الارتياح » discomfort كمدعمات ايجابية وسلبية ، جعل ثورنديك من المتغيرات الدافعية العوامل الأكثر اهمية في سيكولوجية التعلم . مثلما صار خفض الدافعية (الارضاء) وعدم الخفض للدافعية (عدم الارتياح) الشروط الأكثر اهمية للتعلم (خاصة في اعمال ثورنديك بعد عام ١٩٢٩) .

فحسب ارتباطا بهذه الحلفية التاريخية ، كما يتضح من شكل (١) :

المنهج البيولوجي لعلم النفس الدافعي : سيكولوجية التعلم وعلم النفس الفسيولوجي :

بتأثير الدارونية نما الاهتمام بالتعلم الحيواني في أواخر القرن التاسع عشر . ومن بين من استلهم بنظرية التطور عالم النفس الأمريكي « ادوارد لى ثورنديك » ، الذي كان الرائد العظيم في خلق علم نفس تجريبي للتعلم . في عام ١٨٩٨ نشر تجاربه المشهورة على القطط في صندوق - متاهة ، ووصف التعلم « كمحاولة وخطأ » او « تعلم انتقائيا » (Selective Learning) والى يفسر التعلم اقترح عدة قوانين ، من بينها القانون المشهور المعروف بـ « قانون الاثر » :

« من بين الاستجابات العديدة لنفس الموقف فان تلك التي تصاحب او تتبع تماما بارضاء للحيوان ، مع بقاء الاشياء الاخرى متعادلة .

وقد استخدم ثورنديك المصطلح الشائع « الغريزة » كدلالة على المتغير الدافعي الاساسى لكن حينما احتدم « الجدل حول الغريزة » استبدل مصطلح « غريزة » في نظريات التعلم بمصطلحات اخرى للمتغيرات الدافعية الاولى مثل « الحوافز » ، « الحاجات » ، « المطالب » وغير ذلك .

وقد كان « وودورث » (١٩١٨) هو الذى قدم مصطلح « حافز » (drive) لتعيين المتغير الدينامى الذى يحرك او ينشط ميكانزمات السلوك لكن اعظم ادخال للمتغيرات الدافعية فى سيكولوجية التعلم كان على يد « ادوارد تولمان » . لقد قدم كتابه الدائع الصيت « السلوك الفرضى لدى الحيوانات والانسان » (١٩٣٢) المتغيرات الدافعية كالحوافز والمطالب على انها اكثر المحددات السلوكية او المتغيرات الوسيطة اهمية جنبا الى جنب مع المتغيرات المعرفية : « استعداد الفاية - الوسيطة » (means and-readiness) و « التوقعات » (expectations) . لم يكن

تولمان صاحب نظرية فى التدعيم ، لكن الدافعية بالنسبة له ، لعبت دورا هاما كمحدد للاداء ، الذى يرشد او يوجه ايجابيا بالمحددات المعرفية .

لم يهتم تولمان ابدا بالنمو الشكلى لنظريته ، وعمد الى تغيير مصطلحاته خلال سنوات بحثه فاذا بدأ بـ « المطالب » و « الحوافز » ، تحول الى « الحاجة » ليعود فى النهاية الى « الحافز » (٦)

الان تولمان قد اثر فى المنظر الفلد لسيكولوجية التعلم : « كلارك هل » ، الذى تمثل اعماله الرئيسية (١٩٤٣ ، ١٩٥٢) اعظم نظرية متطورة فى السلوك . فى هذين الكتابين (١٩٤٣ ، ١٩٥٢) طور هل قانون الاثر عند ثورنديك

الى نظرية للتدعيم ، منظمة ومحكمة . وقد استبدل فى هذه النظرية ، « الارضاء » عند ثورنديك بـ « اختزال الحاجة » وفيما بعد بـ « اختزال الحافز » وحدد المصطلحين الدافعيين الهامين ، « الحاجة » و « الحافز » ، على النحو التالى :

« حينما ينشأ موقف يكون فيه الاداء من جانب الكائن الحي لازما للاحتتمالية الامثل للبقاء سواء بالنسبة للفرد او النوع ، يقال انه توجد حالة حاجة . ولما كانت الحاجة ، سواء فعلية ام كامنة ، عادة ما تسبق وتصاحب اداء الكائن الحي ، غالبا ما يقال ان الحاجة تدفع او تحفز النشاط المرتبط . وبسبب هذه الخاصية الدافعية للحاجات ، فانها تعتبر كمنتجة لحوافز حيوانية اولية » .

« ومن الاهمية بمكان ان نلاحظ فى هذا الصدد ان المفهوم العام للحافز يميل بقوة الى ان يكون له الوضع المنظم لمتغير وسيطاو (**) ، لا يمكن ملاحظته ابدا بطريقة مباشرة » (هل ١٩٤٣ ، ص ٥٧) .

« الحاجة » ، اذن ، متغير مستقل يحدد المتغير الوسيط « الحافز » « ف » ، الذى بدوره يتحد مع متغيرات وسيطة اخرى فى تحديد السلوك .

ومن بين المتغيرات الوسيطة الاكثر اهمية ، بالاضافة الى الحافز (D) متغير دافعية - الباعث incentive - motivation variable (K) الذى يتحدد بمقدار ونوعية الانابة وقوة العادة م ع س . وهذه المتغيرات الوسيطة تتحد بطريقة تضعيفية فى جهد استدعاء رد الفعل reaction evocation-potential (sEr) السلوك = دالة (sEr) = دالة (Dx K x sHr)

(٦) ارجع الى الاعمال الرئيسية لتولمان (١٩٤٢ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٩) .

للتعلم (يمكن تطبيقه على الحافز ، ثانياً ،
« ان الميكانيزم الاساسي للدافعية (الاستثارة :
القوية) واحد بالنسبة للحوافز الاولى
والمتعلمة ، وان الميكانيزم الاساسي للتدعيم
(خفض في الاستثارة القوية) واحد بالنسبة
للالثبات الاولى والمتعلمة » (ميلر ، ١٩٥٩ ،
ص ٤٤٠) . وقد قام « ميلر » بتجارب هامة
كثيرة عن الدافعية والتعلم .

وقدم « ماور » ، بالتعاون مع ميلر ،
مفهوم « الخوف » كحافز مكتسب ، الذي قد
يعتبر الاساس لكثير من الحوافز المكتسبة
الآخري (ماور ، ١٩٥٠) . ويمثل هذا
المفهوم الاساس لما اضطلعنا به من تجارب . وقد
غير « ماور » في سياق تطور تجاربه نظريته
من « نظرية التدعيم ذات العامل الواحد »
One-factor reinforcement theory

الى ما يعرف « بنظرية العاملين »
two-factor-theory التي عدلها مرة أخرى
فيما بعد ، بحيث أصبحت في الواقع هي نظرية
العامل الواحد ، تقوم على « التجاور »
(contiguity) على انه العامل
الاساسي في التعلم - وهي بالتالي لا تختلف
كثيراً عن نظرية سبنس . وربما يمكن الاختلاف
في ان المتغير الدافعي الاساسي هو دافعية
« الباعث » في نظرية سبنس ، و « الخوف » في
نظرية ماور .

اما « براون » (١٩٦١) فقد بلور نظرية
الدافعية الراسخة في النظرية السلوكية العامة
عند هل . وجعل من الواضح ان المتغير البالغ
الاهمية (« الحافز ») هو متغير وسيط ،
تنشيطي (activating) عام ،
لا توجيهي (non-directing) ، ويميز
هذا بوضوح مفهوم الحافز عند هل وبراون عن
مفاهيم الحافز الآخري (مثل مفاهيم تولان
وفرويد) ، وبالإضافة الى ذلك ، اتى براون
بنظرية أكثر وضوحاً واتساقاً وقابلية للتحقيق

لقد اثرت نظرية هل بعمق في تطور نظرية
التعلم . « فبين نظريات التعلم المعاصرة يسمح
بناء هل مهيباً بروعة بنباته ، جميلًا بتناسب
اجزائه ، فريداً في تناسق تفاصيله (سيد
عثمان ١٩٧٤) . فمن بين زملائه وتلاميذه
النجباء كان : « ك . سبنس » ، « ن . ميلر »
« ماور » ، « ج . براون » .

يتمثل اسهام « سبنس » في نمو مفهوم
« الباعث » (incentive) بين المتغيرات
الدافعية . لقد غير مفهومه من نظرية تدعيم
خفض الحافز

drive - reduction - reinforcement theory

الى ما يعرف بقانون الاثر التجريبي

Empirical Law of Effect

، الذي
فيه تلعب الدافعية وخفض الدافعية فحسب
دورا في الاداء ، بينما يفهم التعلم على انه
تشرط كلاسيكي يتبع « مبدأ التجاور »
Contiguity principle (١٩٥٦ ، ١٩٦٠) .

اما « ميلر » ، بالتعاون مع « دولا رد » ،
فقد طبق شكلاً مبسطاً لنظرية هل على التعلم
الاجتماعي (ميلر ، دولا رد ، ١٩٤١) وعلى
نظرية الشخصية والعلاج النفسي (دولا رد ،
ميلر ، ١٩٥٠) وبجانب ذلك ، طور نظرية
شكلية عن السلوك الصراعي (ميلر ، ١٩٥٩) ،
واكثر المفاهيم اهمية في نظرية ميلر : « الحافز » ،
« الامارة » cue ، « الاثابة » ، « الاستجابة » .

يتحدد الحافز على انه « مشير قوى » : ولكل
مشير قوى « وظيفة الحافز » drive - function
تستثير الاستجابات وتنشطها .
وبالإضافة الى ذلك ، يمكن ان يكون للمثيرات
« وظيفة الامارة » cue-function

التي توجه السلوك . اما « الاثابة » فهي ذلك
الشيء الذي ينتج « خفض الحافز » ، الذي
بدوره يدعم الاستجابات للمشير . وتعريف
الحافز كنوع من المثير ينطوي على مزايا كثيرة :
اولاً ، ان قانون التعميم (والقوانين الآخري

التجريبي (الامبيرقي) عن «الدافعية الثانية»
Secondary motivation

فليس ثمة « حوافز » مكتسبة او متعلمة
ولكن هناك « مصادر متعلمة »

learned sources الحافز ، التي كلها -

بنفس الطريقة مثل المصادر الاولية

Primary sources (الحاجات) - تحدد الحافز

العام ذاته او يؤثر فيه . ويشير براون ، مثل

ماورر وميلر ، الى الخوف على أنه الاساس

لكل « الانساق الدافعية الثانوية »

secondary motivational systems (١٩٦٨) .

علاوة على ذلك ، يتقبل براون امكانية توحيد

« الحافز » مع « الاستشارة » في « المنظومة

الاستشارية الشبكية »

reticular arousal system (RAS)

بهذا التفسير الفسيولوجي للحافز نلتبس
خطا آخر للنمو في سيكولوجية التعلم . فاذا
تبعنا الخط الاساسي اعتبارا من ثورنديك ،
هناك اتجاه مواز هام آخر يبدأ مع بافلوف .

ولعل من المعروف ان نظام بافلوف لا يتضمن
اية مفاهيم دافعية في نظريته الاصلية كما
قدمها في عام ١٩٢٧ . وربما يعزى ذلك الى
انه قد أجرى تجاربه على الحيوانات في ظل
شروط اكثر سلبية وتقييدا . فبدون قيام
الحيوانات بأفعال حرة ، ليس ثمة حاجة
لتفسير تنشيطي في النظرية . لكن هذا يمثل
بالطبع تفسيراً سطحياً لأعمال بافلوف . فاذا
تفحصنا نظريته بدقة نجد ان عملية التشريط
وسلوك الحيوان في الموقف التجريبي يحددهما
تفاعل دينامي معقد بين عمليتين اساسيتين :
« الاستشارة » و « الكف » . وبين هاتين
العمليتين ، تعتبر « الاستشارة » على الاقل عملية
تنشيطية ، تحريكية . وبالتالي متفيرا دافعا
بالمعنى التقليدي للدافعية . وبالإضافة الى
ذلك تدخل الدافعية في المثير غير الشرطي الذي
يدعم الاقتران الشرطي اذا تبع المثير الشرطي .

وغالبا ما يرتبط المثير غير الشرطي بشيء ما ،
هو ، وفقا لنظام هل ، اما خفض الحافز
drive-reducing (مثل الطعام)

او استدعاء الحافز drive-inducing

(مثل الصدمة الكهربائية) . وفوق ذلك ، يشير

بافلوف الى ما يعرف ب « الفعل المنعكس

الانتظامي » Orienting Reflex (OR)

كعامل حاسم في تكوين اي رد فعل شرطي

Conditioned Reaction (CR)

وقد خضعت مشكلات « الفعل المنعكس

الانتظامي » (ع ظ) والنشاط الانتظامي «نظ»

Orienting activity (OA) لفيض من

الدراسات المتعمقة : الفسيولوجية والنفسية

وفي الحالات السوية والمرضية في الاتحاد

السوفييتي في الثلاثين سنة الاخيرة (ب .

انوخين ، ١٩٥٨ ، ش . سوكولوف ، ١٩٥٨ ،

١٩٥٩ ، ١٩٦٤ ، ١٩٧٠ ، فنوجرادوفسكا ،

١٩٦١ ، الخ) .

والفعل المنعكس الانتظامي (ع ظ) ، وفقا

لهذه الدراسات ، هو استجابة الكائن الحي الى

ظهور مثيرات جديدة او الى اي تغيير في الوسط

المحيط (اطلق عليه بافلوف كذلك الفعل

المنعكس الاستقصائي exploratory reflex

، ويمثل الفعل المنعكس الانتظامي

استجابة مركبة تسهم فيها تقريبا

كل منظومات الاورجائزم: يدخل فيها استجابات

حركية (مثلا ، حركة الجسم والراس والعين

في اتجاه المثير) ، حشوية (تغير دفع الدم في

اجزاء الجسم ، تغير النبض والتنفس) ،

بيوكهربية (تغير تيارات الاداء ، الفعل المنعكس

الجلفاني - الجلدي Skin - Galvanic Reflex

وكذلك التغيرات في بنية المحلات Analyzers

وفي استشارية أعضاء الاستقبال الحسي receptors

ويتوضع التركيب الفسيولوجي - العصبي

للفعل المنعكس الانتظامي في المنظومات اللحائية

وتحت اللحائية cortical, subcortical systems

خاص للدافعية ، حيث سلم بأن الدماغ يكون دائما نشطا . وليس تمة حاجة الى مفاهيم خاصة لتفسير تنشيط السلوك واستثارته . بل تكون الحاجة فقط الى مفاهيم عن توجيهية وتنظيمية السلوك ، الذي يتحدد بما يعرف بتجمعات الخلايا cell-assemblies

وتتابعات الاطوار Phases - sequences

وقد غير « هب » فيما بعد من نظريته عن الدافعية واكد على دور « المنظومة الاستشارية الشبكية » في الدافعية . وقد احكم « هب » نظريته باقتان اكثر في مقال (١٩٥٩) وفي مرجع (١٩٦٦) . وعلاوة على برلاين ، اثر هب كذلك في « جيمس اولدز » (١٩٥٦) الذي برز في تجارب الاستشارة داخل الجمجمة

(intracranial stimulation) (٨) ، انني

اكتشف فيها الوظيفة التدمجية للحاجز septum

واهمية دور « المنظومة الاستشارية الشبكية » بالنسبة للسلوك عامة والدافعية خاصة قد اقراها العلماء منذ ان اكتشف الفسيولوجيان « موروزي » و « ماجون » وظيفة هذه المنظومة . كما قدماها لأول مرة في عام (١٩٤٩) . وبرزها « ماجون » على نحو

(وخاصة التكوين الشبكي reticular formation

الذي يباشر تأثيرا تنشيطيا على لحاء المخ) . وللفعل المنعكس الانتظامي اهمية بالغة الحيوية: فهو يضمن الشروط الامثل للادراك والتحليل الاولى للمثيرات الجديدة ، وكذلك استعداد الاورجانزم للاستجابة لها (٧)

وقد ادى منطق نمو البحث الرصين في هذا الصدد الى علماء النفس في الشرق والغرب الى نتائج متقاربة . فهناك تشابه كبير بين نظريتي العالم السوفيتي « ي . سوكولوف » والعالم الكندي « د . برلاين » (١٩٦٠ ، ١٩٦٧) ، حيث يؤكد كلاهما على دور « المنظومة الاستشارية الشبكية » (RAS) في السلوك الاستقصائي .

تأثر « برلاين » بالعلماء السوفيت وبجان باجيه الذي عمل معه ، وخاصة بدونالد هب . يعزى الى « هب » بصفة خاصة ، في عمله الرئيسي (١٩٤٩) ، وصل علم النفس الغربي بالتقليد البافلوفي الاصلي ، كما ينسب اليه الفضل في بعث نهضة في التنظير الفسولوجي في ميدان علم النفس . لقد كشف « هب » ، في الطبعة الاولى لنظريته (١٩٤٩) ، عن تصور

(٧) تمثل الدراسات السوفيتية في الفعل المنعكس الانتظامي « ع ظ » والنشاط الانتظامي « ن ظ » اسهامات مهمة في الفكر السيكولوجي العالمي المعاصر . وهي تختل مكانا بارذا كاتجاه مسيطر هلي كثير من البحوث النفسية السوفيتية ، وبخاصة في كلية علم النفس بجامعة موسكو ، وراندها « يوجين سوكولوف » ، « الكسمندر لوديا » ، « اولجا فينوجرادوفا » وغيرهم . نظمت « جامعة موسكو - كلية علم النفس » بالاشتراك مع « اكااديمية العلوم السوفيتية » سلسلة من البحوث ظهرت في مجلد بعنوان Orienting Reflex and Explorator Behavior في عام ١٩٥٨ ، وترجم الى الانجليزية في عام ١٩٦٥ تحت اشراف (L. Voronin) ، ويتضمن ٤٨ دراسة في هذا الصدد . كما أجرى العديد من البحوث (٢٨ بحثا) تحت اشراف « سوكولوف » و « فينوجرادوفا » ظهرت في عام ١٩٧٠ (بالروسية) تحت عنوان

(E; Sokolov, O. Vinogradova (pds.) è Neuronal mechanisms of orienting reflex, Moscow Univ. 1970;

وبحوث غيرها (٢٤ بحثا) تحت اشراف « سوكولوف » قدمت امام مؤتمر (١٩٦٩) عن « الميكانيكات النبرونية للتعلم » ، نظمه قسم علم النفس العصبي والسيكولوجي بكلية علم النفس - جامعة موسكو وقسم فسيولوجيا النشاط المعبي الراقي باكااديمية العلوم الطبية بموسكو ، ونشرت في كتاب (بالروسية) تحت عنوان (E. Sokolov (pd.) : Neuronal mechanisms of learning, Moscow Univ., 1970).

(٨) craniology : علم الجمجم

التعلم الحديثة ، ولاقى نظامه القائم على التجريب تطبيقاً على مشكلات عامة (١٩٥٣) . فقد طبقت نتائج بحوثه على العلاج السلوكي وخاصة على التدريس (١٩٦٨) . ومن الانتقادات المقنعة لاتجاه سكرت المعادي للنظرية antitheoretical orientation

تلك التي قدمها « ن. ميلر » (١٩٥٩) ، الذي أشار الى الفائدة « الاقتصادية » لادخال متغيرات وسيطة في تلك الحالات التي يكون فيها أكثر من متغيرين مستقلين وتابعين خاضعين للملاحظة في تجربة .

ومما يجدر الإشارة اليه هنا ، أحد الرواد المبرزين في علم النفس الدافعي ، « يول توماس يونج » ، الذي يعتبر اتجاهه أقرب الى سيكولوجية التعلم والاتجاه السيكونسيولوجي في الدافعية منه الى سيكولوجية الشخصية . اضطلع يونج بتجارب كثيرة على الحيوانات عن مشكلات تفضيل الطعام . وقد بنى ، استناداً الى هذه التجارب ، نظرية وجدانية (hedonistic) (٩) موضوعية للدافعية ، تتمثل مسلمتها الاساسية في ان البواعث (مثل الطعام) تحدد الاستثارة الوجدانية affective arousal وهذه العملية تحدد السلوك وتؤثر في التعلم . ولا يفغل يونج المصادر الاخرى للدافعية (مثل الحاجات ومثيرات النفور) ، لكنه يؤكد ان الانفعالات الوجدانية الايجابية positive - hedonic affects

قد اغفلها علم نفس الدافعية التجريبي الحديث وقد نظم يونج (١٩٦١) كل نتائج البحوث في علم النفس الدافعي الحديث في نظامه الوصفي او اطاره المرجعي ، الذي يعرف بالاتجاه «متعدد المنظور» multi-perspective او «الانتهاجي» attitudinal ، او «النسبي» relativistic ، هذا النظام ، الذي يبعث

محكم في عام (١٩٥٤) ، وقد يسر هذا الاكتشاف عمل علماء النفس في هذا الصدد ، خاصة في اعمال « دونالد لندزى » (١٩٥٧) . وتكامل دور « المنظومة الاستثنائية الشبكية » في نظرية الدافعية عند « ايزابيث دوفي » (١٩٦٢) التي اكدت ، كما شاع في الثلاثينات ، دور مفهومين اساسيين في وصف السلوك وتفسيره : « التنشيط » (Activation) و « التوجيه » (direction) . وغني عن القول ، انه قبل اخضاع هذه الوظيفة الدافعية للمنظومة الاستثنائية الشبكية للبحث ، ساد الافتراض بأنها نتيجة نشاط الجهاز العصبي التلقائي alitonomic nervous system ، الذي يعتبر الان نظاماً جانبياً وثانوي الأهمية مقارنة بالمنظومة الاستثنائية الشبكية .

وأهمية دور المنظومة الاستثنائية الشبكية قد تكدت ، بالإضافة الى ذلك ، في نظرية « دالبير بندرا » (١٩٥٩) الذي يقرر انه قام بالجمع بين اتجاهي « هب » و « سكرت » .

لعل ارجاء الإشارة الى « ب. سكنو » من قبل يعزى الى ان نظريته - او بعبارة ادق ، نظامه الوصفي - لا يتضمن اية مصطلحات تفسيرية تشير الى متغيرات وسيطة او تكوينات فرضية . ومن ثم ، لا يتضمن نظام سكرت اية متغيرات دافعية بالمعنى التقليدي - حتى اقل من بافلوف . لكن سكرت يستخدم مصطلحات لمتغيرات مستقلة امبيريقية ، ترتبط بالمتغيرات الدافعية . وأكثر هذه المتغيرات المرتبطة بالدافعية أهمية في نظام سكرت : « الحرمان » و « التدعيم » . يحدد الحرمان الدرجة العامة للتنشيط ، بينما يحدد التدعيم « قوة الاستجابة » او احتمالية حدوث الاستجابة . ويرتفع سكرت في الوقت الحاضر على موقع من اكثر المواقع تأثيراً في سيكولوجية

(٩) Hedonism : فلسفة اللذة ، مؤداها ان غاية الحياة سعى الانسان الى اللذة وتجنب الألم .

مثل جهده impetus . هدفه ، موضوعه ، مصدره .

« نعى بجهد الفريزة عنصرها الحركى ، مقدار القوة او الطلب على الطاقة التى تمثلها . وهدف الفريزة هو فى كل حالة الاشباع ، الذى يمكن الحصول عليه بإبطال حالة الاستشارة فى مصدر الفريزة . أما موضوع الفريزة فهو ما يمكن ان يتحقق فيه او من خلاله هدفها . انه الشئ الأكثر تغيرا بالنسبة للفريزة ولا يرتبط بها فى الأصل ، ولكنه يصير متعلقا بها فحسب بسبب ملاءمته خاصة لتوفير الاشباع ويعنى مصدر الفريزة تلك العملية الجسمية فى عضو او جزء من الجسم ينشأ منه مثير يتمثل فى الحياة العقلية بفريزة من الفرائز (فرويد ، ١٩١٥) .

بعد ان قدم فرويد هذه المسلمات والتعريفات الأساسية ، مضى الى مناقشة المشكلات الهامة المتعلقة بعدد وأنواع الحوافز الفريزية :

« اقترح انه يمكن تمييز مجموعتين من هذه الفرائز الأولية ، فرائز حفظ الذات او فرائز الأنا ، والفرائز الجنسية . لكن ليس لهذا الاقتراح ثقل المسئلة الضرورية ، مثل افتراضنا للفرض « البيولوجى فى الجهاز العقلى ، انه مجرد تكوين مساعد تعتمد عليه فقط طالما يثبت فائدة ، ولن يكون هناك الا فارق ضئيل فى نتائج عملنا للوصف والتصنيف لو استبدلناه بتكوين آخر » (فرويد ، ١٩١٥) .

لقد غير فرويد تصنيفه للحوافز الفريزية مرتين : من الحافزين الفريزيين المذكورين الى حافز غريزى واحد (الطاقة الجنسية « الليبيدو ») ، ثم مرة اخرى الى اثنين : غريزة الحياة (الايروس Eros) وغريزة الموت

على الاثارة والالهام فى هذا الميدان ، هو صيغة حديثة لأعماله الفذة المبكرة (١٩٣٦ ، ١٩٤٣)

النحى الاجتماعى لعلم النفس الدافى ، ديناميات الشخصية :

فى نفس الوقت الذى ابتدع فيه بافلوف وثورنديك وماكدوجل نظرياتهم ، كان « سيجموند فرويد » يرسى اساس التحليل النفسى . لقد كتب ، بعد ان حاول بناء نظرية فسيولوجية (١٨٩٦) ، عمله الرئيسى الاول عن الأحلام (١٩٠٠) . وقد كانت نظرياته ، منذ البداية ، دينامية من حيث انها قد ركزت على « الطاقات » و « القوى » النفسية ، و « الصراعات النفسية الداخلية » كمحددات للسلوك السوى والمرضى . الا ان فرويد قدم اول صياغة منظمة لنظرية الدافعية فى عام ١٩١٥ ، حيث حدد متغيره الدافعى الاساسى الفريزة ، او بالاحرى الحافز (١٠) :

« يمكن ان نخلص الى نتيجة بأن الفرائز وليست المثيرات الخارجية هى القوى الدافعية الحقيقية فى التقدم الذى رفع الجهاز العصبى بكل كفاياته الهائلة الى مستواه الراقى الحالى من النمو . .

« وإذا شئنا الان اعتبار الحياة العقلية من وجهة نظر بيولوجية ، تبدو « الفريزة » لنا كمفهوم محايد بين ما هو عقلى وما هو جسمى ليكون كلاهما الممثل العقلى للمثيرات المتولدة من داخل الاورجانزم والمنسابة الى العقل ، وفى نفس الوقت المقياس للطلب على طاقة العقل بسبب اتصاله بالجسم .

« والآن نحن فى موقع لمناقشة مصطلحات معينة تستخدم للإشارة الى مفهوم الفريزة ،

(١٠) اشار علماء عديدون الى ان الترجمة الصحيحة للمصطلح الالمانى Trieb ينبغي ان تكون « الحافز » ، وليس « الفريزة » كما شاع ترجمتها ويقترح « دابابوت » (١٩٦٠) تسمية المصطلح الدافعى الفرويدى بـ « الحافز الغريزى » Instinctive drive .

(ثاناتوس Thanatos) ، ولنترك تفاصيل
نظرية فرويد في الدافعية ، حيث يمكن للقارئ
الرجوع إليها في مصادر عربية عديدة .

لقيت نظرية التحليل النفسي في الدافعية
تفسيراً ونموها بعد فرويد ، وقد قدم « كينيث
كولبي » (١٩٥٥) تحليلاً عميقاً لنظرية التحليل
النفسي في الدافعية وأبرز أن « الطاقة »
energy و « البنية » structure هما
المفهومان الأساسيان والمتماثلان في نظرية التحليل
النفسي في الدافعية (وربما في أي نظرية) .
واقترح « نموذجاً بنويماً دورياً - دائرياً
cyclic - circular structural model

ليحل محل النموذج الثلاثي القديم
الذي قدمه فرويد : الهى ، الأنا ، الأنا الأعلى .
أما « دافيد رابابورت » (١٩٦٠) فقد قدم
تحليلاً متعمقاً شاملاً لنظرية التحليل النفسي
في الدافعية ، وفيه أشار إلى الفارق
بين الأسباب والدافعية ، حيث يعتبر الدافعية
نوعاً خاصاً من الأسباب . وميز بين « الحوافز
الغريزية » والأنماط الأخرى للدوافع . وأكد ،
مثل كولبي ، التفاعل الهام بين الحوافز
والتركيبات (ميكانيزمات الدفاع ، وغيرها) .
وبالإضافة إلى ذلك ، قدم مقارنات باللغة القيمة
بين نظرية التحليل النفسي عامة والنظرية
التطورية عند بياجيه ونظرية التعلم .

ومن النظريات الفلدة نظرية « كورت ليفين »
في الدافعية ، وهي النظرية الوحيدة في الدافعية
التي ترتبط بعلم النفس التجريبي الكلاسيكي
بينما كان يدرس ليفين مع « فريتمر » مؤسس
مدرسة الجشطت ، ويرافقه كيولروكوفكا ،
استلهم ليفين الشاب للقيام بأولى أعماله
التجريبية عن « الميول المسيطرة » determining
tendencies التي اعتبرت بمثابة نقد
لأعمال « آخ » (١٩٠٥) التي تناول مشكلة
الإرادة داخل إطار مرجعي ارتباطي كلاسيكي
أوضح « ليفين » (١٩٢٢) أنه توجد ميول
مسيطرة أخرى بجانب الارتباطات ، وأن هذه

العوامل المسيطرة هي القوى الدافعية الأولية
بجانب « الميكانيزمات الارتباطية » . وقد واصل
ليفين مع زملائه تجاربه وتحليله التصوري
للميول المسيطرة ، أو « الحاجات »
(Bedürfnis) كما سماها فيما بعد (١٩٢٨)
لم يكن ليفين هكذا مهتماً بالحاجات البيولوجية
بقدر ما كان مهتماً بأشياء الحاجات - quasi
needs ، التي هي ميول محتومة بالقرارات
(Vorsatz) والحالات الأخرى (Einstellungen)
لقد أحكم ليفين وزملاؤه باتقان نظرية
عن الدافعية الإنسانية (كما تتمايز عن نظرية
الدافعية الحيوانية التي أحكمتها نظريات
التعلم) . وقد طوقت أعماله تلك المشكلات
الكلاسيكية مثل « مستوى الطموح » ، « النشاط
البديل » ، « استدعاء الاداءات المبتورة »
(ظاهرة زيغارنك) ، وغيرها . وقد ظهرت
نتائج هذه الأعمال في فترة إقامة ليفين بألمانيا ،
وقد جمعت وترجمت إلى الإنجليزية في عام
١٩٣٥ .

أما في فترة إقامته بأمريكا ، فقد أحكم
ليفين نظاماً كاملاً ، معروفاً بالنظام الطوبولوجي
لوصف تركيب الشخص « ش » والبيئة
(المدركة) « ب » . وقد الحق بهذا النظام
الوصفي (١٩٣٦) فيما بعد نظاماً تفسيرياً
(١٩٣٨) ، حيث فسر السلوك « س » كدالة
للشخص والبيئة : س = دالة (ش ، ب) .
ويعمل مفهوم القوى النفسية أكثر المتغيرات
الدافعية أهمية . ويتحدد هذا التكوين
التفسيري بحالة التوتر في الشخص (المرتبطة
بحالة الحاجة في الأورجانزم) وبالقيمة الدانية
Valence لموضوع أو نشاط معين في البيئة
(المدركة) . واذ تعتبر « نظرية المجال » عند
ليفين متقنة ومتسقة للغاية ، إلا أنها قد
خضعت للنقد الشديد من حيث ارتباطها تماماً
بالأحداث الملاحظة (أي ، تعريفات إجرائية
قليلة للغاية) ، واهتمامها - وفقاً لمبدأ المعاصرة
contemporacity - أساساً بالقوى العاملة في
اللحظة الراهنة ، وانغفالها للسياق التاريخي

أو - حينما يدخل في مواجهة - الى الانتباه والاستجابة لأنواع معينة من الضغط . وحتى قد تولد الحاجة ادراكات وهمية وتعقلات هذائية (اسقاطات لضغطها المتصور imaged press على موضوعات غير ملائمة . وتصحب كل حاجة على نحو مميز بشعور او انفعال خاص وتميل الى استخدام اساليب معينة (الحاجات الفرعية sub-needs ووسائل الاداء actones لمعاودة اتجاهها . وقد تكون الحاجة ضعيفة او قوية ، وقتية او دائمة . لكنها عادة ما توجد وتؤدي الى نشأة سياق معين للسلوك الظاهري (او الخيال) الذي (اذا كان الاورجانزم مقتدرا والمقاومة الخارجية ليست مما لا يمكن التغلب عليها) يغير الظروف الحافزة بطريقة تصل بالموقف الى الغاية بما يؤدي الى تهدئة (سلامة او ارضاء) الاورجانزم » (موراى ، ١٩٣٨ ، ص ١٢٣ - ١٢٤) .

يتضح من هذا الاشتقاق ان « الحاجة » عند موراى تختلف عن الحاجة عند هل وأصحاب نظريات التعلم ، حيث تقتصر عندهم على حالة الحرمان في بعض الاعضاء الطرفية peripheral organs او في الاعضاء الحشوية viscera الحاجة عند موراى ، من ناحية أخرى ، حالة رئيسية (فرضية) ، أكثر شمولاً واحاطة من « الحافز » عند هل (أقرب في الواقع الى جهد استدماء رد الفعل sEr عند هل) ، ومن « الحافز الفريزي » عند فرويد . تتضمن نظرية موراى تقريباً اربعين حاجة ، مقسمة الى « الحاجات » حشوية الاصل viscerogenic needs (وعددها ثلاث عشرة) و « الحاجات نفسية الاصل » Psychogenic needs (وعددها عشرون على الاقل) . وتمثل هذه الثروة من المتغيرات الدافعية وكذلك المتغيرات التفسيرية الاخرى جوانب القوة والضعف في نظرية موراى على السواء . تكمن القوة في امكانية عمل اوصاف متميزة لشخصيات

للظاهرة النفسية ، فنظرية ليفين « لاتاريخية » وفي ذلك تكمن نقطة الضعف الكبيرة في نظامه الشاهق الذي اقامه . ورغم ذلك ، فقد اهتم نظرية ليفين اصعالا تجريبية عديدة ، سواء في علم نفس الطفل او (بخاصة) في علم النفس الاجتماعى . كما اثر في نظرية التعلم من خلال « تولمان » وفي نظرية الشخصية من خلال « هنرى موراى » .

يرى « موراى » نظريته كشكل حديث لنظرية التحليل النفسى في الدافعية ويقدر بدينه لكل من ماكندوجل وليفين . ويبرز في كتابه « استكشافات في الشخصية » (١٩٣٨) تكامل الطرق التجريبية والاكلينية ، بما يكشف عن اول امثلة حقيقية للعمل بروح الفريق في علم النفس . ومن ابرز معالم نظرية موراى محاولة اقامة تكامل للجوانب القيمة من نظرية التعلم مع اساسيات نظرية التحليل النفسى . لذا ، يبتدع موراى تصنيفاً محكماً على الاصول التطورية genesis للشخصية لوصف السلوك ، لكنه في تفسيره للسلوك يؤكد - خاصة اهمية احداث الطفولة المبكرة و « ديناميات الشخصية » . وفي اطار ذلك ، يقدم موراى المتغير الدافعى « الحاجة » :

« الحاجة تكوين (وهم مقنع او مفهوم فرضى) « يكمن وراء القوة (الطبيعة الجسمية - الكيميائية) في منطقة المخ ، قوة تنظم الادراك والفهم والتعقل والنزوع والاداء بطريقة يتم بها تحويل موقف قائم غير سار الى وجهة معينة . وفي بعض الاحيان تستثار الحاجة مباشرة بعمليات داخلية من نوع معين (حشوية viscerogenic ، غددية endocrinogenic او تتعلق بسرير المخ thalamicogenic تنشأ في سياق التفاعلات الحيوية ، لكنها تستثار اكثر (في حالة الاستعداد) بحدوث احد المضغوط الفعالة (او بصور توقعية لذلك المضغوط) . لذا ، تبتدى الحاجة عندما تؤول بالاورجانزم الى السعى او الى تجنب المواجهة

الأفراد ، والضعف في المخاطرة بتفسيرات كاذبة قد يقع فيها بعض السيكولوجيين . ومما يجدر ذكره ، أن موراي قد عدل نظريته عدة مرات (١٩٥١ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٩) ليستقر به الأمر أخيراً إلى استبدال مفهوم « الحاجة » بمفهوم أكثر دقة وتضييقاً يعرف بـ « الاستعدادات الموضوعية » thematic dispositions

« لقد أصبح من الواضح لنا أكثر وأكثر أنه يمكن تحديد مكونات الطاقة في الشخصية كاستعدادات للموضوع أفضل من تحديدها كاستعدادات عامة للاداء general actional dispositions (١٩٥٩ ، ص ٣٤) .

ولقد استمر موراي في ابتداع مفاهيم وصفية وتفسيرية جديدة ، وكان له فضل بالغ الأثر على سيكولوجية الشخصية لما قدمه من تصورات نظرية وابتكارات منهجية (من بينها اختبار تفهم الموضوع « التات ») ولما توصل إليه من تجاربه إلى نتائج قيمة . ولعلنا لا نجانب الصواب إذا اعتبرنا موراي القوة الدافعة في نظرية الشخصية ، حيث يمكن أن نعدّه الرجل الثاني فقط بعد فرويد .

ولا غرو ، فقد اقتفى ماكلياند خطى موراي وأخذ يسمى إلى استكمال الشوط إلى أقصى مداه ، حيث وأصل البحوث الأمبيريقية مستعينا باختبار تفهم الموضوع « التات » وأثناء نظرية في الدافعية . لذا قد أعد صورة جماعية لاختبار التات ، وحاول هو وزملاؤه قياس مضمون الخيالات في قصص التات التي يرويها المفحوصون في مواقف مختلفة عديدة ، حيث يمكن خلق دافعيات مختلفة (دافعيات مثل الجوع ، الجنس ، العدران ، الخوف ، التواد القوة ، والانجاز) . وعن طريق الجمع بين الطرق التجريبية وطرق الملاحظة الميدانية توصل ماكلياند وزملاؤه إلى تصورات خلاقة للدافعية . كما حققوا كذلك نوعاً من التقنين لمنهج تحليل المضمون لقصص التات ، الذي

طور إلى الحد الذي يمكن معالجته بالحاسبات الآلية . ومن المعالم المميزة أيضاً لعلم النفس الحديث أن زمرة ماكلياند قد ركزت بحوثها وتطورها النظري أساساً على متغير دافعي واحد ، المعروف بدافع الانجاز (ماكلياند وآخرون ، ١٩٥٣) وقد أوضحوا ببخوتهم أن الفروق الفردية في قوة دافع الانجاز كما يقاس بالتات تتوقف على البيئة - خاصة حينما تدعم أساليب تربية الطفل الاستقلال والاعتماد على الذات لديه . وقد أوضحت زمرته في أعمالها اللاحقة أيضاً قيمة التات في قياس الدوافع الأخرى (ماكلياند ، ١٩٥٥ ، أكنسون ، ١٩٥٨) . وقام ماكلياند نفسه بدراسة تأثير دافع الانجاز على النمو الاقتصادي في المجتمعات المعاصرة والقديمة (١٩٦١) .

ومن ناحية التصور النظري ، قدم ماكلياند إسهاماً بالغة القيمة بالانتقال من تصور محتوم بالحاجة need-determined conception لدافعية إلى تصور وجداني محتوم بالتوقع hedonistic, expectation determined للدافعية (متأثر بنظريات يونج وتولمان ، أو على الأقل مواز لها) . ويتضح هذا من الصياغة الأولى لنظريته :

« يصير الدافع ارتباطاً وجدانياً قوياً ، يتميز برد فعل توقعي للهدف ويقوم على الارتباط السابق لعلامات معينة مع اللذة والألم » (١٩٥١ ص ٤٤٠) .

ويحدد ويلخص المسلمات الأساسية لنظريته على النحو التالي :

« تعريفنا للدافع كما يلي : الدافع هو تمييز redintegration بواسطة علامة أو أمانة cue لتغير في موقف وجداني . ويقصد بكلمة تمييز في هذا التعريف أن تتضمن التعلم السابق وكل الدوافع ، في نظامنا ، متعلمة . والفكرة الأساسية هي ببساطة كما يلي : تكون مشيرات أو مواقف معينة متضمنة بتباينات بين التوقعات

ويدخل التوقع - او الاحتمالية الدافعية «لح»
(Ps) - في علاقات متبادلة مع الحافز في
مواقف الانجاز بهذه الطريقة :

شرح = اشرح

وتوازيًا مع هذا الدافع الإيجابي لاحتراز
النجاح ، يسلم أتكسون أيضًا بـ « الخوف
من الفشل » أو « الدافع الى تجنب الفشل » :

٣- شرح = شرح = شرح = شرح = شرح

وواحد من المسلمات الأساسية لنظرية
أتكسون ان السلوك نتيجة التفاعل بين دافعين
على الأقل . ففي مواقف الاستشارة بالانجاز
يكون السلوك (س) نتاج دافعين متصارعين :

س = س - س

لذا يضمن أتكسون نظريته أيضًا بعض
الفروض المستعارة من نظرية ميلر في السلوك
الصراعي .

وفي الفترة الأخيرة عمل أتكسون مع «نورمان
فيزر» ، وجمعا أعمالهما وما قام به زملاؤهم
في مجلد جديد (أتكسون ، فيزر ١٩٦٦) .
في هذا الكتاب يوضحون قيمة نظريتهما
المعروفة بـ « النظرية المصغرة » (miniature -
theory) لدافعية الانجاز ويتلمسون
السييل الى امكانية توسيع النظرية الى نظرية
عامة في الدافعية الانسانية تجمع بين نظامين
في علم النفس العلمي : علم النفس الفارقي
(الاختبارات) للشخصية وعلم النفس العام
(التجريبي)

يصف « فيزر » (١٩٦٧) تطبيق نموذج
« التوقع x القيمة » على سلوك البحث عن
المعلومات information-seeking behavior

(المستوى التكيفي) ولأدراك مصادر للوجدان
الأولى غير المتعلم ، سواء الإيجابي أو السلبي
بطبيعته . ومن شأن العلامات أو الامارات التي
تكون متزاوجة مع هذه الحالات الوجدانية ان
تغير في هذه الحالات الوجدانية ، وتصبح
الشروط التي تنتجها قادرة على تمييز حالة
مشتقة من الموقف الوجداني الاصلى ، لكنها
ليست متحدة معها (ماركيلاند وآخرون ،
١٩٥٣ ، ص ٢٨) .

ومن الواضح ان تصور ماركيلاند للدافعية
ينحرف الى حد ما عن تصور اسلافه .

وقد لقي هذا المنحى في اتجاه نظرية «التوقع
x القيمة» ("expectation x value" theory)
مزيدا من التطور على يدى « جون أتكسون » ،
أحد رفاق ماركيلاند الاقربين ، اهتم «أتكسون»
خاصة بسلوك المخاطرة risk-taking behavior
واعتماد على دافعية لانجازه . وقد
وقد طور من نظرية دافعية الانجاز الى طراز
مثمر للغاية كنظرية للدافعية الانسانية (١٩٦٤)
تأثر أتكسون بقوة بليفين وتولمان ، كما افاد
الى حد ما من نظرية القرار الحديثة .

تبدو المتغيرات الدافعية الأكثر أهمية وما
بينها من تفاعلات في معادلة أتكسون :

٣- شرح = شرح = شرح = شرح = شرح (Ts = Ms x Es x Is)

حيث م ح (Ts) تعنى الميل الى احتراز
النجاح الذى هو وظيفة لاستعداد ثابت فطرى
او مكتسب ، يعرف بـ « الدافع » الى انجاز
النجاح « ع ح » (Ms) ، ويتحد مع «توقع»
النجاح ح (Is) و « قيمة الباعث »
incentive - value للأداء ح (Is)

وبالنسبة لطرق ذلك الميدان من البحث الذي كان يحتله من قبل العلماء من أصحاب الاتجاه البيولوجي وسيكولوجية التعلم (مثل ، برلاين)

وينتقد أتكينسون كذلك « قانون الأثر » لعدم إمكانية تطبيقه على السلوك الإنجازي (أتكينسون ، فيزر ١٩٦٦) ، ويشير إلى الحقيقة بأن « أولبورت » قد أثار هذا النقد ذاته من حوالي ثلاثين سنة .

وهنا يبرز اتجاه آخر في سيكولوجية الشخصية ، صاحبه « جوردون أولبورت » . في كتابه الدائع الصيت عن الشخصية (١٩٣٧) يقترح نظرية - أو ان شئنا ، نظاما وصفيا - للشخصية ، تتناقض إلى حد ما مع الخط الأساسي الدينامي لنظرية الشخصية كما قدمه فرويد وليشيان وموراي ، وغيرهم ، ينكر أولبورت أهمية الحاجات أو الحوافز البيولوجية وكذلك أهمية النمو في الطفولة بالنسبة لشخصية الراشد . وكبديل لذلك ، طور فرضا عن الاستقلال الوظيفي functional autonomy لدافعية الكبار (فرض قدمه أصلا «ودورث» ١٩١٨) . وفي تعديل لنظريته يقرر :

« من وجهة النظر هذه يعتبر الاستقلال الوظيفي مجرد سبيل لاقترار ان دوافع الناس تتغير وتنمو في سياق الحياة ، لأن من طبيعة الناس أنهم ينبغي أن يفعلوا هكذا » (أولبورت ١٩٦٨ ، ٢٥٢٨) .

يتفق أولبورت في هذه النظرة الفلسفية الوجودية للإنسان مع عالم فلد آخر هو « إبراهيم ماسلو » الذي يعتبر من أبرز قادة الاتجاه الإنساني في نظرية الشخصية . ينتقد « ماسلو » نظرية التحليل النفسي من حيث أنها « من جانب واحد » ، تعمل على دافعية النقائص deficiency - motivation وتغفل تماما دافعية النمو growth - motivation ويسلم ماسلو ان دافعية النمو هذه التي تتضح كحاجة إلى تحقيق الذات

يمكن أن تتبدى في السلوك حينما تشبع الحاجات الأخرى المحتملة أكثر بالنقائص . ويقترح نظاما هرميا للحاجات وفقا للقوة الفالبة prepotency (١٩٥٤) ، يمتد من أكثر الحاجات فسيولوجية إلى أعظمها نضجا وتمدينا من الناحية النفسية . ويحدد ماسلو نظام الحاجات الأساسية على النحو التالي :

المستوى الأول : الحاجات الجسمية الأكثر أساسية (كالسعى إلى الطعام والماء والهواء والدواء والجنس ، وهكذا) . المستوى الثاني حاجات الأمن (وتمثل في تجنب الاخطار الخارجية أو ما يؤدي الفرد) . المستوى الثالث : حاجات الحب والاستحسان . المستوى الرابع : الحاجات التي ترتبط بإقامة علاقات مشبعة مع ذات الفرد ومع الآخرين (وتمثل في أن يكون متمتعا بالتقبل والتقدير ، وأن يحظى باحترام الذات ، وأن يكون محترما ، وأن تكون له مكانة ، وأن يتجنب الرفض أو النبذ أو عدم الاستحسان) . المستوى الخامس الحاجات التي ترتبط بالتحصيل والإنجاز والمعرفة والتعبير عن الذات (ان يكون الفرد مبدعا ومنتجا ، أن يقوم بأفعال وتصرفات تكون مفيدة وذات قيمة للآخرين ، ان يحقق إمكاناته ويترجمها إلى حقيقة واقعة) .

وهنا يختلف ماسلو بنموذجه الهرمي للحاجات وما بينها من علاقات وظيفية متبادلة عن صناع القوائم ، منذ ماك دوجل ، الذين كانوا يكادسون قوائمهم دون محاولة جديدة لبيان الصلة فيما بينها . فقد أوضح ماسلو أنه لا يمكن وصف حاجة في عزلة عن الحاجات الأخرى : فالحاجات تنتظم وفقا لأهميتها بالنسبة للفرد ، وتتوقف مقدرة الفرد على اشباع الحاجات « العليا » upper needs (أو ان شئنا حاجات النمو ، الحاجة إلى المعرفة والخبرة الجمالية وتحقيق الذات) على مستوى اشباعه للحاجات الأساسية (مثال ذلك ، من الصعب على الفرد العمل بكفاية اذا شعر بعدم تقدير الجماعة أو بأنه غير

الدينامي dynamic calculus تركيب لا يزال يعرف حتى الآن ، بطريقة غامضة ومتقنة للغاية ، بالفريزة أو الحافز ، الذى هو مصدر الطاقة الكامنة وراء السلوك . وكما سنرى يمكن ان يتعين ويتحدد الارج بدقة بطريقة التحليل العاملى ، بينما غدت الفريزة والحاجة والحافز وغير ذلك على أنها كل شيء لكل الناس ولا يمكن ان تعد تستخدم بدقة علمية » (كاتل ١٩٦٥ ، ص ١٨٥ - ١٨٦) .

ومن هنا نرى ثمة مصطلحاً جديداً للمتغيرات الدافعية الأساسية التى حدد منها كاتل على الأقل أحد عشر متغيراً . هذه المصادر التكوينية للطاقة تناسب خلال تركيبات متعلمة تعرف بـ « الاتجاهات » و « العواطف » - وهى مفاهيم معروفة أيضاً من نظريات الشخصية الأخرى . وأنها لتكون رحلة طويلة إذا أردنا تتبع كل أعمال كاتل أو بعمق بسبب حجم ما أنتجه . فبالإضافة إلى مقالاته العديدة ، ألف عدة كتب (١٩٤٦ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٥) ، كما اشترك وحرر عدداً من الأعمال . ولذا ، فقد حالج كاتل فى قسم خاص فى الفصل المسحى عن « بنية الشخصية » (Personality Structure) الذى كتبه « ويجينز » (J. S. Wiggins) فى الكتاب السنوى لعلم النفس المعروف بـ «Annual Review of Psychology» فى عام (١٩٥٨) .

ويمكن ان نشير الى عالم ميرز آخر فى ميدان نظرية التحليل العاملى للشخصية ، هو « هانز ايزنك » الذى اهتم خاصة بتطبيق نظرية وطرق التحليل العاملى فى علم النفس الاكلينيكي أو « العلاج السلوكي » (انظر ايزنك ١٩٦٤) .

(٢) مفاهيم الدافعية

ليس من السهل تصنيف مفاهيم الدافعية وفرض التشابهات والاختلافات بينها لأنها قد استخدمت بطرق مختلفة بواسطة سيكولوجيين مختلفين ، وأن المتغيرات المتشابهة قد تعينت

محبوب) . وقد لاقى هذا النموذج الهرمى لنظام الحاجات تطبيقات ذات بال فى علم النفس التطبيقي (مثل ، علم النفس التربوي والصناعي) .

ولقد تكرر ماسلو فى السنوات الأخيرة على بناء نظريته الى العلاقة بين سيكولوجية الشخصية وفلسفة الانسان (ماسلو ، ١٩٥٩ خاصة ، انظر أيضاً ١٩٦٢ ، ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨) .

ولاستكمال صورة نظرية الشخصية اليوم ، ينبغي الإشارة الى « رايموند كاتل » ، العالم النفسى الانجلو - امريكى . ليس من السهل تصنيف كاتل على أنه ينتمى الى مدرسة معينة أو تقليد معين فى علم نفس الشخصية ، وإنما هو بالأحرى مؤسس وقائد لمدرسة جديدة تتميز باستخدام التحليل العاملى والطرق الرياضية لبناء نظرية نبعت داخل سيكولوجية الدكاء . ولقد ابتدع كاتل اختبارات عديدة للشخصية ، استطاع بها هو وزملاؤه جمع بيانات وفيرة عن الشخصية . وأسكن هذه البيانات فى نظريته للشخصية ، التى تلعب فيها « السمات الدينامية » أو المتغيرات الدافعية دوراً هاماً . ولقد استعار كاتل بعضاً من هذه المفاهيم عن ماكديوجل وفرويد ، لكنه أعاد بناءها فى نظرية أكثر احكاماً واتساقاً والمتغيرات الدافعية الأساسية فى هذه « الشبكة الدينامية » dynamic lattice التى تعتبر نموذجاً للبنية الدينامية للشخصية هى : « الارج » erg (وحدة عمل الطاقة) ، العاطفة sentiment ، و « الاتجاه » [attitude] ويحدد « الارج » على النحو التالى :

« يبدو أننا هكذا قد بنينا بحيث ان اشباعاًتنا النهائية هى اشباعات غريزية ، أو طاقة ergic . يستخدم مصطلح « ارج » ، وهو مأخوذ عن الكلمة اليونانية ergon بمعنى العمل أو الطاقة ، فى التكامل والتفاضل

فيما بعد (١٩٦٢) . فكل السلوك يمكن وصفه ، وفقا لدوفى ، بالجمع بين مصطلحين وصفيين: «الشدة» intensity و «الاتجاه» direction ، وهما الجانبان من السلوك اللذان يفترض تكشفهما بالنظريات الدافعية.

وغالبا ما نستخدم فى التفسير السيكولوجى فئتين من المصطلحات : المصطلحات التجريبية (الامبيريقية) والمصطلحات الفرضية .

تشير المصطلحات التجريبية (الامبيريقية) الى « المتغيرات المستقلة » التى يفترض انها الاسباب النهائية للسلوك (الذى هو متغير تابع) . وقد تتضمن هذه المتغيرات المستقلة المثيرات الخارجية من البيئة وكذلك المثيرات الداخلية من الاعضاء والانسجة المختلفة للاورجانزم . هذه المثيرات الداخلية ينبغي ان تكون قابلة للملاحظة اذا عولجت كمتغيرات مستقلة يمكن وصفها بمصطلحات تجريبية (امبيريقية) . واذا كانت المتغيرات المستقلة يمكن وصفها كمثيرات (داخلية وخارجية) ، فانه يمكن تسميتها بـ « المتغيرات - م » (S-variables)

وقد يفضل بعض علماء النفس ، مثل سكرن الاهتمام اساسا بوصف العلاقات الملاحظة بين « المتغيرات - م » والسلوك . وتصاغ هذه الاوصاف فى بعض الاحيان فى قضايا عامة عن العلاقات المتكررة والملاحظة بانتظام بين انماط « المتغيرات - م » وانماط السلوك او « المتغيرات - س » . وغالبا ما تعرف هذه القضايا العامة بـ « القوانين » (او علاقات م - س) . ويعتبر سكرن تكوين وتطبيق تلك « القوانين » على أنه التفسير العلمى الوحيد . لكن معظم علماء النفس يفضل افتراض وجود متغيرات « توسطة » mediating او « وسيطة » intervening بين « المتغيرات - م » ، « والمتغيرات - س » . وهذه المتغيرات الوسيطة لا يمكن ملاحظتها .

بمصطلحات مختلفة فى النظريات المختلفة . لذا كان من الضروري محاولة استخلاص مفاهيم الدافعية من خلال الدراسة المقارنة للنظريات المختلفة .

المصطلحات التجريبية (الامبيريقية) والفرضية:

لقد نشأت نظريات الدافعية وبنيت فروضها لتفسير السلوك . لكن ليست هناك حاجة الى المفاهيم الدافعية لكل انماط او جوانب السلوك فردود الافعال الانعكاسية البسيطة (الانعكاسات الولادية) يمكن تفسيرها على أساس وجود مثير يباشر تأثيره على البنية الولادية « القوس الانعكاسى » . اما السلوك المركب (الاداءات او الافعال السلوكية) فغالبا ما يوصف على انه سلوك فرضى او موجه نحو هدف ، وهذا السلوك يمكن تفسيره بنظريات الدافعية . ومصطلحات السلوك «الفرضى» Purposive و « الموجه نحو الهدف » goal-directed مصطلحات وصفية ذات طبيعة مركبة وتجريدية وقد تستخدم هذه المصطلحات لوصف او تعيين السلوك الذى يكشف عن مركب لسمات عديدة يمكن ملاحظتها .

وقد كان ماكدوجل (١٩٠٨) اول من قام بتحليل ووصف محركات السلوك الفرضى ، هى كما عددها سبعة محركات . وقد اشار تولمان الى هذه المحركات حينما حدد ، فى كتابه المشهور ، السلوك الفرضى (١٩٣٢) . وقد اختزل بندرا (١٩٥٩) ، فى تحليله العميق ، هذه المحركات الى ثلاثة : الملاءمة appropriateness ، المثابرة persistence ، الاستقصاء searching . واقترح ايضا مصطلح «الموجه نحو الهدف » بدلا من الفرضى ، حيث يستخدمه كمرادف للسلوك المدفوع .

وربما تعتبر اكثر المصطلحات الوصفية بساطة ودقة تلك التى قدمتها « اليزابيث دوفى » فى اعمالها المبكرة فى الثلاثينات وأحكمتها

جدول (١) : المتغيرات « م ، ف ، س »

في بعض نظريات الدافعية

المتغيرات - س	المتغيرات - ف	المتغيرات - م	
المتغيرات التابعة	المتغيرات الوسيطة	المتغيرات المستقلة	
سلوك غرضي	الفريزة (١٩٠٨) الميل الطبيعي الميل (١٩٣٢)	مثيرات (خارجية)	ماكدوجل
تداعيات حرة تقديرات الاحلام اعراض عصائية وغير ذلك من السلوك	الحوافز القريبية ، الشحنة الانفعالية ، الهي ، الانا ، الانا الاعلى	المصادر الجسمية (السوماتية)	فرويد
سلوك غرضي	الطلب (١٩٣٢) نظام الحاجة (١٩٥١) مصفوفة الاعتقاد - القيمة (١٩٥١)	الحالة الفسيولوجية الشروعية (١٩٣١) الحافز (١٩٥١) المثيرات	تولمان
سلوك	الحافز ، الحالة ، الاتجاه الرغبة .	الحاجات المثيرات	يونيغ
سلوك وسيلي وتعبيري	السمات الدافعية والوسيلية	الحوافز المثيرات	اولبورت
سلوك	القوة ، التوتر ، القيمة الدائية	الحاجات	ليفين
الافعال « اكنون » : ١ - اللفظية « فربون » ٢ - الحركة « موتون »	الحاجات (١٩٣٨) ضغط بيتا (١٩٣٨) شحنة انفعالية الاستعداد للموضوع (١٩٥٩) .	المثيرات (خاصة موضوعات الهدف)	موراى
الاستجابة	الحافز دافعية الباعث جهد الاستجابة قوة العادة	ضفط الفا (١٩٣٨) ، والمثيرات الاخرى المصادر الداخلية للحاجات	هل

تابع جدول (١)

المتغيرات - س المتغيرات التابعة	المتغيرات - ف المتغيرات الوسيطة	المتغيرات - م المتغيرات المستقلة	
سلوك منظم	قوة العادة تجميعات الخلايا تتابعات الاطوار (١٩٤٩) وظيفة الامارة والاستشارة (١٩٥٥)	المثيرات الخارجية والداخلية	هب
السلوك الشهوى الافعال الاستهلاكية	ميكانزمات الافراح الفطري ميكانزمات الفريزة الدافعية	المثيرات المفرجة العوامل الدافعية	تنبرجن
استجابات « التات » وغيرها من السلوك	الدافع الاستشارة الوجدانية	الامارات الحرمان من مستوى المواءمة	ماكليلاند
الاستجابات للاختبار وغيرها من السلوك	الارج الاتجاه العاطفة	المثيرات الحالة الفسيولوجية	كانل
السلوك الاستجابي وسلوك العملية	قوة الاستجابة او - الاحتمال ؟	الحرمان المدعمات المثيرات النفورية	سكنر
استجابات التات وغيرها من السلوك	الميل ، الدافع ، التوقع البامث - القيمة	المثيرات	اتكنسون
السلوك الاستقصائي والمعرفي	الاستشارة (المنظومة الاستشارية الشبكية) التطلع	المتغيرات الموازية جهد الاستشارة	برلاين

«متغيرات الاستعداد» disposition variable للمتغيرات الموروثة وكذلك المكتسبة . وبدلاً من « الاستعداد » قد يفضل البعض مصطلحات « العامل » أو ربما « التركيب » .

وخلافاً لهذه المتغيرات توجد فئة أخرى من المتغيرات النفسية ذات فترة أقصر للوجود، وتتضمن هذه الفئة فئتين فرعيتين : العمليات، التي ربما توجد فقط لشوان أو دقائق ؛ والحالات ، التي ربما توجد فقط لساعات أو حتى لأيام . ولما كان من الصعب التمييز بين العمليات الأقصر والحالات الأطول ، يمكن أن نستخدم المصطلح العام « وظائف » (أو « متغيرات الوظيفة » function variable

ويولي علماء النفس المختلفون اهتماماً بفئة من هذه المتغيرات أكثر من الأخرى .

فمتغيرات الاستعداد قد درست أساساً باستخدام طرق الاختبارات في علم النفس الفارقي ، متضمنة سيكولوجية الشخصية والدكاء . (يوضح مصطلح « التحليل العاملي » الاهتمام « بالعوامل » أو « الاستعدادات ») . ومن ناحية أخرى ، درست متغيرات الوظيفة أساساً باستخدام الطرق التجريبية في علم النفس العام ، متضمنة التعلم والمعرفة والدافعية .

ومع ذلك ، توجد علاقة وثيقة بين الاستعدادات والوظائف ، حيث أن الاستعدادات تؤثر في مسار الوظائف وتخلق الفروق الفردية في السلوك الذي يتحدد مباشرة بالوظائف . ومن ثم ، غالباً ما استخدم المصطلح الواحد للإشارة إلى الاستعداد والوظيفة المتعلقة به . وقد يخلق هذا في بعض الأحيان فوضى وسوء فهم بين علماء النفس . لذا غالباً ما يشير مصطلح « الحاجة » في سيكولوجية التعلم إلى الوظيفة (على نحو أكثر دقة ، إلى الحالة) . ومن ناحية أخرى ، غالباً ما تستخدم « الحالة » في نظرية الشخصية

بطريقة مباشرة ، ولكن تستنح أو تفترض ، ولذا يمكن تسميتها بـ « المتغيرات » الفرضية Hypothetical variables أو « المتغيرات - ف » .

وقد قدم « تولمان » ، بهدف تفسير السلوك الفرضي خاصة ، تلك المتغيرات الوسيطة « مثل » « الحافز » و « المعرفة » cognition وعلى أساس طراز تولمان « م - ف - س » يمكن تقديم تصنيف أساسي للمتغيرات النفسية وتطبيقها على المتغيرات الدافعية في أهم النظريات التي عرضنا لها ، كما يتضح ذلك من الجدول (١) ، (الجدول الواردة في هذه الدراسة مأخوذة عن أعمال « مادسن » ١٩٥٩ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٣) .

ويتضح من هذا الجدول أن ثمة استخداماً للمصطلحات يشيع في علم النفس ينم عن عدم اتساق وفوضى بالفتن . ويتضح ذلك خاصة في التفسيرات المختلفة المتعلقة بالمصطلحين الهامين : « حاجة » و « حافز » . لذلك يستخدم هل وتولمان (١٩٥١) المصطلحين بطرق متناقضة ، واستخدام موراي « الحاجة » بطريقة مختلفة تماماً . وهذه الفوضى هي في الواقع أعظم مما بينه هذا الجدول ، والتي سوف تصبح واضحة من الجدول الأخرى .

الاستعدادات والوظائف :

أعد تولمان أيضاً تصنيفاً للمتغيرات وفقاً لطول مدة وجود المتغيرات : فبعض المتغيرات النفسية توجد لفترة طويلة ، قد تستغرق كل حياة الفرد من الميلاد حتى الموت ، وهي الاستعدادات الموروثة . والبعض الآخر يكون مكتسباً بعملية التعلم في فترة أو أخرى من حياة الفرد ، وتوجد لفترة أقصر أو أطول ، ولكنها بعد أن تكتسب تلعب نفس الدور الذي تلعبه الاستعدادات الموروثة . لذا يمكن أن نستخدم مصطلح « الاستعدادات » أو

ويذهب « فارير » فيما بعد الى التمييز بين الجوانب « دينامية الاصل » والجوانب « التوجيهية » للمتغيرات السيكلوجية (١٩٥٥) .

وعلى اساس كل هذه التحديدات ، قدم « مادسن » (١٩٥٩) تصنيفا للمتغيرات السيكلوجية يستند الى التمييز بين التأثيرات المختلفة على السلوك (جدول ٣) ،

١ - المتغيرات دينامية الاصل
Dynamogenic variables ، وهي تقوم بالحريك او الاستثارة والتنشيط ، ولذا يكون لها تأثير الشدة intensity effect على السلوك .

٢ - المتغيرات التوجيهية
directive variables ، وهي تقوم بالتوجيه والتنظيم ، ولذا يكون لها تأثير توجيهي على السلوك .

٣ - المتغيرات المتجهة
Vector variables ، وهي متغيرات محددة لكل من الشدة والاتجاه .

ويتضح من التصنيف (جدول ٣) مرة اخرى مصدر الارتباك بين النظريات النفسية فمصطلح « حافز » يستخدم في نظام هل كمتغير دينامي الاصل ، بينما في نظام فرويد كمتغير متجه . ويستخدم مصطلح « حاجة » كمتغير دينامي الاصل عند هل ، ولكن كمتغير متجه في نظرية موراي (١٩٣٨) وفي نظريات اخرى كثيرة للشخصية .

وبالاضافة الى ذلك ، توجد فروق بين المتغيرات المتجهة ، مثل « الفريزة » عند ماكدوجل و « الحافز » عند فرويد ، من ناحية ، و « جهد الاستجابة » عند هل و « الميل » عند اتكنسون من ناحية اخرى . لذا يعتبر مصطلح « غريزة » عند ماكدوجل غامضا شموليا (ومن ثم ينبغي تصنيفه كمتغير متجه) ، بينما يتحدد بوضوح مفهوم « جهد

لتفطية كل من الوظيفة الدافعة للسلوك والاستعداد الذي يحدد الفروق الفردية في القوة والفترة وغير ذلك من هذه الوظائف . وقد تنبه موراي لذلك وغير مفهومه الاساسي باستبدال مصطلح « حاجة » الى المصطلح الجديد « الاستعدادات للموضوع » thematic dispositions . وهذا الاستخدام ، الذي يبعث على الارتباك والحيرة لمصطلحات الاستعدادات والوظائف يمكن ان يتضح من الجدول (٢) .

المتغيرات الدينامية والتوجيهية :

ربما تعتبر هذه الفئة من تصنيف المفاهيم اكثر اهمية لنظرية الدافعية ، بقدر ارتباطها الوثيق بالمتغير - س : « السلوك الموجه نحو الهدف » .

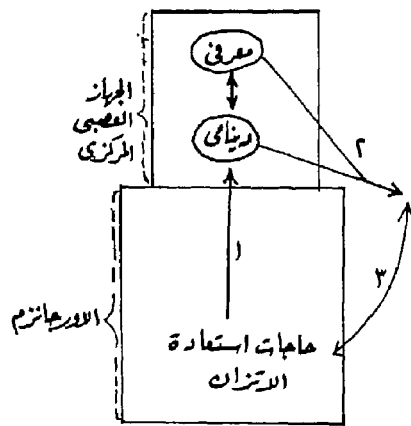
يمكن ان تعتبر « ليفين » اول من قدم تحليلات متعمقا للمفاهيم الدافعية (١٩٣٨) ، حيث ميز بين القوى والقيمة الذاتية . فالقوى forces تتميز بكل من القوة والاتجاه ؛ ولذا يمكن ان تمثل رياضيا بواسطة المتجهات vectors ، اما القيمة الذاتية فهي ، على العكس من ذلك ، يمكن تحديدها فقط قياسا الى قوتها ، ولذا يمكن ان تمثل رياضيا بواسطة العياريات Scalars .

ولم يكن ليفين هو الوحيد الذي ادرك ذلك التحديد للمفاهيم . فقد ميز « وودورث » (١٩١٨) بين الحافز والميكانيزم . ويذهب العالم الميرز « پول توماس يونج » الى تحديد مشابه في تقريره ان : « علم النفس الدافعي يمكن تعريفه على انه دراسة لكل الشروط التي تستثير وتنظم سلوك الكائن الحي » (يونج ، ١٩٣٦ ، ص ٤٥) .

وفي نفس الوقت ، سعت « دوفي » (١٩٣٦) الى الفصل بين « الشدة » و « الاتجاه » كمفاهيم وصفية اساسية في علم النفس .

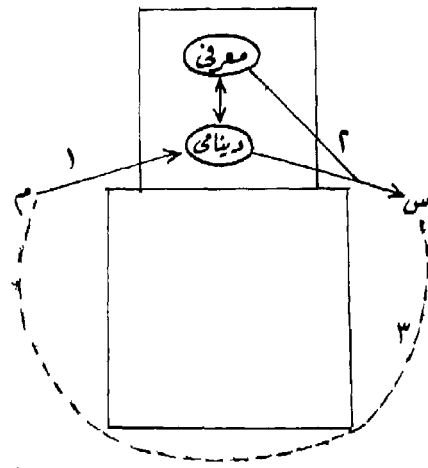
شكل (٢)
نماذج الدافعية

نموذج استعادة الاتزان



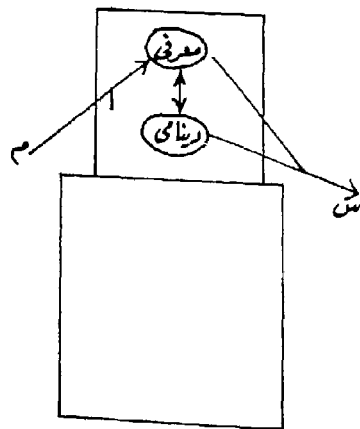
س = دالة (العمليات الدينامية، والمعرفية)
العمليات الدينامية = دالة (الحاجات)

نموذج الباعث



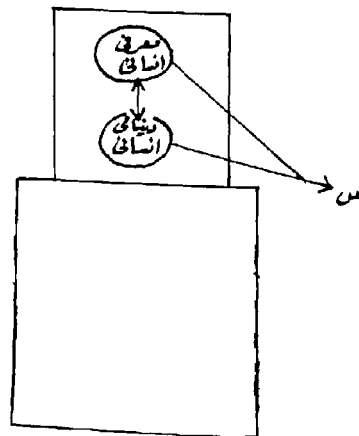
س = دالة (العمليات الدينامية، والمعرفية)
العمليات الدينامية = دالة (الثيرات)

النموذج المعرفي



س = دالة (العمليات الدينامية، والمعرفية)
العمليات المعرفية = دالة (الثيرات)

النموذج الانساني



س = دالة (العمليات الدينامية الانسانية، والمعرفية الانسانية)
العمليات الدينامية الانسانية = دالة (؟) لاعتمية
العمليات المعرفية الانسانية = دالة (؟)

جدول (٢) : تصنيف للاستعدادات والوظائف

وفقاً لمدة وجود المتغيرات النفسية

متغيرات الوظيفة الحالات والعمليات	متغيرات الاستعداد « العوامل » أو « التركيبات »	
الميل	الفريزة الميل الطبيعي العاطفة	ماكندوجل
العمليات الاولى والثانوية الحوافز والطاقة	الهي ، الانا ، الانا الاعلى ميكانيزمات الدفاع	فرويد
التوقعات المطالب (١٩٣٢) الحاجات (١٩٥١) الحوافز (١٩٥٩)	المقددرات والسمات المزاجية (١٩٣٢) استعداد الفاية - الوسيلة (١٩٣٢) مصفوفة الاعتقاد - القيمة (١٩٥١)	تولمان
الحافز ، الحاجة ، الحالة ، الرغبة ،	الاتجاه	يونيغ
السمات الدافعية والوسيلية	السمات الدافعية والوسيلية	أولبورث
التوتر ، القيمة الذاتية ، القوة	تركيبات الشخصية والبيئة	ليفين
الحاجة (١٩٣٨) الضغط والشحنة الانفعالية (١٩٣٨)	الحاجات (١٩٣٨) الاستعدادات للموضوع (١٩٥٩) الشحنة الانفعالات (١٩٥٩)	موراي
الحافز جهد الاستجابة دافعية الباحث	قوة العادة	هل
تتابعات الاطوار (١٩٤٩) وظيفة الامارة الاستشارة (١٩٥٥)	تجميعات الخلايا	هيب
الدافعية العوامل الدافعية	ميكانيزمات الفريزة ميكانيزمات الافراج الفطري	تنبرجن
الدافع الاستشارة الوجدانية	مستوى المواعمة	ماكليلاند

تابع جدول ٢

متغيرات الوظيفة الحالات والعمليات	متغيرات الاستعداد العوامل او التركيبات	
تنشيط الارجات ، العواطف والاتجاه	الارج العاطفة الاتجاه	كانل
الحرمان التدعيمية الاستشارة النفورية	احتمال رد الفعل او قوة الاستجابة	سكنر
قيمة الباعث التوقع الميل	الدافع	اتكتسون
المتغيرات الموارية الاستشارة ، التطلع	المنظومة الاستشارية الشبكية والتركيبات العصبية الاخرى	برلاين

جدول (٣) : تصنيف للمتغيرات : الدينامية ،
والتوجيهية والمتجهتووفقا لتأثيراتها على السلوك

المتغيرات المتجهة	المتغيرات التوجيهية	المتغيرات دينامية الاصل	
الفريزة العاطفة		الميل الطبيعي الميل	ماكدوجل
الحوافز الهى	الانا ، الانا الاعلى العمليات الاولى والثانية	الشحنة الانفعالية	فرويد
الحافز (١٩٣٢)	استعداد الفايء الوسيلة	الطلب (١٩٣٢)	تولمان
حيز السلوك	والتوقعات (١٩٣)	الحافز (١٩٥١)	
المباشر (١٩٥١)	مصفوفة القيمة الاعتقاد (١٩٥١)	الحاجة (١٩٥١)	
	المعتقدات (١٩٥٩)	الحافز (١٩٥٩)	
الرفبة (١٩٣٦)	الحالة	الحاجة	يونج
الدافع (١٩٦١)	الاتجاه	الحافز	
	السمات الوسيلىة	الحافز	أولبورت
القوة		السمات الدافعية	
		الحاجة	ليفين
		التوتر	
		القيمة الذاتية	
الحاجة (١٩٣٨)		الضغط	موراى
الاستعدادات للموضوع (١٩٥٩)		الشحنة الاشعالية	
جهد الاستجابة	الاستجابة الموقوتة للهدف الحافز - المثير قوة العادة	الحاجة الحافز دافعية الباعث	هل
	التتابع الطورى (١٩٤٩) تجميعات الخلايا (١٩٤٩) وظيفة الامارة (١٩٥٥)	الاستشارة (١٩٥٥)	هـب

تابع جدول ٣

المتغيرات المتجهة	المتغيرات التوجيهية	المتغيرات دينامية الاصل	
	ميكانزمات الافراج الفطري ميكانزمات الفريزة	المثيرات المفرجة العوامل الدافعية الدافعية	تنبرجن
الدافع	الامارات	الاستشارة الوجدانية	ماكليلاند
الاتجاه		الارح	كاتل
العاطفة		الحرمان	سكنر
المثيرات النفورية المدمعات قوة الاستجابة			
الميل	التوقع	قيمة الباعث	اكتنسون
المتغيرات الموازية	التفكير	الدافع	
التطلع	والعمليات المعرفية الاخرى	الاستشارة	برلاين

الاستجابة « عند هل كمزج للمتغير دينامي الاصل («الحافز») والمتغير التوجيهي («قوة العادة») على النحو التالي : جهد الاستجابة = دالة (الحافز \times قوة العادة) .

ويتصف مسار النمو في نظريات الدافعية بتزايد التمايز في المفاهيم بين الابعاد المختلفة للمفاهيم . ويرتبط هذا النمو ، بطبيعة الحال ، ارتباطا وثيقا بالنمو التجريبي .

ربما يمكن ان نستخدم تصنيف « دينامي في مقابل توجيهي » على انه يعطى وصفا تقريبا لنظريات الدافعية : كانت النظريات الاقدم (مكدوجل ، فرويد ، والى حد ما الاشكال الاولى من نظريات موراي وتولمان) نظريات تستخدم مفاهيم المتجهات . اما النظريات الاحداث فتتقسم الى مجموعتين : تلك التي تؤكد على المتغيرات دينامية الاصل (خاصة هل وحواريه) ، وتلك التي تؤكد على المتغيرات التوجيهية (خاصة نظريات ماكلياند واتكنسون) .

والنتيجة الهامة لهذه الدراسة التحليلية المقارنة تكشف عن الميل المتزايد بين علماء النفس الى استخدام المصطلحات المختلفة للاشارة الى مختلف جوانب المفاهيم من المتغيرات النفسية التي يعالجونها في نظرياتهم .

واحراز خطوة اكبر في نمو التنظير السيكولوجي يتم بتقبل نظام عام من المصطلحات طالما انها مفاهيم عامة مشتركة بين علماء النفس يعبرون عنها بمصطلحاتهم . وبطبيعة الحال ينبغي ان يكون هنالك مجال لاستخدام مصطلحات جديدة ومختلفة حينما يبتدع المنظر مفهوما جديدا او يكتشف متغيرا .

• • •

من هذا التحليل المقارن لنظريات الدافعية وتناولها للمتغيرات الدافعية بمفاهيم مختلفة، يمكن ان نخلص الى تصنيف لنظريات الدافعية خاصة وعلم النفس عامة الى الانماط التالية (جدول رقم ٥ ، ٦) :

١ - نظريات « (م - س) » (S-R) ، وهي تتضمن كل النظريات الوصفية ذات لفظة البيانات السلوكية . وهذه النظريات قد تتضمن أو صافا

لكن هل وحواريه قد خلطوا لسوء الحفظ - او على الأقل لم يميزوا بوضوح - بين البعدين المفهومين : « الاستعداد في مقابل الوظيفة » و « الدينامي الاصل في مقابل التوجيهي » . لذا يكون جهد الاستجابة والحافز وظائف ، بينما قوة العادة في الواقع استعداد (تنشيط بالحافز ومن ثم فهي ايضا وظيفة ، ولكن لا يملك هل وحواريه مصطلحا لقوة العادة كوظيفة) . وربما يعزى سبب هذا الاختلال الى ان الاستعدادات غالبا ما تكون توجيهية (مثلما تكون قوة العادة) ، وان الوظائف غالبا ما تكون دينامية الاصل (مثلما يكون الحافز) . لكن هناك استعدادات تكون دينامية الاصل (مثل العوامل المزاجية) ووظائف تكون توجيهية (مثل الادراك وغيره من العمليات العرفية) . ولذا تتضمن معادلة اتكنسون : م = دالة (ع \times و \times ث) تمييزا بين البعدين . م (الميل) ، « و » (التوقع) وكذلك « ث » (قيمة الباعث incentive-value تكون كلها وظائف ، فيها « م » كوظيفة متجهة « و » كوظيفة توجيهية ، « ث » كوظيفة دينامية الاصل . « ع » (الدافع) يتحدد في نظرية اتكنسون (١٩٦٤) بوضوح كاستعداد - ولكن ليس بوضوح وفقا لتأثيراته على السلوك - ومن ثم ربما يمكن تصنيفه كاستعداد متجه وكذلك كاستعداد دينامي .

واهمية التمييز بين هذين البعدين ربما تتضح أكثر اذا وجدناهما في تصنيف واحد ، يتبين منه لماذا كان المفهوم القديم للفريرة (مثل مفهوم الفريرة عند مكدوجل) عقيما علميا ، حيث لم يتم اطلاقا بالتمييز والتحديد بين ابعاد المفاهيم ، فالفريرة كانت مصطلحا يشير الى كل من الاستعداد والوظيفة ، وكانت الوظائف تعتبر وظائف متجهة غير محددة .

جدول (٤) تصنيف جامع للمتغيرات الفرضية

المتغيرات التوجيهية	المتغيرات الدينامية	المتغيرات التوجيهية
الاستعدادات : « الأنا » و « الأنا الأعلى » عند فرويد قوة العادة عندهل	« الدافع » عند اتكسون	« الهى » عند فرويد
الوظائف : « التوقع » عند اتكسون	« القيمة » عند اتكسون	« الحاجة » عند موراي (= عوامل الشخصية)
« الحالة » عند يونج	« الطاقة » عند فرويد	« الميل » عند اتكسون
	« التوتر » عند ليفين	« الحافز » عند فرويد
	« الحافز » عند هل	« القوة » عند ليفين
		« جهد الاستجابة » عند هل
		« الحاجة » عند موراي (= الحافز)

جدول (٥) : أنماط نظريات الدافعية (مادسن

١٩٧٣)

نظريات « م - س »	نظريات « م - ر - س »	نظريات م - ض - س	نظريات « م - ق - س »
سكنر بولز	بافلوف يونيغ هيب تنبرجن دوفي فريمان برلاين بندرا مورجان ستيلار كونورسكى	فرويد وودورث ليفين تولمان هل ميلر سبنس براون موراي كاتل ماكلياند اتكنسون مالك ف هنت كوش فستنجر بربرام	اولبورت ماسلو

جدول (٦): تصنيف موحد لنظريات الدافعية (مادسن ، ١٩٧٣)

انماط النظريات

الفروض الاساسية	نظريات « م » « س »	نظريات « م - ر » « س »	نظريات « م - ض » « س »	نظريات « م - ق » « س »
فروض استعادة الاتزان		بافلوف ؟ دوقى فريمان	فرويد هل موراى (١٩٣٨)	
فروض البامث	سكنر بولز	يونج تيرجن هب برلاين بندرا	موراى (١٩٥٩) ليفين ماكلياند اتكنسون كامل ميلر سبنس	
الفروض المعرفية			براون تولمان وودورث مالك لف هنت كوش فستنجر	
الفروض الانسانية				اولبورت ماسلو

تمخضت عن بيانات ومفاهيم وفروض ومتغيرات عديدة .

ومن طبيعة الظاهرات المعقدة ان تخضع لمزيد من التحليل وتبين العلاقات ، وبالتالي تعدد النظريات والتصورات . وهنا يتوفر « بالتحليل » بيئة متعددة ، قد تكون حتى متناقضة .

ويفرض منطق التناول العلمى لمثل هذه البيئة العارمة محاولة تبينها وتبصرها في اطار تصورات جديدة تكشف عن العلاقات بين النظريات وما بينها من تناقضات . ويقول آخر ، عندما تصل الدراسات والبحوث لظاهرة ما الى حد التشبع الزائد بالبيانات والنتائج ، يستلزم النمو في دراسة هذه الظاهرة « تركيب » Synthesis هذه البيئة الوفيرة في تصورات ونماذج اخرى تعمد الى جمع اشتات وازداد النظريات المختلفة ، وتسعى الى كشف ما يجرى بينها من علاقات وتناقضات ، وما تتصف به من الهام او ابهام ، وما يشيع فيها من وصل وفصل .

يتمثل ذلك في بعض اتجاهات الفكر السيكولوجى المعاصر التى تعرف بـ « **نمذجة النشاط النفسى** » (Psychic Modelling) « **تحدد اهمية « النماذج » (Models)** »

في انها تسمح بأن تخضع للاختبار والمراجعة تلك الاسس التى تقوم عليها مفاهيمنا وفروضنا عن الظاهرة النفسية ، وبأن نتبين امكانات التطبيق العملى لهذه المفاهيم والفروض . ويكشف التطبيق انه لكى ندرس قوانين النشاط النفسى بنجاح يمكن ان نستخدم ليس فحسب المنظومات البيولوجية biological systems ولكن ايضا منظومات مبتدعة اصطناعا لمعالجة المعلومات information processing

وهذا الاتجاه الرامى الى مزيد من التقدم في بناء النظريات النفسية آخذ في النمو بعميق

لعلاقات اشبه بالقوانين Law - like relationships بين المتغيرات « م » والمتغيرات « س » ، لكن لا يقوم اى تفسير لهذه القوانين على فروض اساسية .

٢ - **نظريات « م - ر - س » (S-O-R)** ، وهى تتضمن كل النظريات التى تفسر علاقات « م - س » باستخدام متغيرات فرضية «ض» ذات معنى فيسيولوجى . (« ر » (O) وتعنى الاورجانزم) .

٣ - **نظريات « م - ض - س » (S-H-R)** وتتضمن كل النظريات التى تفسر العلاقة « م - س » باستخدام متغيرات فرضية لها معنى « محايد » لا يشير الى اى شكل من واقع او مادة (يقول آخر ، التكوينات الاصلية » genuine constructs وتتضمن هذا النمط ايضا كل النظريات التى تفسر باستخدام النمط الشكلى « للمتغيرات الوسيطة » (مثل ، النماذج الرياضية) .

٤ - **نظريات « م - ق - س » (S-M-R)** وتتضمن كل النظريات التى تفسر العلاقات « م - س » باستخدام متغيرات فرضية ذات معنى عقلى (« ق » (M) تعنى « عقلى » او « العقل ») .

٥ - **نظريات « ق » (M)** ، وتتضمن النظريات التى تعبر عن فهم لا يقوم على وصف موضوعى ودقيق بلغة البيانات السلوكية ، وانما قد تقوم على لغة البيانات الظاهرية (الفينومينولوجية) . لكن اصحاب هذه النظريات لا يتضحون بجلاء في هذا بقدر ما يظهرون في فلسفتهم عن الانسان .

(٣) نمذجة الدافعية

الدافعية ، اذن ، كانت ولا تزال موضوعا لفيض هائل من الدراسات النظرية والتجريبية

نموذج استعادة الاتزان : وهو أقدم النماذج في تاريخ علم النفس الدافعي . وقد ادخل مفهوم « الاتزان العضوي » Homeostasis في علم النفس ، السيكلولوجي الأمريكي « والتر كانون » (١٩١٥) عن الفسيولوجي الفرنسي « كلود برنار » في تصوره « للوسط الداخلي » internal milieu وقد قدم فرويد كذلك (١٩١٥) تصورا مشابها في نفس الوقت .

يتصور هذا النموذج ان كل العمليات البيولوجية - بما فيها السلوك - محتومة باختلال « الاتزان العضوي » - أي الشروط القصوى للاتزان في الاورجانزم . وتستمر هذه العمليات حتى يعود « الاتزان » الى حالته الاصلية . ويؤلف اختلال الاتزان حاجة تحدد بدورها **حافزا** رئيسيا . وهذا الحافز ، بالاشتراك مع عمليات معرفية ، يحدد السلوك الذي يختزل - أو « يشبع » - الحاجة ، ومن ثم يعيد اقرار الاتزان العضوي .

ويوجد هذا النموذج في تلك النظريات المؤثرة مثل نظريات فرويد وهل . وقد تبني كثير من علماء النفس هذا النموذج لانه يتصف بعدة مزايا ، من أهمها :

(١) انه نموذج بسيط .

و (٢) انه نموذج بيولوجي ، وهو ما يعتبر هاما بالنسبة لعلماء النفس في فترة ما بعد الدارونية .

وقد أدت شهرة هذا النموذج بعلماء النفس الى سوء استخدامه والى تجاهل الحقائق لفترة

الشبه بين « النموذج » و « الطراز الاصلى » (prototype) ويعتبر استخدام طريقة النمذجة في بحث النشاط النفسي ليس « مودة » ولكن حتمية تفرضها طبيعة المشكلات المعاصرة لعلم النفس . ومن ثم تمثل النمذجة في جوهرها حلقة بالغة القيمة ، ناقصة في نطاق الطرق المستخدمة في علم النفس والطب النفسي يمكننا من التحقق والمراجعة من البيئة التي تتمخض عنها البحوث ، ومن بناء نظرية علمية وعملية متقنة ونافعة . . » (١١)

ولعل هذا الاتجاه يتبدى خاصة في علم النفس الدافعي ، وأبرز رواده « ك . مادسن » العالم الدنمركي .

يقدم « مادسن » لعلم النفس العلمي عدة نماذج للدافعية ، ويقرر : « لقد وجدنا انه من المقنع تصنيف الفروض الاساسية - البديهيات والمسلّمات - للدافعية الى أربع فئات نطلق عليها « نماذج الدافعية »

Models of motivation

لأنها غالبا ما تكون **نظما من المتغيرات الفرضية ذات العلاقات المتبادلة ، يمكن تمثيلها ب « نموذج »** ووفقا للمضمون الاساسي للفروض الاساسية في النماذج ، يصنفها مادسن على النحو التالي (شكل ٢) (١٢) :

(١) نموذج « استعادة الاتزان »

“Homeostatic” model

(٢) نموذج « الباعث » “Incentive” model

(٣) النموذج « المعرفي » “Cognitive” model

(٤) النموذج « الانساني » “Humanistic” model

(١١) ا . ا . براون وآخرون (باللغة الروسية) : نمذجة النشاط النفسي موسكو ، ١٩٦٩ ، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .

(١٢) K.B. Madsen. Patterns of preferences and models of motivation. Paper presented at the Symposium on Pleasure, Reward and Preference. June 5. - 9., 1972, Korsdr, - Denmark.

المثيرات المعروفة بـ « البواعث » أى موضوعات
المثيرات الدافعة motivating stimulus objects
(الدينامية ، التنشيطية ، المعبئة للطاقة) .
وتتضمن البواعث في بعض النظريات « المدعّمات »
(reinforcers) و « موضوعات الهدف »
goal objects

ويوجد نوعان من البواعث : الأولية والثانوية

البواعث الأولية ، وهى المتغيرات « م (S) »
التي لها تأثير دينامى فطرى . وهذه البواعث
الأولية تلعب دورا هاما فيما يعرف بالنظريات
« الوجدانية » أو نظريات « اللذة »
(hedonistic theories)
التي تتشامخ بينها نظرية « بول توماس يونج »
حيث يوضح ان للاستشارة الخارجية نتائج
وجدانية ، وكذلك حسية ، وأن « الاستشارة »
(affective arousal) الوجدانية

توجه الأورجانيزم نحو أو ضد موضوع المثير
ولذا تؤثر في الاختيار والتفضيل . ومن
النظريات الدافعة الصيت في هذا الصدد ،
نظريات : هب (١٩٤٩) ، ماكليتلاند ، وتبرجن .

ومما تجدر اشارته ان النظرية الوجدانية
قديمة للغاية - حتى اقدم من نظرية الاتزان .
فهى تعود الى فلاسفة الاغريق القدامى مثل
إقراط ، و « أصحاب المذهب النفعى » (مثل
بنشام) في القرن الثامن مشر . ويمكن التصور
الوجداني ايضا في « قانون الأثر » عند ثورنديك
وفي « مبدأ اللذة » عند فرويد .

أما البواعث الثانوية ، فهى المتغيرات « م »
التي لها تأثير دينامى مكتسب . ولذا تلعب تلك
البواعث دورا هاما في نظرية التعلم الحديثة .
وكان بفضل دافعية الباعث عند « سبنس »
ان تضمنتها نظرية هل (يشار اليها بالرمز
« ك ») (K) تكريما لـ (K. W. Spence)
وتحدد « دافعية الباعث ، ك »
(incentive motivation, K)

طويلة لم تتلاءم في النموذج . ولذا تعرض
هذا النموذج لنقد شديد الوطأة بحيث انه لم
يعد قادرا على استبقاء مكانته على انه النموذج
الدافعى الثابت الوحيد ، الامر الذى ادى الى
ابتداع نماذج اخرى كبدايل له .

نموذج الباعث : استمرت « فترة نموذج
استعادة الاتزان » من عام ١٩١٥ (وهو العام
الذى خرج فيه كانون بنظريته) حتى عام
١٩٥٣ (وهو العام الذى عقدت فيه « ندوة
نبراسكا عن الدافعية Nebraska Symposium on
Motivation وقد انتقد « هارلو (H.F. Harlow)
في هذه الندوة نموذج الاتزان على انه ضيق
للفأية ، وانه توجد دافعية أولية بيولوجية
اخرى بجانب حافظ الاتزان . ولقد اهتم خاصة
بوجود « حافظ استقصائى بصري »
visual exploratory drive

ولقد اتضح من التجارب الكثيرة فيما بعد
ان حتى ما يعرف بحوافز الاتزان homeostatic
drives (بصفة خاصة : الجوع ، العطش
الجنس) لا يمكن تفسيرها كلية بواسطة
استخدام نموذج الاتزان . ومن اقوى الانتقادات
الموجهة ضد النموذج الضيق للاتزان تلك التي
قدمها « بول توماس يونج » (١٩٤١ ، ١٩٦١ ،
١٩٦٨) ، وهى تقوم على بيئة تجريبية تتعلق
بتفضيلات الطعام لدى الحيوانات ، وهذه
التفضيلات لم تقم على الاتزان العضوى .

ويمكن تلخيص القضايا الرئيسية المتضمنة
في « نموذج الباعث » كما يلى : يكون لمثيرات
خارجية معينة تأثيرا ديناميا ، أى تحدد حالة
التنشيط state of activation أو
تعبئة الطاقة energy mobilization
في الأورجانيزم . وهذه الحالة الدينامية ،
بالاشتراك مع العمليات المعرفية ، تحدد سلوك
الأورجانيزم . وغالبا ما يتمخض عن هذا السلوك
اختزال للمثيرات الدينامية الخارجية (انظر
الشكل) ولهذه المثيرات أصلها في موضوعات

تأثير تنشيطي مشابه للحافز . هذا التأثير
التنشيطي أو الدينامي لميكانيزم

س - هـ

فصل عن التأثير التوجيهي بالرمز « ك » .

وقد صار « ك » ، في تعديلات سبنس (١٩٦٠) الأخيرة لنظريته ، أكثر أهمية من « ف » (الحافز) كمحدد للسلوك ، حيث افترض هنا انهما يتفاعلا بطريقة الاضافة ، ومن ثم كان تعديل سبنس لمعادلة هل المشهورة على النحو التالي :

$$م \times س = د + [م \times س] \times (ف \times ك)$$

أو جهد الاستجابة = دالة قوة العادة \times
(الحافز \times دافعية الباعث)

وقد افترض ان « ك » تكتسب بالتدعيم ، وتتحدد كاختزال للحافز ، بينما تكون « م ع س » (قوة العادة) مكتسبة بالتجاور contiguity وفقا لما يذهب اليه سبنس .

ومن بين النظريات الحديثة في الدافعية التي تنتمي الى « نموذج الباعث » : نظرية اكنسون ومن بين النظريات المبكرة : نظرية ليفين ، لانها تتضمن مفهوم « القيمة الذاتية » valence الذي تآثر به اكنسون بعمق . كذلك يشبه مفهوم « الشحنة الانفعالية » cathexis عند فرويد المفهوم الحديث للباعث .

النموذج المعرفي : يدخل هذا النموذج تماما في كثير من النظريات المبكرة عن الادراك والعمليات المعرفية ، لكن بدون احكامها كنظريات للدافعية .

هذه ، بالاشتراك مع « الحافز » (ف) و « قوة العادة » (م ع س) ، « جهد الاستجابة » (م ج س) والسلوك المتتابع . اذن ، « ك » متغير فرضي يتحدد بالمتغير « م » : حجم ونوع الانابة (مثل ، الطعام) المستخدمة في تجارب التعلم التي تشير النظرية اليها .

طور سبنس تصور دافعية الباعث على اساس مفهوم هل عن « استجابة الهدف السابقة الجزئية » (fractional antedating goal response) المعروفة بـ « ميكانيزم

$$س - م - هـ = (س - ع) \times (ف - ك)$$

« والخاصية المميزة ، بل الوظيفة الوحيدة لهذه الاستجابة السابقة الجزئية ، هي انها تنتج مثيرات مميزة للحصول على الهدف . ويسمى هل هذا المثير ، مثير الهدف الجزئي fractional goal stimulus (س) (ش)

ونلاحظ ان حرف م صغير دليل على أنه

مثير جزئي ، وان هل يربط بين هـ و س

يخط متقطع اشارة منه الى ان الرابطة بينهما داخلية . وتتطلب نشأة استجابة الهدف السابقة الجزئية ان ترتبط هذه الاستجابة

(هـ) ارتباطا وثيقا بالحصول على الاهداف

اي بالتميز « (١٣)

ولميكانيزم استجابة الهدف السابقة الجزئية في نظام هل تأثير توجيهي فحسب ، لكن يشير سبنس الى احتمالية ان يكون لاجباط استجابة الهدف الكاملة (RG) complete goal response

(س)

(١٣) سيد عثمان : الفعل المثير الخالص . الكتاب السنوي الاول للجمعية المصرية للدراسات النفسية ،

القاهرة ، ١٩٧٩ .

أما الشكل الآخر للنموذج المعرفي في الدافعية فيفترض أن **العمليات المعرفية « دافعية ذاتية أو الداخلية »** (intrinsic motivation)

وأفضل إيضاح لهذا نظرية « وودورث » ، التي تتضمن تعميماً لفكرة « **الدافعية الذاتية أو الداخلية** » في « **نظرية أولية السلوك** » (Behavior Primary theory)

تقرر هذه النظرية أن أكثر أنواع الدافعية أساسية يقوم على تناول البيئة بقوة . وهذه النظرية لا تستبعد الحقيقة بأن الدافعية « **الخارجية** » extrinsic - الحاجات والبواص - قد تحدد أيضاً السلوك في بعض الحالات . لكن الفكرة الأساسية أنه حتى بدون هذه المصادر « **الخارجية** » للدافعية يكون الأودجانزم نشطاً .

قدم « مالك . ثي . هنت » (١٩٦٥) « **صيغة جديدة لنظرية المعلومات** » (information theory version)

للنظريات المعرفية المبكرة من الدافعية ، وبين أن نظرية « **جان بياجي** » تتضمن فرضاً كاملاً عن الدافعية المعرفية « **الذاتية أو الداخلية** » ، وأن نظرية « **كارل بيربرام** » - العالم الأمريكي السيكونيورولوجي - تنتمي إلى نفس الفئة .

ولما كانت العمليات المعرفية المركبة تتعلق استثنائاً بالإنسان ، فإن النموذج المعرفي يقترب من النموذج الإنساني .

النموذج الإنساني : لم يتحدد هذا النموذج بوضوح مقارنة بالنماذج الثلاثة الأخرى . لكن هناك مجموعة من نظريات الدافعية تنطوي على خصائص مشتركة بحيث يمكن تمييزها عن النظريات الأخرى وتصنيفها في فئة واحدة . ومن المعالم الهامة المشتركة بينها :

(١) التصور الإنساني لعلم النفس .

ومن هنا ، تضمنت نظرية الجشطالت الكلاسيكية فروضاً دافعية (ف . هيبدر ، ١٩٦٠) . فقد عالج علماء نفس الجشطالت « **الميل إلى الإغلاق** » أو « **إلى خلق شكل جيد** » على أنه متغير دينامي ، « **قوة** » . وهذا التصور لم يحكم أبداً في فروض دافعية صريحة ، وربما قصد فحسب بالميل إلى الإغلاق تفسير دافعية العمليات المعرفية . لكن استطاع ليفين حيك نظرية عامة في الدافعية والشخصية ، تعتبر نظرية باعثة incentive theory أكثر منها نظرية معرفية .

وقد الهمت أعمال السيكونولوجيين الجشطالت كذلك ، من خلال ليفين ، العالم « **تولمان** » . تضمنت نظرية تولمان (١٩٣٢) كلا المتغيرات المعرفية والدافعية لكي يفسر السلوك الفرضي لدى الحيوانات والإنسان . وكانت بعض المتغيرات - خاصة « **التهيؤ للدلائل الجشطالت** » (sign - gestalt - readiness)

عند تولمان - متغيرات دافعية معرفية مختلطة وقد أحكم تولمان بعد ذلك (١٩٥١) هذه المتغيرات المختلطة في « **مصفوفة الاعتقاد - القيمة** » (Belief - Value Matrix) التي تحدد السلوك ، بالاشتراك مع « **نظام الحاجة** » (Need System) و « **حيز السلوك** » (Behavior Space) . وقد أطلق تولمان نفسه على نظريته (١٩٥٢) « **النموذج المعرفي للدافعية** »

(A Cognition Motivation Model)

وتتضمن النظريات الحديثة للدافعية شكلين مختلفين بدرجة بسيطة للنموذج المعرفي :

يلذهب الشكل الأول إلى أن **العمليات المعرفية تحدد العمليات الدينامية** ، وأن العمليات المعرفية إذن **تأثير توجيهي** وكذلك دينامي (بطريقة غير مباشرة) . وخير مثال لهذا النمط نظرية « **ليون فستنجر** » عن « **التنافر المعرفي** » .

الطبيعي الذي سيطر حديثا على الفكر السيكولوجي الأمريكي . وارتباطا بذلك أيضا تبني تصورا إنسانيا خاصا للإنسان خلافا للتصور البيولوجي السائد . ويتضمن تصور ماسلو للإنسان فرضه المتعلق بنوع راشد إنسانى خاص للدافعية يعرف بـ « الحاجة الى النمو » (growth need) أو « دافعية التغير » (metamotivation)

ويمكن الإشارة الى نظرية « توماس مور » (١٩٤٨) كمثال آخر ، وإن كان أقل ذيوعا . وتفترض هذه النظرية تصورا إنسانيا للعلم ونظرية في « حرية الإرادة » للاحتمية للدافعية الإنسانية .



من هذا العرض لنمذجة النشاط الدافعى يتضح الى أى حد تختزل النمذجة الكثير من نظريات الدافعية الى نماذج محددة تسكن فيها مفاهيمها ومتغيراتها . لكن يسمى بعض العلماء الى مزيد من الربط والوصل بين هذه النماذج المختلفة في تصورات تركيبية synthesis أكثر عمومية ووظيفية . من هذه التصورات ما قدمه « مادسن » (١٩٧٢) من « نموذج متكامل » ، يحاول فيه اقرار التكامل بين هذه النماذج ، وإن كان يقرر أنه لم ينجح في تضمين النموذج الإنسانى داخل « النموذج المتكامل » ، وبالتالي يسعى هذا النموذج الأخير الى التكامل بين النماذج الثلاث الأولى : « نموذج الاتزان » ، « نموذج الباعث » « النموذج المعرفى » .

يقوم التصور التركيبى لهذا النموذج الموحد كما يقرر مادسن ، على فرضين : الأول يقرر أن كل النماذج الثلاث « صادقة جزئيا » بقدر ما تتناول فئات مختلفة من الدافعية . ويقول آخر ، نماذج الدافعية صادقة كلها ، لكنها قد حدثت من إمكانية تطبيقها . لذا يفترض أن كل نموذج صادق لفئة خاصة من الدافعية .

(٢) افتراض وجود فئة خاصة للدافعية الإنسانية . وتعتبر فئة الدافعية هذه - أو السلوك الإنسانى ككل - « غير » محددة .

ومن أصدق النظريات تعبيرا عن هذا النموذج : نظرية « أولبورت » و « ماسلو » :

عرض « جوردون أولبورت » نظريته في كتابه « الشخصية » (١٩٣٧) ، طبعة معدلة (١٩٦١) . في هذا الكتاب الدائع الصيت ، قدم تحديدا وتمييزا بين العلوم ذات المنحى الفردى (idiographic) والعلوم ذات المنحى الناموسى (nomothetic) ، يقترب من التصورين الخاصين بـ « العلوم الطبيعية » (natural) و « العلوم الشرحية » (hermeneutic) . وقدم فيه أيضا تصوره عن « الاستقلال الوظيفى » للدافعية (functional autonomy) الذى تأثر فيه بالفكرة التى عرض لها وودورت في كتابه الأول (١٩١٨) . ووفقا لهذا التصور توجد بيئة تؤيد وجود فئة من الدافعية لدى الراشدين ، الناضجين والمتمتعين بالصحة النفسية ، تكون مستقلة وظيفيا عن الدافعية الأولية الأساسية التى توجد لدى الحيوانات والأطفال .

ويوضح أولبورت أن نظريات الدافعية المتضمنة في نظريات التعلم تستند بطريقة ضيقة للغاية على التجريب على الحيوانات ، وأن نظرية الدافعية المتضمنة في نظرية التحليل النفسى تستند أيضا بطريقة ضيقة للغاية على دراسة العصبيين ، وهم أكثر طفلية في دافعيتهم من الراشدين الناضجين الأصحاء (مادسن ، ١٩٥٩) .

وقد تأثر « أبراهام ماسلو » في نظريته بأولبورت وغيره . ويعتبر ماسلو أمام « علماء النفس الإنسانيين » (humanistic psychologists) حيث نادى بالحاجة الى تصور إنسانى آخر للعلم خلافا للتصور

(الفصوص الحرفية ، وهى المحيطة بالجسم الجاسي في الدماغ) أو « الباعث » .

٣ - الدوافع اللحاءية Cortical motives :

وتتضمن اللحاء المخي cerebral cortex وكذلك منظومة الاستثارة الشبكية . وهى تلك الفئة من الدوافع التى تقوم بوظيفتها وفقا للنموذج المعرفى : فالعمليات المعرفية تحدد دافعتها . ومن ثم يمكن أن تسمى هذه الفئة بالدوافع « المعرفية » أو « اللحاءية » .

٤ - دوافع منظومة الاستثارة الشبكية

Reticular Arousal System

وهى الدوافع التى يفترض ان تتضمن فقط منظومة الاستثارة الشبكية (RAS) وهى الدوافع التى يصدق عليها النموذج « الذاتى أو الداخلى » intrinsic - مثل نظرية اولية السلوك عند وودورث . ومن ثم ، يمكن ان تعرف بالدوافع « الذاتية أو الداخلية » أو « دوافع الاستثارة أو التنشيط » (activation motives) .

• • •

والخلاصة : لقد عرف علم النفس لسنوات عديدة بحقيقة تقرر بأنه ذلك العلم الذى ينتج نظريات متعارضة كثيرة . وربما يستمر هذا الاتجاه فى المستقبل . لذا ، من الأهمية بمكان بالنسبة لعلماء النفس ان يكونوا قادرين على ان ينموا فى انفسهم القدرة على ترشيد تناولهم لهذه النظريات المختلفة ، وعلى استخدامهما بوعى ينفتح على علم النفس كعلم ، لا على نظرية بعينها ، وأن يكونوا على بصيرة من انفسهم فيخفضوا من دفاعاتهم الرامية الى فرض محرمات نظرية theoretical taboo على الظاهرة النفسية الحية المتسامية . .

وحسبنا تبصر « علم النفس العلمى » !

اما الفرض الثانى ، فمؤداه ان كل فئة للدافعية تتضمن بنية معينة فى الدماغ (بالاضافة الى « منظومة الاستثارة الشبكية » التى تتضمن كل أنواع الدافعية) . وفى ضوء ذلك ، يقترح مادسن (١٩٧٢) الفئات التالية للدافعية :

١ الدوافع دون سريرية المخ

hypothalamic motives

وهى الفئة من الدافعية التى يفترض وجودها فى مراكز دون سريرية المخ

hypothalamic centres

وكذلك فى منظومة الاستثارة الشبكية (RAS) . وهذه الفئة تكون اكثر صدقا بالنسبة لنموذج استعادة الاتزان . ولكن حتى فى هذه الحالة لا نستطيع اعتبار نموذج الاتزان على انه صادق تماما ، حيث ان دوافع الاتزان تتضمن ، مثلا ، الدافع الجنسى الذى لا يعتبر كلية دافعا للاتزان العضوى . وربما تحدد البواض ايضا هذا النوع من الدوافع وكذلك الدوافع العضوية الاخرى : الجوع ، العطش ، تجنب الالم ، تجنب البرد ، الخ . لذا يمكن ان يطلق على هذه الفئة من الدافعية « الدوافع العضوية » ، أو « دوافع استعادة الاتزان » أو « الدوافع دون سريرية المخ » .

٢ - الدوافع الحرفية limbic motives

وهى تلك الفئة من الدافعية التى يفترض ان تتضمن « المنظومة الحرفية » limbic system فى المخ ، وكذلك منظومة الاستثارة الشبكية . وهنا يتبين مادسن فروض « كورنورسكى » بأن « الدوافع الانفعالية » تتضمن « مراكز الحوافز الحرفية » limbic drive centers وان « الدوافع الاجتماعية » مشروطة بالدوافع الانفعالية . وهنا ينطبق خاصة « نموذج الباعث » على هذه الدوافع . لذا يمكن ان تسمى ايضا الدوافع « الانفعالية » و « الاجتماعية » بالدوافع « الحرفية »

المراجع

- ALLPORT, G. W. *Personality : a psychological interpretation*. New York : Holt, Rinehart & Winston, 1937.
Pattern and growth in personality. New York : Holt, Rinehart & Winston, 1961.
- ATKINSON, J.W. *An introduction to motivation*. Princeton, N. J. : Van Nostrand, 1964.
 (ed.) *Motives in fantasy, and society*. Princeton, N. J. : Van Nostrand, 1958.
 and Feather, N. T. (eds.) *A theory of achievement motivation*. New York : John Wiley, 1966.
- Bash, K.W. An investigation into a possible organic basis for the hunger drive. *J. Comp. Physiol. Psychol.*, 1939, 28, 109 - 135.
- BERLYNE, D. E. *Conflict, arousal, and curiosity*. New York : McGraw Hill, 1960.
 Motivation problems raised by exploratory and epistemic behaviour. In S. Koch (ed.), *Psychology - a study of a science*, Vol. 5. New York : McGraw-Hill, 1963.
 Reinforcement and arousal. In David Levine (ed.), *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1967.
- BINDRA, D. *Motivation : a systematic reinterpretation*. New York : Ronald Press, 1959.
- BOLLES, R. C. *Theory of motivation*. New York and London : Harper & Row, 1967.
- BROWN, J. S. *The motivation of behavior*. New York : McGraw-Hill, 1961.
- CATTELL, R.B. *Description and measurement of personality*. New York : Harcourt, 1946.
Personality ; a systematic theoretical and factual study. New York : McGraw-Hill, 1950.
Personality and Motivation structure and measurement. New York : World Book World Book Co., 1957.
The scientific analysis of personality. Baltimore : Penguin, 1965.
 (ed.) *Handbook of modern personality theory*. Chicago : Aldine, forthcoming.
- COLEY, K.M. *Energy and structure in psychoanalysis*. New York : Ronald Press, 1955.
- DOLLARD, J., and MILLER, N.E. *Personality and psychotherapy*. New York : McGraw-Hill, 1950.
- DUFFY, ELISABETHI, *Activation and behaviour*. New York : John Wiley, 1962.
- EYSENCK, H. J. *The biological basis of personality*. Springfield, Ill. : Charles C Thomas, 1967.
- EYSENCK, H. J., (ed.) *Experiments in motivation*. Oxford : Pergamon Press, 1964.

- FARBER, I. E. Anxiety as a drive state. In M. R. Jones (ed.), *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1954.
- FEATHER, N. T. An expectancy-value model of information-seeking behaviour. *Psychological Review*, 1967, 5 (74), 342-60.
- FRANKEL, Y.E. *Man's search for meaning : an introduction to logotherapy*. New York : Washington Square Press, 1963.
- HEBB, D.O. *Organisation of behaviour*. New York : John Wiley, 1949.
- Drive and the CNS (conceptual nervous system). *Psychological Review*, 1955, 62, 243-54.
- A Neurophysiological theory. In S. Koch, *Psychology-a study of science*, vol. I. New York : McGraw-Hill, 1959.
- A textbook of psychology. Philadelphia : Saunders, 1966.
- HULL, C. L. *Principles of behavior*. New York : Appleton-Century-Crofts, 1943.
- A behaviour system. New Haven : Yale University Press, 1952.
- JONES, M.R. (ed.) *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1953-1963.
- LAWRENCE, D.H. & W. A. MASON. Food intake in the rat as a function of deprivation intervals and feeding rhythms. *J. Comp. Physiol. Psychol.* 1955, 48, 267-271.
- A dynamic theory of personality. New York : McGraw-Hill, 1935.
- Principles of topological psychology. New York : McGraw-Hill, 1936.
- A conceptual representation and the measurement of psychological forces. Durham N.C. : Duke University Press, 1938.
- Field theory in social science. D. Cartwright (ed.) New York : Harper & Row, 1952.
- LINDSLEY, D. B. Psychoophy siology motivation. In M.R. Jones (ed.), *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1957.
- LURIA, A. R. *Human brain and psychological processes*. New York : Harper, 1966.
- MC CLELLAND, DAVID C. *Personality*. New York : Dryden Press, 1951.
- The achieving society. Princeton, N. J. : Van Nostrand Reinhold, 1961.
- (ed.) *Studies in motivation* : New York : Appleton-Century-Crofts, 1955.

ATKINSON, JOHN W., CLARK, RUSSELL A., and LOWELL, L. **The achievement motive**, New York : Appleton-Century-Grofts, 1953.

MC CIELLAND, D. and WINTER, D. **Motivating economic achievement**. New York : Free Press, 1969.

MC DOUGALL, W. **An introduction to social psychology**. London : Methuen, 1908, 1908. The 1960 edition is used here. **The energies of men**, London : Ethuen, 1932.

MADSEN, K.B. **Theories of motivation**, 4th ed. Copenhagen : Munke-gaard, 1959. 4th ed., 1968.

Integration through meta-science. Exemplified by a comparative study of psychological theories. **Proceedings of the XIV International Congress of Philosophy**, Vienna & s1968 b.

Modern theories of motivation. Copenhagen : Munksgaard, 1973.

MASLOW, A. H. **Motivation and personality**. New York : Harper and Row, 1954.

New knowledge in human values. New York : Harper and Row 1959.

Toward a psychology of being. Princeton, N.J., : Van Nostrand Reinhold, 1962.

The psychology of science. New York : Harper & Row, 1966.

A theory of meta-motivation ; The biological rooting of the value-life. **Journal of Humanistic Psychology**, 1967, 93-127.

MILLER, N.E. An experimental investigation of acquired drives. **Psychological Bulletin**, 1941, 38, 534-35.

Studies of fear as an acquirable drive. **Journal of Experimental Psychology**. 1948, 38, 89-101.

Learnable drives and rewards. In S. S. Stevens (ed.), **Handbook of experimental psychology**. New York : John Wiley, 1951.

Liberalization of basic S-R-concepts : extension to conflict behaviour, motivation, and social learning. in S. Koch (ed.), **Psychology - A study of a science** vol. 2. New York : McGraw-Hill, 1959.

And DOLLARD, J. **Social learning and imitation**. New Haven, Conn : Yale University Press, 1941.

MORGAN, C. & J. T. MORGAN, **Studies in hunger : II the relation of gastric denervation and dietary sugar to the effect of insulin upon food intake in the rat**. **J. Genet. Psychol.**, 1940, 57, 153-163.

MORUZZI, G., and MAGOUN, H.W. Brain stem reticular formation and activation of EEG. **EEG Clinical Neurophysiology**, 1949, 1, 455-73.

- MOWRER, O. H. A stimulus-response analysis of anxiety and its role as a reinforcing agent. *Psychological Review*, 1939, 46, 553-65.
- Learning theory and personality dynamics*. New York : Ronald Press, 1950.
- Motivation. *Annual Review of Psychology*, 1952, 3, 419-32.
- Learning theory and behaviour*. New York and London : John Wiley, 1960a.
- Learning theory and the symbolic processes*. New York and London; John Wiley, 1960b.
- MURPHY, G. *Personality : A biological approach to origins and structure*. New York: Harper, 1947.
- MURRAY, H. A. *Explorations in personality*. New York : Oxford University Press, 1938.
- Toward a classification of interaction. In T. Parson and E. A. Shill (eds.), *Towards a general theory of action*. Cambridge, Mass : Harvard University Press, 1951.
- PETERS, R.S. *The concept of motivation*, London : Routledge & Kegan Paul, 1958.
- AIRPORT, D. The structure of psychoanalytic theory : a systematic attempt. In S. Koch (ed.), *Psychology a study of a science*, vol. 3. New York : McGraw-Hill 1959.
- On the psychoanalytic theory of motivation. In M.R. Jones (ed.) *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1960.
- SKINNER, B.F. *Science and human behavior*. New York : Macmillan, 1953.
- Technology of teaching*, New York : Appleton-Century-Crofts, 1968.
- SOKOLOV, E.N. *Perception and the conditioned reflex*. Oxford : Pergamon Press, 1963.
- SPENCE, K. W. *Behaviour theory and conditioning*. New York, Conn. : Yale University Press, 1956.
- Behaviour theory and learning*. Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1960.
- and JANET TAYLOR SPENCE (eds.) *The Psychology of learning and motivation*. New York and London : Academic Press.
- THOMAE, H. (ed.) *Allgemeine Psychologie II : Motivation*. Göttingen : Hogrefe's Verlag Für Psychologie, 1965.
- THORNDIKE, E. L. Animal intelligence. *Psychological Review*, 1898, Monograph Supplement 2, 8.
- Animal intelligence*, New York : Macmillan, 1911.

TINBERGEN, N. *The study of instinct*. Oxford ; Oxford University Press, 1951.

TOLMAN, E. C. *Purposive behaviour in animal and men*. New York : Appleton-Century-Crofts, 1932.

Drives towards war. New York : Appleton-Century-Crofts, 1942.

A Psychological model. In T. Parson and E.A. Shill (eds.), *Toward a general theory of action*. Cambridge, Mass : Harvard University Press, 1951.

Principles of purposive behaviour. In S. Koch (ed), *Psychology, A study of a science*, vol. 2, New York : McGraw-Hill, 1959.

TSANG, Y. C. Hunger Motivation in gastrectomized rats. *J. Abnorm. Physiol. Psychol.*, 1938, 26, 1-17.

WANGENSTEEN, O.H. & A.J. CARISON., Hunger sensations in a patient after total gestrectomy. *Proceedings of the Society of Experimental Biology*, 1931, 28, 545 - 547.

★ ★ ★

ابن شرف القيرواني

وآراؤه النقدية في رسالته « اعلام الكلام »

محمد سلامة يوسف

زيرى واشهر ملوكهم وربيب المالكية ورضيع لبانها - بدا له ان يقطع الصلة الواهية التي تربطه بالعبيدين الشيعي النحلة ، فاعلن انفصاله عنهم ، وخلع طاعتهم ، ولمنهم على اعواد المناير ، وحمل المغاربة على اعتناق مذهب مالك والاستمسك به دون سواء متاسيا في ذلك بملوك بنى أمية بالاندلس ، يقول ابن الأثير : « وهذا المعز أول من حمل الناس بافريقية على مذهب مالك ، وكان الاغلب عليهم مذهب أبى حنيفة » (١) ويقول ابن خلدون : « وكان المعز منحرفا عن مذاهب الرافضة ، ومتنعلا للسنة ، فاعلن بمذهبه لأول ولايته ، ولعن الرافضة ، ثم صار إلى قتل من وجد منهم » (٢) .

ابن شرف افريقى أو بالاحرى مغربى المولد والمنشأ والمربى ، وقد كان معاصرا لدولة بنى زيرى خلفاء العبيديين على المغرب وعمالهم عليه ، بعد ان فتحوا مصر واتخذوا من القاهرة قاعدة للكهم ، وما ان جلا العبيديون عن المغرب حتى تنفس أهل السنة الصعداء بعد ان لقوا على أيدي العبيديين ضروبا من الاذى وصنوبا من العسف والوانا من الاضطهاد زهاء ستين عاما أو أكثر ، حاولوا فيها بشتى الوسائل ومختلف الاساليب لرض المذهب الشيعي وقمع المذهب السننى والقضاء على أهله ، ولاسيما المالكية منهم .

ولما ولى المعز بن باديس - واسطة عقد بنى

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦ : ١٥٩ .

(١) الكامل ٩ : ٩٥ .

حياته :

هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد أحمد بن شرف الجذامي القيرواني ، هذا ماورد فيما اثر لنا من كتب التراجم والطبقات التي ترجمت له ، وعرفت به قديما وحديثا ، **فياقوت** يقول في ترجمته له : (محمد بن أبي سعيد محمد المعروف بابن شرف الجذامي القيرواني) (٣) **ويقول الصفدي** : « محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني أبو عبد الله الجذامي(٤) ويقو ابن شاذان الكلبى في قواته : « محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني الجذامى » (٥) ويقول ابن بشكوال : « محمد ابن أبي سعيد بن شرف الجذامى القيروانى يكنى أبا عبد الله » (٦) ويقول السيوطي : « محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامى » (٧) ويكتفى **ابن بسام** في ترجمته بقوله : « وكان أبو عبد الله بن شرف بالقيروانى من فرسان هذا الشأن » (٨) ويفغل الدباغ في معالم الايمان (٩) ذكر نسبه ويهمله ، ولا يشير اليه ، أما ابن دحية في كتابه المطرب فقد اورد سلسلة نسبه ، وانتهى به الى قحطان نقلا عن ابن الكلبي اول من راد علم الانساب ، والى فيها حيث يقول في بداية ترجمته له : (من ولد جذام بن عدى بن الحارث بن مرة بن أد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان كذا نسبه أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبى (١٠) اما المحدثون فقد

بيد أن المعز لم ينعم طويلا بالاستقلال ، فقد اغضب العبيديين ، واحفظهم واثار موجدتهم عليه ، فأخذ الخليفة المستنصر الموتور يفكر كيف يثار لنفسه من المعز الذى انشق عليه ، وخلق طاعته ، فأشار عليه وزيره اليازورى أن يشرعوا فى ارسال العرب الى المغرب ، فأصلحوا بين زغبة ورياح وكانت بينهم حروب وحقوق واعطوهم مالا ، وأمروهم بقصد القيروان ، وملكوهم كل مايفتحونه ، ووعدوهم بالمدد والعدد فدخلت العرب افريقية ودارت رحى الحرب على أرض المغرب حتى عجز المعز عن رد عادية الأعراب المغيرين ، وسقط في يده ، واضطر الى أن يشير على رعيته بالارتحال عن القيروان الى المهديّة سنة ٤٩ هـ وهكذا نجحت الكيدة التى بيئت بليل ، وخربت القيروان دار العلم بالمغرب ، وانحسرت موجة العلم والأدب عن القيروان الى المهديّة العاصمة الثانية لامراء بنى زيرى ، وأرز اليها العلماء والأدباء والشعراء .

وقد عاش ابن شرف فى ظلال المعز بن بارس ، واتصلت أسبابه بأسبابه ، وانخرط فى سلك خدمته ، ولقى حظوة كبيرة فى بلاطه ، حتى أصبح شاعر المعز المقدم عنده الأثير لديه على سائر من فى بلاطه من الأدباء والشعراء باستثناء ابن رشيق .

(٣) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .

(٤) الوالى بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٥) فوات الوفيات ٢ : ٤١٠ .

(٦) الصلة ٢ : ٥٧١ .

(٧) بغية الوعاة : ٤٦ .

(٨) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٣ .

(٩) معالم الايمان : ٣ : ٢٣٩ .

(١٠) المطرب : ٦٦ .

في الرد عليه عدة تصانيف ، كان أبوه رشيق روميا ذكر ذلك هو في الرد على ابن شرف بعد ذكره نسب ابن شرف : هو اسم امرأة نالحة ، ثم قال : وأما أنا فنضر الله وجه هذا الشيخ في ، وأتم به النعمة على ، فما أبني به أبا ، ولا أرضى بملذه مذهباً ، رضى به روميا لادعيا ولا بدعيا « (١٤) فيبدو لنا من هذا النص أن ابن شرف ربما كان ينز ابن رشيق بأرومته الرومية ، ويفخره في نسبه في الأعاجم ، ويطعن عليه ، وينتقص منه بذلك ، وينال منه في زمن كان العربي يعتز فيه بعروبه ، ويستشعر فيها العزة والشمم، وكان الموالي المنتسبون الى أصول غير عربية لا يبالون جهدا في الانتفاء من الولاء الذي وسبهم بميسم الدالة والصغار ، ومن ثم أخذوا يصطنعون الأنساب العربية ، وينتفون جهدهم من أصولهم غير العربية التي نمتهم ، حتى أننا نجد أبا مسلم الخراساني وهو من هو يصطنع لنفسه نسبا عربيا يزعم فيه أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس ، وقد قرعه بذلك أبو جعفر المنصور ، وأنكر عليه هذا النسب المزعوم عندما هم بالإيقاع به وقتله على ما يروى لنا الطبري في تاريخه : (١٥) ونرى ياقوت في ترجمته للجاحظ يورد لنا قصة تدل على سخريه الجاحظ (١٦) بهذه الصناعة التي راجت في عصره ، إلا أننا نرى ابن رشيق في رده على ابن شرف يصرح برضاه عن نسبه في الأعاجم ، ويفخر بأرومته الرومية ، ويعرض

تبعوا القدامى عند ترجمتهم لابن شرف . **فالبغدادى** في هدية العارفين يعرف به ونسبه بقوله : « محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف الجدامى القيرواني » (١١) ويقول **محمد كرد على** : « أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجدامى القيرواني » (١٢) ويقول **صاحب معجم المطبوعات** : « أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني الجدامى » (١٣) .

ومن عرضنا لما ورد عن أصحاب التراجم والطبقات قديما وحديثا في نسبه عند ترجمتهم له ، وتعريفهم به نجدهم قاطبة يجمعون على أنه عربي صليبة وليس ولاء ، وأنه سليل قبيلة جذاع تلك القبيلة العربية القحطانية التي نزلت الى افريقية فيمن نزع اليها من القبائل العربية إبان الفتوح الإسلامية لهذا الصقع ، وألقت به عصا التسيار ، وطاب لها المقام بمدينة القيروان ، فهو إذن عربي صريح ينتمى الى أرومة عربية قحطانية ، وقد كان نسبة العربي أمرا متعلما مشهورا ، حتى أن ابن رشيق ، قريعه ومنافسه في بلاط المعز بن باديس ، لم يستطع أن يفخره في نسبه أو يطن في عروبه ، وينال منها عندما استحکم العداء بينهما ، فعندما نقرا في ترجمة ياقوت لابن رشيق : « وكان بينه وبين ابن شرف الأدب مناقضات ومحادثات ، وصنف

(١١) هدية المارفين ٢ : ٧٢ .

(١٢) رسائل البلقاء : ٢٠٢ وانظر ترجمة حسن حسنى لابن شرف في مجلة المكتبة المجلد السادس : ٢٥١ .

(١٣) معجم المطبوعات ١ : ١٣٩ .

(١٤) معجم الأدباء ٨ : ١١١ .

(١٥) تاريخ الطبري ٩ : ١٦٦ - ١٦٧ .

(١٦) معجم الأدباء ١٦ : ٩٤ .

بأن شرف الذي قالوا عنه : ان شرفا اسم أمه (١٧) ، وأنه ليس له أب معروف ، كما غمزه بذلك مرة أخرى حيث يقول :

أما أبى فرشيق لست أنكسره

قل لى أبوك وصوره من الخشب

وهكذا نرى ان اصحاب التراجم والطبقات يجمعون على أن ابن شرف عربى صريح ، وأنه سليل قبيلة جذاع تلك القبيلة العربية اليمنية (١٨) التى ينتهى نسبها الى قحطان .

ولم يشر أحد ممن ترجموا له ، وعرفوا به الى مكان ولادته ومسقط رأسه ، ويقاب على أن ابنه ولد بالقبروان ، أما سنة مولده فأننا لانكاد نجد أحدا أشار إليها ممن ترجموا له من اصحاب التراجم القدامى ، أما المحدثون فقد حددوها الأستاذ محمد كرد على وحسن حسنى بنحو سنة ٣٩٠ هـ (١٩) ، أما سنة وفاته فانهم يكادون يتفقون على أنه توفي سنة ٤٦٠ هـ (٢٠) ولم يشذ عن هذا الاتفاق سوى الصفدى وابن بسام والسيوطي أما الصفدى فانه أورد تاريخ وفاته بأسلوب الشك والاحتمال ، ولم يقطع بأن وفاته كانت في هذا

التاريخ حيث يقول : « وتوفى سنة ستين وأربعمائة ، او فيما قبلها » (٢١) ، أما ابن بسام فقد أورد في اخبار ابن شرف انه توفى سنة ٣٦٢ هـ نقلا عن ابن رشيق حيث يقول : « حكى ابو على في رسالة قراضة الذهب انه مات سنة اثنتين وستين وثلاثمائة (٢٢) وهو خبر غريب ووهم واضح ، اذ انه لم يكن ولد ، وخرج الى الوجود في هذا التاريخ ، وقراضة الذهب التى بين أيدينا الآن لا نجد فيها إشارة الى هذا الخبر الغريب ، ولعل ابن بسام كان يعنى سنة اثنتين وستين وأربعمائة لا اثنتين وستين وثلاثمائة ، أما السيوطى فقد ذهب الى انه توفى سنة ٥١٨ هـ وهو خبر غريب ووهم واضح ، ولا ندري من اين اتى بهذا التاريخ مع أن ترجمته له لا تعدو سطرين استقاهما ونقاها من الصلة لابن بشكوال ، وبالرجوع الى المصدر الذى استقى منه ، ونقل عنه ، لا نجد ابن بشكوال يذكر تاريخ وفاة ابن شرف بل أغفله تماما وأهمله ولم يشر اليه ، على هذا فتحديد تاريخ وفاة ابن شرف بسنة ٥١٨ هـ من اختراع السيوطى ، وليس كما زعم من أنه نقله عن ابن بشكوال حيث يقول : « مات سنة ثمان عشرة وخسمائة ذكره ابن بشكوال في زوائده على الصلة (٢٣) اما مكان وفاته فنحن

(١٧) يقول الصفدى : « قبل ان شرف اسم ام أحمد فعلى هذا لا ينصرف ، واسم أبيه فينصرف » الوافي بالوفيات ٩٧ : ٢ وبعد ان يحدد رسائل ابن رشيق في هجاء ابن شرف وذكر اغلاطه يقول : « وأنشدني في بعضها :

وليسست اباكم فلا تكذب
فأنبتت في ذلك المنصب
ونحنن نسامحكمم بالآب

بنو شرف شرف امكم
ولكنها التقطت شيخكمم
ايننوا لنا امكمم اول

انظر الوافي بالوفيات ٩٧ : ٢ .

(١٨) في كشف الظنون : ١ : ٤٦ « جدام بضم الجيم والذال قبيلة من اليمن » .

(١٩) « رسائل البلقاء : ٣٠٢ وانظر مجلة المقتبس ٦ : ٣٥١ .

(٢٠) انظر معجم الادباء ١٩ : ٣٨ وفوات الوفيات ٢ : ٤١٠ وكشف الظنون ١ : ٤٦ وهدية المارفين ٢ : ٧٢ وظهر الاسلام ١ : ٣٠٨ والأعلام للزركلى ٣ : ٩٠٠ .

(٢١) الوافي بالوفيات ٩٧ : ٣ .

(٢٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨٠ .

(٢٣) بغية الوعاة : ٤٦ .

ابن شرف هذا ممن فهم منحاه ، وصم عن رفاقه ، فلم يجتمع مع عباد في صعيد ، ولا أهدى له السلام إلا من بعيد » (٢٨) ثم يذكر بعد ذلك أن أول ما بعث به ابن شرف إلى المعتضد باشبيلية خمس قصائد من شعره مع رقعة خاطب بها وزيره ابن زيدون ، وأنه أجيب على ذلك برسالة من انشاء ابن عبد البر يستحثه على القدوم على حضرة المعتضد الذي وجه إليه بما يعينه على رحلته إليه (٢٩) فامتنع ابن شرف من القدوم على حضرته واكتفى بأن أهدى إليه كتابه « أبكار الأفكار » يقول ابن بسام : « فتوقف ابن شرف عن القدوم بقدمه ، وكلف ذلك سن قلمه ، وطرده تأليفه « أبكار الأفكار » باسم عباد ، وبعث به إليه على البعاد » (٣٠) فلما وصل الكتاب والخطاب إلى المعتضد لم يجد بدا من انفاذ صلته إليه ، (٣١) ورد على ابن شرف برسالة من انشاء عبد البر أيضا ، ثم يقول ابن بسام بعد ذلك : « ومع وصول هذه الصلة إلى ابن شرف لم يزل على ملوك الطوائف يومئذ يتطوف وينتقل في الدول من منزل إلى منزل ، ومن بلد إلى بلد إلا حضرة المعتضد فإنه كان يخاطبه ، وينشده :

أجبك في البتول وفي أبيها

ولكنى أجبك من بعيد (٣٢)

نعلم أنه توفي في دار غربته بالاندلس متنقلا بين ملوك الطوائف . إلا أننا لا نكاد نجد أحدا من أصحاب التراجم القدامى حدد لنا مكان وفاته اللهم إلا ياقوت الذي يكاد ينفرد بين القدامى بتقرير أن وفاة ابن شرف كانت باشبيلية (٢٤) ، كما ذهب إلى ذلك من المحدثين حسن حسنى عبد الوهاب حيث يقول : « واجتاز ابن شرف وحده الاندلس ، وسكن المرية وغيرها ، وتردد على ملوك الطوائف كالعباد باشبيلية وغيرهم وبهذه المدينة الأخيرة كانت وفاته سنة ٤٦٠ هـ » (٢٥) وتبعه في ذلك طائفة من المحدثين . (٢٦) ونحن نشك في هذا الخبر ولا نكاد نطمئن إلى أنه توفي باشبيلية ، وأنه اتصلت أسبابه بأسباب المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية وعاش في كنفه إلى أن أدركته منيته ، لأننا نجد ابن بسام في ذخيرته يقول عن ابن شرف : « واستقر أخيرا عند المأمون بن ذي النون فعليه خلع آخر لبوسه ، ونشر بقية كيسه ، وكانت لعباد همة في اصطحاب الأحرار واستجلاب ذوي الأخطار ينصب لذلك الجبال ويعمل فيه الحق والباطل ، حتى إذا غشوا إلى سرجه ، واغترخوا بزبرجه سامهم رد قبيس على أبيه ، وأخذهم بالسعاية بين الفرق وأخيه » (٢٧) ثم يذكر بعد ذلك أن ابن شرف كان يتجنب عبادا ، ويتحاماها فيقول : « وكان

(٢٤) معجم الأدباء ١٩ : ٣٨ .

(٢٥) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ .

(٢٦) انظر الدولة الصنهاجية لأحمد بن عامر : ٨٤ وعصر القيروان : ١٠٨ والأعلام ٣ : ٩٠٠ .

(٢٧) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٣٣ .

(٢٨) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٢٩) المصدر السابق : ١٣٥ .

(٣٠) المصدر السابق : ١٣٨ .

(٣١) المصدر السابق : ١٤١ .

(٣٢) المصدر السابق : ١٤٢ .

ثم يورد له ستة أبيات طريفة خاطب بها المعتضد ، وأياسه من لقائه والوقوع في حبائله ، ولا بأس من أن نوردها لطرافة معانيها وهي :

ان تصيدت غيري صيد طائفة
أوسعتها الحب حتى ضمها القفص
حسبتي فرصة أخرى ظفرت بها
هيهات ما كل حين تمكن الفرص
وظاهر حسن أيضا لقصتها
لكن لها باطن في طيها قصص
لك الموائد للقصاد مترعة
تروى وتشبع لكن بعدها قصص
ولست أعجب من قوم اذا انتشبا
لكنما مجبي من معشر خلصوا
ولم يطب قط لى من يلد ولا
سلوى اذا كان في عقبهما مفص (٣٣)

ثم يعلق ابن بسام على هذه الابيات بقوله : « قال هذا لتواتر الخبر عن المعتضد بازوروار ركنه ، وخشونة حزنه فأضرب عن ضربه ، ولم يتعرض للنشبة في حبائل نشبه ، خوفا ان يورطه في الهوان ، ويسقط العشاء به على سرحان ، وبطيح في جملة ما طاح على يديه من الخلفاء والندماء » (٣٤) وهكذا يخالفنا الشك ولا يمكننا ان نطمئن الى ان ابن شرف انتهى به المطاف الى اشبيلية ، وأنه توفي بها كما يقول ياقوت من القدامى ، ومن ذهب الى ذلك من المحدثين ، ونرجح أنه أدركته منيته بطليطلة في كنف ابن ذى النون .

أما أسرته فقد سكت عنها المترجمون ، وأغفلوها ولم يسيروا إليها أدنى إشارة ، ولم يحفلوا بها شأنه شأن غيره من العلماء والأدباء ، فلا نكاد نعرف من أسرته الا ولده جعفرا ، وكان كاتبه ادبيا شاعرا ، وقد ترجم له ابن بشكوال في صلتة ترجمة موجزة ذكر فيها أن له رواية عن أبيه ، وأنه اخذ عنه ديوانه حيث يقول : « جعفر بن محمد بن أبى سعيد بن شرف الجذامي القيروانى ، وأصله منها ، وبها ولد سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، وخرج عنها عند اشتداد الفتنة عليها سنة ٤٧٧هـ الى الاندلس ، واستوطن برجة من ناحية المرية ، يكنى أبا الفضل له رواية عن أبيه ، واخذ ديوان شعره ، وعن القاضي أبى عبد الله بن المرباط وأبى الوليد الوقشى وأبى سعيد الوراق وغيرهم » (٣٥) ويقول محمد كرد علي : « وخلف ابنا يدعى أبا الفضل جعفرا كان ادبيا ومجيدا أيضا ، اورد له العماد في خريدته والفتح في قصائد وفصولا تشهد له بطول الباع » (٣٦) وفي الفصل الذى عقده ابن بسام بعنوان « ما اخرجته من شعر ابن شرف في أوصاف شتى » نجد ابن شرف قد فصل القول واجاد في تصوير نكبة القيروان حاضرة افريقية ، وما اصابها على أيدي أعراب الصعيد من صنوف التخريب والتدمير ، وما لحق بأهلها من ألوان العسف والاضطهاد ، وما حل بهم من فنون الاذى وضروب التعذيب ولا غرابة في هذا فقد هزته مأساة القيروان ، وأفزعته الكارثة ، وأزعجته عن حرمة الأمن ، فلا عجب أن أنطقته بعدة قصائد تعد من عيون الشعر العربى في رثاء المدن والامصار ، ويعيننا هنا انه يصف في إحدى مرثياته للقيروان حال أفرأخه الصغار -

(٣٣) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٣٤) المصدر السابق : ١٤٣ .

(٣٥) العلة ١ : ١٢٩ كما ترجم له الفتح بن خاقان في فلالده : ٢٥١ - ٢٥٨ وأفاض في الثناء عليه ونقل شعره الرقص والطرب .

(٣٦) رسائل البلغاء وانظر مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ .

ولى منهما سهمان هذا ابن أربع
وهذا ابن ست كلما كان اغفاء
اضمهما والليل داج كأنما
هما نقطتا ياء وجسمى هو الياء
فطورا يفشيهم على ذكرك الكرى
فتصبح أضواء عليهم ولاء
وطورا يمجدون الدجى ومطاله
وما كان للغايات مطل وأرجاء
فتضجر منهم أنفس ربما بكت
بكى هو للصم الجلاميد ابكاء (٣٨)
ويكاد هذا هو كل ما نعرفه عن أسرة ابن
شرف ، وما أثر لنا من اشارات اليها ، في
آثاره الشعرية التي وصلت إلينا .



كان ابن شرف شخصية خصبية متعددة
المواهب ، فهو أديب ناقد كاتب شاعر صاحب
منظوم ومنثور ، فياقترب يبدأ ترجمته له
بقوله : « الأديب الكاتب الشاعر » (٣٩) وبعده
الصفدي أحد فحول شعراء المغرب (٤٠) ،
ويقول عنه ابن شاعر الكتبي : « أحد فحول
شعراء الأندلس والمغرب » (٤١) . ويقول فيه
ابن بشكوال : « وكان من جلة الأدباء وفحول
الشعراء ، وله كتب مصنفة في معنى ذلك كله
ويشير ابن خلدون في مقدمته إلى علو مرتبته في
الشعر هو وقريعه ابن رشيق فيقول : « ما كان
بافريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق

وما تجشموه من صعاب وأهوال في الصحارى
والقفار وعلى متون البحار فرازا بأنفسهم من
عسف الاعراب وإذاتهم فيقول :

كأنى وأفراخي إذا الليل جننا
وبات الكرى يجفوجفونا ويطرق
حمائم أضالل الكور فضمها
تجانسها حتى تراءى الفرق
إذا أفرعتهم نبوة زاحموا لها
ضلوعى حتى ودهم لو تفتق
ويصفر جسمى عن جميع احتضانهم
فيثبت ذا فيه وذا عنه يرهق
كانهم لم يسكنوا ظل نعمة
لها بهجة ملء العيون ورونق
الى أن غدوا قن الفيافى فتارة
تباع وفي بعض الاحايين تعتق
وطورا على موج البحار كأنما
قدى قد وثقنا اننا ليس نفرق
ونحن نفوس تسعة ليس بيننا
وبين الردى الا هويد معلق (٣٧)
كما نجده في مدحة أخرى بعث بها الى
المعتضد يشير إلى طفلين له : أحدهما ابن أربع
سنوات والآخر ابن ست سنوات ، وما تجشماه
في هذه السن الفضة من صعاب فيقول :
أجشمهم ليل القفار وظلمة الـ
بحار وكم ريعوا ولستر أرشاء

(٣٧) اللخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٨١ .

(٣٨) المصدر السابق : ١٧٩ .

(٣٩) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٤٠) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٤١) فوات الوفيات ٢ : ٢٥٥ .

وإبن شرف ، وأكثر ما يكون فيها من الشعراء طارئين عليها » (٤٢) وحين عرض له ابن رشيق فيمن عرض لهم من شعراء عصره قال فيه كما نقل لنا ابن فضل الله العمري : « شاعر حاذق متصرف كثير المعاني والتوليد ، جيد المقطعات والتقصيد ، أشعر أهل زمانه من شق غباره ، وأحذقهم من اقتفى آثاره ، وما منهم إلا أغر نجيب » (٤٣) فأبن رشيق في موقفه من إبن شرف هو موقف الرجل المنصف الذي يعرف له قدره ، وينصفه ولا يغمطه حقّه ، ولا يخسه فيما يعلم ، ولا ينتقص من قدره الذي يعرفه له ، وهو موقف يحمّد لابن رشيق إذا عرفنا ما كان بينهما من منافسة ، والواقع أن إبن شرف كان من الشعراء المجيدين ، وقد اتسم شعره بقوة التراكم وسلسلة المعاني ، ودقة الموصف ، ووضوح الأفكار ، كما هو واضح من أشعاره التي أوردنا طرفاً منها ، ويقول فيه ابن بسام : « من فرسان هذا الشأن ، واحد من نظم قلائد الآداب ، وجمع أشتات الصواب وتلاعب بالمنظوم والموزون تلاعب الرماح بأطراف الفصون » (٤٤) وقد أورد ابن بسام طائفة كبيرة من شعره ونثره ، وبسط القول في أخباره الأدبية وأفاض فيها حتى كسر عليها ما يزيد عن خمسين صفحة ، بل أن لابن شرف رواية عن أبي الحسن القابسي وأبي عمران الفاسي الفقيهين يقول ياقوت : « روى أبي

الحسن القابسي وأبي عمران الفاسي » (٤٥) ونقول الصفدي : « روى ابن شرف عن أبي الحسن القابسي » (٤٦) ويذكر ابن بشكوال أن لابن شرف رواية عن أبي الحسن القابسي وأبي عمران الفاسي وصحبة لهما ، وأن أبا الوليد يقول : « روى ابن شرف عن أبي الحسن القابسي ، ثم جعفر بن محمد بجميع مجموعات أدبه ، وكتب بذلك الكتاب رحمه الله » (٤٧) ويذكر الدباغ : « ولابن عبد الله محمد بن شرف رواية عن الشيخ أبي الحسن له يسرى دأبه عمران الفاسي ، وذكره الشيخ أبو نؤاس الباجي ، وأثنى عليه ، ووصفه بالعلم والذكاء ، وأن عالم الأدب من بعض علومه » (٤٨) ويبدو أن صلة ابن شرف بالفقهاء والفقه كانت قوية متينة ، وأن روايته عن الفقهاء كانت معروفة مشهورة ، حتى رأينا الدباغ يسلكه في جمعه الفقهاء ، ويعدّه منهم ، فيترجم له ، ويعرف به في كتابه « معالم الإيمان » وكأنه كان مشهوراً بالعلم والفقه في عصره ، معدوداً من جملة الفقهاء والعلماء ، بل أنه يبدو أن شخصيته الفقهية العلمية كانت أغلب عليه من شخصيته الأدبية ، وأن شهرته بالفقه والعلم طغت على جانب شهرته بالأدب وفاقتها ، حتى أننا نجد الدباغ في نهاية ترجمته له ينقل لنا ثناء أبي الوليد الباجي عليه ، ووصفه بالعلم والذكاء ، وأن

(٤٢) المقدمة : ٥٦٥ ولا نوافق ابن خلدون على ما ذهب اليه من أنه لم يكن بالفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وإبن شرف ، وأن أكثر من فيها من الشعراء طارئون عليها ، إذ أنه وجد بالفريقية من الشعراء من هم في مرتبة ابن رشيق وإبن شرف ، بل ربما وجنا من الشعراء المعاصرين لهما من هو أشعر منهما مثل عبد الكريم النهشلي والرفيق القرواني وعلي بن عبد الغني الحصري وغيرهم .

(٤٣) مسالك الأبصار ج ١١ قسم ٢ : ٢٣٨ .

(٤٤) الأخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٣٣ وقد نقل الدباغ في ترجمته لابن شرف عن ابن بسام انظر معالم الإيمان ٣ : ٢٣٩ .

(٤٥) معجم الأدباء ١٩ : ٢٧ .

(٤٦) الواقي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٤٧) الصلة ٢ : ٥٧١ .

(٤٨) معالم الإيمان ٣ : ٢٣٩ .

كيف كان يشهد مرارا لدته ومعاصره ابن شرف وهو يكتب القصيدة في غير مسودة كأنه يحفظها ثم يقوم فينشدتها ، ويذكر أنه لا يستطيع أن يحصى ما كان بينهما والروابط المتينة التي تجمع بينهما تدفع بابن شرف إلى أن يحضر كل يوم صاحباً حيناً ، وفي سكر حيناً آخر على ما يروى الصغدي حيث يقول : « وقال ابن رشيق في حقه في الأنموذج : لقد شهدته مرات يكتب القصيدة في غير مسودة كأنه يحفظها ، ثم يقوم فينشدتها ، وأما المقطعات فما أحصى ما كان يصنع منها كل يوم بحضرتي صاحباً كان أو سكراناً ، ثم يأتي بعد ذلك أكثرها مخترعاً بديعاً » (٥٤) .

وبعد أن اتصلت أسبابهما بأسباب المعز بن باديس ، وجمعهما بلاطه ، وهما لهما أن يكونا شاعري حضرته وملازمي ديوانه ، حتى أصبحا متقدمين عنده الذين لديه على سائر من في بلاطه من الأدباء ، يقول ياقوت : « وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده على سائر من في حضرته من الأفاضل والأدباء » (٥٥) .

ويقول حسن حسني : « وقد خصص المعز لصحبته من بين هؤلاء الزعماء المتقدمين ابن شرف هذا وابن رشيق فكان يلتفت لثروة إلى الأول ، وأخرى إلى الثاني ، وجرى بسبب ذلك بين هذين الأدبيين مناقضات ومهاجاة رسمها كل منهما في رسائل مستقلة ومقامات متنوعة لم يصل اليانمها شيء فيما نعلم (٥٦) .

علم الأدب من بعض علومه (٤٩) ويقول الدكتور ياغي : « وكان ابن شرف قد كان مشهوراً بالعلم والفقه في زمنه ، ولهذا فلسنا نجد له ترجمة لدى ابن خلكان أو ياقوت بخلاف ابن رشيق فله ترجمة لديهما » (٥٠) ونرى أن الدكتور ياغي قد جانبه الصواب فيما ذهب إليه من أنه لم يجد ترجمة لابن شرف لدى ابن خلكان ، أو ياقوت بخلاف ابن رشيق ، ورده ذلك إلى أن شهرة ابن شرف في زمنه بالفقه قد غلبت على جانب الأدب بخلاف ابن رشيق ، فالواقع أننا نجد ترجمة لابن شرف عند ياقوت في معجمه ، وإذا كانت ترجمته قد سقطت من ابن خلكان فليس ذلك بسبب شهرته بالفقه ، لأن ابن خلكان لم يقصر وفياته على الترجمة للأدباء وحدهم دون غيرهم ، بل ترجم لشتى الطبقات ومختلف الطوائف والفئات من خلفاء ووزراء وقضاة وفقهاء ومحدثين وقراء ومفسرين ونحاة ولغويين وأدباء وشعراء وكتاب ومؤرخين ورواة ووعاظ وصوفية ومتكلمين .

وقد توطدت العلاقات بينه وبين معاصره ابن رشيق ، وتوثقت الصلات بينهما قبل أن يجمعهما بلاط المعز بن باديس واسطة عقد بيته كما يقول ابن خلكان (٥١) والذي كانت القيروان في عهده كما يقول ياقوت ، « وجهة العاماء والأدباء ، تشد إليها الرجال من كل فج ، لما يروونه من إقبال المعز على أهل العلم والأدب ، وعنايته بهم » (٥٢) كما كانت حضرته محط بنى الآمال ومنتجع الأدباء كما يقول ابن خلكان (٥٣) ، وقد حدثنا ابن رشيق

(٤٩) معالم الإيمان ٣ : ٢٤١ .

(٥٠) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها : ٢٠٢ .

(٥١) وفيات الأعيان ٤ : ٣٢١ .

(٥٢) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٥٣) وفيات الأعيان ٤ : ٣٢١ .

(٥٤) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٨ .

(٥٥) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٥٦) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٢ .

ويبدو أنهما كانا أقرب إلى نفس المعز من سائر الشعراء ، وأكثر استجابة لما يمليه عليهما ولهذا رأيناه كثيرا ما كان يستدعيهما ، ويخلو بهما حين يعطيه له أن يلهو ، وكان على ما يظهر لنا يرغب في إثارة أسباب المنافسة بينهما في مجالسه الأدبية ، ويقوم هو بدور الحكم أحيانا في المفاضلة بينهما ، يقول ابن ظافر : « ان الاتفاق والتوارد بين الشعارين يقع أكثر ما يقع عندما يضيق المقترح عليهما بأن يعين لهما الوزن والقافية » (٥٧) ثم ينقل عن « أبنكار الأفكار » لابن شرف ما يؤيد ماذهب إليه فيقول : « أكثر ما يقع هذا الاتفاق الغريب والتوارد العجيب إذا ضيق المقترح على الشعارين بأن يعين الوزن والقافية .

ذكر أبو عبد الله بن شرف القيرواني في كتاب (أبنكار الأفكار) قال : استدعاني المعز بن باديس يوما ، واستدعى أبا علي الحسن بن رشيق ، وكنا شاعري حضرته وملازمي ديوانه ، فقال : أحب أن تصنعا بين يدي قطعتين في صفة الموز على قافية الفين ، فصنعا حالا من غير أن يقف أحدهما على ما صنه الآخر ، فكان الذي صنعه :

ياحبذا الموز واسمعه

من قبل مضغ الماضغ

لان الى ان لا مجس له

فالقم ملان به فارغ

سيان قلنا ماكل طيب

فيه والا مشرب سائغ

والذي صنعه ابن رشيق :

موز سريع اكلسه

من قبل مضغ الماضغ

ماكله لاكسل

ومشربة لسائغ

يخال وهو بالسغ

للحلق غير بالسغ

فأمرنا للوقت ان نصنع فيه على حرف الدال ، فعملنا ، ولم ير أحدهما صاحبه ما عمل ، فكان ما عملته :

هل لك في موز اذا

ذقتيه قلت حبذا

فيه شراب وغداء

يريك كالماء القلدي

لو ماتت من تللدا

به لقييل : ذا بدا

وما عمله ابن رشيق :

الله موز لديد

يعيله المستعيد

فواكله وشراب

به يداوى الوقيد

تري القلدي العين فيه

كما يريها النبيد

قال ابن شرف : فانت ترى هذا الاتفاق لما كانت القافية واحدة والقصة واحدة

(٥٧) بدائع البدائيه : ١٢٧ ، ويقول ابن دحية : « وبسندنا الى أبي عبد الله محمد بن شرف قال : أكثر ما يكون توارد الخواطر ووقوع الاتفاق وما يقاربه اذا طلب الشاعران أو الناثران معنى واحدا في قافية واحدة » المطب : ٦٧ ثم يورد بعد ذلك شعري ابن رشيق وابن شرف في وصف الموز ، وفي مدح الزغب على سوق بعض حفايا المعز .

والقصص واحدا ، ولقد قال من حضر ذلك اليوم : ما ندري مم تعجب من سرعة البديهة ، أم من غرابة القافية ، أم من حسن الاتفاق » (٥٨) ثم ينقل ابن ظافر بعد ذلك عن ابن شريك قوله : « استخزلنا المعز يوما ، وقال : أريد أن تصنعنا شعرا تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف الذي يكون على سوق بعض النساء ، فاني استحسنه وقد عاب بعض الضرائر بعضا به ، وكلهن قارئات كتابات ، فاحب أن أريهن هذا ، وأدعي أنه قديم لاحتج به على من عابه ، وأسر به من عيب عليه ، فأنفرد كل منا ، وصنع في الوقت ، فكان الذي قلت :

وبلقيسية زينت بشعر
يسر مثل ما يهب الشحيح

رقيق في خدلجة رداح
خفيف مثل جسم فيه روح

حكى زغب الخدود وكل خد
به زغب فم عشوق ملبح

فان يك صرح بلقيس زجاجا
فمن حلق العيون لها صروح

وكان الذي قال ابن رشيق :
يعيون بلقيسية أن راوا بها
كما قدرأي من تلك من نصب الصرحا
وقد زادها التزغيب ملحا كمثل ما
يزيد خدود الفيد تزغيبها ملحا

فانتقد المعز على ابن رشيق قوله « يعيون » وقال : قد أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس عابه ، وهذا نقلا ما فطنت له (٥٩) . وهكذا رأينا المعز بن باديس الذي كان حريصا على أن يقرب الكتاب والشعراء وأن يلحقهم بخاصته ، ويجمعهم في ديوانه ، حتى اجتمع في بلاطه مائة شاعر بليغ كما يقول حسن حسني (٦٠) يطيب له أن يبعث في الشعراء روح التنافس ، وأن يدفعهم الى التسابق في الاجادة ، والمباراة في الاحسان فيما يقترحه عليهم من أغراض ، وأن يساجل بعضهم بعضا ، وينظره فيما يفرض عليهم ، ويطلب اليهم القول فيه ، وأن يغري بعضهم ببعض شحذا لقرائتهم ، واستخراجا لاجود ما عندهم ، حتى عادت تلك المساجلات والمناظرات على الادب بطيب الاثر وأحسن النتائج يقول حسن حسني « وكثيرا ما كان المعز يظهر الميل الى أدبيدون آخر ، أو ينشب بين شاعرين فيوقع بينهما تنافسا أدبيا ينشأ

(٥٨) بدائع البداهة : ١٢٧ - ١٢٨ والطرب : ٦٧ - ٦٨ وليس في اتفاقهما هذا ما يدعو الى التعجب ، أو يسر الاستغراب لان العلاقات الوثيقة والروابط المتينة التي جمعت بينهما واتصالهما الدائم الطويل قبل ان يجسهما بلاط المعز بن باديس . واتفاقهما في الأخذ من مشاعر علماء عصرهما وأدبائه أمثال القزاز وابى اسحق الحميري وغيرهما .. بالإضافة الى الفرض الواحد الذي فرض عليهما ، وطلب اليهما أن ينظما فيه على لافية واحدة ، فضلا عن قههما ثم يكونا يصدران في ذلك عما يدور بخواطرهما ولم يكونا يتناولان هذه الموضوعات التي فرغت عليهما كما يحصل بها في دغل نلوسهما ، وكما تقع في وجدانيهما . وقد نتج عن كل ذلك أن جاء شعرهما في الموضوعات المفروضة عليهما متقاربا متشبهيا كما رأينا ، وهكذا سخر المعز الشعراء لأجاء اوقات فراغه اللأهي المأبث ، وللهوة حين يطيب له أن يلهو ، ولأفاده حين يحلو له أن ينشد اللذة ويطلبها فيتقدم اليهم أن يصنعوا شعرا في مدح زغب ثبت على سوق من مبيت به من حلقته ، أو يلغوا في وصف فاكهة من الفواكه حتى كان الشعراء في بلاطه لا يكادون يصدرن إلا عما يدور بخلده ، ويعبى في خاطره ، وتعده به نفسه وقلما كانوا يصدرن عن داخل نفوسهم أو وجدانيهم .

(٥٩) بدائع البداهة : ١٢٧ - ١٢٨ والطرب : ٦٨ - ٦٩

(٦٠) بساط العقيق : ٥١

عنه تسابق في اختراع الهامى بتوايد المبتكرات، وحصل بسبب هاته المنافسات، بعض في سوق الادب، وظهرت حركة عامية وفكرية اجتمعت افريقية من ثمراتها البائعة ما يحق لها الافخار به» (٦١) .

ويغلب على الظن ان ما اثر لنا عن ابن رشيق وابن شرف من مساجلات ومناظرات وما قام بينهما من مناقضات ومردودات وسجلتها كتب الادب، كان لا يعدو ان يكون لونا من ألوان المباحثات، وضربا من ضرب المناقشات لا يصارحان فيها عن داخل - بينهما، وكان الناس من حولهما يلففون ما يصدر عنهما، ويفرون احدهما بصاحبه، ويأثرونه عليه، ويهيجونه به، ويحرضون بينهما استخراجا لما عندهما، واستماتوا بما يصدر عنهما، ثم يحكمون لهذا ام لذلك، ولم يكن كل ذلك ليصل بهما في حشد التبعيض او العداء او القطعة وانقسام شري المودة وتقطع اسباب الصداقة بينهما، وقد تحفظ هذه المناقضات احيانا احدهما على صاحبه وتهيجه وتثير حميته عليه، فينصرف مفاضبا، ولكنه سرعان ما يعود اليه، وتتصل اسباب الصداقة والمودة بينهما، ولا يبقى للحفيظة والفضب مكان في نفسه، وقد فطن لذلك ياقوت، ونبه اليه حيث يقول: « وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده على

سائر من في حضرته من الافاضل والادباء فكان يقرب هذا تارة، ويدنى ذلك تارة أخرى فتنافسا وتنافرا ثم تهاجيا، ولكن لم يتغير أحدهما على الآخر بما جرى بينهما في المناقضات (٦٢) نعم لم يتغير أحدهما على الآخر بسبب هذه المساجلات والمناقضات، وليس أدل على ذلك من ان الكتابات والمخاطبات ظلت متصلة بينهما، يكتب كل منهما لصاحبه ويحييه حتى بعد ان انخرط في سلك خدمة المعز، واشتد التنافس بينهما، فها هو ذا ابن شرف يسبق ابن رشيق الى صقلية، وحين يصل اليها يتذكر أيامه مع ابن رشيق، فيكتب اليه - وهو بالمهدية - قصيدة يتشوقه فيها، ويحييه ابن رشيق بقصيدة أخرى على ما يروى لنا القفطى حيث يقول: « وكان بين ابن رشيق وبين محمد بن شرف الشاعر مباحثه بعد مواصلة وذلك انهما كانا شاعري ابن باديس، ودخلا اليه، واتصلا بخدمته في وقت واحد، وكان ابن شرف ممن لا ينكر حذقه، ولا يدفع في هذا النوع صدقه، ولم يزل بينهما مكاتبات ومخاطبات، فمن شعر ابن شرف قصيدة كتب بها الى ابن رشيق وهو بالمهدية يتشوقه اولها:

عدمناك من بعد وان زدتنا قربا
على ان فيما بيننا سببا سهبا

(٦١) بساط العقيق: ٥٥ كما يقول في موضع آخر من تنافس ابن رشيق وابن شرف، وحرص المعز على اذكاء جذوة التنافس بينهما: « فاته (اي ابن شرف) كان يترصد الفلزات للوثوب على صاحبه، وجرى بسبب ذلك تنافس ادبي ومكافحة اقلام، وتسابق الى الاختراع والابتداع، اجتنى منها سوق الادب فواكه فكرية رسمها كل واحد منهما في تأليف كانت احسن اثر لنتائج فرائح شاعرنا، وربما كان الامير المعز يحرص على هذا التنافس بين ابن رشيق وابن شرف بالتلغاة تارة الى الاول، والآخر الى رفيقه سعيا منه وراء تنشيط الاداب وترويج موادها... » بساط العقيق: ٥٩ ويقول احمد أمين: « وقد كانا صديقين، ثم دببت بينهما الخصومة فتساجلا في الادب كذلك المساجلة التي كانت بين الخوارزمي وديع الزمان الهمداني » لهر الاسلام ١: ٢٠٨ .

(٦٢) معجم الادباء ١٩: ٣٧ كما اشار ياقوت الى ما كان بينهما عند ترجمته لابن رشيق حيث يقول: « وكان بينه وبين ابن شرف الاديب مناقضات ومعاقدات، وصنف في الرد عليه عدة تعاتيف: » معجم الادباء ١١٠ ومن ذلك ما ذكره ابن رشيق في الرد على ابن شرف من انه منسوب الى امرائه.

المعروف بابن شرف القيرواني مناقضات ومهاجاة ، وصنف عدة رسائل في الرد عليه منها رسالة سماها « ساجور الكلب » و « رسالة نجح الطلب » و « رسالة قطع الانفاس » و « رسالة نقض الرسائل الشعوذية » و « القصيدة الدعية » و « الرسالة المنقوضة » و « رسالة رفع الاشكال ودفع المحال » (٦٦) اما العمري في مسالك الإبصار فقد ذهب الى ان ما وقع بينهما انما هو من قبيل ما وقع بين الخوارزمي وبديع الزمان (٦٧) ويؤكد مذهبنا اليه انهم كانوا في هذا العصر كثيرا ما يلجأون الى الهجاء لا لشيء الا للتندر والتسلية وأزجاء اوقات الفراغ ، ومن ذلك ما يرويهِ الصفدي وابن شاكر الكتبي (٦٨) من أن ابن شرف قال بيتين على قافية القاف في ذم حمام ، فبلغ ذلك ابن رشيق ، فقال مجيزا لهدين البيتين بيت هجا فيه ابن شرف ونبزه بالعمور والصالح وهو :

وانت أيضا أصور أصلع
فصادف التشبيه تحقيق

وكتب اليه ابن رشيق قصيدته التي اولها :
عتابا عسى أن الزمان له عتبى
وشكوى فكم شكوى الانتله قلبا (٦٣)

ولعل هذا هو مادفع الصفدي في ترجمته لابن شرف الى أن يشير الى أن ما جرى بينه وبين ابن رشيق من مهاجاة ومعاداة انما هو أمر يحدث عادة بين المتعاصرين (٦٤) حيث يقول : « وكانت بينه وبين ابن رشيق مهاجاة ومعاداة جرى الزمان معادتها بين المعاصرين » ثم يتبع ذلك بسرد أسماء عدة رسائل لابن رشيق يهجو فيها ابن شرف ، ويعدد أغلاطه ومساوئه ، فيقول : « ولابن رشيق فيه عدة رسائل يهجو فيها ، ويذكر أغلاطه وقبائحها منها « رسالة ساجور الكلب » و « رسالة قطع الانفاس » و « رسالة نجح الطلب » و « رسالة رفع الاشكال ودفع المحال » و « رسالة ذم الحمام » (٦٥) ويقول الوزير السراج في تاريخه : « لابن رشيق : « وكان بينه وبين عبدالله بن أبي سعيد بن أحمد

(٦٣) انباه الرواة : ١ : ٣٠١ والقفي وان كان لم يحدد المكان الذي بعث منه ابن شرف قصيدته الى صاحبه بتشوقه فيها الا أنه يقلب على الظن أنه بعث بها من صقلية ، لأنه من المعروف أن ابن شرف سبق صاحبه اليها ، ثم يقول القفي بعد ذلك ثم ان المناقصة اوقعت بينهما ، وتخرجها في الهجاء ، وعمل ابن رشيق عدة تصانيف في الرد عليه واخراج معاني اقواله ساستوفي لحها وملحها في كتابي الذي اسميه « الانيق في اخبار ابن رشيق » بمشقة الله وعونه انباه الرواة : ١ : ٣٠٣ فالقفي هنا بعد باخراج كتاب يشتمل على رسائل ابن رشيق ومصفاته في الرد على ابن شرف وابراز اغلاطه ومعاني اقواله ، ولا ندرى ان كان القفي قد وفي يومه فخرج هذا الكتاب ام لا .

(٦٤) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ وانظر فوات الوفيات ٢ : ٤١

(٦٥) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ وفوات الوفيات ٢ : ٤١ ويقول ابن بسام : « وبينه وبين ابي علي بن رشيق ماج بحر البراعة ودام ، ورجع نجم هذه الصنعة فاستقام وذهب من المناقضة مذهبنا تنازعاه شرا طويلا ، وخلصه ذكرا معمولا ، واحتملاه ان لم يسمح الله ولدا ثقيلا . وكان ابو علي واسعهما نفسا واقرهما ملتصبا ، ولابن شرف أصالة متزعة وجلالة مظنمه ومناة لفظه وسعة حلفه ، فسمع شعره ملائمن وموعة وجمجمة ، ولكن ما أبد ما يرويهِ وأبدعه » اللخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٣ .

(٦٦) المحلل السننسية في الاخبار التونسية الجزء الاول القسم الاول : ٢٧٩ ويقول ابن خلكان : « وكنت بينه وبين ابي عبد الله محمد بن ابي سعيد بن أحمد المعروف بابن شرف القيرواني وقائعوما جريات يطول شرحها » وفيات الاعيان ١ : ٣٦٨ .

(٦٧) المكتبة الصقلية : ٦٥١ نقلا عن مسالك الابصار ج ١٧ ويقول حسن حسني « وقع بينهما بالقرآن ما وقع بين جرير والفردق أو بين الخوارزمي وبديع الزمان » مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ وانظر رسائل البغداد ٣ : ٣٠٥ .

(٦٨) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٨ والفيت المسجم ٢ : ٢٥٥ وفوات الوفيات ٢ : ٤١٠ .

بل انهم كثيرا ما كانوا يهجون انفسهم ، ويتندرون عليها حين لا يجدون من يهجونهم ويتندرون عليه ، فقد اجتمع ابن رشيق يوما مع بعض اصحابه وكان فيهم ابن شرف وكان اعمرا ، والطوسي وكان اعمى وكان ابن رشيق احولا ، فقال في صاحبيه وفي نفسه :

لا بد في العور من تبه ومن صلف

لانهم يبصرون الناس انصافا

وكل احوال يلفى ذا مكارمة

لانهم ينظرون الناس اضعافا

والعمى اولى بحال العور لو عرفوا

على القياس ولكن خاف من حافا (٦٩)

ولم يزل ابن شرف ملازما لخدمة المعز بن باديس مقدما عنده اثرا لديه ، ولم تزل المناقضات والمساجلات والمناضرات متصلة بينه وبين ابن رشيق ، ولم يزل الهجاء والتندر قائما بينهما ، وهكذا مضت الحياة بهما وبغيرهما من الشعراء الذين ضمهم بلاط المعز بن باديس الى ان هاجم اعراب الصعيد القيروان ، فاضطر المعز الى الخروج منها ومغادرتها الى المهدي سنة ٤٤٩ هـ ولحق به من شعراء بلاطه وكتاب ديوانه ، ومن بين من لحق به ، واتصل بخدمته بالمهدي ابن شرف وابن رشيق يقول ياقوت : « ولم يزل ابن شرف ملازما لخدمة المعز الى ان هاجم عرب الصعيد القيروان ، واضطر المعز الى الخروج منها الى المهدي سنة سبع واربعمائة واربعمائة ، فخرج ابن شرف وسائر الشعراء معه اليها ، واستقروا بها » (٧٠) ولكن المعز في المهدي كان مهموما محزونا ضيق الصدر

منقبض النفس ، فقد سقطت القيروان حاضرة ملكه وقصبة افريقية في ايدي الاعراب الذين عاثوا في الارض فسادا ، وانتقصوا مملكته من اطرافها ، واشاعوا في جنباتها الخراب والدمار ، فلم يعد يعقد المجالس الادبية ، ويدعو اليها الشعراء ، ويقترح عليهم الاغراض التي تخطر بباله ، وانما هو منقبض النفس ، ضيق الصدر ، متبرم بكل شيء ، فاذا حدث وعقد مجلسا من تلك المجالس التي كان كثيرا ما يعقدها بالقيروان ، ودعا اليه الشعراء لا يلبث ان يضيق ذرعا به وبمن فيه من الشعراء ، كما فعل حين مزق الرقعة التي فيها قصيدة ابن رشيق ، ولم يكتف بتمزيقها ، حتى قدمها طعمة للنيران . يقول العمري في مسالك الابصار نقلا عن ابن بسام : « ولما طلع نجوم النحوس بسماء المعز بن باديس خرج الى المهدي بسماء كاسفة الاقمار ، وذماء اقصر من طي الخمار ، وكان ابو علي ممن انحشر في زمرة المحروبة ، وتحيز الى فئته المنكوبة اقام معه ، وغشى المهدي فما بعد اسطول الروم ، فاصبح البحر ثنايا تطلع المنايا ، واكاما تحمل موتا زواما ، فدخل على المعز حين وضع الفجر ، فوجده في مصلاه ، والرقاع عليه ترد ، والشموع بين يديه تتقد فقام ينشده قصيدته التي اولها :

ثبت لا يخامرك اضطراب

فقد خضعت لعزتك الرقاب

فقال له : مه ، متى عهدتني لا اثبت ، اذا لم تجئنا الا بمثل هذا فمالك لا تسكت عنا ؟ ثم امر بالرقعة التي كانت فيها القصيدة فمزقت ، ولم يقنعه حتى ادناها الى الشمع فأحرقها » (٧١) .

(٦٩) الفيت المسج ٢ : ٢٥٥ وديوان ابن رشيق : ١١٦ - ١١٧ .

(٧٠) معجم الادباء ١٩ : ٢٧ .

(٧١) المكتبة الصقلية : ٦٥٠ نقلا من مسالك الابصار المجلد السابع عشر .

واطمأن مقامه بها تذكر عهدا سلف ، وأياما مضت مع ابن رشيق في ربوع القيروان والمهدية ، وفي بلاط المعز بن باديس ، فبيعت اليه وهو بالمهدية بقصيدة يتشوقه فيها ويجيبه ابن رشيق بقصيدة أخرى على ما يروى لنا القفطي حيث يقول : « فمن شعر ابن شرف قصيدة كتب بها الى ابن رشيق وهو بالمهدية يتشوقه ، أولها :

عدمنالك من بعد وان زدتنا قربا

على ان فيما بيننا سببا سببا

وكتب اليه ابن رشيق جوابا عنها قصيدته التي أولها :

عتابا عسى أن الزمان له عتبي

وشكوى فكم شكوى الا انت له قلبا (٧٥)

ويركب ابن رشيق ثبج البحر الى صقلية في اثر صاحبه ابن شرف ، وينزل بمازر إحدى مدنها على أميرها ابن مطكود ، فيؤثره ، ويقربه ، ويسلكه في عداد خاصته ، ويصيب عنده حظوة كبيرة ، حتى انه قرأ عليه كتبه ، ومن بين ما قرأه عليه من كتبه العمدة ، وعاش في كنفه ، ولم يزل عنده حتى أدركته الوفاة يقول القفطي « ونزل مازر إحدى مدنها على أميرها ومتوليا ابن مطكود ، فأكرمه واختصه ، وقرأ عليه كتبه ، ومن جملة ما رأته من قراءته عليه كتاب العمدة في صنعه الشعر ، وهو أجل كتبه وأكبرها ، ورأيت خط ابن رشيق على نسخة منها ، ولم يزل عنده الى أن مات بمازر » (٧٦) بيد أن الاستاذ أحمد أمين ذهب الى انهما قرأ عند غزو الهلاليين

ويضيق ابن شرف بالمقام في المهدية ، وينبو بها منزله ، ولا يطيب له العيش بها بعد ان لقي من المعز انقباضا عن كل شيء ، وضيقا بالشعر ، وانصرافا عنه ، وعزوفاً عن الادب ، وازورارا عن الشعراء ، ونفورا منهم ، وعزوفاً عنهم ، وعدم ارتياح لهم ، وانحرافا عمن لحق به من الادباء ، وجفاء لهم ، فلم يلبث بالمهدية الا قليلا حتى ركب ثبج البحر ، وولى وجهه شطر صقلية وأفداً على أميرها القائد أبي محمد الحسن بن عمر بن مطكود ، وكانما ترامي الى سمنه ، ونمى الى علمه ان الشعراء يصيبون حظوة كبيرة في بلاط هذا الأمير ، وأنه يقدمهم ويؤثرهم ، وبحبهم ، ويجزل لهم العطاء ، ويقول ياقوت : (فأقام ابن شرف مدة بالمهدية ملازما خدمة المعز بن باديس وابنه تميم ، ثم خرج منها قاصدا صقلية ، ولحق به رفيقه ابن رشيق فاجتمعا بها ، ومكثا بها مدة » (٧٧) وقد أشار العمري الى أن ابن شرف سبق ابن رشيق الى صقلية حيث يقول بعد ان أورد خبر ابن رشيق مع المعز ، وتمزيق المعز للرقعة التي كانت بها قصيدته التي لم يرقه مطلعها ، ولم يعجبه ابتداءها واستهلالها واحراقها ، والجفوة التي وقعت بينهما نتيجة لذلك : « فخرج ابن رشيق يومئذ من عنده على غير طريق ، وكانت وجهته الى صقلية ، وكان ابن شرف قد سبقه اليها وقد قتله عليها » (٧٨) ويقول حسن حسني : « وأقام ابن شرف مدة بالمهدية مع زمرة شعراء الملك يخدم الأمير المعز وابنه تميم الى أن رحل عنها قاصدا جزيرة صقلية لما سمع من كرم أميرها » (٧٩) .

وكانى بابن شرف وقد وصل الى صقلية ،

(٧٢) معجم الادباء ١٩ : ٣٨ .

(٧٣) المكتبة الصقلية : ٦٥٠ - ٦٥١ نقلا عن مسالك الابصار المجلد السابع عشر .

(٧٤) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ وانظر رسائل البغاء : ٣٠٥ .

(٧٥) انباه الرواة ٣ : ٣٠١ .

(٧٦) انباه الرواة ١ : ٣٠٣ .

مدينة القيروان ، وان ابن رشيق قصد الى صقلية ، بينما ولى ابن شرف وجهه شطر الاندلس ، (٧٧) ولم يشر الى انهما خرجا مع المعز بن باديس بعد خراب القيروان الى المهديّة ، واقاما بها معه مدة ، ثم ذهب ابن شرف الى صقلية ، ولحق به رفيقه ابن رشيق ، ثم شخص ابن شرف وحده الى الاندلس تاركا صاحبه بصقلية ، وان ابن رشيق قد رام بعد ذلك الشخص الى الاندلس فلم تطاوعه نفسه على ركوب البحر ، فاقام بمغازر حتى ادركته منيته بها .

ويبدو أن ابن رشيق أصاب حظوة كبيرة عند ابن مطكود أمير مازر ، وكان أقرب الى نفسه وأكثر عنده من ابن شرف ، وليس في هذا غرابة ، فقد كان لابن رشيق أثر بعيد في النهضة الادبية بصقلية فقد ذاعت شهرته بها ، وترامت اليها أخباره الادبية ، وطنت أشعاره في جنباتها ، وتداول أهل صقلية أخباره ، وتلقفوا أشعاره ورووها وتدارسوها ، حتى غدا مطمح أنظار بعض الصقليين ، وإمامهم الذي يتأسون به في اتجاههم الادبي ، كما كان له اصدقاء كثيرون معجبون به بهذه الجزيرة ، وقد اتصلت أسباب الصداقة بينه وبينهم ، وكانوا على اتصال دائم به ، وبدل على ذلك اننا نجد واحدا منهم وهو أبو عبدالله الصفار يصرح بذلك حيث يقول : « كنت ساكنا صقلية ، وأشعار ابن رشيق ترد على ، فكنت أتمنى لقاءه ، حتى قدم الروم علينا ، فخرجت فاراً بمهجتي ، تاركا لكل ما ملكت يدي (٧٨)

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نراه : اثر في النهضة الادبية بجزيرة صقلية ، فبعد أن رحل اليها ، وألقى بها عصا التسيار ، واطمان مقامه بها أخذ يدرس كتابه العمدة ، والتفت حوله طائفة من أهل الادب ، وأقبلوا عليه يأخذون عنه ويتلقون عليه ، وغير بعيد ماسبق ان ذكرناه من أن ابن مطكود أمير مازر نفسه قرا على ابن رشيق كتابه العمدة ، وقد كلف أهل صقلية بكتاب العمدة ، وشغفوا به ، وأقبلوا عليه يتدارسونه ، وممن كلف كلف به من أهل صقلية بيو عمر عثمان بن علي بن عمر الصقلي ، فقد قراه ، وأعجب به ، واختصره ، يقول حاجي خليفة : « واختصره الصقلي وسماه العدة » (٧٩) .

وهكذا يتبين لنا من خبر أبي عبدالله الصفار مع ابن رشيق أن أشعار ابن رشيق قد سبقت الى صقلية ، وذاعت بها ، وأنه كان باتجاهه الادبي والنقدي موضع الإعجاب والتقدير من أدباؤها ، بالغ التأثير فيهم ، حتى أننا نرى ابن حمديس الصقلي مع أنه أبعد حظا منه في الشاعرية يتناول شعره بالمعارضة .

ويبدو أن خاصة ابن مطكود وجلساءه كان يحلو لهم أن تقوم المناظرات بين ابن رشيق وابن شرف ، وأن تتصل المساجلات والمناقضات بينهما ، كما كانت في القيروان ، فقد ترامت اليهم أخبارهما الادبية ، وسمعوا بما كان بينهما من مناقضات ومساجلات ، ووصلت اليهم أخبار ابن رشيق وأشعار وعبرت البحر

(٧٧) ظهر الاسلام : ١ : ٣٠٨ .

(٧٨) بدائع البداة على هامش معاهد التنصيص : ٢ : ٣٦ وورد الخبر مع بعض تصرف في مسالك الإبصار المجلد السابع عشر وانظر المكتبة الصقلية : ٦٥١ وما بعدها وفي الخريدة قسم شعراء المغرب : ٨٣ - ٨٤ في فصل بعنوان « جماعة من شعراء جزيرة صقلية عند الحديث من أبي عبد الله محمد بن علي الصباغ الكاتب : (وكان في عهد ابن رشيق ، وبينهما مراسلات) وكتب اليه أبو علي بن رشيق عند وصوله من القيروان الى مازو في أول رسالة . . .) ثم يورد ثلاثة أبيات من الشعر أجابه عليها ابن الصباغ بثلاثة أبيات أخرى .

(٧٩) كشف الظنون : ٢ : ١٦٩ وانظر المكتبة الصقلية : ٧٠٤ ويقول القلطي في ترجمته لعثمان بن علي : « ومن مصنفاته مختصر عمدة ابن رشيق وشاهدت هذا المختصر بحلب بخطه عند ابن القيسراني ، وقد زاد فيه أبوابا اخل بها ابن رشيق وهي القائمة موقعها من التصنيف » ، انباء الرواة : ٢ : ٣٤٣ .

ذلك مد رعا بمكانته من ابن مطكود أمير ملقر ، وبمنزنته الرفيعة التي احتلها من نفوس أهل جزيرة صقلية ، ودالته عليهم ، فكان كما يقول العمري : « ربما اعترض وتعرض ، وتحط وتلمظ ، وأما ابن شرف فلم يحل ماعقد ، ولا حال ماعهد » (٨٢) .

ويطيب لابن شرف المقام بجزيرة صقلية ، فقد هادنه ابن رشيق ، وامتدت الهدنة فيما بينهما وانصلت ، وأصلح من بالجزيرة من أهل القيروان ذات بينهما ، واستقلعت الأمور بينهما ، حتى عادا إلى الصفاء والإخاء والسلم . يقول حسن حسني : « فلما اجتمعا بصقلية تسامحا » (٨٣) ثم تهيأت الظروف لابن شرف ، واتيحت له الفرصة ، فركب ثبح البحر ، وعبر إلى عدوة الأندلس وولى وجهه منظر ملوك الطوائف ، وتردد عليهم ، وانتهى به الحظ عند المأمون بن ذي النون صاحب طليطة يقول ابن بسم : « فتردد على ملوك الطوائف بالأندلس بعد مقارنة أهوال ومباشرة خطوب طوال ... واستقر أخيرا عند المأمون بن ذي النون ، فعليه خلع آخر لبوسه ، ونشر بقية كيسه » (٨٤) ويقول الدباج : « وقدم الأندلس ، وسكن المربة وغيرها وتردد على ملوك الطوائف » (٨٥) حتى سكه ابن شاعر في عداد فحول شعراء الأندلس والفرب ، فقد استهل ترجمته بقوله : « محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني البطلي أحد فحول شعراء الأندلس والفرب » (٨٦) وبعده الصفدي أحد شعراء الفرب (٨٧) .

إلى صقلية قبل أن يعبرها هو إليها ، وكانما طاب لهم أن تقوم تلك المناقشات والمساجلات والمناظرات بينهما في ربوع صقلية ، كما قامت بينهما من قبل في ربوع القيروان ، وأن يعيداعا سيرتها الأولى حتى ينشط الشعاران ، وتروج سوق الأدب ، ويلهو الناس ، ويسعدون بما يصدر عنهما . يقول العمري : « وقد وقع بينهما بالقيروان ما وقع بين أترارزمي وبديع الزمان ، فلما اجتمعا يومئذ بعلمية تنمر بعضهما لبعض ، وتشوق اعلام نند لما كان بينهما من إبرام ونفخر » (٨٠) وكان أهل صقلية سعوا بين الشائرين وحرشوا بينهما ، وأغروا أحدهما بالآخر ، إلا أنه يبدو أنه كان بصقلية من أهل القيروان من يخشى مغبة الخصومة بين الشاعرين ، ويدرك سوء عاقبتها ، لو دبت عقارب السعاية بين الشاعرية ، وأذكى القوم نار العداء بينهما ، فأخذ نفسه باصلاح ذات بينهما ، حتى لا يصبحا في دار غربتهما موضعا لتندر أهل صقلية وسخريتهم يقول العمري : « فقصد ابن رشيق بعض أخوانه ، وقال له : انما على الإحسان وشيخا أهل القيروان ، وقد أصبحتما بحال جلاء وبين الأعداء ، والأشبه بكما ألا تغريا أديمكما ، ولا تطعما الأعداء لحومكما ، فقال له : أيت ابن شرف ، فوحده أجنح للسلم ، وأدنى إلى الحلم ، برىء إليه من صبيه وصعده ، وأعطاه بذلك صفقتي لسانه ويده » (٨١) بيد أن ابن رشيق كان يتحرش أحيانا بابن شرف ، وينال منه ، ويتعرض له ، ويسعى به ، ولعله كان يفعل

(٨٠) المكتبة الصقلية : ٦٥١ نقلا من مسالك الأبحار المجلد السابع عشر .

(٨١) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٨٢) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٨٣) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ ورسائل البغداد : ٢٥٥ .

(٨٤) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٢٣ .

(٨٥) معالم الإيمان ٢ : ٢٣٩ .

(٨٦) فوات الوفيات ٢ : ٤١٠ .

(٨٧) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

ان نطمئن الى انه توفي باشبيلية ، وانه اتصلت اسبابه باسباب المعتضد ، وعاش في كنفه الى ان ادركته منيته . وقد سبق ان بسطنا القول في هذه المسألة ، وانتهينا الى ترجيح انه توفي بطليطلة في كنف ابن ذي النون لاننا نجد ابن بسام يقول : « فتردد على ملوك الطوائف بالاندلس بعد مقارعة أهوال ومباشرة خطوب طوال ... واستقر أخيراً عند المأمون بن ذي النون فعليه خلع آخر لبوسه ونثر بقية كيسه » (٨٩) .

آثاره ومصنفاته :

خلف لنا ابن شرف مؤلفات كثيرة سقطت من يد الزمن ، ولم يصل اليها منها الا القليل ويشيد ابن بسام بمؤلفاته وينوه بها حيث يقول : « ولأبي عبد الله عدة تواليف أفاضها بحارا واطلمها شمسوا وأقمارا » ويقول حسن حسني : « اما تأليف ابن شرف فكثيرة على ما نقله الينا المؤرخون » ومن هذه المؤلفات .

أبكار الافكار :

ويشتمل هذا الكتاب على مختارات مما أنتجه ابن شرف من شعر ونثر يقول فيه ياقوت « أبكار الافكار جمع فيه ما اختاره من شعره ونثره » (٩٠) ويقول الصفدي : « وهو كتاب حسن في الادب يشتمل على نظم ونثر من كلامه » (٩١) ويقول ابن دحية : « ولابن شرف مصنفات عديدة وأوضاع مفيدة منها » « أبكار الافكار » في سفرين ، وهو اختراع كله في الحكم والأمثال والنظم والنثر » (٩٢) ويقول حاجي خليفة : « أبكار الافكار لمحمد بن سعيد الجذامي

ويؤكد مذهبنا اليه - من أن المهادنة التي تمت في جزيرة صقلية بين ابن رشيق وابن شرف قد امتدت واتصلت ، وأن الأمور بينهما قد استقامت وصلحت - مانقرا في كتب التراجم من أن ابن شرف حين عقد النية على مغادرة صقلية ، وازمع الرحلة الى الاندلس استنهض صاحبه ابن رشيق في أن يجتمعا بالطريق ، وأن يجوزا معا الى الاندلس ، ويبدو أن ابن رشيق تباطأ عنه ، ولم ينهض معه ، بل تردد واعتذر عن عدم النهوض ، فمضى ابن شرف وحده ، يقول ياقوت : « ثم استنهضه ابن شرف على دخول الاندلس ، فتردد ابن رشيق ، وأنشد » :

مما يزهدني في أرض أندلس
أسماء مقتدر فيها ومعتضد

القاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

فأجابه ابن شرف على الفور :

ان ترمك الغريبة في معشر
قد جبل الطبع على بعضهم

فدارهم مادمت في دراهمهم
وأرضهم مادمت في أرضهم (٨٨)

ثم شخص ابن شرف منفردا الى الاندلس ، وتنقل في بلادها ، وسكن المرية بعد مقارعة أهوال ومقاومة خطوب ، وتردد على ملوك الطوائف كال عباد وغيرهم ، وتوفي باشبيلية سنة ستين وأربعمائة كما يقول ياقوت ، وقد سبق أن ذكرنا أنه يخالفنا الشك ، ولا يمكننا

(٨٨) معجم الادباء ١٩ : ٢٨ .

(٨٩) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٢٣

(٩٠) معجم الادباء ١٩ : ٤٣ .

(٩١) الوالي بانوفيات ٢ : ٩٧ وانظر فوات الوفيات ٢ : ٤١

(٩٢) الطرب : ٦٦

باسم باديس بن حبوس « وهذا الكتاب مفقود يكون كل ما وصل إلينا منه هو ما نقله ابن ظافر في كتابه « بدائع البدائنه » (٩٨) .

أعلام الكلام :

وقد حدثنا ياقوت عن هذا الكتاب وموضوعه ، حيث يقول وهو بسبيل تعداد مؤلفات ابن شرف : « وأعلام الكلام مجموع فيه فوائد ولطائف وملح منتخبة » (٩٩) ثم يشير عقب ذلك مباشرة إلى أن لابن شرف كتابا آخر بعنوان « رسالة الانتقاد » ويحدثنا عنه بقوله : « ورسالة الانتقاد وهي على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهليين والاسلام » (١٠٠) فهل هما كتابان مختلفان أو انهما اسمان لكتاب واحد ، ونحن نرجح أن رسالة اعلام الكلام هي رسالة الانتقاد ، وأنهما اسمان لكتاب واحد .

وقد نشر هذا الكتاب حسن حسنى في مجلة المقتبس تحت عنوان « رسائل الانتقاد » على نسخة في خزانته وأخرى في خزانة الاسكوريال برقم ٥٣٦ (١٠١) من القسم العربى ، كما نشر ضمن « رسائل البلغاء » كما نشره الخانجى مستقلا سنة ١٩٢٦ م وصدره بمقدمة جاء فيها : « كتاب اعلام الكلام الذى نشره اليوم بين يدي القارىء الكريم وقد سبق لأحد الأفاضل التونسيين ، وهو حسن أفندى عبد الوهاب

القيرواني . . جمع فيه من نظمه ونثره » (٩٣) ويقول البغدادي : « له أبحار الأفكار نظما ونثرا » (٩٤) ويقول حسن حسنى : « أما تأليف ابن شرف فكثيرة على ما نقله إلينا المؤرخون فمنها كتاب « أبحار الأفكار » جمع فيه ما اختاره من نظمة ونثره ، وهو انفس مصنفاته ، مفقود وقد يوجد شيء منه في كتب الأدب » (٩٥) ويحدثنا ابن شرف نفسه عن كتابه هذا ، فيذكر أنه اشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال وحكايات قصار وطوال حيث يقول : « وقد كنت حاولت منه ما لم أسبق إليه ، ولم أجعل سوى ناظرى معينى عليه ، فصنعت الكتاب الملقب « أبحار الأفكار » يشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال وحكايات قصار وطوال » (٩٦) ثم يشير إلى أنه من اختراعه ، ومما أنتجته قريحته ، وأنه اشتمل على الجد والهزل فيعقب ذلك بقوله : « مما عزوتها إلى من لم يحكما ، وأضفت نسجها إلى من لم يحكما ، قد طررت بلمح الجد والهزل ، وحسنت بمقابلة الضد للمثل ، وليس في ذلك كله رواية رويتها عن قديم ولا جديد ، ولا حديث بها عن قريب ولا بعيد . . . » (٩٧) .

وقد أهدى ابن شرف هذا الكتاب إلى المعتضد ، وبعث به إليه . يقول ابن بسام : « وطرر تأليفه (أبحار الأفكار) باسم عباد ، وبعث به إليه على البعاد ، وقد كان وسعه قبل

(٩٢) كشف اللثون ٤٦١

(٩٤) هدية العارفين ٢ : ٧٢

(٩٥) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ وانظر رسائل البلغاء : ٢٠٥

(٩٦) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٤٠

(٩٧) المصدر السابق : ١٤٠ - ١٤١

(٩٨) بدائع البداية : ١٢٦ - ١٢٨

(٩٩) معجم الأدباء ١٩ : ٤٣

(١٠٠) نفس المصدر السابق والصفحة

(١٠١) انظر حديثه عن النسخ التي اعتمدها في « رسائل الانتقاد » مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٠٥

ان نشره في مجلة المقتبس تحت اسم « رسائل الانتقاد » وقد خيل لحضرته ان رسائل الانتقاد هذه غير اعلام الكلام ، كما اشار بذلك في مقدمته « (١٠٢) ويحدثنا الدكتور ياغي عن رسالة اعلام الكلام وانها هي بعينها « رسائل الانتقاد » كما انها تسمى ايضا « مقامة عن الشعراء » فيقول : « اعلام الكلام نشرها الخانجي وهي هي رسائل الانتقاد » ، كما هي في الاسكوريال برقم ٥٣٦ وعليها اسم « مقامة عن الشعراء » وقد صورتها الى الجامعة العربية ، وبينها وبين نسخة الخانجي بعض الاختلافات القليلة « (١٠٣) وهكذا نرى ان « اعلام الكلام » و « رسالة الانتقاد » و « مقامة عن الشعراء » كلها أسماء أطلقت على كتاب واحد ومسمى واحد .

وتكاد هذه الرسالة تكون هي الاثر الوحيد الذي وصل الينا من مصنفات ابن شرف وآثاره التي امتدت اليها يد الضياع ، وقد كتبها بأسلوب السجع المعروف في المقامات ، وأثقلها بالمحسنات البديعية ، واتخذ لها شخصا خاليا دعاه (أبا الريان الصلت بن السكن) وتحدث على لسان هذا الشخص الخيالي أو البطل عن مشاهير الشعراء القدامى والمحدثين فوصف كل واحد باختصار ، وعرض لزياده وعيوبه في ايجاز ، وأغفل المضمورين منهم والمجاهيل ولم يشر اليهم ، ويقول باقوت : « وهي على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهلية

والاسلام » (١٠٤) ويحدثنا عنها ابن بسام بقوله : « ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابيه وصب فيها على قلبه ، منها مقامة فيها بعض طول لكنه غير مملول ، آخذة بطرف مستطرف من اخبار الادباء وذكر الشعر والشعراء » (١٠٥) ويقول احمد امين : « كما وضع ابن شرف كتابه (اعلام الكلام) وموضوعه مقامة طويلة كمقامات الحريري ، تعرض بطلها لمشهورى الشعراء من المتقدمين والمحدثين يصفه في قول قصير ، ويبين مزاياه وعيوبه في ايجاز » (١٠٦) ويقول حسن حسنى : « وهي من اجمل ما وضع الواضعون في هذا الفن الجليل الذي كاد ان يكون مفقودا في التصانيف العربية » (١٠٧) كما ذهب في مقدمته لها الى انه يبدو ان ابن شرف كان يهدف من ورائها الى معارضة كتاب « العمدة » لابن رشيق وانها ربما كانت اطول مما وجدته وحققه ونشره ، وقد استند في رايه هذا الى ما جاء في سياق كلام ابن شرف في مقدمته للمجلس الاول يقول حسن حسنى : « ويلوح لى ان مؤلفنا قصد بتدوين هذه الرسائل معارضة كتاب « العمدة » الا ان الرسائل المعارض بها كانت اطول واكثر مما وجدناه وأوردناه هنا يؤيد ذلك ما جاء في سياق كلام ابن شرف في مقدمته للمجلس الاول حيث يقول : « فاقمت من هذا النحو عشرين حديثا » فالظنون انه يقصد بالحديث مجالسه مع الاستاذ الموهوم الذي سماه « أبا الريان » كما اختلق الحريري في مقاماته شخص

(١٠٢) انظر مقدمة رسالة اعلام الكلام ، ومن ذهب من المحدثين الى ان رسالة « اعلام الكلام » كتاب آخر غير « رسائل الانتقاد » حسن حسنى حيث يقول وهو يصند عرض مؤلفات ابن شرف : « لومنها كتاب « اعلام الكلام » به نخب وملح مفقود ايضا ، ثم رسائل الانتقاد ، والظنون انه ألفها بعد هجرته القطر التونسي كما يستفاد من سياق كلامه في مقدمتها » مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ - ٣٥٥ وانظر رسائل البلفاء : ٣٠٦

(١٠٣) حياة التبروان وموقف ابن رشيق منها : ٢٠٥

(١٠٤) معجم الادباء ١٩ : ٤٣

(١٠٥) اللخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٥٢

(١٠٦) ظهر الاسلام : ١ : ٨ : ٢٠٨

(١٠٧) بساط المتيق : ٥١

على التهاون بما أنشدت له ، فان ذلك جور في الاحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما ، فحينئذ تحكم لهما أو عليها» (١١١) ثم يقول : « وقد وصف تعالى في كتابه الصادق تثبيت القلوب بسيرة القديم ، ونفارها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم « انا وجدنا آباءنا على أمة » وقال تعالى « لن نعبد الا ما وجدنا عليه آباءنا ... » فلا يرعك ان تجرى الحق في جميع الخلق ، فيه قامت السماوات والارض ، وبه احكم الابرام والنقض ، وسامثل لك في هذا أمثالا ، وأملا اسمعك مقالا ، وفهمك مدلا واعتدالا ، هذا امرؤ القيس أقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم شعرا وذكرنا ، وقو السمت الاقوال في فضله اتساعا لم يغز غيره بمثله ، حتى ان العامة تظن بل توقن ان جواد شعره لا يكبوا ، وان حسام نظمه لا ينبو وهيهات من البشر الكمال ، ومن الأدبيين الاستواء ، والاعتدال» (١١٢) ثم يمضى يعدد على بعض الشعراء القدامى كثيرا من السقطات والهفات ، وينمى عليهم ما وقعوا فيه من اخطاء وعيوب ويجرحهم ، ويشهر بهم بادئا بامرئ القيس اقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم ذكرا وشعرا ويرى انه كسائر الشعراء لا يخلو من العيوب ولا يسلّم من الهفات والمآخذ ، ثم يعرض لطائفة من عيوبه وسفاسف شعره وساقطه .

واذا كان ابن شرف يحدثنا عن القدامى والمحدثين كما رأينا في النص السابق ايراده من هذه الرسالة الذي حمل فيه على مقاييس الرواة وعلماء اللغة في تفضيلهم القديم لجرد قلمه وسبق الزمن بصاحبه ، فائنا نجد ابن

الحارث بن همام واخترع الهمداني عيسى بن هشام ، فعسى ان يساعدني الحظ بالعثور على بقية هذا التأليف النفيس ان كان في عالم الموجودات » (١٠٨) .

هذه هي رسالة اعلام الكلام واقوال العلماء القدامى والمحدثين فيها وفي موضوعها ويجدر بنا قبل أن نتحدث عنها أن نقارن بينها وبين « كتاب العمدة » ورسالة قراضة الذهب لابن رشيق .

واذا قارنا بين رسالة « اعلام الكلام » لابن شرف ، والعمدة ورسالة قراضة الذهب لابن رشيق وجدنا تشابها بينهما في كثير من الموضوعات ، فابن شرف مثلا يقول عن ابن الرومي : « وأما ابن الرومي فشجرة الاختراع وثمرة الابتداع ، وله في الهجاء ما ليس له في الاطراء فتح فيه أبوابا ، ووصل منه أسبابا ، وخلع منه اثوابا وطوقه رقابا» (١٠٩) ويقول ابن رشيق « وكان ابن الرومي ضنينا بالمعاني ، حريصا عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه في كل وجه الى كل ناحية ، حتى يميتته ، ويعلم انه لا مطمع فيه لاحد » (١١٠) ونرى ابن شرف في الرسالة يحدثنا عن الشعراء القدامى والمحدثين ويحمل على اتجاه الرواة وعلماء اللغة ومقاييسهم في تقسيمهم للشعراء الى طبقات ، وتفضيلهم القديم لمجد قدمه وسبق الزمن بصاحبه حيث يقول : « وتحفظ من شيئين : أحدهما أن يحملك اجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له ، والثاني : أن يحملك اصفارك المعاصر المشهور

(١٠٨) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥١

(١١٠) العمدة ٢ : ٢٣٦ - ٢٢٧

(١٠٩) اعلام الكلام : ٢٤

(١١١) اعلام الكلام : ٢٨

(١١٢) اعلام الكلام : ٢٨

رشيق يعقد لهم بابا مستقلا وقائما بلذاته
في كتابه العمدة بعنوان « القدماء والمحدثين » .

واذا كان ابن شرف يحدثنا في رسالته عن
امريء القيس، ويذكر انه « مؤسس الاساس،
وبنيانه عليه الناس، كانوا يقولون : أسيلة
الخد ، حتى قال امرؤ القيس : أسيلة
مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة
وطويلة القامة واشباه هذا وجيداء ، وتامة
العنق ، حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة
مهورى القرط » وكانوا يقولون في الفرس
السابق يلحق العزال ، ويسبق الظلام ، أو
الظليم ، وامثال هذا ، حتى قال : بمنجرد
قيد الاوابد هيكل » ومثل هذا له كثير (١١٣)
فاننا نرى ابن رشيق يحدثنا في رسالته
« قراضة الذهب » عن امرئ القيس بقوله :
« وانا اقتصر من جميع الشعراء في أكثر ما أورده
على امرئ القيس ، لانه المقدم لا محالة ،
وان وقع في ذلك بعض الخلاف فالميز الحاذق
بطرق البلاغة يجد لكلامه من الفضيلة في
نفسه ما لا يجده لغيره من كلام الشعراء ،
والبحث والتفتيش يزبدانه جلاله ، ويوجبان
له على ما سواه مزية ، ويشهد الطبع وذوق
الفطرة شهادة بينة واضحة لا تدركها شبهة
اذا قصد الانسان العدل ، وترك التعصب
وأول ما أبدا من ذلك ما كان من جهة الاستعارة
كقوله : « بمنجرد قيد الاوابد هيكل » فانه
أول من قيدها ، وسبق الى الاستعارة
البديعة فاتبعه الناس (١١٤) فهل لنا بعد
هذه المقارنة بين اعلام الكلام لابن شرف ،
وقراضة الذهب والعمدة لابن رشيق التي
أوردنا اطرافا منها أن نقول : أن أحدهما

تأثر بصاحبه ، وتأسى به ، أو نقول : أن
اتفاقهما وتشابههما هو مجرد توارد خواطر
كالدى رأينا في الاشعار التي حملها عليهما
المعز بن باديس ، ودفعهما اليها دفعا مثل
اشعارهما في صفة الموز أو في وصف شعر
السوق .

وقد بدا لي بعد كل هذا أن أستنتج أن
ابن رشيق أخذ من ابن شرف ، وأميل
الى انه تأسى به ، وأرجح انه تأثر به خاصة
اننا نجد ابن شرف يستهل رسالته، ويفتحها
بقوله : « هذه احاديث صفتها مختلفة الانواع،
مؤلفة في الاسماع ، عريبات المواشم غريبات
التراجم ، وعزوتها الى ابي الريان الصلت بن
السكن من سلامان ، وكان شيخا هما في
اللسان ، وبدرهما في البيان ، قد بقي
احقبا ، ولقى اعقابا ، ثم القته اليها من ياديته
الازمات واوردته علينا العزمات فامتحنا من
علمه بحرا جاريا ، من فهمه زندا
واريا ، وادركنا من بره طرفا ، واجتينا من
ثمره طرفا ، ونحن اذ ذلك والشباب مقتبل ،
وغفلة الزمان تهتبل (١١٥) ... » فابن شرف
يصرح في هذا النص انه كتب هذه الرسالة في
مقتبل الشباب وصدره ، واذا عرفنا أن ابن
شرف ولد في سنة ٣٩٠ هـ كان لنا أن نزع
انه انما بين سنتي ٤١٠ هـ و ٤٢٠ هـ أي في
العقد الثالث من عمره في مقتبل الشباب وشرخه
وصدره ، فاذا أضفنا الى ذلك انه يمكننا أن
نقول : أن ابن رشيق ألف كتابه « العمدة »
في الفترة ما بين سنتي ٤١٢ هـ و ٤٢٥ هـ لاننا
نجد يورد خبر هجاء دعل بن علي الخزاعي
للمعتصم وهروبه من وجهه ، فارا بمهجته

(١١٣) اعلام الكلام : ١١٦

(١١٤) قراضة الذهب تحقيق الشاذلي بو يحيى ط تونس سنة ١٩٧٢ م ص ٢٠ - ٢١ .

(١١٥) اعلام الكلام : ١٣

(١١٦) العمدة ١ : ٥٧

عصره ، فيهدى كتابه الى ابن ابي الرجال ، وأن يسرف في مدحه ، ويغالي في اطرائه شأنه شأن غيره معن هم على شاكلته من الادباء والكتاب حتى يقول : « ولم أرسم كتابي هذا باسم السيد زاده الله تعالى سموا لكون كجالب النمر الى هجر ، ومهدى الوشى الى عدن ، ولكن تزينا باسمه الشريف وذكره الطيب : واستسلما بين علمه الطائل وأدبه الكامل ... (١١٨) فاذا عرفنا أن ابن ابي الرجال هذا الذي اهداه ابن رشيق كتابه « العمدة » توفي سنة ٤٢٥ هـ فان من القطوع به ان يكون هذا الكتاب قد تم تأليفه قبل هذا التاريخ ، وعلى هذا يكون ما ذهبنا اليه ، وافترضناه من أن ابن رشيق أخذ من رسالة اعلام الكلام لابن شرف ، وافاد منها ، وتأثر بها امر جائز يقبله العقل ، ولا يحيله ، ولا يمنع من ذلك أن ينفي ابن رشيق عن نفسه في كتابه العمدة تهمة الاخذ من بعض معاصريه ، وذلك انه حين ألف كتابه العمدة ، وأخرجه للناس يبدو أنه ظفر بأعجاب الجمهور ، وأصاب الحظوة عندهم الامر الذي أوغر صدور خصومه فنالوا من الكتاب ، وانتقصوا من قدره ، وبخسوه حقه ، وتقموا على صاحبه ، وغبطوه حقه ، وادعوا عليه الاخذ والاتحال والسرقة ، فقال معرضا بهم في بداية باب التضمين والاجازة : « وهذا باب يختلط على كثير من الشعراء معن ليس له ثقب في العلم ولا حلق بالصناعة كجماعة ممن وسم في بلدنا بالمعرفة ، وينسب اليها مكلوبا عليه فيها ، كاذبا فيما ادعاه منها ، ولتعرفهم في لحسن القول » (١١٩) كما يعرض بهم في موضع آخر حيث يقول : « وكم في بلدنا هذا من الحفلات

منه ، بعد أن طلبه المعتصم ونلدر دمه ، وإبعاده في الهرب حتى أدركته منيهة ، وحمل قضاؤه بالمغرب بزويلة بنى الخطاب حيث دفن الى جوار قبر عبدالله ابن شيخه القزاز حيث يقول : « والى جانبه قبر عبد الله بن شيخنا أبي عبد الله محمد بن جعفر النحوي رحمه الله » (١١٦) فهو يذكر قبر ابن شيخه القزاز ، ويقرن اسم شيخه بقوله : « رحمه الله » فاذا ذهبنا الى أن الدعاء بالرحمة انما هو لشيخه القزاز وأنه كان قد توفي اثناء كتابة تلميلة ابن رشيق قصة دعبل وخبره مع المعتصم أمكننا أن نقول : أن ابن رشيق ابتداء تأليف كتابه هذا في سنة ٤١٢ هـ وهناك قرينة ثانية تدل على أن هذا الكتاب ألف في الفترة آتفة الذكر ، وهي أن أول ما يطالعنا من هذا الكتاب أن ابن رشيق يرفعه الى ابن الحسن على بن أبي الرجال رئيس ديوان انشاء المعز بن باديس ، ويهديه اياه ، فيقول : « السيد الامجد والفد الاوحد حسنة الدنيا وعلم العليا وباني المكارم وأبي المظالم رجل الخطب وفارس الكتب أبي الحسن على ابن ابي الرجال الكاتب زعيم الكرم وواحد الفهم ، الذي نال الرياسة وحاز السياسة » (١١٧) ولم يكن ابن رشيق في صنيعة هذا ، واهدائه كتابه الى ابن أبي الرجال بدعا من المؤلفين والمصنفين وانما كان يجري على سنة العصر الذي عاش فيه ، فقد جرت عادة العلماء والادباء حينئذ ان يرفعوا كتبهم ومصنفاتهم الى الامراء والوزراء وكبار رجالات الدولة ، ويهدونها اليهم ابتغاء للمثوبة والمنفعة ، والتماسا لجزيل عطائهم ونوالهم وصلاتهم وطلبا للشهرة وذبوع الصيت فلا على أن ابن رشيق ان يجري على سنة

(١١٧) العمدة ١ : ٢

(١١٨) العمدة ١ : ٥

(١١٩) العمدة ٢ : ٨٠

خرجت به الى الاوهام سبقا
وقل له عن الوهم الخروج
الى الملك المعز ابي تميم
امر بمن سواه فلا اعيج

فابن رشيق يحدثنا عن هذه الابيات بقوله : « ومن قصيدة صنعتها بديهة بالمهدية ساعة وصولي اليه - ادام الله عزه - عن اقتراح بعض شعراء وقتنا هذا » (١٢٢) ، فاليمين يرى ان ابن رشيق انما ذهب الى المهدية ، ولحق بالمعز بن باديس بها بعد خراب القيروان على ايدى الاعراب سنة ٤٤٩ هـ وهى سنة جلاء المعز عن القيروان الى المهدية ، ولنا ان نسائل الميمنى وان تناقشه فيما ذهب اليه ، فمن ذا الذى زعم او قال : ان المعز بن باديس لم يذهب قط الى المهدية الا فى سنة ٤٤٩ هـ بعد خراب القيروان ؟ ومن يستطيع ان ينكر ان المعز قد ذهب اليها ، وزارها قبل هذا التاريخ اثناء ازدهار ملكه لتفقد احوال رعيته فيها ، ليست احدى المدن الكبار الواقعة فى نطاق دولته ؟ اليس المعز قد ولى عليها ابنه تميم ، وعهد اليه بامرها ؟ ثم الم يحدثنا المؤرخون القدامى والمحدثون ان المعز كان بالمهدية فى صحبة جده يوم مات ابوه باديس ، وانه ولى الملك ، وآلت اليه الامارة وهو بها سنة ٤٠٦ هـ ؟ على ما يحدثنا ابن ابي دينار حيث يقول عن وفاة باديس : « فادركه اجله على مدينة المحمدية آخر ليلة من ذى القعدة سنة ست وأربعمائة ، فكنتم اكابر دولته موته ، وتشاوروا فيما بينهم ، فانفق رأيهم على تولية ولده المعز وكان صغيرا اذ ذاك لم يبلغ عشر سنين ، فجعلوا باديس فى تابوت وأوصلوه الى المهدية

قد صاروا ثعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين » ان البغاث فى أرضنا يستنسر ، ولولا ان يعرفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم فى هذا الكتاب ، ويدخلوا فى جملة من يعدخله ، ويحصى زلله للذكرت من لحن كل واحد منهم وتصحيفه وفساد معانيه وركاكة لفظه مايدلك على مرتبته من هذه الصناعة التى ادعوها باطلا ، وانتسبوا اليها انتحالا ، وقد بلفنى ان بعض من لا يتورع عن كذب ، ولا يستحي من فضيحة زعم انى اخذت مسائل من هذا الكتاب لو سئل عنها الان ما علمها » (١٢٠) وربما كان يقصد بمن لا يتورع عن الكذب ، ولا يستحي من الفضيحة ابن شرف القيروانى قريعه وغريمه ومناقسه فى بلاط المعز بن باديس .

وقد ذهب حسن حسنى الى قريب مما ذهبننا اليه ، فقد ذكر ان ابن رشيق الف كتابه « العمدة » فى حدود سنة ٤٣٠ هـ او قبلها بقليل حيث يقول : « واشهر تأليف لابن رشيق فى الادب هى كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده الفها فى حدود سنة ٤٣٠ هـ او قبلها ببسر » (١٢١) وانه لمن الفريب حقا ان يذهب الميمنى الى ان ابن رشيق الف هذا الكتاب بعد سنة ٤٤٩ هـ معتمدا فى ذلك على خبر ابيات لابن رشيق وردت فى هذا الكتاب وهى :

وذلك له رجل طحون
لما نزلت به ويد زوج
يطير بأربع لا عيب فيها
لظهران الصفا منها عجيج

(١٢٠) العمدة ٢ : ٢٢٨

(١٢١) بساط العقيق : ٨٧

(١٢٢) العمدة ١ : ٢٠٣

على ارجح الروايات ، فكيف نستسيخ أو نتقبل أن يسلم ابن رشيق من عمره ستين عاما ، وأن يقضى حياته الا اقلها لا يؤلف شيئا ، حتى اذا ما أصبح في خريف العمر ، وغدا شيخا هرما ، واضطربت أمور الدولة ، والثالث احوال الرعية ، وحدثت مأساة سقوط القيروان في أيدي الاعراب ، وأزعج عن حرمة الأمن ، وأجلى عنه مرغما ، ونزح الى المهديّة على كره منه ، راح يكتب وأخذ يؤلف مثل هذا الكتاب ، والميمنى نفسه يقول عنه « ولكن لما انتقل المعز من سبيل اعراب مصر الى المهديّة ، وتبعه صاحبنا ، طاس فكره ونال رايه ، فكان يمتعض من أدنى فلتة ، ويجه على أحقر بادرة ، ويسوء الظن بصديقه الوفي وصاحبه الحفي ، فارتحل الى صقلية وهو كاره .. مع انها لم تكن احسن حالا من افريقية » (١٢٤) فشيوخ هرم مثل ابن رشيق هذه حاله ونفسه وتلك ظروفه يزعم عن حرمة الأمن ، ويجلو عن موطنه القيروان مرغما ، ويلدرف على ضياعه دموعا صادقة ، ويصور لنا مأساته أروع تصوير وأصدق في مراثيه من أصدق شعر ابن رشيق عاطفة وأعمقه اثرا في النفس ، ثم يعاني في هذه السن الآلام الوحشة والاغتراب ويتجورع مرارة نبو المعز عنه ، وجفوته له ، لا يمكنه بحال من الاحوال ان يؤلف مثل هذا الكتاب في ذلك الحين ، وإنما المستساغ والمقبول والاقرب الى الصواب ان يكون قد الفه قبل ذلك في

وكان ولده المعز بها خرجت به جدته للنزاهة وجعلتها حرزا لاموالها ، لما كانت ترى من الفتنة في دولة ولدها باديس» (١٢٣) .

على ان قصة هذه الابيات التي اعتمد عليها الميمنى في تحديد زمن تأليف كتاب «العمدة» وردت برواية أخرى في النسخة الخطية أقدم نسخ الكتاب تقول هذه الرواية : « قبل وصولي اليها » فهو يصرح فيها انه قال هذا الشعر قبل ان تتصل اسبابه بأسباب المعز بن باديس ، وينخرط في سلك خدمته ، ويصطنعه المعز ، ويصطفيه لنفسه ، ويصبح شاعر بلاطه المقدم عنده الاثير لديه ، وليس ادل على ذلك من انه قال هذا الشعر عن اقتراح أحد شعراء الوقت ، ولو كان قد قاله بعد سنة ٤٤٩ هـ - كما ذهب الميمنى - ما كان بحاجة الى اقتراح غيره عليه أن يقول شعرا وانما يكون الاقتراح قبل أن يصل حبله بحبل المعز ، فيدفعه المقترح الى أن يقول شعرا في هذا الغرض او ذلك ، وبدا يكون الزمن الذي حددناه لتأليف الكتاب اقرب الى الصحة والصواب ، ولا يكون ابن رشيق الفه بعد سنة ٤٤٩ هـ بحال من الاحوال كما ذهب الميمنى .

على اننا لو تركنا هذا الموضوع جانبا ، ونظرنا الى سن ابن رشيق حين رحل الى المهديّة ولحق بالمعز بن باديس بها سنة ٤٤٩ هـ لرأينا انه قد ناهز الستين اذ انه ولد سنة ٣٩٠ هـ

(١٢٣) المؤنس : ٧٩ - ٨٠ وفي بساط العقيق : ٤٢ : « ولما اندركت المنية والده باديس آخر ليلة من ذي القعدة سنة ٤٠٦ هـ بمدينة الحمديّة ، تفاوض مديرو الدولة بينهم ، فاتفقوا عليهم على تولية المعز ، وكان وقتئذ في التنزه صحبة جدته بالمهديّة » ويظهر من كلام ابن عذارى ان المعز كان في صحبة عمته أم ملال عند توليه الإمارة بالمهديّة ، وليس لي صحبة جدته انظر البيان المغرب ١ : ٢٨٦ وقد ذهب الى ذلك احمد بن عامر في كتابه « الدولة الصنهاجية » حيث يقول عن أم ملال : « وهي سيدة بنت الأمير المنصور وشقيقة الأمير باديس نشأت ودرجت في كتف والدها وألحيا ، واشتهرت برجاعة العقل وسعة التفكير ولقب الراي وعلو الثقافة ... وبذلك تاهلت لأن تتخبط وصية على ابنه الأمير المعز الذي ولي الإمارة وعمره ثمانية اموام .. » الدولة الصنهاجية : ٦٢ - ٦٣ وذكر ابن الأثير ان ولاية المعز كانت بالمهديّة ، ولم يشر الى وصاية عمته عليه حيث يقول : « ووصلوا الى المهديّة ، والمعز بها لامن الحرم ، فركب المعز ووقف حبيب يطمئه بهم ، ويذكرهم اسماءهم ، ويعرفه بقواهم وأكابرهم ، فرحل المعز من المهديّة ، فوصل الى المنصورة منتصفا الحرم » التكميل ٩ : ٩٥

شرح شبابه ومقبل عمره ، والدنيا عليه مقبلة والسلطان عنه راضى ، والظروف مهيأة له ومتاحة ، والزمان موات له ومساعد ، ومن العجيب ان الميمنى يقرر بعد ذلك ان ابن رشيق سنة ٤٤٩ هـ كان فى عهد هرمه وشيوخه ، وأنه لم يصنف فيه شيئا جديرا بالذكر حيث يقول : « ان هذا العهد كان عهد هرمه وهمومه ، وأنه لم يعمل فيه عملا يصلح للذكر اصلا ، أو على ما بلغنا » (١٢٥)

فهل لنا بعد كل هذا ان نركن الى ما ذهبنا اليه ، وافترضناه ، واستنتجناه من أن ابن رشيق اخذ من ابن شرف ، وتأثر به ، وكان من الممكن ان نظمنا الى ما انتهينا اليه لولا أننا رأينا ابن شرف يورد فى مقدمة رسالته ما ينقض كل ما افترضناه واستنتجناه وذهبنا اليه ، ويأتى عليه من القواعد ، ويجعلنا لانظمنا الى ما انتهينا اليه حيث يقول « ولعمري ما أشكر من نفسي ، ولا أثنى على شيء من حسى الا ظفري بالآقل مما حاولته ، على ما أضرمته نيران الغربة من قولى ، وثلمته صفقات الفتنة من لبي ، وقطعت أهوال البر والبحر من خواطرى ، وأضعفت الوحشة والوحدة من غرائزى وبصائرى » (١٢٦) فهذا النص يدل على أن الرسالة كتبت بعد معاناة أهوال في البر والبحر ، وبعد غربة وفتنة ، وليست هناك الا فتنة سقوط القيروان التي هزته ، فخلد مأساتها فى عدة قصائد تعد من عيون شعر رثاء المدن ، هذا اللون الذى شاع

فى الاندلس والمغرب العربى قبل أن يعرفه المشارقة ولا تكاد نعرف الا غربته فى صقلية ، ثم الغربة والوحدة فى الاندلس كما سبق أن بينا ، وإذا كان الامر كذلك وكانت كتابة الرسالة بعد هذا كله فلا يمكننا أن نزع من ابن رشيق تأثر بابن شرف أو اخذ عنه لا فى (العمدة) ولا فى (قراضة الذهب) ، ولعل هذا النص هو الذى دفع حسن حسنى الى أن يرجح أن ابن شرف الف هذه الرسالة بعد هجرته من القطر التونسى حيث يقول وهو بصدد تعداد مصنفات ابن شرف : « ثم رسائل الانتقاد ، والمظنون أنه ألفها بعد هجرته القطر التونسى كما يستفاد من سياق كلامه فى مقدمتها » (١٢٧) .

ومن هنا نرى أنه لم يكذب يصل إلينا من مؤلفات ابن شرف الكثيرة التى يقول فيها ابن بسام : « ولأبى عبدالله عدة تواليف أفاضها بحارا ، وأطلعها شحموسا وأقمارا » (١٢٨) والتى يحدثننا عنها حسن حسنى بقوله : « أما تاليف ابن شرف فكثيرة على ما نقله إلينا المؤرخون سوى رسالته أعلام الكلام » (١٢٩) أما باقى مؤلفاته فقد فقدت ، وامتدت إليها يد الضياع ، الا أنه ينبغى أن نشير هنا الى أنه توجد آثار من نثره وشعره ماثورة فى ثنايا كتب الادب ، ولا سيما (الأخيرة) لابن بسام ، فقد احتفظ لنا فيها بجملة صالحة من آثاره تكفى لإبراز قيمتها ، وأورد لنا طائفة كبيرة من نثره وشعره ، وبسط القول فى اخباره الادبية وأفاض فيها حتى كسر عليها ما يزيد عن خمسين صفحة ، فمن نثره الذى

(١٢٥) ابن رشيق : ٦٧

(١٢٦) رسالة اعلام الكلام : ١٤

(١٢٧) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ - ٢٥٥ وانظر رسائل اليلفاء : ٣٠٦

(١٢٨) الأخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٢٤ .

(١٢٩) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ وانظر رسائل اليلفاء : ٣٠٦ وقد عد اليلفادى ضمن مؤلفات ابن شرف حجج النصح وسر البر ، ولا ندرى شيئا عن موضوع هذين الكتابين ولا المصادر التى استقى منها إذ اكتفى بذكرهما دون أن يشير الى موضوعهما ولا الى المصادر التى اعتمدها فى هذين الكتابين .

أورده ابن بسام رسائله إلى المعتضد التي خاطب في أحداها وزيره ابن زيدون ، وفصل من رسالة بعث بها إلى المظفر بن الأفتس ، وفصول من النثر في مختلف المعاني وشتى الموضوعات ، ثم ختمها بقصة قصيرة سماها مقامة ، وقد التزم السجع ، وكلف بالمحسنات بالبديعة في كل كتاباته ، فاثقل نثره بالمحسنات البدئية ، وأسرف في استعمالها ، وغالى في تزوين اللفاظ وتزويق العبارات ، وحشد فيها كل ما يستطيع أن يأتى به من تلك المحسنات حتى أننا لانكاد نجد عبارة واحدة لا تثقلها المحسنات ، وقد كان هذا شأنه في كل ما اثر لنا عنه من نثر سواء أكان نثرا انشائيا صرفا كالرسائل والفصول التي أوردها ابن بسام ، وتحديثا عنها آنفا ، أم كان نثرا تناول فيه الأبحاث الأدبية مثل رسالته «أعلام الكلام» تلك الرسالة الوحيدة التي وصلت إلينا من بين مؤلفاته ، والتي تناول فيها الشعراء بالنقد ، فقد حشد فيها كل المحسنات البدئية ، وكلف بالسجع الركيك . واحتفل به ، والتزمه من أول الرسالة إلى آخرها كما أولع بالالفاظ الغريبة ، حتى كادت الأفكار والاحكام العامة الخالية من الضبط ، والتحليل المشتملة عليها هذه الرسالة تضيق في أمواج السجع والالفاظ الغريبة ، وتغيب في خضم الصنعة المفرطة المغالى فيها ، فهو يعرض فيها للشعر والشعراء ومنازلهم في الجاهلية والافتساح ، ويبين رأيه فيهم وموقفه منهم سالكا في ذلك سبيل المقامات .

والمستخدما أسلوبها ، فعنى بتزوين الالفاظ واهتم بتزويق العبارات ، وكلف بالسجع ، واحتفل بالمحسنات والصنعة ، حتى أنك لانكاد تجد عبارة واحدة في هذه الرسالة لا تنوء بأثقال المحسنات البدئية والصنعة المفرطة المغالى فيها .

أما الأشعار التي أوردها ابن بسام فهي في موضوعات شتى منها المقطوعة الطريفة التي خاطب فيها المعتضد ، وبعث بها إليه

بعد خطوب خطبت مهجتي
وكان وشك البين أمهلها
ذا كبد أفلاذها حولها
قسمت الغربة أعضائها
أطفال ما سمعت بالفلأ
قط فعانيت الفلأ دارها
ولا رات أبصارها شاطئا
ثم جلت بالبحر أبصارها
وكانت الاستار آفاقها
فعادت الأفاق أسفلها
ولم تكن تعلو سريرا علا
إلا إذا وافق مقبلها
ثم علت كل عثور الخطأ
ترسى بها الأرض وأحجلها
ولم تكن تلحظها مقلة
لو كحلت بالشمس أسفلها
فأصبحت لا تتقي لحظة
إلا بأن تجمع أطلالها

الفضة من صعاب في الصحارى والقفار وعلى
متون البحار فرارا بأنفسهم من عسف الأعراب
وعنتهم وأذاتهم .

يقول ابن شرف :

كانسى وأفراخي اذا الليل جننا
وبات الكرى يجفو جفونا ويطرق
حمائم أضللن الوكور فضمها
تجانسها حتى تراءى المفرق (١٣١)

الى آخر هذه المقطوعة التى سبق ان
أوردناها عند حديثنا عن أسرته . ومن أشعاره
قصيدة يندب فيها القيروان ، ويبكى فيها
وطنه الضائع ، ويدرف على ضياعه دموعا
صادقة ويسترجع ذكرياته بالقيروان فى مرارة
واسى وحسرة ولوعة ، ويتشوق حياته الماضية
بها، وعموده السالفة فى ربوعها ومغانها فيقول:

ياقيروان وددت انسى طائسر
فأراك رؤية طائسر متأمل
أها واية آهة تشفى جوى
قلب بنيران الصاباة مصطلى
أبدت مفاتيح الفيوب عجائبا
كانت كوامن تحت غيب مقفل
زعموا ابن آوى فيك يعوى والصدى
بذراك يصرخ كالحزين المتكسر
يا بيد روضة والشوارع حولها
مغمورة أبدا تفص وتمتلى
يا أربعى في القطب منها كيف لى
ببعاد يوم فيك لى ومن أين لى

وفى البيت الخامس من هذه المقطوعة قد
ملحح يقول ابن بسام معلقا على هذه المقطوعة
« قوله » وكانت الاستار آفاقها « من الكلام
الفصيح والقلب المليح ، ويشبه منحاه وان لم
يكن فى معناه قول الأول :

فرد شعورهن السود بيضا
ورد وجوههن البيض سودا

وكقول الآخر :

ندبتى جارية ساقية

ونزهتى ساقية جارية (١٣٠)

وقد بسط ابن شرف القول ، وأجاد كل
الاجادة فى تصوير نكبة القيروان حاضرة
أفريقية ، وما أصابها على أيدى الأعراب من
صنوف التخريب والتدمير ومالحق بأهلها
من ألوان العسف والاضطهاد ، وما حاق بهم
من فنون الأذى وضروب التعذيب ، ومالحق
بهم من الدلة والهوان ، وكان ابن شرف قد
أحسن للدع المصيبة وحرها ، وذاق مرارة
النكبة ، وتجرع غصص الكارثة فى نفسه وأهله
وولده ، وهزته المأساة وأزعجته عن حرمه
الأم، وعانى من ويلاتها ما عانى فانطقته بشعر
صورها فيه تصويرا دقيقا ، حتى انه قلما
نجد عند غيره من الشعراء من صور مأساة
القيروان مثل هذا التصوير الدقيق المتمثل،
ونحس مثل هذه اللمسات الحزينة التى تشيع
فى كل مرآته للقيروان ووصف مأساتها وماحل
بأهلها ، ومن ثم كانت مرآته ابن شرف
للقيروان ، وتصويره لمأساة سقوطها ، وماحل
بأهلها من أصدق الشعر عاطفة ، وأعمقه أثرا
فى النفوس وخاصة حين يصور حال أسرته
وأطفاله الصفار ، وما تجشموه فى هذه السن

وسفورهن من هول الكارثة وتبذلهن وامتهانهن ،
وما لقينه من أهوال وأخطار ، وما تجشمته من
صعاب بعد رغد عيشهن ، وتقلبهن في أعطاف
النعم مصونات ممتنعات .

ونود ان نشير هنا الى ان المغاربة قد كلفوا
بتقليد المشاركة ، وان ابن بسام قد أدرك ذلك ،
وأحسن تعلق بنى وطنه بالمشاركة ، وولوعهم
بتقليدهم ، والتأسي بهم ، فاحفظه ذلك ،
وأغضبه وأثار حميته ، فراح ينعى على قومه
تطلعهم الى المشرق وعلمائه وأدبائه ، وافتتاهم
بهم ، واحتفالهم بأثارهم ، وكلفهم بتقليدهم
والتأسي بهم حيث يقول : « ان أهل هذا
الافق أبو الا متابعة أهل المشرق يرجعون الى
أخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة ،
حتى لو نطق بتلك الافاق غراب ، أوطن بأقصى
الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنعا ،
وتلوا ذلك كتابا محكما ، ففاظنى منهم ذلك ،
وانفت مما هنالك غيرة لهذا الافق القريب ان
تعود بدوره أهلة وتصيح بحاره ثمادا مضمعة ،
وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان
واختص أهل المشرق بالاحسان » (١٣٣) .

اما في مجال الشعر فقد كان غاية ما يطمح
اليه أحد الشعراء المغاربة أو الأندلسيين وتصبوا
اليه نفسه أن يشبه بأحد شعراء المشرق ويلحق
به ، ويقرن اسمه باسمه ، فالتعالي يعجب
بأن دراج القسطل ، ولا يتجاوز في تعبيره عن
اعجابه به أن يشبهه بالمتنبى في المشرق ، ولا

يألو شهدت اذا رأيتك في الكرى
كيف ارتجاع صباى بعد تكلل
لاكثره الاحسان تنسى حسرة
هيهات تذهب علة بتعلل
واذا تجدد لى اخ ومنادم
جددت ذكر اخاء خل أول
لو كنت أعلم ان آخر عهدكم
يوم الرحيل فعلت مالم أفعل (١٣٢)

كما توجد مقطوعات من شعره في كل الكتب
التي ترجمت له مثل (معجم الأدباء) (والوافي
بالوفيات) و (المطرب) (معالم الايمان) ،
كما توجد آثار من شعره ونثره في ثنايا الكتب
الادبية الأخرى مثل (الفيت المسجم) ففيه
عدة مقطوعات من شعره ، كما توجد قطعة من
نثره في مدح الشطرنج وهذه القطعة موجودة
ايضا في (نزهة الجليس ومنية الأديب الانيس) .

ونستطيع ان نقول ان أجود اشعار ابن شرف
هى قصائده التي رثى فيها القيروان ووطنه الضائع
وبكائها فيها ، وندب أيامه بها ، واسترجع
ذكرياته فيها ، وصور حال أسرته وأطفاله
الصفار ، وما تجشموه من صعاب بعد ان
هزتهم المأساة وأزعجتهم الفتنة عن حرمهم
الامن ، وتلك التي صور فيها اجلاء العرب
لأهلها بعد ان روعوهم في حرمهم الامن ،
وأوقعوا بهم ، ووصف خروج نساء القيروان

(١٣٢) اللخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨١ - ١٨٢ وانظر معالم الايمان ١ : ١٥ مما اورد له الدباغ قصيدة يصف
فيها خلاة القيروان ، وجلالة أهلها عنها ، منها :

الا منزل فيه اتيس مغالط
فجلت من القفران والله غافر
الم لك قنعا في البلاد الكبار
سوى سائر او قاطن وهو سائر
القيمت سبور منهم وستائر

الا منزل فيه اتيس مغالط
تري سيات القيروان تعالمت
تراها اصيبت بالكبار وجنعا
ترحل منها قاطنوها فلا ترى
تكشفت الاستار منهم ودرعا

وانظر اللخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨٢ - ١٨٤

(١٣٣) اللخيرة القسم الاول المجلد الاول : ٢

« قوله (اى ابن دراج) :

فمن حرة حليت بالجلاء
وعلداء نصت بنص الزميل

ثم يتبع ذلك بقوله : « انتحى ابن شرف فيما وصف فتنة قيروانه منحى القسطل في شكوى زمانه ، والحديث عن الفتن ، فكائر البحر بوشل مشفوه ، وجارى الريح بكودن لافضل فيه » (١٣٦) الا انه ينبغي الا نطمئنا ابن شرف حقه في الشعر ، فهو يعد من الشعراء المقاربة المجيدين ، وشعره يمتاز بوضوح المعاني والافكار والدقة في الوصف وجزالة الالفاظ والتراكيب كما رأينا من اشعاره التى تناولناها وعرضنا لها .

هذه هي آثار ابن شرف التى فقدت وامتدت اليها يد الضياع ، والتى لم يبق لنا منها الا اثار منثورة في ثنايا الكتب ، وقد عرضنا لنشره وشعره حسبما استعفتنا النصوص ، ولنعرض لآرائه النقدية المتمثلة في رسالته « اعلام الكلام » .

آراؤه النقدية :

تتمثل آراء ابن شرف في النقد الادبي في رسالته « اعلام الكلام » تلك الرسالة التى ضمنها آراءه النقدية ، وبين فيها موقفه من كثير من القضايا الادبية التى كانت تشغل بال معاصريه ، وهى باهتمامها على عديد من القضايا النقدية ، واحاطتها بكثير من المسائل الادبية ربما تعد متنا في النقد الادبي .

يعدو ان يلحقه به فيقول : « وكان بصقع الاندلس كالمثني بصقع الشام » (١٣٤) ولم يكن ابن شرف بدعا من شعراء عصره من المغاربة في التعلق بالمشارقة والافتتان بهم ، فنراه ونحن نطالع الدخيرة لابن بسام مفتونا بالمتنبي ، كلفا بمجاراته ومعارضته ، وكأنى به وقد زهى بشاعريته ، واحس انه نظير للمتنبي ، وقرين له حتى حدثته نفسه ان يجاريه ويعارضه ، وسولت له ان يطاوله ويساميه ، يقول ابن بسام ان ابن شرف « قال يوما للمأمون بن ذى النون ايام خدمته اياه ، واستشفاه صباية عمره في ذراه ، وقد اجرأوا ذكر ابي الطيب ، فذهبوا في ثانيه كل مذهب : ان رأى المأمون - لافارق العزة والعلل - ان يشير الى اى قصيدة شاء من شعر ابي الطيب حتى اعارضه بقصيدة تنسى اسمه ، وتعفى رسمه فتثاقل ابن ذى النون عن جوابه علما بضيق جنبه ، واشفاقا من فضيحتة وانتشابه والى ابو عبد الله حتى اخرج ابن ذى النون واغراه ، فقال له : دونك قوله « لعينيك مايلقى الفؤاد وما لقي » فخلا بها ابن شرف اياما ، فوجد مركبها وعرا ، ومريرتها شذرا ، ولكنه أبلى عذرا ، وأرهق نفسه من امرها عسرا فما قام ولا قعد ، ولا حل ولا عقد » (١٣٥) .

كما يذكر ابن بسام في موضع اخر ان ابن الاشرف كان في وصفه نكبة القيروان ومأساتها متأسيا بابن دراج ، ومقلدا له ، ثم ينال منه ، ويغتمه حقه ، ويصفه بالقصور عن شأو ابن دراج كدابه دائما في التعصب لبنى وطنه وانتقاص من عداهم وغمط حقوقهم ، والفض من شأنهم ، حيث يقول مقارنا بين بيتين لابن شرف وابن دراج :

(١٣٤) البيت ٢ : ٢٠

(١٣٥) الدخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٤

(١٣٦) الدخيرة القسم الاول المجلد الاول : ٧٤ على ان ابن شرف كان معجبا بشعر ابن دراج وخاصة اشعاره التى قالها في محنته انظر اعلام الكلام : ٢٦

و دمنة) فاضافوا حكمه الى الطير الحوائث ، ونطقوا به على السنة الوحوش والبهائم ، لتعلق به شهوات الأحداث ، وتستعذب بشجرة الفاظ الحداث وقد نحا هذا النحو سهل بن هارون الكاتب في تأليفه كتاب « النمر والثعلب » وهو مشهور الحكايات بديع المراسلات ، مليح المكاتبات ، وزور ايضا بديع الزمان الحافظ الهمداني وهو الاستاذ أبو الفضل أحمد بن الحسين مقامات كان ينشئها بديها في اواخر مجالسه وينسبها الى راوية رواها له يسميه عيسى بن هشام ، وزعم أنه حدثه بها عن بليغ يسميه أبا الفتح الاسكندري ، وعددها فيما يزعم رواها عشرون مقامة ، الا انها لم تصل هذه العدة اليها ، وهي متضمنة معاني مختلفة ، ومبنية على معان شتى غير مؤلفة ، لينتفع بها من الكتاب والمحاضرين من صرفها من هزل الى جد ومن ضد الى ضد ، فأقمت من هذا النحو عشرين حديثا ، أرجو ان يتبين فضلها ، ولا تقتصر عما قبلها « (١٣٨) » .

ويحدثنا ابن خلكان عن بديع الزمان ومقاماته بقوله : « صاحب الرسائل الرائعة والمقامات الفائقة على منواله نسج الحريري مقاماته ، واحتذى حذوه ، واقتفى أثره ، واعترف في خطبته بفضله ، وأنه الذي ارشده الى سلوك ذلك المنهج » (١٣٩) .

وقد أقر الحريري لبديع الزمان بالفضل حيث يقول في خطبة المقامات : « فأشار من اشارته ، وطاعته غنم الى أن انشئ مقامات اتلو فيها تلو البديع ، وأن لم يدرك المطالع شأو الضليع » (١٤٠) .

وقد سبق أن عرضنا لها ، وبيننا آراء العلماء فيها ، ومواقفهم منها ، وقارنا بينها وبين قراصة الذهب والعمدة لابن رشيق ، وذكرنا أنه كتبها بأسلوب المقامات ، ذلك الأسلوب الملتزم للسجع ، والمنقل بالمحسنات البديعية ، والمتسم بتزيين الالفاظ وتزويق العبارات ، والحافل بحوشى الالفاظ وغريبها ، وأنه اتخذ لها شخصا خاليا أو بطلا دعاه أبا الريان الصلت بن السكن ، وتحدث على لسان بطله عن مشاهير الشعراء القدماء والمحدثين وأغفل المغمورين منهم وأهملهم ولم يشر اليهم .

وقد ابتدأ هذه الرسالة واستهلها بقوله : « هذه أحاديث صفتها مختلفة الأيوان مؤلفة في الاسماع ، عربيات المراسم ، غريبات التراجم ، واختلقت فيها أخبارا فصيحيات الكلام بديعات النظام لها مقاصد ظراف ، وأسانيد طراف ، يروق الصغير معناها ، والكبير مغزاها ، وعزوتها الى أبي الريان الصلت بن السكن من سلامان » (١٣٧) .

ثم يذكر انه لم يكن مبتدعا لهذه الاحاديث على غير مثال سابق ، ولم يكن سابقا الى اختراعها وابتكارها ، وإنما هو متبع لمن سبقه في امثالها ، وحاذ حذوهم وناسج على منوالهم ، ولا سيما بديع الزمان الهمداني في مقاماته التي بلغ عددها على ما يرويه الرواة في ذلك الحين عشرين مقامة ، وأن كان هذا العدد لم يكد يصل اليه فيقول : « واحتذيت فيما ذهبت اليه ، ووقع تعريضي عليه من بث هذه الاحاديث مارايت الاوائل قد ضمته في كتاب » (كلیلة

(١٣٧) رسالة اعلام الكلام : ١٢ وسلامان يفتح اوله مادليني شيبان على طريق مكة الى العراق ، وبه مات نوفل بن عبد مناف . معجم ما استمعتم ٣ : ٧٢٥ ويبدو أن ابن شرف اختار سلامان الذي هو منزل قبيلة شيبان اشارة بهذه القبيلة وتنويعا بشانها ، إذ ينسب اليها ولي نعمته ابو الحسن علي بن ابي الرجال الشيباني رئيس ديوان الانشاء في بلاط المعز بن باديس .

(١٣٨) رسالة اعلام الكلام : ١٢ - ١٤

(١٣٩) وفيات ١ : ١٠٩

(١٤٠) وفيات الاميان ٢ : ٢٢٨ وانظر مقدمة مقامات الحريري : ط الحلبي .

وخمسون مقامة قد ثبت منذ زمن طويل ، لان
الحريري عارض هذا العدد بمثله . (١٤٢)

وأبو الريان الصلت بن السكن الذي أجرى
ابن شرف على لسانه هذه الأحاديث إنما هو
رجل استعاره ، أو شخص جرده من نفسه ،
وانتزعه منها ، فكان ابن شرف يخاطب أبا الريان
هذا البطل المزعوم ويسأله ، وأبو الريان
يجيبه بما يعرفه عن كل شاعر إلا أنه قصر
حديثه على الشعراء المشهورين في العصور
الجاهلية والاسلامية ، وأغفل المجهل
والمغمورين منهم ، وأهملهم ولم يشر اليهم وعل
ذلك بعدم قدرته على استقصائهم ، والاحاطة
بهم ، ومن ثم اجتراً بالمشهورين وقصر حديثه
عليهم ، يقول ابن شرف : « وجاريت أبا الريان
في الشعر والشعراء ومنازلهم في جاهليتهم
واسلامهم ، واستكشفت عن مذهبه فيهم
ومذاهب طبقته في قديمهم وحديثهم فقال :
الشعراء أكثر من الاحصاء ، وأشعارهم أبعد
من شقة الاستقصاء فقلت : لا اعتك باكثر
من المشهورين ، ولا اذكر رايتك الا في المذكورين
مثل الضليل والقتيل ... » (١٤٣) ومضى
يسرد أسماء المشهورين من الجاهليين
والخضرمين والاسلاميين والمولدين ، كما سرد
أسماء طائفة من مشاهير شعراء الاندلس
والغرب مثل : احمد بن عبد ربه ، وابن هانيء
وابن دراج القسطلی وعلى بن العباس الابادي
التونسي ، حتى انتهى من سرد أسماء
المشهورين وتسميتهم طالبا من أبي الريان أن
يبين رأيه فيهم واحدا واحدا ، فأجابه أبو الريان
بقوله : « لقد سميت مشاهير وأبقيت الكثير .
قلت : بلى ولكن ما عندك فيمن سميت لك قال :

ومقامات بديع الزمان تبلغ أربعمائة مقامة
عارض بها احاديث ابن دريد على ما ذكره
الحصري في زهر الآداب حيث يقول : « ولما
رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الازدي
أغرب بأربعين حديثا ، وذكر أنه استنبطها من
ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره
وأبداها للابصار والبصائر ، وأهداها للأفكار
والضمان في معارض أعجمية والفاظ حوشية
فجاء أكثر ما أظهر تنبؤ عن قبوله الطباع ، ولا
ترفع له حجبها الاسماع ، وتوسع فيها اذ
صرف الفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب
متصرفة فعارضها بأربعمائة مقامة في الكدية
تلدوب طرفا ، وتقطر حسنا ، لا مناسبة بين
المقامتين لفظا ولا معنى ، وعطف مساجلتها
ووقف مناقلتها بين رجلين سمى أحدهما عيسى
بن هشام ، والآخر أبا الفتح الاسكندري
وجعلهما يتهاديان الدر ، ويتنافسان السحر في
معان تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ،
يتطلع منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل
لطيفة ، وربما أفرد أحدهما بالحكاية ، وخص
أحدهما بالرواية » (١٤١)

بيد أن المتداول منها الآن بين أيدينا احدي
وخمسون مقامة فقط ، ويقلب على الظن
أنه لم يصل الى افريقية في عصر ابن شرف
سوى عشرين منها ، ويقول بروكلمان : « بديع
الزمان يفتخر في احدي رسائله بأنه صنف
أربعمائة مقامة ، وطبيعي أنه لا ينبغي فهم
العدد هنا على معناه الحرفي ، فهذا محمد
بن شرف القيرواني المتوفى سنة ٤٦٥ هـ لم
يكذ يعرف في كتابه « اعلام الكلام » سوى
عشرين مقامة للبديع ، ولكن ينبغي أن يكون
عدد المقامات التي أثرت وبقيت لنا وهو احدي

(١٤١) زهر الآداب ١ : ٢٦١

(١٤٢) تاريخ الادب العربي ٢ : ١١٢ - ١١٤ وهو يقصد المائلة التقريبية فان عدد مقامات الحريري خمسون مقامة ،
ولقد اشار الحريري نفسه في مقدمته الى ذلك حيث يقول : « وانشأت على ما اعانيه من قريضة جامدة ولفظة خادمة ...
خمسین مقامة » مقدمة المقامات ص ٥

(١٤٣) رسالة اعلام الكلام : ١٤

شعراء بنى أمية ، ثم ذكر جملة من الشعراء المولدين ، ومضى يحدثنا عن تلامه ، وأتى بعدهم ، ثم ختم حديثه بالعرض لطائفة من شعراء المغرب والاندلس مثل : ابن عبد ربه وابن هانيء وابن دراج وابن على الأيادي حيث يقول : « هذا ما عندي في شعراء المشرق ، وقد سميت لى من متأخري شعراء المغرب من لعمرى لا يبعد عن معاصره ، ولا يقصر عن سابقة وأما ابن عبد ربه الاندلسي وأن بعدت عنا دياره فقد صاحبنا أشعاره .. (١٤٦) .

ومن الأمثلة التي أوردناها نجد أن أبا الريان كان يقف عند كل شاعر ليقدم ما عنده ، وما يعرفه ، ويقرر وضعه وما عرف به ويميز به ، ويبرز صفاته وخصائصه ومميزاته ، وما تفرّد به عما عداه .

وبعد أن أعجب بأحاديثه عن الشعراء المشهورين من الجاهليين إلى المولدين ، ومن المشاركة إلى المقاربة والتي أوردنا أطرافاً منها ، أخذ يسأله عن النقد ، ويبدى رغبته الشديدة في أن يقف على رأيه فيه ، وأن يقتبس من عمله الصائب ، وأن ينال نصيباً منه ، فيجيبه بأن النقد موهبة تولد مع الإنسان فمن وهبه ومنحه وحظى بنصيب منه كان قادراً على الميز بين جيد الشعر وردئته واستحسان الحسن منه ، واستقباح القبيح منه ، أما من لم يرزق هذه الموهبة ولم يحظ بها فهو غير قادر على التمييز بين جيد الشعر وردئته والتفرقة بينهما ، ويؤيد رأيه وما ذهب إليه من أن النقد موهبة ومنحة يحظى بها أناس دون آخرين أنه رأى كثيراً من علماء الشعر ورواته ممن له يؤتوا هذه الموهبة لانفاذ لهم في نقد الشعر ، ولا فطنة عندهم ولا بصيرة في التمييز بين جيد وردئته ، بينما رأى كثيراً ممن لا علم لهم بالشعر ممن منحوا هذه الموهبة لهم نفاذ وبصيرة وإدراك

أما الضليل مؤسس الأساس ، وبنينا عليه الناس ، كانوا يقولون : أسيلة الخد ، حتى قال امرؤ القيس « أسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة ، وأشباه هذا ، وجيداء وتامة العنق ، حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهوى القرط » وكانوا يقولون في الفرس السابق : يلحق الفزال ، يسبق الظليم أو الظلام وأمثال هذا حتى قال : بمنجرد قيد الأوابد هيكل « ومثل هذا له كثير (١٤٤) »

ويحدثنا عن الحارث بن حلزة الشكري بقوله : « وأما ابن حلزة الشكري فسهل الحزون ، قام خطيباً بالموزون ، والعادة أن يسهل شرح الشعر بالنثر ، وهذا أسهل السهل بالوعر ، وذلك مثل قوله :

أبرموا أمرهم بليلى فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضواء
من مناد ومن مجيب ومن
تصهل خيل خلال ذلك رغاء

فلو اجتمع كل خطيب سائر من أول وآخر يصفون سفرنا نهضوا بالاسحار ، وعسكرا تنادى بالنهوض إلى طلب الثار لما زادوا على هذا أن لم ينقصوا منه ، ويقصروا عنه ، وسائر قصيدته على هذا المسلك شكاية وطلاب نصفه وعتاب في عزة وأنفة ، وهو من شعراء وائل وأحد السنة هاتيك القبائل ... (١٤٥) » وهكذا مضى أبو الريان على هذا الأسلوب ، وأخذ يصف طائفة من شعراء الجاهلية ، ثم عرض للمخضرمين ممن أدركوا الجاهلية والاسلام كالنابغة الجعدي ، ثم مضى إلى الشعراء الاسلاميين واتبعهم بالحديث عن

(١٤٤) رسالة اعلام الكلام : ١٥ - ١٦

(١٤٥) رسالة اعلام الكلام : ١٧

(١٤٦) رسالة اعلام الكلام : ٢٦

شرف : « قلت : انا شديد الرغبة ان فضلك في ان تسهمني من ميزك وعقلك ما استهدى بسراجه على مستقيم منهاجه ، فاقف من سرائره على بعض ما وقفت ، واعرف من مفاخره ومعانيه جزءا مما عرفت ، قال : نعم اول ما عليه تعتمد ، واياه تعتقد الا تستعجل باستحسان ولا باستقباح ، ولا باستبراد ولا باستملاح ، حتى تنعم النظر وتستخدم الفكر ، واعلم ان العجلة في كل شيء مركب زلوق وموطيء زهوق ، وان من الشعر ما يملأ لفظه المسموع ، ويرد على السامع قعاقع ، فلا ترعك شماخة مبناه ، وانظر الى ما في سكناه من معناه ، فان كان في البيت ساكن فتلك المحاسن ، وان كان خاليا فاعدده جسما باليا ، وكذلك اذا سمعت الفاظا مستعملة وكلمات مبتدلة ، فلا تمجّل باستضعافها حتى ترى ما في اضعافها ، فكم من معنى عجيب في لفظ غير غريب » . (١٤٨)

ثم يعرض ابن شرف لقضية اللفظ والمعنى ، ويبدو انه كان يقف من هذه القضية موقفا وسطا ، فهو يرى ان الالفاظ قوالب واجسام للمعاني هي الارواح فهو اذن لا يفضل اللفظ على المعنى ولا المعنى على اللفظ بل يجمع هذين الركنين في وحدة كاملة لا تتجزأ ولا تنقسم ، ومن ثم فهو ينادى بضرورة الموازنة بين اللفظ والمعنى والعناية بكل منهما ، فان حسنا بلغ الشعر الفاية المنشودة ، وان قبح احدهما انحط الشعر عن مكانته المرجوة ، ونزل عن مستواه المطلوب ، الا انه كان يفضل المعنى على اللفظ ، ولعل ذلك راجع الى شيوع هذا المذهب وسيادته في المغرب وميل المغاربة الى اعتناقه والاخذ به ، يقول ابن شرف : « والمعاني هي الارواح ، والالفاظ هي الاشباح فان حسنا فذلك الحظ المدوح ، وان قبح احدهما فلا يكن الروح » (١٤٩) ويكاد ابن

لغامض الشعر ، وقدرة فائقة على الميز بين جيده وردئيته يقول ابن شرف : « قلت لابي الريان في مجلس عقب هذا المجلس : يا ابا الريان لقد رايت لك نقدا مصيبا ومرمى عجيبا ، ولقد ارجب في ان اتال منه نصيبا ، فقال : اننقد هبة في المولد ، وفيه زيادة طارف الى تالذ ولقد رايت علماء بالشعر ورواة له ليس لهم نفاذ في نقده ، ولا جودة فهم في رديه وجيده وكثير ممن لا علم له يظن الى غوامضه والى مستقيمه ومتناقضة » . (١٤٧) باستحسان ولا استقباح ، والا نبادر الى استملاح ولا استبراد الا بعد انعام نظر وطول روية واناة ، فالاستحسان والاستهجان تابعان للروية وطول النظر وحسن المران والدربة ، فيجب ان نعم النظر ، ونستخدم الفكر في نقد الشعر ، والا ما كنا قادرين على النفاذ الى كنهه وحقيقته وجوهره لمعرفة محاسنه ومساوئه وادراك غوامضه ومتناقضه ، والوقوف على مستقيمه وأعوجه من جميع الوجوه ، فالخطأ موكل بالعجلة ، ومع المستعجل الزلل ، ثم يملأ ما ذهب اليه من ضرورة التزام الاناة والروية وحسن المران والدربة في الشعر ، وان الاستحسان والاستهجان تابعان للروية وطول النظر وحسن المران والدربة وان الشعر منه ما يملأ لفظه المسموع فنخطيء فيه ، ونتوهم في معناه ، ونفلس في حقيقته ، ولا نلتفت الى كنهه ومفهومه ، فنحكم باستحسانه لما فيه من قعقة وجلية والفاظ تملأ المسموع دون نظر الى معناه ، وهو غير جدير بالاستحسان ، كما انه لا ينبغي ان تمجّل باستهجان الشعر واستقباحه اذا اشتمل على الفاظ مألوفة معتادة وكلمات مبتدلة مطروقة كثر استعمالها ودورانها على الألسنة ، حتى ننعّم النظر في معناه ، فكم من معنى طريف غريب في لفظ مبتدل مألوف ، فالمعنى اذن هو الفاية المنشودة ، يقول ابن

(١٤٧) رسالة اعلام الكلام : ٢٧

(١٤٨) رسالة اعلام الكلام : ٢٧

(١٤٩) رسالة اعلام الكلام : ٢٧ - ٢٨

لمجرد قدمه ، وسبق الزمن بصاحبه ، ولعلمهم كانوا مدفوعين فيما ذهبوا اليه من تفضيلهم الشعر القديم وإثارة واستحسانه الى انه كان موضع الاستشاد والاحتجاج به للغة ، فالشعر القديم حتى الرديء منه صالح الاحتجاج والاستشاد به في اثبات اللغة وقواعدها وضوابطها وتفسير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، أما الشعر المحدث فغير صالح لشيء من ذلك ، فالاحتجاج به ساقط ولا يجوز الاستشاد به ، وإنما يؤتى به على سبيل التمثيل والاستئناس ، يقول ابن شرف منبها الى خطأ هذه القضية ، وحاملا على اتجاه الرواة وعلماء اللغة في تفضيلهم القديم لمجرد قدمه ، ومفندا مقاييسهم ، ومحدرا من الوقوع فيها : « وتحفظ من شئتين : أحدهما : ان يحملك اجلاك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له ، والثاني : ان يحملك اصفارك المعاصر المشهور على التهاون بما انشدت له ، فان ذلك جور في الاحكام ، وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما ، فحينئذ تحكم لهما او عليهما ، فهذا باب في اعتلاقه استصعاب ، وفي صرف العامة وبعض الخاصة عنه اتعاب » (١٥١)

فهو ينبه في هذا النص الى خطأ هذه القضية قضية تفضيل القديم لمجرد قدمه وينظر الى الشعر بعين النصفة ، ويدعو الى التزام الحيدة في الحكم عليه ، وتقويمه من حيث هو اثر فني دون نظر الى قائلته وزمته ، ثم يقول : « وقد وصف تعالى في كتابه الصادق تشبث القلوب بسيرة القديم ، ونفارها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم : « انا وجدنا آباءنا على أمة » وقال تعالى : « ان نعبد الا ما وجدنا عليه آباءنا » . . . فلا يرعك ان تجرى على منهاج الحق في جميع الخلق ، فبه قامت

شرف في هذه القضية قضية اللفظ والمعنى يتفق مع ابن رشيق الذي يقف منها ايضا موقفا وسطا لا يفضل أحدهما على الآخر ، ولا يفصل بينهما ، بل يشبههما ايضا بالروح والجسد الا ان ابن رشيق بسط القول في هذه القضية ، وفصله في كتابه العمدة : « اللفظ جسم ، وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى ، واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعمور وما اشبه ذلك من غير ان تذهب الروح ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظا كالذى يعرض للاجسام من المرض بمرض بعض الارواح ، ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من ألوان ادواء الجسوم والارواح ، فان اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه ، وان كان حسن الطلاوة في السمع كما ان الميت لم ينقص من شخصه في رأى العين الا انه لا ينتفع به ، ولا يفيد فائدة ، وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصبح له معنى لانا لا نجد روحا في غير الجسم البتة » (١٥٠) فابن رشيق في هذا النص يشير الى الارتباط الوثيق والتلاحم التام بين اللفظ والمعنى ، وتلازمهما وتلاحمهما ، فاللفظ جسم وروحه المعنى ، ومن هنا كان ما يوصف به أحدهما يعد وصفا للآخر ، وما يعترى أحدهما من ضعف او بطرأ عليه من اختلال ينعكس على الآخر .

ثم يتحدث ابن شرف عن طبقات الشعراء القدامى والمحدثين ، ويحمل حملة عنيفة على مقاييس علماء اللغة والرواة فيما ذهبوا اليه من تفضيلهم القديم واستحسانه لا لشيء الا

السموات والارض ، وبه احكم الابرام
والنقض » . (١٥٢)

**ثم طفق ينمى على بعض الشعراء القدامى
كثيراً من الهنات** ، واخذ يعدد عليهم طائفة من
السقطات ، وما وقعوا فيه من اخطاء واغلاط
وتعقيبهم مشهراً بهم ، ومجرحاً اياهم بادناً
بنقد امرىء القيس اقدم الشعراء عصراً ،
ومقدمهم شعراً وذكراً وتعداد سقطاته واخطائه
وسرد عيوبه وهناته ، وما اخذ عليه مع اتساع
الاقوال في فضله اتساعاً لم يحظ به غيره ،
حتى ان عامة الأدباء والنقاد يظنون بل يوقنون
ان جواد شعره لا يخبو ، وان حسام نظمه
لا ينبو ، وهيهات من البشر الكمال ، ومن
الادميين الاستواء والاعتدال ، ثم اخذ ينقده
ويعدد عليه سقطاته واخطائه في معلقته اعظم
ما اثر لنا عنه من شعر حيث يحدثنا عن هذه
العيوب وتلك الهنات في هذه المعلقة بقوله :
« يقول في قصيدته المقدمة ومعلقته المفخمة :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة

فقال لك الويلات انك مرجلى

كما كان اغناه عن الاقرار بهذا ، وما
اشد غفلته عما ادركه من الوصمة به » (١٥٣)
وعدد ما ترتب على فعلته هذه من العيوب
والهنات والسقطات والمآخذ ، فيقول : « وذلك
ان فيه اعداداً كثيرة من النقص والبخس منها :
دخوله متطفلاً على من كره دخوله عليه ، ومنها
قول عنيزة له : « لك الويلات » ومن قوله
لا تقال الا للخسيس ، ولا يقابل بها رئيس . . »
وهكذا يمضى يسرد عيوبه وسقطاته وهناته
الى قوله :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع

فألهمتها من ذى توائم محمول

فينقده بقوله : « وانما المعروف للعاشق
الانفراد بمعشوقه ، واطراح سواه كالقيسين
في ليلى ولبنى ، وغيلان بمية وجميل وبثينة
وسواهم كثير ، فلم يكن لها عاشقاً بل
فاسقاً » (١٥٤)

ويمضى في نقده على هذا النحو ، ثم يجره
ذلك أو يسوقه الى ذكر أبيات ثلاثة من قصيدة
له اخرى غير المعلقة وهى :

سموت اليها بعد ما نام اهلها

سمو حباب الماء حالاً على حال

فقال : لحاك الله انك فاضحى

الست ترى السمار والناس احوالى

حلفت لها بالله حلفة فاجر

لناموا فما ان من حديث ولا صال

ونقد هذه الأبيات ، وعدد ما فيها من عيوب
وهنات وسقطات بقوله : « فأخبرها هنا
أنه هين القدر عند النساء وعند نفسه وبرضاه
قولها : « لحاك الله » فحصل على « لك الويلات
من تلك ، وعلى « احاك الله » من هذه ، فشهد
على نفسه انه مكروه مطرود غير مرغوب في
مواصلته ، ولا محروص على معاشرته ، ولا
مرضى بمشاكلته ، ثم اخبر عن نفسه انه يرضى
بالحنث والفجور ، وهذه اخلاق لا خلاق
لها » (١٥٥)

ثم ياخذ على امرىء القيس انه اقر واعترف
بما يكتمه الأحرار حيث يقول : (ثم اقر في
مكان آخر من شعره بما يكتمه الأحرار ، ولا
ينم بقبحه الا الاوضاع الاشرار ، فقال :

ولما دنوت تسديتها

فثوب نسييت وثوب اجر

(١٥٢) رسالة اعلام الكلام : ٢٨

(١٥٣) رسالة اعلام الكلام : ٢٨ - ٢٩

(١٥٤) رسالة اعلام الكلام : ٢٩

(١٥٥) رسالة اعلام الكلام : ٢٠

مؤسس الأساس ، وبنائه عليه الناس ، فإذا كان قد سما أسلوبه ، وعلا في أمور عديدة ومواضع كثيرة فقد انحط وتسفل في سلوكه ونهجه في أخرى ، فيقول : « ولستنا ننكر هذه العيوب ونزارتها وما أقرنا له به من الفضائل ونذارتها » (١٥٨)

ثم يعرض لحال المتعصبين للقديم لمجرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ويرى انهم غفل سذج ، وأنه من الأولى بهم الا يتعرض لهم ، وأن يتركهم وشأنهم يتخبطون في عمايتهم وضلالتهم وجهلهم فيقول : « وستجد ناصرا لا يصدق معاصرا ولا يفضل على متقدم عصر متأخرا يبني على ضعفه اسمه ، ويفديه من الجهل والعيوب بنفسه فإذا اعترضك من هذا النمط معترض فأعرض عنه ، ودعه على أخلاقه واتبع المنهج الذي أوضحته لك (١٥٩) ثم يذكر أن فضلاء الشعراء كثيرون جدا إلا أنه قلما يسلم واحد منهم من هنات وعيوب وسقطات وأخطاء ، فلكل منهم سقطاته وعيوبه ، ثم يرى أن يجتزىء بالعرض لبعض هذه العيوب ، إذ ليس في وسعه ان يحيط بها وأن يأتي عليها مستهدفا من وراء ذلك إيضاح منهج من مناهج النقد ، والتدريب عليه لا حرصا على انتقاص الفصحاء ، ولا رغبة في غمط حقوقهم والنيل منهم ، وليس الغرض التنديد بالأدباء دون عرض المحاسن والفضائل وبيان نواحي النقص فمنهجه مبنى على القصد والاعتدال يقول : « وفضلاء الشعراء كثير جدا ، ولكل سقطات ، وساقفك على بعضها لعظيم المؤونة في الإحاطة بها ليس إلا لأوضح لك بذكرها منهاج من مناهج النقد ، لا حرصا على نقص الفصحاء ، ولا قصدا الى تهجين الصرحاء ، وأية رغبة لنا في ذلك وهم جرثومة

وأي فجر في الاقرار بالفضيحة على نفسه وعلى حبه ، وأين هذا من قول يعقوب الخريمي :

ولا اسأل الولدان عن وجه جارتى
بعيدا ولا أزعاه وهو قريب (١٥٦)

ثم يعلل ابن شرف اعتراف امرئ القيس بهذه المندبات واقاراره بما كان يأتيه من فحش وفجور بأنه كان مبغضا للنساء مفروكا من حلاله وازواجه لأسباب كثيرة ذكرت ، وكل من حرص على نيل شيء فحرمه ، ومنع منه فعلا ادعاه كذبا وزورا . شأنه شأن غيره من الشعراء ممن كانوا مبغضين للنساء كالفرزدق مثلا فيقول : « وانما سهل عليه كل هذا حرصه على ما كان ممنوعا منه ، وذلك أنه كان مبغضا للنساء جدا ، ومفروكا ممن ملك عصمتها لأسباب كثيرة ذكرت ، وكل من حرص على نيل شيء فمنع منه فعلا ادعاه قولا ، وله اشبهاء فيما اتاه يدعون ما ادعاه افكا وزورا وكذبا وفجورا ، ومنهم الفرزدق » (١٥٧)

وهكذا يعضى ابن شرف في نقده لامرئ القيس ذلك الشاعر الذي ساد الاعتقاد فيه عند العامة وبعض الخاصة أنه لا ينتقد ، وكان نقده في موضعه فنعى عليه عيوبه ، وما اتاه من فحش وفجور وتعيير ، وعدد عليه هناته وسقطاته .

ثم ختم حديثه عن امرئ القيس بأن قرر ان هذه العيوب والمآخذ وتلك السقطات والهفات والاستدراكات نزرة قليلة بالنظر لما أقر له به من الفضائل الادبية التي تفرد بها ، وسبق إليها ، وبالقيااس الى محاسنه ومزاياه التي خصها بحديث سابق ، ونوه بها ، وأنه

(١٥٦) رسالة اعلام الكلام : ٢٠

(١٥٧) رسالة اعلام الكلام : ٢٠

(١٥٨) رسالة اعلام الكلام : ٢٣

(١٥٩) رسالة اعلام الكلام : ٢٢

فروغنا ، وبهم افتخارنا جميعنا» (١٦٠) ومثل ذلك بزهير بن أبي سلمى ، وحمل عليه ، وأورد جملة من سقطاته وطائفة من هنساته وعيوبه في معلقته مع اعترافه برفعة مكانته في الشعر وسمو منزلته فيه ، فيقول : « قال زهير على ما وصفناه به ، ووصفه غيرنا من العلو والرفعة في هذه الصنعة من مذهبته الحكيمة ومعلقته العلمية :

رايت المنايا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

وقد غلط في وصفها بخبط العشواء على أننا لا نطالبه بحكم ديننا ، لأنه لم يكن على شرعنا ، بل نطلبه بحكم العقل فنقول : « انما يصح قوله لو كان بعض الناس يموت وبعضهم ينجو ، وقد علم هو ، وعلم العالم حتى البهائم ان سهام المنايا لا تخطىء شيئا من الحيوان حتى يعمر رشقها ، فكيف يوصف بخبط العشواء ... (١٦١) فهو لا يعيب على زهير هذا البيت ، ولا يأخذ عليه ما فيه من مخالفة لعقيدتنا وخروج على ديانتنا ، لما كان عليه من جاهلية ، فهو غير مطالب بحكم ديننا وشريعتنا ، لأنه لم يكن على شريعتنا ولم يكن يدين بديننا فلا تثريب عليه من هذه الناحية ، وانما عاب عليه انه عارض العقل وخالف المتطق فيما رآه ، وذهب اليه من أن المنايا خبط عشواء ، فراه في هذه القضية فائل ومذهبه باطل ، ثم عاب عليه بيتا آخر ورد في معلقته هو :

ومن لم يدد عن حوضه بسلاحه

يهدم ومن لا يظلم لناس يظلم

بأنه أسرف وتجاوز حدود الحق والعدل ، وقد كانت له مندوحة عن ذلك فيقول في تعليقه على هذا البيت : « وقد تجاوز في هذا الحق الباطل وبني قولا يتقضه جريان العادة وشهادة المشاهدة ، وذلك أن الظلم وعرة مراكزه ، مدمومة عواقبه في جاهليته واسلامنا ، فحرض في شعره عليه » (١٦٢)

وهكذا مضى ابن تشراف في نقد زهير ، وعاب عليه أبياتا أخرى في قصائد أخرى له غير المعلقة ، وبعد أن عرض لطائفة من هنساته ، وعيوبه ختم حديثه عنه بأن له سقطات وهنات أخرى غير ما سردها وعددها ، وأنه لولا المشقة والكلفة لأتى عليها وعرض لها مع ما عرف عنه واشتهر به من انه أمدح الشعراء وأجزلهم ، ثم ذكر أن التعصب له من الأمور المستقبحة التي لا تحسن بالنقاد المنصف ، اذ أن النقد الموجه له لا يفسد حقه ، ولا ينال منه ، ثم ذكر أن ما جاء في شعره من هنات وسقطات لا يخل بما عرف عنه من حكمه الأخرى الرائعة وحسن أسلوبه ورقته وما أثر لنا عنه من أقوال مستحسنة ومبارات مليحة وإن المستحسن لا ينكر ، والقيح لا يهمل فيقول : « ولزهير غير هذا من السقطات لولا كلفة الاستقصاء هذا على اشتهاه بأنه أمدح الشعراء ، وأجزل الوافدين على الأشراف والأمراء ، ويتعاضى المتعصب له عن وضوح هذا البيان ، وسينكر جميع هذا البرهان ، ويجعل التفتيش عن غوامض الخطأ والصواب استقصاء وظلما ومطالبة وهضما ، ويرغم أن جميع الشعر لو طلب هذه المطالبة لبطل صحيحه ، وانعجم فصيحته ، والباطل الذي زعم ، والمحال الذي به تكلم ، فالسليم سليم والكليم كليم ، وانما سمع المسكين أن أمدح الشعر ما قلت عبارته ، وفهمت اشارته

(١٦٠) رسالة اعلام الكلام : ٢٣

(١٦١) رسالة اعلام الكلام : ٢٣ - ٢٤

(١٦٢) رسالة اعلام الكلام : ٢٤

ولمحت لمحه ، وملحت ملحه ، ورققت حقائقه ، وحققت رقائقه ، واستفنى فيه باللمحة الدالة عن الدلائل المتطاولة ، وأمثال هذا الكلام في استعمال لطائف النظام ، فتوهم أن خلل الشعر زلله وضعف أركانه ، وتناقض بنيانه وانقلاب لفظه لفوا ، وانعكاس مدحه هجوا داخل فيما قدمنا من الأوصاف المستحسنة ومن لمح إشارات وملح عباراته » (١٦٣)

ثم أخذ في سرد عيوب الشعر وتعدادها مبتدئاً بالبحر أظهر عيوب الشعر ، إذ تضيق عنه اللغة العربية ولا تتسع له ، وحذر من ارتكابه والوقوع فيه ، وإن تحيل له بعض النحويين بشتى الحيل ، واعتذر له بمختلف الإعداء فيقول : « ومن عيوب الشعر اللحن الذي لا تسعه نسخة العربية كقول جرير : »

واو ولدت لعنزة جرو كلب

لسب بذلك الجبرو الكلابا

فنصب الكلاب بغير ناصب ، وقد تحيل له بعض النحويين بكلام كالضرب لا يسمن ولا يفنى من جوع ، وكقول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع

من المال إلا مسحاً أو مجلف

فرفع مجلفاً وحقه النصب . وقد تحيل بعض النحويين أيضاً للفرزدق على وجه الإقواء أحسن منه ، فأحذر مثله ، وإياك وما يعتذر منه بفسيح من العذر فكيف بضيق » (١٦٦)

ثم عد من عيوب الشعر أيضاً خشونة حروف الكلمة كلفظة « بوزع » التي وردت في بيت من قصيدة لجرير تعد من عيوب شعره وأحسن قصائده وأجزائها وأفصحها فتقلت

ولمحت لمحه ، وملحت ملحه ، ورققت حقائقه ، وحققت رقائقه ، واستفنى فيه باللمحة الدالة عن الدلائل المتطاولة ، وأمثال هذا الكلام في استعمال لطائف النظام ، فتوهم أن خلل الشعر زلله وضعف أركانه ، وتناقض بنيانه وانقلاب لفظه لفوا ، وانعكاس مدحه هجوا داخل فيما قدمنا من الأوصاف المستحسنة ومن لمح إشارات وملح عباراته » (١٦٣)

ثم يقرر بعد ذلك أن فيما ذكره وأورده من شعر هذين الشاعرين الفحلين المتقدمين القديمين ما يفنى عن التفتيش عن سقطات سواهما ، ويجزىء عن تسقط عثرات غيرهما ومن عداهما والبحث عنها فليقتس عليها ما لم يقله ، فقد أوضح أمراً عظيماً يتصل بسلوك الشاعر ومنهجه ونفسيته وأنه تناول شعره ونقده من ناحية اتصاله بالمجتمع وتعلقه به ، فيقول : « وفيما أطلعك عليه من شعري هذين الفحلين والمتقدمين القديمين ما يفنى عن التفتيش عن سقطات سواهما ، فقتس على ما لم تره بما ترى ، وأعلم أن كل الصيد في جوف الفرا ... » (١٦٤)

ونراه يتعصب للمتنبي ، وينتصر له ، فيقول : « وأما أبو الطيب المتنبي فقد شغلت به الألسن وسهرت في أشعاره الأعين ، وكثر الناسخ لشعره والأخذ لذكره ، والفائض في بحره ، والمفتش عن جمانه ودره ، وقد طال فيه الخلف وكثر عنه الكشف ، وله شيعة تفلو في مدحه ، وعليه خوارج تنفانيا في جرحه ، والذي أقول : أن له حسنات وسيئات ، وحسناته أكثر عدداً ، وأقوى مدداً ، وغرائبه طائفة وأمثاله سائرة ، وعمله نسيح ، ومميزه صحيح ، فيقدر ويدري ما يورد ويصدر (١٦٥)

(١٦٣) رسالة اعلام الكلام : ٣٦ - ٣٧

(١٦٤) رسالة اعلام الكلام : ٣٧

(١٦٥) رسالة اعلام الكلام : ٢٥

(١٦٦) رسالة اعلام الكلام : ٣٧ - ٢٨

القصيدة ، واستبردت بهذه اللفظة التي لا تكاد تجد لها نظيراً في شعر جرير كله وذكر أن الفرزدق قد كثرت في شعره الفاظ كثيرة خشنة يقول ابن شرف : « ومما يعاب به الشعر ، ويستهجنه النقد خشونة حروف الكلمة كقول جرير :

وتقول بوزع قد دببت على العصا

هلا هزات بفسيرنا يا بوزع

وهذا البيت في قصيدة من أحلى قصائد جرير واملحها واجزلها وافصحها ، فثقلت القصيدة كلها بهذه اللفظة ، وللفرزدق لفظات كثيرة خشنة الحروف تجدها ان استقصيتها وفتشتها على لفظة جرير هذه ، ولا تكاد ترى اختا لها في شعره » (١٦٧)

ثم عد من عيوب الشعر ايضا التعقيد اللفظي وتقديم آخر الكلام وتأخير اوله ، وذكر انه مما يكرهه النقاد ، ولا يستسيغونه ، واننا لا نكاد نرى هذا العيب في شعر جرير ويمثل له بيت الفرزدق :

وما مثله في الناس الا مملكا

أبو امه حى أبوه يفاربه

ويعلق عليه بقوله : « وهذا غاية التعقيد والتشديد ، وليس تحته سوى انه شريف كابن اخته ، ولا تكاد ترى في شعر جرير شيئاً من هذا » (١٦٨)

ثم ذكر ان من عيوب الشعر ايضا الكسر وهو وصف شامل لكل عيوب الشعر ، وعده من أشد عيوب الشعر ، وانه لا يمكن ارتكابه والوقوع فيه ، اذ انه اذا وقع في الشعر أخرجه عن اسمه فلا يسمى الشعر الذي وقع فيه

هذا العيب حينئذ شعرا ، وليس هذا العيب مما يقع لمن وصف بالشعر وعد شاعرا من الشعراء وسلك في عدادهم ، اما سائر عيوب الشعر المتصلة بالوزن أو القافية أو الضرورات الشعرية كالاقياء والايطاء والسناد والاكفاء والزحاف وصرف ما لا ينصرف ، فكل هذه العيوب محتملة ويمكن للشاعر ارتكابها ، والوقوع فيها واستعمالها ولا يخرج الشعر معها عن كونه شعرا الا ان السلامة من هذه العيوب وتجنبها وعدم الوقوع فيها وارتكابها أفضل وأجمل ، فيقول : « ومن عيوب الشعر كلها الكسر ، لانه يخرج عن نعت شعرا ، وليس مما يقع لمن نعت شاعرا ، فأما الاقياء والايطاء والسناد والاكفاء والزحاف وصرف ما لا ينصرف فكل ذلك يستعمل الا أن السالم من جميع ذلك أفضل وأجمل » (١٦٩) ثم عد من عيوب الشعر المذمومة مجاورة الكلمة ما لا يناسبها ولا يقاربها مثل مجاورة كلمة « الدل » لكلمة « الشنب » واقترباها بها في قول الكميت :

حور تكامل فيها الدل والشنب

وكقول بعض المتأخرين في مرثية له :

فانك غيببت في حفرة

تراكم فيها نعيم وحور

وان كان النعيم والحور من مواهب اهل الجنة فليس بينهما في النفوس تقارب ولا لفظة تراكم مما تجمع بين الحور والنعيم ، وكقول بعض المتأخرين :

والله لولا ان يقال تفسيرا

وصبا وان كان التصابي اجدرا

لأعاد تفاح الخدود بنفسجا

لثما وكافور الترائب عنبرا

(١٦٧) رسالة اعلام الكلام : ٢٨

(١٦٨) رسالة اعلام الكلام : ٢٨

(١٦٩) رسالة اعلام الكلام : ٢٨

ومثل قول ديك الجن :

كانه وكأنها حلل الخلّة

وقف الحلول اذ يفهما

وجه العيب في افتتاحي أبي تمام وديك الجن
انهما ابتدا قصيدتهما بضمائر لم يسبقها اسم
ظاهر تعود عليه .

كما عاب أيضا الافتتاحات التي يتطير بها ،
ويتشاءم منها ، والكلام المضاد للفرض المطلوب
ويضرب مثلا لذلك بابتداء قصيدة أبي نواس
التي انشدها جعفر بن يحيى البرمكي يهنئه
بينائه دارا جديدة ، فدخل عليه عند كمالها
وقد جلس للهناء والدعاء ، وعنده وجوه الناس
فابتدا فانشد قصيدة مطلعها :

اربع البلى ان الخشوع لبادي

عليك واني لم اخشك ودادي

فنكس جعفر راسه ، وتناظر الناس بعضهم
الى بعض ثم تمادى ، فختم الشعر بقوله :

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم

بنى برمك من رالحين وغادى

فكمل جهله ، وتم خطاه ، وزاد القلوب المتوقعة
للخطوب سرعة توقع ، واضاف للنفوس
المتوجعة بذكر الموت شدة توجع ، وأراد أن
يمدح فهجا ، ودخل ان يسر فشجى « (١٧٢)

ثم يضرب مثلا آخر لهذا العيب بما وقع
للمتنبي في أول شعر انشده كافورا الاخشيدي
وهو :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا

وحسب المنايا ان يكن امانيا

فأجاد الوصف وأحسن الرصف لكون الورد
من قبيل البنفسج ، وهكذا نجد ابن شرف
قد بسط القول ، وأفاض في الحديث عن
العيب الذي سماه « مجاورة الكلمة ما لا
يناسبها » (١٧٠) وعد هذا العيب من عيوب
الشعر المدمومة .

ثم ذكر ان لفضلاء الشعراء المولدين سقطات

وهذهات مختلفات في اشعارهم ، ووعد بأنه
سيدكر أطرافا منها لا رغبة في طلب الزلات
وتلمسها ولا شهوة في اقتفاء العثرات
واستقصائها وتتبعها ، وانما نستدل بها على
اغراضنا ونقف منها على منهجنا ، ويضرب
مثلا لذلك بيشار فقد كانت طبقات شعره
تفاوت وتباين ، فيسمو ويرتفع كثيرها ،
وينحط ويسفل قليلها ، وكذلك شعر أبي
تمام حتى بلغ من تفاوت طبقات شعر هذين
الشاعرين وتباينهما الى هذا الحد أنك لو
سمعت جيدها لانكرت ان رديئها لهما ،
ولو صح عندك وثبت ان هذا الرديء لهما
لانكرت جيدهما ، ونفيتة عنهما ، واقسمت
انه ليس لهما ، وانما هو لغيرهما فيقول :
« ولفضلاء المولدين سقطات مختلفات في
اشعارهم ، اذكرك منها في أشياء لتستدل بها
على اغراضك ، ولا لطلب الزلات ولا لاقتفاء
العثرات ، كان بشار تتباين طبقات شعره
فيصعد كثيرها ، ويهبط قليلها كثيرا ، وكذلك
كان حبيب الطائي فاذا سمعت جيدها كذبت
ان رديئها لهما ، واذا صح عندك ان ذلك الرديء
لها اقسمت ان جيدها لغيرهما » (١٧١)

ثم عد من عيوب الشعر الافتتاحات الثقيلة
والابتداءات المستبردة المعجوجة وضرب لهذا
العيب امثلة كثيرة مثل قول أبي تمام :

هن عواذي يوسف وصواحيه

(١٧٠) تحدث ابن شرف عن هذا العيب في ص ٢٨ ، ص ٣٩ من رسالة اعلام الكلام .

(١٧١) رسالة اعلام الكلام : ٣٩

(١٧٢) رسالة اعلام الكلام : ٤٠

ووجه العيب في هذا المطلع انه خاطب كافورا بالكاف ، وهذا امر مستهجن ، وخاصة في اول لقاء له معه وفي ابتداء استجداء واستعطاف ... » (١٧٣)

ثم يضرب مثلا آخر لقبح مطلع القصيدة واستفتاحها وقع لأحد الشعراء المعاصرين له، فيذكر ان بعض الشعراء انشد بعض الأمراء في يوم المهرجان :

لا تقل بشرى ولكن بشريان

غرة الداعي ووجه المهرجان

فامر الأمير باخراج الشاعر، واستطابافتتاحه وحرمه احسانه ، ثم علق على هذا المطلع المستقبح بأنه لو كان هذا الشاعر حاذقا لكان اصلاح هذا الفساد ايسر الاشياء عليه ، وذلك بأن يعكس البيت فيقول :

وجه من أهوى ووجه المهرجان

اي بشرى هي لا بل بشريان (١٧٤)

ثم يذكر ان من عيوب القافية البالغة القافية في الاستهجان والاستقبح ان تأتي بكلمة القافية معجمة لا ترتبط بما قبلها من الكلام ، وانما هي مفردة بحشو القافية كقول بعض الشعراء :

فبلغت المنى برغم أعاديك

وأبقاك سالما رب هود

يقول ابن شرف : « فانت ترى غشاة هذه القافية ، والله تعالى رب جميع الخلق وكل شيء فخص هودا عليه السلام وحده لضعف ثقده ، وعجز عن الاتيان بقافية تليق وتحسن » (١٧٥)

ثم يذكر ان معا يقبح في النسب الجفاء على الحبيب والقسوة عليه والتضجر ببعده ، واغلاظ العقاب على هجره وصدوده ، ويضرب مثلا لذلك بقول أبي نواس في اول قصيدته المشهورة التي مدح بها الخصيب بن عبد الحميد عامل مصر :

اجارة بيتينا ابوك غيور

وميسور مايرجى لديك عسير

فان كنت لا خلا ولا أنت زوجة

فلا برحت منا عليك ستور

وجاورت قوما لا تراور بينهم

ولا قرب الا ان يكون نشور

يقول ابن شرف : « فلم اسمع بأوحش من هذا النسب ، ولا بأخشن من هذا التشبيب وذلك قوله ان لم تكوني لى زوجة ولا صديقة فلا برحت منا ستور التراب عليك ، ولا كان جارك ما عشنا نحن الا الموتى الذين لا يتراورون ولا يتواصلون الى يوم النشور مع ان كلامه يشهد عليه بأنه شاك ، وانما المعروف في اهل الرقة والظرف ، والمعهود من اهل الوفاء والعطف ان يفدوا احبابهم بالنفوس من كل مكروه وبوس ، فأين ذهبت ولادته البصرية وآدابه البفدادية حتى اختار القدر على الوفاء وبلغت به طباعه الى أجفى الجفاء » (١٧٦)

ثم عرض للسرقات الشعرية ، وعدها من عيوب الشعراء ، وذكر ان أنواعها كثيرة وأقسامها متعددة ، فمنها سرقة الفاظ ، ومنها سرقة معان ، وبين ان سرقة المعاني اكثر من سرقة الالفاظ لانها اخفى ، وسرقة المعاني متعددة : فمنها سرقة المعنى كله ، ومنها سرقة

(١٧٣) رسالة اعلام الكلام : ٤٠

(١٧٤) رسالة اعلام الكلام : ٤١

(١٧٥) رسالة اعلام الكلام : ٤١

(١٧٦) رسالة اعلام الكلام : ٤١ - ٤٢

ثم ختم الرسالة بالحديث عن أحسن الشعر وأجوده ، فقال : « فأما نقد المستحسن فتمثيله لك يعظم ويتسع لكثرة فلا يسعنا إيراد ، وكفى ما سلم في جميع ما أوردناه فهو في حيز السالم ، ثم تتسع طبقات الجودة فيه ، وأحسن الحسن منه ما اعتدل مبناه ، وأغرب معناه ، وزاد من محمودات الشعر على سواه ثم يمدح الأدون فالأدون بمقدار انحطاطه الى حيز السلامة ، ثم لا مدح ولا كرامة » (١٧٨)

ثم بدا لابن شرف أن يسأل أبا الريان السؤال الأخير بعد أن طوف معه كل هذا التطواف ، فسأله عن مذهبه في انتقاء الأشعار واستفسر عن منهجه وطريقته في اختيارها ، وعزم عليه أن يخبره عما سأله عنه ، واقترح عليه أن ينشده ولا يعمل من مستحسن الأشعار وأجودها ، وأن يعمل عليه ولا يعمل من منتقاها ومتخيرها ، ومنتخبها ، فأجابته أبو الريان الى طلبه ، وحقق رجاءه ومنتفاه . وهكذا نجد ابن شرف يختتم رسالته بإيراد عدة أمثلة من أجود الأشعار ومنتخبها ومتخيرها في شتى الموضوعات وفي مختلف الأغراض ، فابتدأ بإيراد طائفة منها في الحكمة وما جرى مجرى المثل ، ثم عرض لأمثلة أخرى من منتخب شعر الغزل ، ثم اتبع ذلك بإيراد مختارات من المرائي مبتدئاً بمرثية قتيلة بنت النضر بن الحارث في أخيها النضر بن الحارث وقد قتله الرسول صلى الله عليه وسلم صبوا ، وتعد هذه المرثية من أحسن المرائي وأفصحها وأجمعها وأقربها ، ثم عرض لمنتخبات من أشهر المدائح وبذلك تنتهي هذه الرسالة .

هذه هي رسالة أعلام الكلام لابن شرف التي تمثل آراءه النقدية ، ومن حديثنا عنها ، وعرضنا لآرائه فيها يتبين لنا أن آراءه النقدية قد عرض لها كثير من النقاد السابقين عليه والمعاصرين له كالجاحظ وابن قتيبة وابن رشيق

البعض ، ثم ذكر أن أحسن السرقات السرقة باختصار في اللفظ وزيادة في المعنى ، وأن أقيح السرقات هي السرقة بزيادة الفاظ مع قصور عن المعنى ، وهناك سرقة محضة بلا زيادة ولا نقص ، والفضل في مثل هذه السرقة راجع للمسروق منه ، ولا شيء للسارق ، ومثل لها بسرقة أبي نواس معنى بيت أبي الشيص بتمامه وهو :

وقف الهوى بى حيث انت فليس لى
متأخر عنه ولا متقدم

فسرق أبو نواس معنى هذا البيت بكماله فقال :

فما حازه جود ولا حل دونه
ولكن يسير الجود حيث يسير

يقول ابن شرف : « فهذا على أن بيت أبي الشيص أحلى وأطبع ، ومع حلاوته جزالة وقد ذكر عن الحسن أنه قال : ما زلت أحسد أبا الشيص على هذا البيت حتى أخلته منه ، وسرقة المعاصر قصور همة » (١٧٧)

ثم ختم حديثه عن عيوب الشعر بالحديث عن الاختلال بالتناسب في المعنى والأبيات ، أو تعقيد الكلام ومثل له بقول المتنبي :

« كفى بك داء أن ترى الموت شافيا »

وهذه العيوب التي عرض لها ابن شرف أوسعها علماء البلاغة والبيان بحثاً ودراسة ، وأفاضوا في الحديث عنها ، فالأخطاء اللغوية معيبة يؤخذ عليها الشاعر واللحن ينتقص من قدرة الشاعر ، ويفض من شأنه ، والخلل اللفظي في المفردات وفي التراكيب معيب على الشاعر ، ويستوجب توجيه النقد اليه .

وان ابن شرف لم يأت بجديد في هذه القضايا النقدية التي عرض لها كما يتبين لنا من آرائه النقدية في هذه الرسالة انه بالرغم من الجهد الذي بذله في اصدار احكام صحيحة على الشعراء وبيان منازلهم وتقويم ادبهم ، فان هذا الجهد قد ضاع في خضم التعابير اللغوية المتخيرة ، وغاب في امواج اللفاظ المنتقاة ، كما نلاحظ انه يهمل التدقيق في الافكار التي يبني عليها احكامه كما فعل قريعه ومنافسه ابن رشيق في كتابه « العمدة » ومن ثم جاءت احكامه عامة خالية من التحليل والتدقيق ضائعا ما فيها من صواب محدود في خضم السجع الركيك وحواشي اللفاظ وغريبها ، وغائبا ما اشتملت عليه من افكار في أسلوب المقامات التي التزمه في هذه الرسالة ذلك الأسلوب المعنى بتزيين اللفاظ ، وتزويق العبارات والحافل بالمحسنات البديعية والصنعة اللفظية ، حتى انه لا وجه للمقارنة والموازنة بين احكام ابن شرف وآراء ابن رشيق التي بلغت درجة الكمال اذ يوجد بون شاسع بينهما ، فابن شرف ، فضلا عن أسلوبه الذي هو دون أسلوب ابن رشيق في كتابه « العمدة » ، لم يبلغ منزلة ابن رشيق في النقد الأدبي ، ولنجتزئ بعرض آرائهما في قضية القديم والمحدث ، فابن شرف يقول : (وتحفظ من شيئين : احدهما أن يحملك اجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تستمع له ، والثاني : ان يحملك اصفارك المعاصر المشهور على التهاون بما انشدت له ، فان ذلك جور في الاحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما فحينئذ تحكم لهما أو عليهما ، فهذا باب في اعتلاقه استصعاب ، وفي صرف العامة وبعض الخاصة عنه اتعاب ، وقد وصف تعالى في

كتابه تشبث القلوب بسيرة القديم ونفارها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم : « انا وجدنا آباءنا على أمة » فلا يرعك أن تجرى على منهج الحق في جميع الخلق ، فيه قامت السموات والأرض ، وبه احكم الابرام والنقض (١٧٩) وابن شرف لم يأت بجديد في هذه القضية ، ولم يعد أن يكون مرددا لكلامهم . فمعاصره ابن رشيق أدلى بدلوه في هذه القضية وتكلم فيها بأسلوب أوضح من أسلوب ابن شرف ، وعالجها على نحو أكمل وأوفي مما عالجها به صاحبنا ، فهو مثلا يستهل الباب الذي عقده في العمدة بعنوان « باب في القدماء والمحدثين بالحيلة على المقاييس البالية التي اصطنعها الرواة واللفويون في تفضيلهم القديم لمجرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ، ويبين أن القدم والحداثة امران نسيبان ، فيقول : « كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالاضافة الى من كان قبله (١٨٠) . . . » كما يقول في موضع آخر : « وانما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتدا هذا ببناء فاحكمه واتقنه ، ثم اتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن » (١٨١) كما نجد لابن قتيبة السابق عليهما في هذه القضية رأيا أكثر دقة ووجاهة وصوابا من رأييهما ، فقد بسط القول في هذه القضية وفصله ، وأفاض فيه حيث يقول : « ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لقدمه ، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل للفريقين ، وأعطيت كلا حظا ، ووفرت عليه حقه ، واني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب عنده الا أنه قيل في زمانه ،

(١٧٩) رسالة اعلام الکلام : ٢٨

(١٨٠) العمدة ١ - ٧٢

(١٨١) العمدة ١ : ٧٤

كما يتضح لنا كيف تناول ابن شرف في رسالته « أعلام الكلام » الشعر والشعراء ومنزلهم في جاهليتهم وإسلامهم ومذاهبهم قديمهم وحديثهم ، وكيف كانت الأشعار قبل امرئ القيس سواذج حتى جدد فيها ، ووضع الأساس الذي بنى عليه الناس ، وكيف أقام الصوى والأعلام التي اهتدى بها كل من جاء بعده ، فقد كانوا يقولون : « أسيلة الخد » حتى قال امرؤ القيس : « أسيلة مجرى الدمع » وكانوا يقولون : « تامة القامة وطويلة القامة وأشباه هذا حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهوى القرط » وأشباه هذا من الاستعارات والإشارات التي لم يفتن لها من قبله ، وتأسى بها وبنى عليها من أتى بعده ، فحسنت بها أشعارهم ، وكيف أخذ يتناول كل شاعر على حدة ، ويعرض لأخباره المشهورة وسماته ومميزاته الخاصة به ، وكيف مضى في إبداء رأيه على هذا النحو في مشاهير شعراء المشرق ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مشاهير الشعراء المغاربة والاندلسيين يعرض لهم ، ويبدى رأيه فيهم دون التقيد بمنهج نقدي شامل ودون تحليل أو تعليل ، وكيف عرض بعد ذلك لطائفة من عيوب الشعر ، وكيف اختتم رسالته بإيراد نماذج وعرض أمثلة من أجود الأشعار ومتخيرها في شتى الموضوعات ومختلف الأغراض مبتدئا بعرض أبيات من شعر الحكمة وما جرى مجرى المثل ، ثم عرض لأمثلة أخرى متخيرة من شعر الفزل ، ثم أورد منتخبات من المرائي مبتدئا بمرثية قتيلة بنت الحارث في أخيها النضر بن الحارث أحسن المرائي وأفصحها وأوجعها ثم عرض ذلك لمنتخبات تعجبه من أشهر المدايح .

هذه هي طريقة ابن شرف في النقد الأدبي ، وهي كما رأينا لا تتقيد بمنهج نقدي يقوم على الاستقصاء والاستقراء والتحليل والتعليل

أو أنه رأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم » (١٨٢) كما يقول بعد ذلك : « فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » (١٨٣) ويردد ابن قتيبة رأيه هذا في القديم والمحدث مرة أخرى في مقدمة كتاب « عيون الأخبار » حيث يقول : « وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين إذا كان متخير اللفظ لطيف المعنى لم يرد به عندنا تأخر قائله ، كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدمه ، فكل قديم حديث في عصره ، وكل شرف فأوله خارجية ، ومن شأن عوام الناس رفع المعلوم ووضع الموجد ورفض المبدول وحب المنوع وتعظيم المتقدم وغفران زلته وبخس المتأخر والتجنى عليه ، والعامل من ينظر بعين العدل لا بعين الرضا ، ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم » (١٨٤) ومن أقوال ابن قتيبة التي عرضنا لها في قضية القديم والحديث نجد أن رأيه في هذه القضية كان أكثر دقة وصوابا ووجهة من رأى ابن شرف وابن رشيق .

وهكذا يتضح لنا اتجاه ابن شرف في النقد الأدبي وطريقته في تناول القدامى والمحدثين والموازنة والمقارنة بينهم وقضية القديم والحديث حظيت باهتمام كبير من النقاد العرب ، وكانت الشغل الشاغل للأوساط الأدبية في المشرق والمغرب على السواء وفي جميع العصور ومختلف البيئات ، وقد بينا موقف معاصره ابن رشيق منها ، وموقف ابن قتيبة السابق عليهما من هذه القضية أيضا .

(١٨٢) مقدمة الشعر والشعراء : ٦ - ٧

(١٨٣) مقدمة الشعر والشعراء : ٧

(١٨٤) مقدمة عيون الأخبار : ٧

والتدقيق وإنما تناول طائفة من الأخبار النقدية وإثارات متفرقة هنا وهناك ، وتبدى آراء جزئية في هذا الشاعر أو ذاك ، وتصدر أحكاما عامة متناثرة في الأدب . يقول أحمد أمين : « وظهرت في المغرب حركة جيدة في النقد الأدبي وردت أول الأمر نتفا في كتب الأدب كقول عبد الكريم النعشلي : قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ومثل قول إبراهيم الحصري : الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع الجيد الطبع مقبول في السمع قريب المثال بعيد المثال أنيق الديباجة رقيق الزجاجة ثم ارتقى هذا النقد حتى صار موضوعا قائما بنفسه » (١٨٥) وتظل هذه الطريقة في النقد الأدبي سائدة في المغرب إلى أن يجيء ابن

رشيق في تخصص في نقد الشعر عامة ، وينفرد به ، ويولي عنايته واهتمامه ويشمله برعايته ، ويأخذ لهذا الأمر أهيته ، ويعد له عدته ، فيبوب البحث وينظم منهجه ، ويفرد لذلك كتابه « العمدة » الذي توج به حركة النقد الأدبي التي ظهرت في المغرب ، فقد تقل فيه فن النقد الأدبي كما يقول الأستاذ أحمد أمين : « من نقد شاعر خاص أو شعراء معينين كما فعل صاحب الموازنة والوساطة إلى نقد للشعر عامة » (١٨٦) ويقول ابن خلدون : « وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة واعطاها حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله » (١٨٧) ويقول فيه القفطي : « وهو أجل كتبه وأكبرها ، وأنه اشتمل على ما لم يشتمل عليه تصنيف من نوعه ، وأحسن فيه غاية الاحسان » (١٨٨) .

★ ★ ★

(١٨٥) ظهر الإسلام ١ : ٢٠٦ - ٢٠٧

(١٨٦) ظهر الإسلام ١ : ٢٠٧

(١٨٧) مقدمة ابن خلدون : ٥٧٤

(١٨٨) انباه الرواة ١ : ٢٠٣

مراجع البحث

- ١ - الأعلام للزركلي ط ثانية سنة ١٩٥٥ م .
- ٢ - أعلام الكلام لابن شرف القيرواني ط مكتبة الخانجي سنة ١٣٤٤ هـ .
- ٣ - انباء الرواة على انباء النحاة للقطبي تحقيق أبي الفضل ط دار الكتب ج ١ سنة ١٩٥٠ م . وج ٢ سنة ١٩٥٢ ١٩٥٢
- وج ٣ سنة ١٩٥٥ م وج ٤ سنة ١٩٧٣ م .
- ٤ - بدائع البداهة لملي بن ظافر ط بولاق سنة ١٢٧٨ هـ .
- ٥ - بساط العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب ط المطبعة التونسية سنة ١٣٣٠ هـ .
- ٦ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ط السعادة سنة ١٣٢٦ هـ .
- ٧ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري ط بيروت بدون تاريخ .
- ٨ - تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار ط دار المعارف سنة ١٩٥٩ م .
- ٩ - تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ط الحسينية المصرية سنة ١٣٢٦ هـ .
- ١٠ - حياة القيروان وموقف ابن رشيقي منها لعبد الرحمن يافى ط بيروت سنة ١٩٦١ م .
- ١١ - الغريدة ، قسم شعراء المغرب للعماد الاصفهاني ط تونس سنة ١٩٦٦ م .
- ١٢ - ديوان ابن رشيقي جمع وتحقيق الدكتور عبد الرحمن يافى ط بيروت .
- ١٣ - الذخيرة لابن بسام ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥ م .
- ١٤ - رسائل البلغاء اختيار وتصنيف محمد كرد علي ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ م .
- ١٥ - ابن رشيقي القيرواني للدكتور عبد الرؤوف مخلوف سلسلة أعلام العرب ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ١٦ - زهر الآداب للحمري تحقيق علي محمد البجاوي ط الحلبي سنة ١٩٥٣ م .
- ١٧ - الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق الشيخ أحمد شاكر ط الحلبي سنة ١٣٦٦ هـ .
- ١٨ - الصلة لابن يشكوال ط مكتب نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٩٥٥ م .
- ١٩ - ظهر الإسلام لاحمد أمين ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٢٠ - العمدة لابن رشيقي القيرواني تحقيق محيي الدين ط مصر سنة ١٩٣٤ م .
- ٢١ - عيون الأخبار لابن قتيبة ط دار الكتب سنة ١٩٢٥ م .
- ٢٢ - الفهري المسج في شرح لامية المعجم للصفي ط الوطنية بالاسكندرية سنة ١٣٢٩ هـ .
- ٢٣ - فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي تحقيق محيي الدين ط النهضة سنة ١٩٥١ م .
- ٢٤ - قراصة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيقي تحقيق الشاذلي بو يحيى ط المطبعة الرسمية بتونس سنة ١٩٧٢ م .
- ٢٥ - الكامل لابن الأثير ط مصر سنة ١٢٩٠ هـ .

- ٢٦ - كشف الفنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ط استامبول سنة ١٣١٠ هـ .
- ٢٧ - مجلة المقتبس المجلد السادس .
- ٢٨ - مسالك الأبصار ج ١١ قسم ٢ مصورة معهد المخطوطات بالجامعة العربية .
- ٢٩ - المطرب من اشعار اهل الغرب لابن دحية تحقيق الأبياري وزميله ط المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٤ م .
- ٣٠ - معالم الإيمان في معرفة أهل القيوان للدباغ ط تونس سنة ١٣٣٢ هـ .
- ٣١ - معجم الأدباء لياقوت الحموي ط دار المأمون .
- ٣٢ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكري تحقيق السقاط لجنة التأليف سنة ١٩٤٥ م .
- ٣٣ - مقدمة ابن خلدون ط المكتبة التجارية بدون تاريخ .
- ٣٤ - المكتبة الصغلية لاماري ط ليبسك سنة ١٨٥٧ م .
- ٣٥ - المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار ط تونس سنة ١٢٨٦ هـ .
- ٣٦ - الننف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف الليمي ط السلفية سنة ١٣٤٢ هـ .
- ٣٧ - هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين لاسماعيل البغدادي ط استامبول سنة ١٩٥٥ م .
- ٣٨ - الرواى بالوفيات للصفدى ج ٣ ط الهاشمية بدمشق سنة ١٩٥٢ م .
- ٣٩ - وفيات الاعيان لابن خلكان تحقيق محيى الدين ط السعادة سنة ١٩٤٨ م .

★ ★ ★



مقدمة السكان

تحليل سوسيولوجي

عرض وتحليل الدكتور مصطفى ناجي

الجزء الثاني من الكتاب (الفصل السادس
 - العاشر) يتضمن مناقشة عوامل التركيب
 السكاني ومتغيراتها - الوفيات (Mortality)
 - الولادات (Fertility) والهجرة (Migration) .
 الجزء الثالث والاخير يشتمل على ستة
 فصول تتعلق بالنتائج التي تترتب على التغيرات
 السكانية وانماطها الديموجرافية والاجتماعية
 والاقتصادية والسياسية ، كذلك السياسات
 السكانية .

يتكون الكتاب من ثلاثة اجزاء رئيسية
 مقسمة الى سبعة عشر فصلا بالإضافة الى
 اربعة ملاحق وثمانى صفحات من البيلوجرافيا
 وفهرس . وتبلغ مجمل صفحاته ٤٥٢ صفحة .
 يضم الجزء الاول خمسة فصول ويعالج بصفة
 اجمالية التصورات المختلفة عن الناس والسكان
 والمجتمعات

(Perspectives on People, and Societies)

وفيه استعرض المؤلف تأثير التغيرات السكانية
 على التنظيم الاجتماعي والاقتصادى والسياسى
 بصفة اجمالية وفي المجتمع الأمريكى بصفة
 خاصة .

Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs, New Jersey 07632.

من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية سيكون متيسرا لو تناقصت معدلات نمو السكان المرتفعة في كثير من دول العالم النامي .

تطرق المؤلف في الفصل الثاني الى منشأ وتطور الحركة المناهضة بتوقف النمو السكاني، كما استعرض نشاطات المنظمات القائمة بالدعوة لهذه الفكرة ، وناقش الوسائل التي اتبعتها لتحقيق أهدافها . لقد ظهرت هذه الحركة في أوائل الستينات من خلال أنشطة بعض منظمات القطاعين العام والخاص في الولايات المتحدة بهدف التأثير على برامج تنظيم الأسرة وتشجيع تحديد النسل . وما لبثت أن تطورت أهداف الحركة من اهتمام أولي بسعادة الافراد كمبرر لتحديد النسل الى إبراز خطورة النمو السكاني على النواحي الاجتماعية والديموقراطية والاقتصادية والسياسية كمبرر أساسي يستوجب إيقاف النسل . وأشار المؤلف الى عدم وضوح كيفية التوصل الى الأهداف المندى بها ، خاصة وأنه من المسلم به أن تنظيم الأسرة الاختياري لن ينتج عنه توقف أو توماتيكي في الزيادة السكانية . وأن تحقيق معدل نمو سكاني معادل للصفر يستوجب اعتبار برامج أخرى اجبارية .

رغم استمرار الجدل العلمي حول خطورة النمو السكاني وأفضل الوسائل المتبعة « لتحديد » أو « إيقاف » النسل (اختيارية أو اجبارية) ودور الزوجين أو الافراد في مقابل مسؤولية الدولة ، نبه المؤلف الى حقيقتين :

(١) معدل الولادات في الدول الغربية بما فيها الولايات المتحدة قد أخذت بالانخفاض الواضح حتى وصلت في السبعينات الى مستوى منخفض يضمن بالكاد الاستبدال (Replacement)

بدأ الفصل الاول باحصائيات توضح مدى الانفجار السكاني الذي حدث في العالم خلال القرن العشرين ، حيث ازداد عدد السكان من بليون ونصف في بداية القرن الى ما يقارب أربعة بلايين في عام ١٩٧٥ ، مع احتمالية وصول هذا العدد الى ستة بلايين في نهاية القرن المذكور أى بمعدل نمو يوازي أربعة اضعاف .

رغم الحديث الكثير عن الانفجار السكاني* والوعي الذي بدأ يتزايد عن أبعاد المشكلة يعتقد المؤلف أن ذلك لا يعني بالضرورة وجود تفهم علمي للمشكلة أو اتفاق على النتائج التي تترتب على الزيادة السريعة في السكان ، وقد لخص الآراء المتداولة الى : -

أ - ظاهرة الانفجار السكاني تمثل كارثة على الجنس البشري حيث أن النقص في الغذاء والصادر الأولية والتلوث والتلف الذي يحدث في البيئة كلها يشكل ظواهر تنبئ وقوع كارثة ، وأن مجرد تخفيض معدل نمو الزيادة السكانية لن يؤخر وقوع مثل هذه الكارثة ، ولذا فهناك ضرورة حتمية وملحة لتوقف النمو السكاني تماما ، أى الوصول الى معدل للسكان معادل للصفر (Zero Population Growth)

ب - التزايد السكاني يوفر فرصة ذهبية للنمو والتوسع الاقتصادي والاجتماعي وذلك بتطويره فرص العمل ، ومساعدته في اكتشاف واستغلال المواد الأولية عن طريق استعمال الابتكارات التكنولوجية والتنظيمية .

ج - الانفجار السكاني يعتبر عاملا مضاعفا للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويؤدي الى قصور الخدمات الاجتماعية بصورة عامة . ومن مسلمة هذا الرأي أن حل كثير

* خصصت مجلة عالم الفكر اعداد الرابع من المجلد الخامس (يناير - مارس ١٩٧٥) لمناقشة المشكلة السكانية .

الغزو) ولو أن احتمالاتها أصبحت ضعيفة في الوقت الحاضر .

النمط الثاني : اقتباس الابتكارات الحديثة في التكنولوجيا والنظم الاجتماعية لغرض استغلال الموارد الطبيعية استغلالاً أفضل (الحل الاقتصادي) .

النمط الثالث : ويتمثل في تحديد نمو السكان سواء عن طريق زيادة الوفيات أو تناقص الولادات (الحل الديموجرافي) . ولقد كان اللجوء الى زيادة الوفيات وسيلة منتشرة في بعض المجتمعات .

قدم المؤلف في الفصل الرابع هيكلًا عامًا (Typology) ليوضح العلاقة بين العوامل الديموجرافية والتركيب الاجتماعي، وفي شيء من الدقة وصف احتمالات تأثير هذه العوامل على البيئة الانسانية والنظم الاجتماعية . وقد قسم السكان حسب المتغيرات الآتية : العدد Size المساحة Area الكثافة السكانية (Population Density) ريف وحضر Rural / Urban والتركيب العمري Age Structure وكذلك خصائص النمو . وكانت تقسيماته للمجتمع مقتصرة على : بدائية - بسيطة - ومتطورة بالنسبة لقدراتها التكنولوجية .

وبعد تعريف المجتمع الانساني على انه مجموعة من السكان المرتبطة بأنماط من العلاقات الاجتماعية بفرض المعيشة والتأقلم للبيئة المحيطة ، تطرق المؤلف الى النظريات العلمية البارزة في حقل البيئة الانسانية Human Ecology والتي تصنف المجتمعات حسب طبيعة تكنولوجيا انتاج المواد الغذائية التي تمتلكها . وكذلك نظام تقسيم العمل في هذه المجتمعات . وذكر المؤلف أن التحول التدريجي للمجتمعات من المستوى البدائي

(٢) معدلات النمو السكاني في بعض الدول النامية وخاصة في دول شرقي آسيا كالصين وتايلند واندونيسيا وكامبوديا والجمهوريات الاسيوية في الاتحاد السوفيتي قد بدأت بالتناقص بشكل ملحوظ ، مما حدا بكثير من علماء الديموجرافية بدراسة احتمال توقف النمو السكاني عامة في هذه الدول في خلال القرن العشرين وتحليل النتائج المحتمل وقوعها .

من النماذج المستخدمة في شرح النمو السكاني التي قام المؤلف بمناقشتها في الفصل الثالث نموذج التحول الديموجرافي (Demographic Transition) والتي تصف تجربة العالم الغربي والصناعي في تخفيض معدل نموه السكاني منذ بداية حركة التصنيع، ويمكن وصف مراحل هذا التحو كالتالي : -

١ - مرحلة ما قبل التصنيع وهي الفترة التي تكون فيها معدلات كل من الولادات والوفيات مرتفعة .

٢ - مرحلة بداية التصنيع وفيها تنخفض معدلات الوفيات مع بقاء معدلات الولادات ثابتة ومرتفعة ، وهذه المرحلة هي التي ينتج عنها ما يسمى بالانفجار السكاني .

٣ - مرحلة التصنيع وفيها تبدأ معدلات الولادات بالانخفاض .

٤ - مرحلة ما بعد التصنيع وفيها تصل معدلات الولادات الى مستوى منخفض يتناسب مع المعدلات المنخفضة للوفيات وبتمامها تتم مرحلة التحول الديموجرافي .

وفي نهاية الفصل حدد المؤلف ثلاثة أنماط من استراتيجية الاستجابة لنمو السكان .

النمط الاول : ويشمل التوسع في الحدود وضرم أراض جديدة ، وهي استراتيجية اتبعت في كل العصور (الحل السياسي أو

اجتماعية متصفة بالحضارية محل الروابط التقليدية مثل رابطة الدين ، الجنسية ، المنشأ ، كذلك الروابط العائلية .

بدأ المؤلف الجزء الثاني من الكتاب بتعريف لتحليل الديموجرافي على انه وصف كمي للطاقة البشرية ومكوناتها بالمجتمع . تلا ذلك استعراض اولي (الفصل السادس) لطرق دراسة النمو السكاني وكيفية حساب مؤشرات النمو ، وبين كذلك استعمالات أبرز هذه المؤشرات وهي معادلة الموازنة السكانية $(P_2 = P_1 + B - D + M)$ حيث (P_2) حجم السكان في وقت (2) يساوي حجم السكان P_1 في وقت سالف زائدا حجم الولادة (B) ناقصا حجم الوفيات (D) زائدا او ناقصا حجم الهجرة (M) . كذلك اشار الى بعض مصادر البيانات عن السكان مثل التعدادات والمسوحات وسجلات الظواهر الحياتية .

ومن الواضح ان الهدف من هذا الفصل هو تزويد القارئ المبتدئ بقليل من الخلفية العلمية من مفاهيم ومصطلحات ومؤشرات .

في الفصول الاربعة التي تلت قام المؤلف بمناقشة علاقة التركيب الاجتماعي وكلا من الوفاة والبقاء (الفصل السابع) والزواج وصنع الزواج Match Making (الفصل الثامن) والولادات (الفصل التاسع) والهجرة (الفصل العاشر) .

تتبع المؤلف في الفصل السابع التطورات التي حدثت في معدلات الوفيات في أوروبا وغيرها من القارات المسكونة بالعنصر الأوروبي حيث شهدت تناقصا تدريجيا ومستمر منذ القرن الثامن عشر وحتى الحرب العالمية الثانية . وكان ذلك التناقص نتيجة لتحسن الاحوال الاجتماعية والتعليمية والاستجابة للتطور الاقتصادي والاستقرار السياسي الذي

البسيط الى التنظيم المتطور المعقد يعزى الى التوسع الايكولوجي المتأثر بالزيادة السكانية وما ينتج عنها من تكيف اقتصادي واجتماعي وتنظيمي لغرض تحمل المضاعفات التي قد تنشأ في مرحلة النمو والتطور .

وبتطبيق مفاهيم الهيكل العام الذي حدده المؤلف على المجتمع الأمريكي (الفصل الخامس) حاول أن يربط بين العوامل الديموجرافية ، وخاصة عامل الهجرة ، وبين التغيرات التي حدثت في التكنولوجيا وأنماط الاستيطان والتكيف الايكولوجي المتميز بالاتجاه الظاهر نحو العمران وخاصة في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية .

وبمقارنة أمريكا ذات الطابع الريفي في القرن التاسع عشر بأمريكا الحضرية في القرن العشرين ، اتصفت الأولى بانتشار المجتمعات الصغيرة Communities المنعزلة نوعا ما والمأهولة بالأسر ذات التركيب الممتد والوظائف المتعددة ومنها : الدينية والترفيهية وتربية النشء ، هذا بالإضافة الى كونها وحدات انتاجية واقتصادية كانت تمثل حلقة الوصل الرئيسية ما بين الفرد ونشاطاته واتصالاته في المجتمع .

يتصف المجتمع الأمريكي حاليا بالتركيز الشديد في الكثافة السكانية في جزء بسيط من مساحته الشاسعة وفي التزايد الحضري والعمراني الهائل المتميز بالمجتمعات اللامتجانسة التي يغلب عليها نمط الاسر الصغيرة التي تغير كثيرا من وظيفتها التربوية والاقتصادية والترفيهية وفقدانها لمعظم هذه النشاطات .

وأبرز المؤلف أهمية عامل الهجرة (الخارجية منها أو الداخلية) في : ١) تشكيل أنماط توزيع السكان وتطورها في المجتمع الأمريكي والتي أدت في النهاية الى ظهور المدن الضخمة Megalopolis (٢) احلال روابط

كنظام اجتماعي وركز بشكل محدد على اختلاف طبيعة الزواج في المجتمعات الأوروبية أو التي من أصل أوروبي عنها في المجتمعات الأخرى . ومن خصائص المجتمعات الأوروبية :

١ - وجود فائض من النساء في سن الزواج بالمقارنة بالمجتمعات الأخرى .

٢ - انتشار الفكرة القائلة بأن الزواج يجب أن تسبقه فترة طويلة من التعارف بين الطرفين .

٣ - اللجوء إلى تأجيل الزواج نتيجة لشعور الفرد بأهمية الضمانات المالية وتطلعه إلى مستوى معيشة أفضل .

٤ - عملية اختيار الزوج أو الزوجة تتصف بأنها أقل تأثراً بعوامل السن أو العنصر أو الدين أو مستوى التعليم والقربة واللغة عنها في المجتمعات الأخرى .

هذا بالإضافة إلى أن عوامل أخرى ذات طابع ديموجرافي يمكن أن تسبب حالات من الضغط على الزواج Marriage Squeeze وذلك بجعلها العرض والطلب يفقدان التناسق فيما بينهما ، ومن أمثال هذه العوامل الهجرة المتزايدة لأحد الجنسين وكذلك اختلاف سن الزواج ما بين الزوج والزوجة المنتشر من الدول النامية . هذا بالإضافة إلى بعض التقاليد التي تحتم الزواج من نفس الطبقة الاجتماعية .

إن مسؤولية اختيار أو تحديد ظروف الخطبة وكذلك مكان الإقامة وطبيعة الأحوال المعيشية للمتزوجين الجدد ما زالت في يد الآباء أو الأقارب ، ولم تترك كاملاً للأشخاص أنفسهم حتى في الزواج العصري ما زال للآباء قدرة التحكم في مكان وكيفية تقابل الطرفين .

أدى إلى إصلاحات اجتماعية وارتفاعات في مستوى المعيشة وكذلك في تحسين طرق الوقاية العامة ، أما في الدول النامية فإن الانخفاض السريع في معدلات الوفيات الذي حدث عقب الحرب العالمية الثانية ف يرجع إلى إدخال وسائل الصحة العامة والصحة الوقائية والطب الحديث أكثر مما هو ناتج عن أي تفسير اجتماعي أو اقتصادي .

بالرغم من أن علماء الديموجرافية قد ابدوا اهتمامهم بدراسة الحالة الزوجية للسكان وتأثيرها على معدلات الولادات ، إلا أنهم ، وفي رأى المؤلف ، أقل رغبة في دراسة العلاقة ما بين الزواج من ناحية وتركيب الأسرة وتكوين القربان والطبقات الاجتماعية من ناحية ثانية حيث ظلت هذه المواضيع موضوع اهتمام علماء الاجتماع والانتروبولوجي . وعند مقارنة الدول الأوروبية والغير أوروبية نجد أن ظاهرة الزواج المتأخر أو الامتناع الكلي عنه منتشرة في معظم الدول الأوروبية عنها في الدول الأخرى ، وتفسير هذه الظواهر أنها ناتجة عن الشعور المتأصل بالفردية Individualism وبأهمية احساس الفرد بالاستقرار الشخصي والمالي كخلفية لازمة للزواج والانجاب .

إن ظاهرة رواج الزواج Marriage Boom التي وقعت بعد الحرب العالمية الثانية في الولايات المتحدة وأوروبا حدثت بين مجموعات من السكان كانت تتحاشى الزواج كلياً أو تختار الزواج المتأخر ولذا أدت حركة رواج الزواج هذه إلى تخفيض سن الزواج وكذلك إلى تخفيض نسبة غير المتزوجين في المجتمع مما نتج عنه تقارب معدلات الزواج في المجتمعات الأوروبية وبين الريف والحضر وكذلك بين الطبقات الاجتماعية المختلفة .

وفي تحليل وصفي انتروبولوجي لظاهرة الزواج ، اختيار الزوج ، والزواج المبكر أشار المؤلف إلى التغيرات التي حدثت في الزواج

النسل في أغلبها بالتشجيع المباشر . ولذا استخلص المؤلف بأن منشأ الأسرة الصغيرة والعودة الى معدلات الولادة المنخفضة في الدول الغربية ليس له علاقة وطيدة بأى سياسة سكانية حكومية بوجه عام .

لقد اتجه علماء الديموجرافية حديثا الى التحليل الدقيق Micro لموضوع الخصوبة والولادات والاختلافات في كل منها كالتباين في عدد الولادات وفي توقيت المواليد . وهذا وبالإضافة الى ذلك يرجع الباحثون الى الكثير من النظريات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية لتفسير حجم الولادات واختلافاتها ومن امثلة ذلك نظرية العلاقة ما بين المنزل الاجتماعي والحراك الاجتماعي

Social Status and Social Mobility

ومستوى الخصوبة وكذلك نظرية الكلفة - المنفعة - Cost-Benefit القائلة بان العامل الاقتصادي يتحكم في تقديرات الزوجين وبالتالي في لجوءهما الى استعمال اساليب منع الحمل او عدم استعمالها .

ذكر المؤلف ان دراسة الهجرة تتطلب وجهة نظر أكثر من خلفية علمية واحدة ثم تطرق الى شرح تاريخي للهجرة العالمية وخاصة الهجرة من أوروبا والتي اتجه معظمها الى الولايات المتحدة ، ورغم ذلك فان نسبة المهاجرين الى المولودين في الشعب الأمريكي لم تزد في دورتها عن ١٣٪ . وقليل جدا من دول العالم التي يبلغ فيها المهاجرون نسبة عالية من السكان تصل في بعض الحالات الى النصف مثل الكويت وهونغ كونغ واسرائيل .

كان للهجرة الداخلية تأثير كبير على توزيع السكان في الولايات المتحدة وعلى حركتهم الى الغرب التي صاحبت الاسكان بالولايات الغربية وخاصة ولاية كاليفورنيا . كما أدت الى التزايد السريع في درجة العمران بالولايات المتحدة في فترة زمنية قصيرة . وتظهر آثار التحرك

من المتفق عليه بين علماء الديموجرافيا أن عامل الولادات هو العامل الرئيسي المؤثر في النمو السكاني . ولدراسة هذا المتغير يتبع الباحث عادة في تحليله أحد المستويين التاليين أو كليهما : - الأول Macro وهو عبارة عن تحليل العوامل الهيكلية الرئيسية المؤثرة على الخصوبة والولادات . الثاني Micro أو التحليل الدقيق المتعلق بدراسة العوامل السلوكية والفردية المؤثرة على الظاهرة .

رغم وصول معدلات الولادة في أوروبا والدول الغربية عموما الى مستوى منخفض نسبيا في بداية الحرب العالمية الثانية ، عادت للزيادة في الفترة التي تلت الحرب مباشرة Baby Boom ، وكان هناك نمطان لهذه الظاهرة (الأول) استمر لفترة زمنية قصيرة لتمويض حالات الولادات الموجلة خلال فترة الحرب . (الثانية) امتد لفترة اطول خاصة في الولايات المتحدة واستراليا ونيوزلندا وكان محصلة تمويض للولادات الموجلة في فترة الحرب بالإضافة الى زيادة حقيقية في معدلات الولادة والاتجاه نحو الولادات على فترات زمنية متقاربة . بدأت الولادات في دول أوروبا الشرقية وجنوب أوروبا ودول أمريكا اللاتينية مثل الأرجنتين بالتساقط تدريجيا في إبان الحرب العالمية الأولى ولكنها أخذت بالانخفاض السريع حتى الحرب العالمية الثانية .

عند بداية الحرب العالمية الأولى كان معدل الولادات في الدول الأقل تطورا (النامية) عاليا نسبيا (أعلى من ٣٥ بالالف) ، وتنصف معدلات الولادة بالانخفاض الملحوظ في مجموعة منها بعد الحرب العالمية الثانية بينما استمرت معدلات الولادة العالية في البعض الآخر .

كما أبرز حقيقة ظاهرة وهي ان الدول التي اتجهت فيها معدلات الولادة بالانخفاض السريع لم تتبع الا القليل مما يوصف بسياسة سكانية محدودة ، وفي الواقع لم تحظ برامج تحديد

بمناقشة تأثير التغير السكاني على النظم الاجتماعية مثل تقسيم الـ Division of Labor وتوسيع المحيط الاجتماعي وكذلك تبني الابتكارات والاستفادة منها مستعينا في شرحه بالنظريات العلمية المفسرة لهذه الظواهر ومشيرا الى أن النمو السكاني على نطاق واسع يجعل مستحيلا على التركيب الاجتماعي أن يستمر بصورته الاولى . هذا بالإضافة الى ان التزايد في الكثافة السكانية يؤدي بدوره الى تكثيف النشاطات المتعلقة بإنتاج المواد الاساسية كما حدث في ظاهرة الانقلاب الزراعي Agriculture Revolution

لقد حدد المؤلف نمطين من استراتيجيات الاستجابة الديموجرافية للنمو السكاني ويتلخص في : 1) زيادة الاتجاه العمراني بما فيه زيادة وتعدد المناطق المتصفة بالحضر والعمران وانتشار المدن الكبيرة Megalopolis ب) التجاء بعض المجتمعات الى تشجيع الهجرة الخارجية . ونظرا لان احتمالات الهجرة الخارجية أصبحت في عالمنا الحاضر محدودة ، فان النمط الرئيسى للتجاوب ينحصر في الاتجاه نحو العمران وفي استعمال الزراعة المكثفة . ولظاهرة العمران صفات اجتماعية مميزة منها تباين صفات السكان Heterogeneous وتنوع وتعدد الاتحادات والنظم الاجتماعية . هذا بالإضافة الى الميل للتخصص Specialization الوظيفي والبنائي .

ونظرا لعدم وجود سياسة تحكم الهجرة الداخلية في معظم الدول باختلاف بعض الدول الاشتراكية ، فان المؤلف يتساءل عما اذا كان من المستطاع التأثير في الحراك السكاني عن طريق سياسة سكانية محددة . ويستخلص بان الموضوع ما زال يحتاج الى بحث اكثر لتحديد ابعاده .

السكاني أيضا في ظاهرة نمو الضاحية Suburbanization الذي تزايدت بشكل ملحوظ من بعد الحرب العالمية الثانية .

رغم ان معظم العوامل الخلفية التي ينبغي دراستها بالنسبة لظاهرة الهجرة ما زالت غير واضحة ومتغيرة التأثير فان معظم النظريات التي توضح اسباب الهجرة تركز حول ضرورة فهم تأثير العوامل الاقتصادية على الميل للهجرة وكذلك علاقة الصفات الاجتماعية والديموجرافية كالعمر والحالة الزوجية والجنس وخلافه على الاستعداد للهجرة .

هذا ورغم الاعتراف بوجود عدة عوامل غير اقتصادية مؤثرة على ظاهرة الهجرة الا انه ما زال ينظر الى تحركات القوى البشرية على انها متعلقة بصورة رئيسة بالعوامل الاقتصادية خاصة فرص التوظيف ، اختلاف الاجور ، وهيكل سوق العمالة والبطالة بأنواعها .

ان للهجرة تأثيرا واضحا ليس فقط على المجتمع بل أيضا على الفرد وهناك علاقة ما بين هجرة الافراد وصفاتهم الديموجرافية وغير الديموجرافية كالخصوبة والانحرافات والمرضى العقلي وخلافه . بالإضافة لذلك فان الهجرة تأثيرا آخرًا مباشرًا على العلاقات والمنظمات الاجتماعية وكذلك على الميول السياسية والانفصال العنصرى أو الثقافى ونظم التعليم وخلافه .

وباختصار ان معظم المجتمعات التى تشتد بها حركة الهجرة يجب ان تطور منظماتها ومؤسساتها لكى تضمن الاستقرار والاستمرارية فى الصلات والتفاعلات الاجتماعية على جميع المستويات .

فى الجزء الثالث من الكتاب يناقش المؤلف أنماطا مختلفة من الاستجابات الاجتماعية والديموجرافية والاقتصادية والسياسية للتغير السكاني . ويتبدى الفصل الحادى عشر

في الفصل الثالث عشر انتقل المؤلف الى مناقشة اشكال الاستجابة الديموجرافية وابتداً بذكر مبدأ قديم عن الضوابط الايجابية Positive Check مالتوس والقائلة بحتمية ارتفاع الوفيات في حالة زيادة السكان عن الموارد الغذائية . وتساءل المؤلف عما اذا كان من الممكن ان تسمح اخلاقيات المجتمعات الحديثة بمعدلات اهل للوفيات كوسيلة لمجابهة اية زيادة في السكان غير متوازنة مع الزيادة في الموارد الغذائية وبالتالي هل تلجأ الى تخفيض معدلات الوفيات في حالة نقص السكان ، استخلص من الدراسات التي قام بها كل من Clark و Kreziok عن اتجاهات معدلات الوفيات بين الاطفال في المجتمعات الريفية والغير صناعية الى انه من الجائز ان تكون التغيرات التي تحدث في مستوى الوفيات وفي معدلاتها حسب العمر استجابات من المجتمع لظاهرة نمو السكان بغرض التكيف والبقاء .

كما نبهنا المؤلف الى فكر اخر من افكار مالتوس عن اهمية التحكم في سن الزواج كوسيلة من وسائل الحد من النمو السكاني والذي لا شك فيه ان انماط الزواج والطلاق واعادة الزواج والقيم المتحكمة في هذه الظواهر لها ارتباط بمحاولات المجتمع التحكم في معدلات نمو سكانه ، ولو ان نوعية هذه الارتباطات غير مدروسة . وقد اشار المؤلف على سبيل المثال الى الاتجاه الحديث نحو انخفاض سن الزواج وزيادة نسبة السكان المتزوجين وارتباط كل منها مع التوسع في استعمالات وسائل منع الحمل بما فيها الاجهاز وخاصة في الدول القريبة لا سيما في الولايات المتحدة .

وفي نبذة تاريخية عن تطور وسائل منع الحمل اشار المؤلف الى تواجد العديد من وسائل منع الحمل في مختلف العصور وانه رغم ما نشر عن الموضوع في القرن التاسع عشر تطورت الى حركة نسائية كان الغرض

منها هو الاصلاح الاجتماعي لكافة المرأة وليس التحكم في السكان وتحديد النسل . ان مجهودات مسز (Singer) منذ عام ١٩١٣ في الولايات المتحدة وفي مدينة نيويورك بالذات تشكل بداية الحركة المنادية باستعمال وسائل منع الحمل وتحديد النسل . لقد تطورت الحركة بشكل ملحوظ بعد الحرب العالمية الثانية على يد مستر John D. Rockefeller 111 وانبثق عنها مجهودات هيئة الامم المتحدة ومنظماتها وبرامجها في العالم النامي . كما تكونت في الدول الاوروبية ولا سيما الولايات المتحدة بعض المنظمات حديثا التي تطالب بوقف نمو السكان وتؤكد بضرورة استخدام جميع الوسائل الممكنة بما فيها العمليات الجراحية Sterilization وذلك للاعتقاد بعدم كفاية وسائل منع الحمل التقليدية مثل استعمال حبوب منع الحمل .

ان العلاقة التي تربط العوامل الاقتصادية والعوامل الديموجرافية علاقة متشعبة ودقيقة . ومن أبسط مظاهرها احداث التغير السكاني ردود فعل في كل من حجم ومعدل نمو كل من القوى العاملة والعمالة وسوق العمل ، وكذلك في حجم كل من الادخار والاستثمار ومستوى الانتاجية . وعند مناقشة هذه الموضوعات (الفصل الرابع عشر) فرق الكاتب ما بين انماط الاستجابات الاقتصادية للزيادة السكانية في كل من الدول النامية وفي الدول الاقل نمواً .

ونستعرض فيما يلي آراء المؤلف حول نوعية الارتباط بين النمو السكاني والعوامل السالف ذكرها .

النمو في القوى العاملة : تعتبر كل من معدلات النمو السكاني وهيكل التركيب العمري السكان ومعدلات الهجرة بأنواعها من المتحكمات الاساسية في نمو القوى العاملة وفي تحديد نسبتها في السكان . من المعروف ان حجم

أشار المؤلف الى أهمية دراسة تأثير التركيب العمري للسكان والتغيرات التي تحدث فيه على معدلات الادخار ، ورغم أنه فيما يبدو ينتمي الى المدرسة القائلة بأن الزيادة في عدد الاطفال في حد ذاتها ليس لها تأثير كبير على القدرة على توفير حيث أن :

١ - معظم الادخارات تتوقف على حجم الضرائب في القطاع العام أكثر من توقفها على الادخارات النوعية في الأسرة .

٢ - عدم وجود الأدلة الكافية على أن ادخارات الأسرة تشكل المصدر الرئيسي للاستثمارات .

أورد المؤلف عدة نماذج توضح اختلاف الآراء حول تأثير النمو في السكان على مستوى الانتاجية *Productivity* منها : أولاً) قوانين مالتوس عن تناقص العوائد في قطاع الزراعة *Laws of Diminishing Returns* التي تنتج عن ازدياد كثافة العمل وحدود الرقعة الزراعية . ثانياً) افكار آدم سميث عن الاقتصاد على نطاق واسع *Economics of scale* والتي تعكس نوعية العلاقة بين الحجم والانتاجية ، ومن مضمونها أنه كلما زاد حجم الوحدة زادت كفاءتها الانتاجية . كذلك قام المؤلف بشرح آراء كينز الشهيرة عن الركود الاقتصادي *Staguation* وينتج من نقص في النمو السكاني وللأسباب الآتية : -

١ - في المجتمعات الفنية برأس المال التي تتصف بمستوى دخل مرتفع ونمو بطيء في السكان عادة ما يكون صعباً فيها زيادة فرص الاستثمارات .

٢ - في المجتمعات الفنية برأس المال ، نسبة صغيرة من الدخل المرتفع يستهلك فقط تاركاً نسبة أكبر للاستثمارات .

القوى العاملة يتأثر بمعدلات الاشتراك في سوق العمل لكل من المجموعات العمرية والبيئية المختلفة ، وتلك تتأثر بدورها بعوامل ذات طبيعة ديموجرافية كحجم الأسرة والهجرة من الريف الى الحضر وزيادة حجم السكان الذين يبلغون سن التقاعد وخلافه .

من الظواهر التي تتضارب حولها الآراء هي العلاقة المحتمل وجودها بين النمو السكاني من جهة وبين مستوى البطالة من جهة أخرى وارتكز المؤلف في شرح هذه العلاقة على آراء كل من *Spengler* و *Keynes* فمن رأى الأول مثلاً أن النمو السكاني ولو بمعدل قليل يعتبر أمراً ضرورياً لتلافي البطالة الشديدة .

وفي حالة تقييد معدل نمو سكاني مناسب فإن على الحكومة أن تزيد من نفقاتها لتعويض النقص في الاستهلاك المحتمل نشوءه . هذا طبعاً يناقض كثيراً من آراء *Spengler* التي ترى في تناقص معدل نمو السكان خلفية مشجعة لمستويات أعلى العمالة .

ورغم أن المؤلف لم يلتزم برأي معين في هذه المسألة إلا أنه أوضح أن العلاقة ما بين النمو السكاني وكل من البطالة والعمالة تختلف بالدول النامية عنها في الدول الصناعية . فمعظم الدول النامية تتصف بارتفاع معدلات النمو السكاني وبالتالي ترتفع فيها معدلات الزيادة السنوية في القوى العاملة ، وبالتالي معدلات كل من البطالة والبطالة المقتنعة بالذات .

هذا بالإضافة الى أن الهجرة السكانية في الدول الصناعية عادة ما تحدث تكاملاً بين الموارد البشرية والموارد الاقتصادية في حين أنها في الدول الأقل نمواً تعبر عن نقص دائم في الطلب على العمل الناتج من انخفاض الأجور في الزراعة كذلك ارتفاع الزيادة السكانية في المناطق الريفية .

١ - خلق أنماط من السلوك الذاتي والفردى ومن التطلعات الشخصية ذات الفائدة المحدودة في فهم أو تكييف التطلعات الجماعية.

٢ - زيادة الاختلافات الموجودة في المهارات وفي احتياجات الأفراد .

٣ - إمكانية التفاضل عن أو السماح لبعض السلوك المتحرر من التقاليد بالتواجد مع السلوك العرفي .

٤ - تشكيل قوى اجتماعية بهدف تنظيم أو استغلال أو تجنب الخلافات الفردية وخاصة الناشئة عن قصور في بعض الإمكانيات والمجهودات مما يضاعف إمكانية المجتمع نحو الإنتاج والاستهلاك بل والبقاء ، وفي مقدمتها قدرته على التكيف .

ومن رأى المؤلف أنه إذا كان للنمو السكاني القدرة على توافر احتمالات الاختلافات والتنازع الاجتماعي فإنه من الواضح أن ازدياد الكثافة السكانية تخلق حاجة للتمييز الطبقي وكذلك التباين في النظم الاجتماعية وذلك يرجع لأن ارتفاع الكثافة السكانية يصاحبه عادة :

١ - ارتفاع معدلات الاتصالات الإنسانية الناتجة من القرابة الجسمانية .

ب - التنافس نحو الأولوية في جذب الاهتمام وفي المشاركة .

ج - التنافس لحرية الوصول إلى المؤسسات والأماكن وفي المجهودات الاجتماعية .

وباختصار فمن الجائز أن يقلل النمو السكاني من قيمة بعض الارتباطات الاجتماعية ويجعلها قليلة الفائدة في نفس الوقت يمكن أن ينمى مزايا ارتباطات أخرى . ولذا فإنه من الطبيعي أن تاتى الاستجابة الاجتماعية لمثل هذه التغيرات السكانية في صورة ابتكارات اجتماعية بما فيها من تغير في القيم وقوانين

٣ - في حالة ثبات أو نقص معدل النمو السكاني تزداد معدلات البطالة لعدم كفاية الطاب على الخدمات والبضائع .

٤ - تغييب التأثير الإيجابي الذى يحدثه النمو السكاني في تشجيع ارتباطات التعاقد وتشكيلها لنمو كل من الإنتاج وانتاجية الفرد .

وقد أشار المؤلف الى أنه لا يوجد نتائج علمية ثابتة تحدد العلاقات الرئيسية ما بين كمية العمل والقدرة الانتاجية ، وكيف تتأثر كل منها بازدياد السكان وأن عدم نجاح الاقتصاديين أو بالأحرى تجاهلهم لمعالجة هذه العلاقة يرجع عادة الى أنها تحدث في إطار اجتماعي وسياسي وعليه فإن نوع الاستجابة تختلف باختلاف الظروف السياسية والاجتماعية وأن هذه الظروف تتوقف على ثلاثة متحركات:

١ - قرارات الجهة المنظمة للاقتصاد .

٢ - الضوابط والمتغيرات التى يمكن تطبيقها على الوحدات الاقتصادية .

٣ - تركيب هيكل الجراءات والتقديرية وكذلك العقوبات المنظمة للنشاطات الاقتصادية .

من المسلم به أن أى تغير ملحوظ في السكان غالبا ما ينتج عنه إعادة ترتيب كثير من المؤسسات والمنظمات والعلاقات الاجتماعية .

من أمثال الظواهر الاجتماعية التى تنتج من التغير السكاني وخاصة من الهجرة التغيرات التى تطرأ على التركيب الوظيفي والبيئي والعنصرى في بعض الحالات مما حدا ببعض علماء الاجتماع القول بأن مقدارا من الصراع يصاحب دائما التغير في العلاقة بين المجموعات السكانية وبين مؤسساتها الاجتماعية وأن الاستجابة الاجتماعية لنمو السكان تأخذ عادة عدة أشكال منها :

التشريعية الى تنظيم شبه بيروقراطي نظرا لازدياد ظاهرة تعدد الخواص التي تصاحب الزيادة السكانية . و اخيرا يتأثر التوازن السياسى بين المجموعات المهنية والدينية والثقافية والعنصرية ليس فقط بالريادة السكانية ولكن بحركة وهجرة السكان الداخلية وقدرة الاحزاب والمنظمات السياسية على توضيح مواقف معينة وقيم ايدولوجية محددة لكل الجماعات والمجموعات المختلفة من السكان.

واخيرا يتساءل الكاتب فى الفصل الاخير عن امكانية تواجد مدينة الاحلام Utopia ذات الصفات الاجتماعية والديموقراطية المتكاملة وكذلك تسأل عن دور السياسة السكانية فى تحقيق ذلك العلم . فصل بين مفهوم كل من السياسة السكانية والنظرية السكانية حيث عرف الاولى على انها تتكون من تبين واضح لحاكم أو جهة ذات سلطة لبعض الاهداف السكانية التى تخدم المنفعة العامة ، وكذلك التحكم فى الموارد المتاحة بشأن تحقيق هذه الاهداف اما بواسطة تدخل مباشر أو غير مباشر فى عوامل الوفيات والولادات والهجرة .

وقد رأى المؤلف ان السياسة السكانية يجب فصلها عن السياسات الاخرى المحتملة التأثير على حجم ونوع وانتشار السكان ولكن من خلال تشكيلها لعوامل اخرى غير العوامل الديموقرافية . هذا بالاضافة الى انه لا يمكن بصفة عامة تحديد تركيب محدد للسياسة السكانية يكون له صفة الدوام وانما هي عادة اقل تحديدا وغالبا ما تشمل فترة زمنية معينة .

قام المؤلف باستعراض التجربة الامريكية واستنباط الخلفيات التى صاحبها وخاصة ظاهرة الهجرة من أوروبا والعوامل التى ادت الى اقبال سياسة الباب المفتوح وظهور نظام الحصص Quata System المنظمة للهجرة فى اوائل العشرينات والتى استبدلت

التبادل وكذلك فى تعريف الموارد بل والحوافز الاجتماعية .

اختتم المؤلف هذا الفصل (الخامس عشر) بمناقشة سطحية لتأثير الهجرة على الارتباطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واستعمل التقسيمات الآتية للمقارنة: المهاجر باستمرار ، المهاجر أحيانا ، الغير مهاجر أو الثابت ، وبين كيف أن عملية الهجرة ينتج عنها إعادة صياغة الصفات الاجتماعية للمنظمات والمؤسسات وحتى للمجتمعات الصغيرة نتيجة الحركة السكانية .

ابتدا المؤلف (الفصل السادس عشر) بقوله ان موضوع الاستجابة السياسية للزيادة السكانية ما زال حديثا ولم يحظ بالدراسة المناسبة الا مؤخرا . ثم وجه اهتمامه الى ثلاثة موضوعات ذات علاقة : أولا - الضغوط السياسية والإدارية التى يتعرض لها المجتمع نتيجة للزيادة السكانية، وثانيا - التكامل السياسى المرتبط بظاهرة تغير الخواص Variation الصفة التى تلازم عادة التغيرات السكانية . وثالثا الحراك السكانى على الانضمام والاشتراك فى الاحزاب والمنظمات السياسية والنخبة القيادية .

استخلص المؤلف : أولا - أن المجتمعات ذات الكثافة السكانية العالية والنمو السكانى المتزايد تتطلب نسبة مرتفعة من الخدمات الحكومية بشتى أنواعها مثل الخدمات الصحية والترفيهية والتعليمية وخلافه . وثانيا - التركيبات العمرية فى حد ذاتها تؤثر فى نوعية وتخصص الخدمات الحكومية اللازمة ، فمثلا ازدياد الاعمار فى سن الشباب يتطلب التوسع فى بناء المدارس وفى فرص العمل فى حين أن زيادة نسبة كبار السن فى السكان تتطلب التوسع فى برامج العلاج الطبى والضمان الاجتماعى وخلافه . ثالثا - يصاحب الزيادة السكانية عادة ازدياد حجم الهيئات التشريعية فى المجتمع وازدياد تعقيداتها وتحول العملية

بقانون الهجرة الصادر في ١٩٦٥ والسارى
المفعول حتى الآن .

وتطرق الى شرح برنامج المساعدة الامريكية
للدول النامية في تنظيم الاسرة وكيف انه بعد
تردد طويل توسعت الحكومة الامريكية في
هذا المضمون من طريق برامج المساعدات -
الخارجية وبرامج المساعدة لفرض التنمية منذ
منتصف الستينات . اشار ايضا الى نتائج
الدراسة التى قامت بها الهيئة المشكلة بأمر
من الرئيس السابق نيكسون في عام ١٩٧٥
لدراسة النمو السكاني ومستقبل أمريكا
واستعرض باختصار أهم النتائج التى توصلت
اليها اللجنة بعد دراسات مستفيضة لأكثر
من عامين والتى أثرت في المفهوم العام للمشاكل
السكانية .

وبمقارنة الولايات المتحدة والدول
الاوربية وجد ان اهتمام الدول الاوربية
يختلف من دولة الى أخرى حسب طبيعة
المشكلة السكانية في كل منها ومع ذلك فان
الخلاف الرئيسى بين التجربة الامريكية
والتجربة الاوربية هو حداثة فكرة السياسة
السكانية في الولايات المتحدة وتواجدها تاريخيا
في كثير من الدول الاوربية التى توصف بالمقارنة
بانها :

١ - تقبل مبدأ مسئولية الدولة في
تجميع البيانات وتنظيمها بل وفي التدخل لحل
كثير من المشكلات الاجتماعية بما فيها مشاكل
الهجرة وتوزيع السكان .

٢ - شهدت ظواهر سياسية كثيرة
مرتبة على تغيرات ديموجرافية مثل الحروب،
تصارع القوميات الاوربية ، انهيار النظام
الاقطاعي وخلافه .

٣ - تبنت حكوماتها في بعض الاوقات
مبادئ اقتصادية وفلسفية ذات محتوى
ضمني يفضل الزيادة في حجم السكان
Mercantilism .

ورغم وجود هذه الخلفية التاريخية
للمسألة السكانية في أوروبا فان الخطوات التى
ادت الى انخفاض الولادات في تلك القارة لم
تكن في الواقع ضمن سياسة سكانية وانما
تطورت تماما دون تدخل حكومات الدول
المعنية وجاءت استجابة لاصلاحات اجتماعية .
وحتى القوانين التى لها تأثير مباشر على الولادات
كالسماح بالإجهاض في الاتحاد السوفيتي
ودول أوروبا الشرقية التى اعقبت الحركة
الاشتراكية نشأت من مفهوم القوانين المتعلقة
بحماية حقوق المرأة وبرامج العدل الاجتماعي .

تبنت كثير من الدول النامية حديثا
مبادئ عامة يمكن وصفها بأنها تشكل سياسة
سكانية والفرض الواضح في خطط معظم
هذه البلدان هو تخفيض معدلات النمو
السكاني . في عام ١٩٧٤ - تبنت ٣٣ من الدول
النامية سياسة سكانية الفرض منها تخفيض
معدلات النمو في حين تبنت ٣٠ دولة أخرى
برامج تنظيم الاسرة لفرض تحسين المستوى
الصحي والاجتماعي وخلافه .

وفي هذا المضمار (برامج تنظيم الاسرة)
كان لكثير من المنظمات العالمية والمؤسسات
الخاصة ولبعض الحكومات الغربية كالولايات
المتحدة والسويد نشاط ملحوظ مما كان له
اثر واضح في انخفاض معدلات الولادة وخاصة
في بعض دول الشرق الاقصى كنياندا وتايوان
وكوريا والفلبين .

ومع ذلك فان بعض الانتقادات قد وجهت
لهذه البرامج على أنها تحاول ان تحل محل
برامج الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي والتى
هي في نظر الناقدين أهم بكثير في المدى البعيد
لسكان هذه الاقطار .

وفي اعتقاد المؤلف انه كلما ازدادت معرفتنا
عن الخصوبة والولادة وعلاقتها بالنواحي
الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فان درجة
كبيرة من الاستقرار في معدلات النمو السكاني
ستحدث تدريجيا عن طريق التحكم في الولادات

ولذا فإن الكتاب لم يأت بجديد من ناحية التحليل الديموجرافي البحث Formal Demography

أما من جهة ربط العوامل الديموجرافية بالتركيب الاجتماعي وأنماطه فلا شك أن المؤلف قد قدم محاولة لا بأس بها في إبراز تشعب ودقة هذه العلاقة . لذا فإن معالجته للموضوع من وجهة نظر سوسولوجية بحثية ولو أنها لم تفسح له المجال للاهتمام بوجهة نظر الفروع العلمية الأخرى عن طبيعة السكان ، إلا أنها اتاحت له التركيز على التركيب الاجتماعي بمضمونه الأوسع وبصورة منظمة ، وكذلك الرجوع إلى كثير من النظريات والنماذج العلمية من كل من فرعي الاجتماع والبيئة الإنسانية ، مما يجعل الكتاب أكثر تشويقاً لتخصصي فروع الاجتماع والانتروبولوجي عنها لتخصصي علم الديموجرافيا البحثية .

قدم المؤلف كتابه على أنه كتاب مدرسي الفرض منه إعطاء تحليل دقيق لنقط الالتقاء والتداخل ما بين العوامل السكانية والتركيب الاجتماعي . واتبع في تحليله ما أسماه بالمنهج الاستكشافي وليس المنهج الجامع ، أراد عن طريقه أن يثير كثيراً من الجدل بطرح الجديد من الأسئلة أكثر من محاولته حسم الأسئلة المطروحة والوصول إلى نتائج علمية ثابتة .

وفي هذا المضمون يمكن تحديد مجموعة من المشاكل والأسئلة العامة الرئيسية والتي يحس القارئ حتى بعد قراءة الكتاب بأنها مازالت بحاجة إلى توضيح . وفي اعتقادي ، وذلك هو الرأي السائد بين معظم دارسي علم السكان ، أن الإجابة عليها ستأتي فقط عن طريق الدراسات العلمية المستفيضة والبحوث الدقيقة ومنها الآتي : -

١ - مشكلة تحديد الارتباطات المتشعبة بين عوامل النظام الإيكولوجي وهي السكان ، البيئة ، التنظيم الاجتماعي والتكنولوجيا . رغم أن المؤلف أهتم أساساً بعامل السكان

سواء تم ذلك عن طريق سياسة سكانية محدودة أم لا .

ويختتم الموضوع بقوله إن اتباع سياسة سكانية واضحة من شأنه أن يساعد المجتمعات على سرعة وسهولة وصولها إلى مرحلة الاستقرار السكاني .

قبل توجيه اهتمامنا لمناقشة بعض آراء المؤلف أود أن أورد قليلاً من السلبيات وأغلبها يقع في نطاق التنظيم والعرض أكثر منها في مجال المعامات .

من الواضح أن الكتاب غني بالأفكار والنظريات العلمية المتعلقة بموضوع السكان . غير أن المؤلف قدم الكثير منها بطريقة الحشر ولم يعطها حقها من التفصيل . هذا بالإضافة إلى إحساس القارئ بأن المناقشة لم تتبع مستوى واحداً في كل الفصول ، فمثلاً يظهر المؤلف كثيراً من العمق ودقة التحليل في الجزء الثالث من الكتاب ، والذي في اعتقادي هو أقوى جزء فيه في حين تتصف بعض فصول الجزء الثاني بكثير من الملاحظات السطحية وبدائية التحليل .

إن اهتمام الكاتب موجه بصورة خاصة للسوق الأكاديمية الأمريكية لتوزيع الكتاب . لذا فإن كثيراً من تحليلاته انصبحت على الولايات المتحدة بالدات رغم أنه حاول بين الحين والآخر مقارنة الولايات المتحدة الأمريكية بالدول النامية .

كالعادة في كل الكتب المدرسية ، معظم المعلومات الإحصائية الواردة في الكتاب تتوقف عند فترة زمنية معينة ، حتى عام ١٩٧٥ . معظمها أيضاً متداول في كتب أخرى عن علم السكان أكثر استعمالاً وانتشاراً في جامعات الولايات المتحدة وأخص بالذكر كتاب William Peterson بعنوان السكان Population Dynamics و Ralph Thomlinson عن ديناميكية السكان Population Dynamics

والتنظيم الاجتماعي إلا أنه من المعروف أن لكل من عاملى البيئة والتكنولوجيا ضغوطها على طبيعة العلاقات المذكورة ، وفي الواقع مازال هناك كثير من الاختلاف بين مدارس علمى الاجتماع والبيئة حول أولوية أى من العوامل الداخلية في هذا النظام حيث يتجه كثير من التحليل الحديث الى إبراز أهمية عامل التكنولوجيا كعامل مؤثر .

٢ - رغم أن المؤلف ناقش الاستجابة الاقتصادية لنمو السكان في فصل منفرد فإن تحديد طبيعة العلاقة بين النمو السكاني والتقدم الاقتصادى لم تتوفر . ومازال هناك اختلاف بين مؤيدى الحل الديموجرافى لمسألة التخلف ومحبذى طريقة التنمية الاجتماعية والاقتصادية مع ظهور رأى ثالث منادٍ باعتبارهما سياستين متكاملتين في مرحلة النمو .

٣ - جدوى استعمال النماذج العلمية المبينة على تجارب الغرب والدول الصناعية في تفسير ظاهرة التحول الديموجرافى في الدول النامية حيث تمر هذه الدول بظروف تاريخية مختلفة وحيث التركيب الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والديموجرافى في هذه الدول أى الدول النامية يعطى لها أنماطا معينة .

٤ - الجدل القائم حاليا بين مؤيدى تحديد النسل والراغبين في إيقاف النسل تماما وامكانية اتباع كل منهما بل وشرعية كل منهما وخاصة على ضوء ومحاولة استعمال الطرق الاجبارية كما حدث في الهند اخيرا .

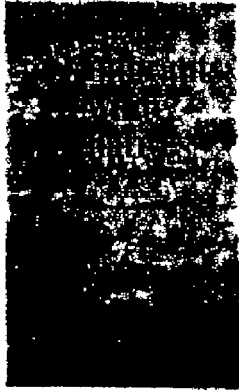
يتبع المؤلف الرأى القائل بأن المعدلات العالية للزيادة السكانية ، وخاصة اذا اقترنت بظاهرة الهجرة الداخلية او الخارجية تولد جوا من التنافس والصراع الداخلى في النظم الاجتماعية والسياسية ، وأن الحركة السكانية المرتفعة تؤثر في قيم المجتمع .

بالمقارنة نجد أن اهتمام الباحثين حاليا هو دراسة احتمالات توقف النمو السكاني

والوصول الى حالة الثبات السكاني Stationary Population في بعض الدول توقع الآثار المترتبة على تضخم قيمة الهرم السكاني وتحوله باتجاه كبار السن والشيخوخة من جمود للتنظيم والعلاقات الاجتماعية واحتمالات انطباعها بالتحفظ ، كذا تقلص الحراك السكاني والوظيفى بل وبعض أنشطة النظام الاقتصادى نفسه وبصفة خاصة الأنشطة الموجهة لمجابهة نمو السكان والاستجابة لاحتياجات ذوى الأعمار الصغيرة .

باختصار قدم الكتاب كثيرا من الوصف والتحليل لتأثير زيادة السكان على العلاقات الاجتماعية والسياسية والبيئية وخلافه ، ولكنه لم يتعرض لمناقشة تأثير الوصول الى معدلات نمو معادلة للصفر على طبيعة وتركيب مجتمع المستقبل ، هذا بالرغم من وجود كثير من الاهتمام العلمى بالموضوع . وليس من الواضح أن كان هذا الاغفال هو نوعا من التخلف العلمى أم أنه اختصار لما هو ممكن ادماجه عمليا في كتاب واحد أغلب الظن أنه الآخر . ومع ذلك كان يجدر بالمؤلف الإشارة البسيطة الى الاهتمامات الحالية خاصة في نطاق مناقشة تجربة الولايات المتحدة والدول الغربية الاخرى .

رغم الانتقادات التى أشرنا اليها فإنه مما لاشك فيه أن كتاب البروفيسور ماترس يعتبر خطوة هامة في طريق توسيع نطاق الدراسات السكانية من مضمونها التقليدى المهتم بالنواحي الكمية والاحصائية فقط ، الى مضمون تحليلي أشمل وخاصة في هذا التخصص الأكاديمي الذى يزداد فيه التراث العلمى بسرعة ملحوظة . رغم تخلفه الواضح في جامعاتنا العربية ليس فقط من الناحية الأكاديمية ولكن أيضا في البحث والتطبيق في منطقة من العالم يتوجب أن تجرى بها دراسات ديموجرافية مفصلة . وأخيرا ما أحوج المكتبة العربية الى الثراء محتوياتها القليلة في هذا التخصص العلمى عن طريق البحث والنشر والترجمة .



مهاجرون سُود ومواطنون بيض

عرض وتعليق الاستاذ عبدالله عبدالغنى غانم

بموضوع آخر هو العلاقات بين السلالات .
ووجهت أبحاث عديدة نحو دراسة علاقة
هؤلاء المهاجرين بالمواطنين البيض وذلك في
مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية
والاجتماعية .

وكتاب اليوم هو أحد هذه الكتب التي تعالج
العلاقات السلالية في مدينة نوتنجهام إحدى
المدن البريطانية . ومن الجدير بالذكر أن
الموضوع سبق أن تناوله وفي نفس المدينة
باحثون آخرون ومنهم اليزابيث بيرلى ،
وايراكينز نلسن وغيرهم .

يحظى موضوع الهجرة في الوقت الحاضر ،
وفي ظل مشكلات الانفجار السكاني ، باهتمام
متزايد من كثير من علماء الجغرافيا والسكان
والاجتماع والانثروبولوجيا والاقتصاد وغيرهم .

وقد حظى موضوع الهجرة في بريطانيا بقدر
أكبر من الاهتمام خاصة مع وجود مشكلة
اللونين من مهاجري دول الكومنولث الذين
يعيشون كأقليات وسط الاغلبية البيضاء من
المواطنين الاصليين باعتبارهم ينتمون الى
سلالات مختلفة عن ابناء البلاد . ومن ثم
ارتبطت دراسة موضوع الهجرة في بريطانيا

* Daniel Lawrance: Black Migrants : White Nations, Cambridge University Press, 1974.

ومؤلف كتاب اليوم هو دانييل لورانس
محاضر علم الاجتماع بجامعة نوتنجهام .
ويتألف الكتاب من ثمانية فصول بما فيها
المقدمة والخاتمة .

وفي المقدمة التي اعتبرها المؤلف فصلا
مستقلا نجده يذكر ان الباحثين الذين درسوا
العلاقات بين السلالات في نوتنجهام قد اختلفوا
بما بينهم ، فقد قال البعض بان مدينة
نوتنجهام لا تعكس اى صراع سلالى ، وان
العلاقات بين السلالات في هذه المدينة تتسم
بالوفاق والتسامح . بينما قال البعض الاخر
بوجود ازمة في العلاقات السلالية بين الملونين
من ناحية والمواطنين البيض من ناحية اخرى .
ومؤلف كتاب اليوم يوافق الراى الثانى ، ويرى
ان شهرة مدينة نوتنجهام بالوفاق والتجانس
بين السلالات قول لا يصمد كثيرا للنقد وان
القاتلين به اساءوا فهم العلاقات بين السلالات
في هذه المدينة ، وانهم اعتمدوا في قولهم بالوفاق
في العلاقات على عدم وجود معارضة منظمة
ضد الملونين في المدينة . ويعلق على هذا بأن
فهم العلاقات السلالية يقتضى ان نتعمق بعيدا
عن المظهر الخارجى . وان ما نعتقده وما كنا
نامله من الابحاث التى تناولت هذا الموضوع في
مدينة نوتنجهام هوان تقوم هذه الدراسات
بامطاء تقييم للدور الذى تلعبه العوامل الثقافية
والبنائية في علاقات السلالات وفي رؤية كل من
المواطنين البيض للمهاجرين والعكس .

كذلك هنالك حاجة لربط هذه الرؤية
بالظروف التى اتت بالمهاجرين الى بريطانيا .
لماذا تركوا بلادهم ؟ لماذا اتوا الى بريطانيا ؟
هل في نيتهم العودة الى مواطنهم الاصلية ؟
ولا بد من معرفة المكانة التى يحتلها المهجرون
في كل من مجال المسكن والتوظيف ، وان نقرر
ما هي الاسواق الممكن لهم ان ينافسوا فيها في
هذين المجالين سواء حاليا او مستقبلا . هذه
النقاط لابد ان تربط بسياسة التطور العام في
بريطانيا والسؤال الان هو : ماهي المشكلات

السياسية اليوم وكيف تؤثر او تصطدم بالعلاقات
السلالية ، فاذا اجبنا على هذه الاسئلة امكن ان
نجيب على التساؤل اذا ما كانت مدينة نوتنجهام
تحظى بعلاقات سلالية متوافقة ام لا .

ويذكر المؤلف ان فصول الكتاب توضح ان
غياب الصراع الظاهر لا يجب ان يختلط بحالة
التوافق السلالى المزعومة . وان هذا هو مانجده
في نوتنجهام حاليا . حيث ان عدم غياب الصراع
الظاهر والتوافق السلالى هو الذى اوجد
حالة من التفاؤل في غير موضعها .

ويضيف المؤلف : ان غياب الصراع الظاهر
في العلاقات السلالية لا يرجع الى سيادة
التسامح في هذه العلاقات بل انه يرجع الى
الطريقة التى يحدد على اساسها المهاجرون
وضعهم في البلاد كما ان عدم ظهور الصراع
يرجع ايضا الى مجموعة اتجاهات وظروف
عقوية (في مجالات الاستخدام او العمل
والاسكان) ، أدت الى تقليل التنافس المباشر
بين الاهالى والمهاجرين ومن ثم قللت من فرص
الصراع المكشوف ومع ذلك فان هذه الظروف
في سبيلها للتغير وذلك يزيد من احتمالات
المنافسة والصراع . ويقول انه بعد دراسة ذلك
كله يمكن الحكم على العلاقات السلالية بالمدينة .
ثم ينهى الفصل باستعراض تيار الهجرة نفسه
الى المدينة مؤكدا انه قد بدأ في الخمسينيات
بالنسبة لجزر الهند الغربية وان الهنود
والباكستانيين قد بدأوا الهجرة اليها في
الستينات ويوضح تعداد ١٩٦٦ (بالعينه)
انه حوالي ٨٥٠٠ نسمة ممن يعيشون بالمدينة
هاجروا اليها من دول الكومنولث ، وذلك بين
سكانها البالغ عددهم ٣٠٥ آلاف نسمة أغلبهم
من الجمائيكين ثم الهنود ثم الباكستانيين .

وبعالم المؤلف في الفصل الثاني بعض
الظروف التى اثرت في الطريقة التى ينظر بها
المهاجر الى وضعه بالمدينة . فيعالج اسباب قيام
المهاجر بالهجرة الى بريطانيا . ثم يعالج نقطة
لها تأثيرها في دراسة سلوك المهاجر بالمدينة

على السلوك الحالي لانه حتى لو لم يكن المهاجر يقوم بالادخار فعلا من أجل العودة فان هذا لا يعنى أن سلوكه واتجاهاته في مجالات أخرى غير متأثرة بمقصد العودة . وهنا يوضح ان كلام من الهنود والباكستانيين يرون أن بريطانيا مجتمع غريب عنهم وأنهم ليسوا راغبين في التمثل له . بعكس الجامايكيين . وليس معنى هذا أن الجامايكيين يشعرون بأنهم بريطانيين بل أن ٩٠ ٪ منهم أفادوا بأنهم يشعرون بعكس ذلك رغم تمثيلهم للمجتمع الانجليزي . وقد ثبت أن النسبة الغالبة من المهاجرين يرسلون معونات اقتصادية لذويهم بمواطنهم الاصلية . كما ثبت أن اصطحاب الزوجة الى منطقة المهجر أو الجذب ليس دليلا على نية الاستقرار الدائم بها إذ ثبت أن ٩٣ ٪ من مصطحبي زوجاتهم في بريطانيا من المهاجرين من الباكستانيين و ٨٩ ٪ من الهنود ينوون العودة لبلادهم . وعموما فان اعلان الرغبة في العودة كان أكثر وضوحا بين غير مصطحبي زوجاتهم وبجانب ذلك فان نية العودة لدى المهاجرين لعبت دورا هاما في مقابلة المهاجرين للظروف غير المرضية بنوع من التسامح . فحيث أنهم ينظرون للهجرة كشيء مؤقت فانهم يدخلون هذا في الاعتبار في الحكم على ما يواجهون من معاملة غير مرضية . اما عن النقطة الثالثة أى التوقعات والواقع فقد اجاب ٨٦ ٪ من الباحثين أنهم لم يجدوا بريطانيا كما كانوا يتوقعون ، فقد اوضحوا صعوبة حصولهم على العمل وكسب المال . والتفرقة العنصرية والاستقبال السيء للملونين والمستوى المنخفض معيشيا ، والاسكان الرديء وغيره .

وتناول المؤلف في الفصل الثالث مشكلة التعصب بين المواطنين الاصليين في نوتنجهام تجاه الملونين . فيتناول اهالى نوتنجهام انفسهم بالدراسة وبخاصة أولئك الذين يعيشون بالقرب من الملونين في المناطق الداخلية من المدينة ويوضح في الجزء الاول من هذا الفصل عدم القبول العام لدى الاهالى بالنسبة

وهي نظرة المهاجر الى هجرته وهل هلى هجرة دائمة ام مؤقتة وقد ثبت ان معظم من تناولهم البحث لا ينوون الاستقرار الدائم في بريطانيا . والنقطة الثالثة التى يعالجها في هذا الفصل هي مدى اتفاق ما وجدوه في بريطانيا بالمقارنة مع ماتوقعوه قبل هجرتهم اليها .

وباستعراض اسباب الهجرة التى ساقها المؤلف بالنسبة للجماعات الثلاث (جامايكيون ، هنود ، وباكستانيون) نجد ان اجراء عملية حسابية بسيطة على الجداول الموضحة لهذه النقطة توضح ان اسباب الهجرة تأخذ نفس الترتيب للجماعات الثلاثة . وهذه الاسباب هي : السبب الاقتصادى يليه الرغبة فى السفر واكتساب الخبرة ثم الرغبة فى التعلم أو مواصلة التعليم . ثم مجموعة رابعة وضعها المؤلف تحت عنوان (اسباب أخرى) .

ونجد أن اسباب اختيار بريطانيا كم منطقة مهجر هي الاسباب التالية (لأنها المكان الوحيد المتاح — مجرد الرغبة فى المجيء الى بريطانيا — وجود الأهل والأصدقاء بها . — أخرى) . واخيرا يوضح الباحث أن الهجرة عموما الى نوتنجهام هي هجرة اختيارية .

كما اوضحت المناقشة التفصيلية حول النظرة للهجرة وهل هي دائمة ام مؤقتة .

قال المؤلف أن هناك عددا كبيرا من الدراسات كلها توضح أن عددا كبيرا من المهاجرين الملونين الى بريطانيا لا ينوون الاستمرار في بريطانيا وهذه الحقيقة اوضحها كل من فيليبوت ، وشيلا باترسون وديفيدسون وغيرهم . وأن هذه الحقيقة قد اوضح بروكس بشأنها امرا هاما عندما قال : أن كثيرا من الذين يوضحون أنهم سيعودون لمواطنهم الاصلية لا يفعلون ذلك بالفعل ، ويعلق المؤلف بأنه من الافضل الانركز على هذه النقطة أى قصد الاستقرار أو العودة بالفعل وانما يجب أن نركز على أثر هذا القرار

وهو في هذا الفصل يحاول توضيح العلاقة بين الاسكان والعلاقات السلالية في نوتنجهام . فبالرغم من المشكلة السكانية الواضحة التي تعاني منها نوتنجهام ، فانه لم يظهر صراع واضح في مجال الاسكان . ولكن هذا مرجعه الى الظروف غير المتعمدة والاتجاهات العفوية ، وليس مرجعه وجود التسامح لدى السكان الاصليين في نوتنجهام في مجال الاسكان .

ويوضح المؤلف ان قيام ازمة الاسكان وتقص المسكن يخلق خصومة وعدا بين السود والبيض ، وهو امر يعتمد على عدة عوامل من أهمها مدى التبرم الذي يشعر به أولئك الذين يعيشون في ظروف اسكانية سيئة وهم الان كما يبدو غير متبرمين بهذه الظروف وان كانوا ليسوا جميعا بالطبع مشتركين في عدم التبرم بها .

وفي هذا الفصل يقوم الباحث بوصف المساكن الخاصة بالملونين موضحا اختلافها عن مساكن ابناء نوتنجهام من حيث ما تتمتع به من تجهيزات كالماء الساخن وغيرها . ويعلق بانه وحتى الان فان الملايين من البريطانيين عموما يعانون من ازمة اسكان حادة اذ لا زال حوالي ٢ مليون يعيشون بمساكن تنقصها الضرورات مثل ، الحمامات ، كما لا زال البعض يعيش بدون مساكن بالمرة - كما لا زال مليوناً نسمة يعيشون في مناطق متخلفة . وجوهر مشكلة الاسكان في نوتنجهام ليس انعدام المساكن . بل هو نوع هذه المساكن . فالأف الاسر لا زالت تعيش دون المستوى اللائق . ولكن حيث لا يوجد تعريف متفق عليه للاسكان غير اللائق فان المرء لا يستطيع تحديد من يعانون منه . ولكن ، على العموم ، فان نوتنجهام تعاني فعلاً من ازمة اسكان بالمعنى النوعي ، واغلب المهاجرين الملونين بها يعيشون في هذه الازمة .

للملونين . ويتعرض للدراسة التي قام بها ابراهام على عينة من ٢٥٠٠ حالة في خمس مدن من بينها مدينة نوتنجهام نفسها والتي تناول فيها ابراهام موضوع التعصب . وينتقد المؤلف الاساس الذي وضعه ابراهام في دراسته هذا لتعريف التعصب حيث قال ابراهام ان التعصب كلمة تستخدم فقط لتدل على الاتجاهات العدوانية التي ترجع الى عمليات تقع داخل حامل الاتجاهات العدوانية نفسه . ويعلق المؤلف بأن هذا التعريف لا يميز بين الاتجاهات الناجمة عن مصادر واسباب مختلفة وهنا يرى المؤلف ان المقياس الذي وضعه نيكولاس ديكنين وصنف على اساسه مرقف الباحثين (عندما درس التعصب للجنس) الى اربعة اقسام - شديدو التعصب - متعصبون - متوسطو التعصب - غير متعصبين يرى ان هذا المقياس أفضل من تصنيف ابراهام الذي كان تصنيفه للأفراد هو (متعصبون - ميالون للتعصب - متسامحون - واخيراً ميالون للتسامح) حيث يرى المؤلف أن عدم وجود العداء لا يعنى بالضرورة وجود التسامح مثلاً . ويضيف المؤلف انه ليس هناك داع للقول بأن مقولة التعصب هي المحدد الرئيسي او الوحيد للعلاقات السلالية، فهناك القوانين التي تنظم الهجرة والتي تحرم التفرقة العنصرية وغيرها . ويقرر المؤلف هنا أن اغلب الاهالي في نوتنجهام من البيض يعتبرون الملونين قوماً مختلفين عنهم وانهم اقل منهم ، ولا يجب ان يتساوا معهم .

ويعالج الفصل الرابع الاسكان والعلاقات السلالية ، فيشير الى ان ازمة الاسكان في نوتنجهام ترجع الى القرن الثامن عشر ، قد بدأ الانفجار السكاني منذ ذلك التاريخ مع التطور الصناعي السريع ويتابع المؤلف التطور في تعداد السكان بالمدينة منذ ذلك التاريخ حتى الان .

يواجه التفرقة العنصرية عند محاولته السكنى أو الحصول على مسكن في الضواحي . كما أن المناطق الداخلية قد شغلت شوارعها بسكان من مناطق البيض ثابتين نسبيا وهنا فإن المهاجرين لديهم خيار ضئيل في أن يصبحوا أما مؤجرين من ملاك أفراد أو من مؤجرين آخرين . ومركز المهاجرين السيء في سوق الإسكان لا يجلب عليه عطف السكان الأصليين من البيض بل أنه بالإضافة الى العداء الناجم عن العوامل الثقافية والشخصية فإنه ينظر الى المهاجرين باعتباره شخصا يعمل على اكتظاظ المسكن ، ويقوم بتخريب البيوت التي يسكنها ، ومركزه هذا في سوق الإسكان يحدد مركزه في نظر الاهالي البيض . ويوضح المؤلف رفضه للقول بأن سكان إنجلترا يتنافسون من أجل السكنى في الضواحي . كما يوضح أن البحث الميداني قد أوضح أنه لا يوجد تنافس بين المهاجرين والاهالي على الإسكان إلا أنه أوضح قوله للتصنيف الطبقي في مجال الإسكان الذي ساقه كل من ريكس ومور ولكنه أضاف اليه طبقتين أخريين لتصبح الطبقات السكانية عنده تسع طبقات وقد تابع المؤلف هذه الطبقات وتوزيعها مقارنا موضحا فيها بين المهاجرين والسكان الأصليين في نوتنجهام . كما استعرض الصعوبات التي يواجهها المهاجرون في مجالات الإسكان ، موضحا أنهم يواجهون صعوبة إمكانية الحصول على مسكن في المناطق الراقية ، ولا يمكنهم الشراء فيها . وأنهم يدفعون سعر فائدة عالية - أو أن الثمن الذي يطلب منهم يبالغ فيه عادة بسبب اللون وضيق السوق أمامهم . أو يطلب منهم تأمين عال جدا . . الخ . كما أنهم لا يحصلون على أية مساكن من المساكن المملوكة للدولة . وقد أوضح أن ٤١٪ من العائلات المهاجرة التي تركت مسكنها في مناطق مختلفة قد تحركوا الى مناطق مختلفة أيضا . ويقول أن سبب ذلك هو مواطنهم الأصلية ، ومن ثم فإن التكلفة

ويوضح المؤلف أن علاقات السلالات تتأثر بوضع الإسكان وأن تحليله لهذه النقطة قد بناه على التحليل الذي قدمه rex & moor اللذان أوضحا أن العلاقات الاجتماعية في المجتمعات الصناعية تتحدد بنمط الصراع في المصالح رغم عدم اعتبارهما أن الصراع على الإسكان هو انعكاس لصراع الطبقات في الصناعة . فقد لاحظا وجود اختلاف كبير في تسهيلات الدخول في مجالات الإسكان بالنسبة للمشتريين في نفس العلاقة في مجال ملكية ادوات الإنتاج (الطبقة) وهما هنا يتابعان ماكس فيبر عندما يقول (أن الصراع الطبقي يميل للظهور عندما تسمح حالة السوق السائدة بمداخل مختلفة للملك وهنا يظهر الصراع الطبقي ليس فقط بالنسبة لوسائل الإنتاج الصناعي ولكن بالنسبة للملكية العائلية أيضا) ، والقول بأن أكثر من مبدأ من مبادئ السوق يعمل في عملية توزيع الإسكان في بريطانيا لا يقتضي أكثر من تغير طفيف في نظرية فيبر بالنسبة للنظام البيروقراطي لتوزيع المساكن لكي نصل الى فكرة الإسكان الطبقي ، وهي فكرة هامة جدا في تحليل البناء والعملية الحضرية ، وأن العملية الأساسية التي تدعم التفاعل الاجتماعي الحضري - كما يقول ريكس ومور هي التنافس من أجل البيوت النادرة في الضواحي وعلى أساس من عمومية هذه الرغبة في الحصول على هذه البيوت وعلى أساس من ندرتها والاستقلال النسبي للصراع الطبقي من أجل المسكن عن الصراع الطبقي الصناعي فإن ريكس ومور قالوا أنه من المفيد أن تميز الطبقات السكانية التالية وقدا سبع طبقات عن السكان طبقا لنوع المسكن ونوع علاقتهم به مثلا (ملاك في مناطق مرغوبة ملاك ملكية جزئية بمناطق مرغوبة - مستأجرون لمساكن المجالس المحلية - . . . الخ) . وكل مجموعة من هذه المجموعات السبع تمثل طبقة مختلفة عن غيرها . وتختلف حالة السكان المهاجرين عن السكان الأصليين في مجال الإسكان فهو

الإضافية في مسكن أفضل لا تبدو استثمارا معقولا لاموالهم من وجهة نظرهم وعموما ورغم هذه الظروف كلها فان الاسكان لا يمثل مثارا لصراع بين السلالات .. أو على الأقل لم يؤد الى صراع ظاهر بينها . فالنسبة المتبرمة من ساكنيها من الملونين قليلة . ولم يثبت أن هناك تنافسا على المساكن النادرة الغالية . كما أن بعض البيض في صراع على المساكن في المناطق التي يسكنها المائونون أنفسهم وفيما بينهم .

وناقش المؤلف في الفصل الخامس العلاقات السلالية والتوظيف - فيقول ان اغلب مهاجري الكومنولث يقيمون في مناطق ذات طلب على عنصر العمل ويقل اقامة الملونين في المناطق التي يكون فيها الطلب على عنصر العمل خفيفا أو متوسطا ، وهم عموما يحلون في مجال العمل محل البيض في المناطق التي لم تنجح في جذب عدد كاف من البيض . ويستعرض المؤلف التاريخ الصناعي والخدمي لمدينة نوتنجهام موضحا كيف أصبحت تشتري الآن بالصناعات الرأسمالية في مجال التصدير والمجال المحلي ، وأن النسبة الغالبة من المهاجرين قد جاءت اصلا للبحث عن عمل ، وأن البحث الميداني قد اوضح أن هناك ٣٪ فقط منهم عاطلون حاليا - ثم قام الباحث بمتابعة توزيع المجموعات السلالية على مختلف الصناعات ويوضح أن ثمة زيادة في عدد العمال غير المهرة بن المهاجرين عنها بين البيض . وأنهم ، أي المهاجرين ، يعملون بأعمال غير مرضية وغير جذابة عموما للبيض . وعموما فان فجوة التوظيف بين الملونين وبين البيض فجوة واضحة . ولم تشكل هجرة الملونين الى المدينة أى خطر على الاهالي البيض من الناحية الاقتصادية ، فالعمل متوفر للجميع ولا يشغل المائونون من الوظائف ، أو الاعمال عموما ، الا مالا يقبله البيض . ومن ثم لم يشكل مجال العمل مثارا للنزاع السلالي .

ويقرر المؤلف أن كثيرا من الاعمال لا زالت تميز بين الملونين وبين غيرهم من القوى العاملة وأن ٦٧٪ من المبحوثين البيض قالوا بوجوب اعطاء البيض اولوية في مجال العمل . وأن أهم اسباب عدم رضى الملونين عن اعمالهم هو التفرقة التي يلاقونها فيه بل ذلك احساسهم بإمكانية اداء أفضل مما يقومون به بينما أن المهاجرين ليس لديهم نفس الفرصة للحصول على العمل بنفس المؤهلات التي لدى الانجليزى الابيض وذلك بسبب اللون . بينما قالت نسبة ٤٢٪ من العينة للبيض بوجود التفرقة بين السلالات في مجالات العمل والتوظيف .

وناقش المؤلف في الفصل السادس السياسة والعلاقات السلالية - فيناقش السلوك السياسي والبدائل السياسية المتاحة أمام الملونين ، موضحا أن كثيرا من أولئك الذين صوتوا منهم في الانتخاب العام لم يفعلوا ذلك بحماسة تذكر وأنهم انما فعلوا ذلك بسبب انه لا يوجد أى بديل امامهم . ذلك أن الملونين لا يعتقدون أن أى من الحزبين الرئيسيين (محافظين وعمال) يختلف عن الآخر ولا يختلف الامر بالنسبة لهم أن يفوز أى منهما ، ذلك أنهم اذا كانوا قد صوتوا لصالح المحافظين في الانتخابات الأخيرة فقد فشل المحافظون في الحصول على تأييد كاف لدخول السوق الاوربية والحقيقة أن الخطوات التي اتخذتها الحكومة أخيرا فى مجالات الدخول والاسعار لم ترض الناخبين عموما . كما أن القرارات التي اتخذها كلا الحزبين بصدد الهجرة والمهاجرين لم تقابل بالرضى من كل من المهاجرين أنفسهم ، وكذا من المواطنين البيض ، وهذه النظرة تنطبق على قوانين الهجرة التي صدرت في اعوام ١٩٦٢ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧١ . إذ ينظر المائونون الى هذه القوانين على انها تؤكد

الكثير من أجل تحسين العلاقات السلالية بالفعل . والسبب الثالث هو ما ذهب اليه كيتز نلسن من أن هذه اللجنة قد لعبت دورا دقيقا في علاقات بناء المدينة السلالية ، ويرى المؤلف أن هؤلاء قد غالوا في أهمية هذه اللجنة ويقول أن ما قدمته لم يؤد الا قليلا من المزج في العلاقات السلالية في هذه المدينة وأن الاهتمام الكبير الذي أحيطت به أكبر بكثير من دورها الحقيقي . وليس معنى هذا أنها لم تقم بعمل شيء مفيد ، الا ان الغالبية الساحقة من الملونين ، وكذا النمط العام للعلاقات السلالية لم يتأثر بمجهودات هذه اللجنة الا في القليل النادر . ويستعرض المؤلف في هذا الفصل دراسة كيتز نلسن لأعمال هذه اللجنة وتاريخها وتطورها . كما يستعرض موقف المهاجرين منها قائلا انها لا تحظى بحماس الكثيرين منهم ، خاصة الباكستانيين والسود .

واخيرا يستعرض المؤلف في الفصل الثامن وهو الخاتمة ما انتهى اليه من نتائج ومحددات المهاجرين في مجموعهم يشعرون بانهم غرباء وإن أغلبهم لم يأت للاستقرار الدائم بل للعمل ثم العودة لبلده ، ومستعرضا ملخصا سريعا لنتائج الفصول السابقة ، وموقف المهاجرين في مجالات الاسكان والتوظيف وغيره مما سبق مرصه تفصيليا .

ومع ان الموضوع الذي يتناوله المؤلف هو الهجرة الا أنه يركز على المهاجرين أنفسهم بقدر ما ركز على علاقاتهم بالمواطنين الاصليين ، وقد اعطى المؤلف صورة كاملة عن هذه العلاقة بالفعل الا ان الكتاب لم يظهر العلاقات بين مجموعات المهاجرين من دول الهند وباكستان وجمايكا ، إذ لم يركز المؤلف على العلاقة بين كل جماعة من هذه الجماعات وغيرها من الجماعات ، ولا شك ان هذه نقطة كانت جديرة بالبحث خاصة اننا سبق ان

التمايز بين السلالات وذلك بالنسبة لقوانين ١٩٦٨ ، ١٩٧١ ، وانها تحقر من شأنهم . بينما أدت القوانين التي قدمتها حكومة العمال في ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ الى تهميج هذا الشعور (وقد لا حظ المؤلف أن أغلب المبحوثين لا يعرفون أن قوانين وتشريعات منع التفرقة العنصرية قد ظلت باقية) وعموما فقد نظر الملونون الى قوانين ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، ومابها من ضعف على انها تعكس تدلب حزب العمال . كما نظر اليها الكثيرون من البيض على انها تعمل على وضع الملونين في مركز ممتاز . ويقرر المؤلف في النهاية أن مختلف المحاولات التي بذلت في سبيل تحسين العلاقات السلالية لم تنجح بسبب عدم وجود القوة التي تساند القوانين التي تصدر في هذا الشأن وأن المبحوثين من الاهالي أى المواطنين البيض - أو من المهاجرين الملونين لا يشعرون بأن النظام الحزبي الحالي يقدم من الوسائل والطرق وما يحقق مصالحهم . ويشير المهاجرون هنا الى أنه لا يوجد في المجالس المحلية أى هندي أو باكستاني أو جمايكي .

ويعالج المؤلف في الفصل السابع (المنظمات وعلاقات السلالات) موضحا أنه يوجد الكثير من المنظمات المهتمة بعلاقات السلالات في مدينة نوتنجهام سواء من الاشخاص او الهيئات الرسمية . فثمة ١٤ منظمة رسمية تهتم بالعلاقات السلالية في نوتنجهام تشرف عليها جهات عدة مثل الصليب الاحمر البريطاني والكتب الاسقفى للشئون الاخلاقية وغيرهما ، وقد ركز المؤلف في هذا الفصل فقط على اللجنة الوطنية الاستشارية للكمونوت وما تربط به من علاقات بغيرها من المنظمات، مبررا ذلك بأنها اللجنة الوحيدة الرسمية في نوتنجهام التي تتلقى المساعدات المالية ، وانها المسئولة مسئولية مباشرة عن تحسين العلاقات السلالية. والسبب الثاني هو مذهب اليه الكثيرون من أن هذه اللجنة قد قدمت

وغير مقصودة في مجالات العمل والاسكان . ولا شك ان العلاقات الداخلية بين افراد كل جماعة كانت ستشكل اساسا تفسيريا هاما لهذا كله . . . أو على الأقل أحد الاسس التفسيرية له .

ولعل عدم متابعة العلاقات الداخلية بالتحليل ترجع الى اعتماد المؤلف على المنهج السوسيولوجي كلية ، المتمثل في الاعتماد على الاستمارة واستخدام المقابلة على عينة محددة (٣٠٠ حالة) من مجموع سكان المدينة من البيض ومهاجري الكومنولث الملونين مع استخدام الاسئلة المغلقة .

وعلى أية حاله فان الكتاب يتعرض لموضوع امتدت اليه يد البحث مرات عديدة في المجتمع البريطاني وهو العلاقات السلالية بين الاهالي الملونين من المهاجرين ، وقد حصر نفسه تماما في هذه النقطة مما جعل من الكتاب صورة واضحة عن هذه العلاقات دون أن يمس بعمق الصورة التي يعيش عليها المهاجرون انفسهم او المواطنون البيض انفسهم .

اوضحنا ان العلاقات السلالية هي النقطة الاساسية في هذا الكتاب . كما ان المؤلف لم يتناول بالدراسة العلاقات الداخلية بين افراد كل جماعة من هذه الجماعات المهاجرة رغم انه ذكر في المقدمة ان فهم العلاقات تلعبه العوامل الثقافية والبنائية في هذه العلاقات في الرؤية المتبادلة بين المهاجرين الملونين من جانب الاهالي من جانب آخر . ولا شك ان عدم اهتمام المؤلف بالعلاقات الداخلية بين مهاجري كل جماعة من الجماعات المهاجرة قد عمل على غياب عنصر بالغ الأهمية في تفسير عدد كبير من النقاط والنتائج التي توصل اليها الباحث ، والتي لم يقدم تفسيراً كافياً لها ، مثل قوله بان الملونين لا يتبرمون بظروف السكن السيئة التي يعيشونها . وقوله بان الملونين عموماً غير متحمسين للتنظيمات السياسية ولا للمنظمات الخاصة بالعلاقات السلالية ، وقوله بان الجمائيين قد تمثلوا نسبياً للمجتمع البريطاني بينما لم يتمثل الباكستانيون والهنود . وقوله بان غياب الصراع الظاهر في العلاقات السلالية يرجع الى مجموعة اتجاهات وظروف عفوية



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الاعداد القادمة

Abelson, Raziol, "Persons. A Study in Philosophical Psychology," The Macmillan Press Ltd., 1977.

Greeley, Andrew M., "Ecstasy. A Way of Knowing," Prentice-Hall, Inc. 1974.

Jacob, François, "The Logic of Living Systems. A History of Heredity,"
Translated by Betty E. Spillmann, Allen Lane, 1970.

Milunsky, Aubrey, "Know your Genes", Houghton Mifflin Company, Boston, 1977.

Milunsky, Aubrey, "Know your Genes", Houghton Mifflin Company, Boston, 1977.

Whitby, M. C., Robins, D.L.J., Tansey, A.W., and Willis, K.G., " Rural Resource Development," Methuen & Co Ltd., 1974.

★ ★ ★

العدد التالي من المجلة

العدد الثالث - المجلد التاسع

أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر

قسم خاص عن

العلم والتكنولوجيا

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

التمت
٢٥٠
فلساً

الخليج العربي	٥	ريالات	٥	سوريا	٣	ريالات
السعودية	٥	ريالات	٥	القاهرة	٢٥٠	ملياً
البحرين	٤٠٠	فلس	٤٠٠	السودان	٢٥٠	ملياً
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	٣٥	ليبيا	٣٥	قرشا
اليمن الشمالية	٤٠٥	ريالات	٤٠٠	مسقط	٤٠٠	باية
العراق	٣٠٠	فلس	٥	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢٠٥	ليرة	٥٠٠	تونس	٥٠٠	ماهم
الأردن	٢٥٠	فلساً	٥	المغرب	٥	درهم

الاشتراكات :

للإشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت